عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابْ

رِوَايَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ تَارِيخِيَّةٌ

في اربعة اجزاء تصف حياة العرب الاجتماعية
والسياسية وكفاحهم في سبيل حرية الشام والعراق من زمن
محمد سيد قريش الى زمن امير المؤمنين عمر بن الخطاب

تاليف

معروف الارناؤوط

عضو المجمع العلمي العربي

الجزء الثاني

فرسان سيد قريش

دمشق : مطبعة ابن العرب

عمر بن الخطاب

رواية اجتماعية تاريخية

في اربعة اجزاء تصف حيـــاة العرب الاجتماعية
والسياسية وكفاحهم في سبيل حرية الشام والعراق من زمن
محمد سيد قريش الى زمن امير المؤمنين عمر بن الخطاب

تاليف
معروف الارناؤوط
عضو المجمع العلمي العربي

الجزء الثاني

فرسان سيد قريش

دمشق : مطبعة فتى العرب

الفصل الاول

راهب فاران

اذا قدر للمسافر ان يبلغ في اسفاره سيناء ، ويجتاز وادي المناجاة ثم خلفه وراءه بدت له عن بعد مسارب وادي فاران فاذا اوغل في هذه المسارب الضاج الوادي امامه واصحر ، وشق طريقه غربا الى مغـــائر واعرة ، وكهوف غائرة ، تزلق الى شواطىء البحر الاحمر ، فاذا طوف عينيه في تلك الارجاء اخذته ظلال جبـــل سربال (١) ولاحت له شعفه الرفيعـــة ، ورباعه المنيعة ، فاذا وطىء اعلى الجبل وامتد نظره الى الابعاد الشاسعة ، والاطراف الواسعة ، اجتمع اليه شبه الجزيرة كله فرأى الى الجنوب الشرقي بواذخ الجبــــل المقدس ، وخليج السويس ، وابصر في نواحي الغرب سماطاً طويلا من حجارة بلون اللؤلؤ ، كأنها عقود من الزهر ؛ او كأنها سراب رجراج ، ثم ابصر اقصى الشمال سادراً في الأفق الغائم ورأى بعض السماء تحجبه شواهق جبل سربال ، بينما صحراء التيه تتراءى لعينيه في الشمال كأنها بحر زاخر تلطم شطآنه الفيحاء امواج من الحزون والنجود والاودية ، ثم تلوح له في السفوح الهاوية شامة خضراء من نخيل فاران ، فاذا انقلب الى الوادي وعرس في حافته ابصر عند مدخله هضبة شماء من حجارة سمراء ، ترقرق عليها لمع السراب

---

(١) جبل سربال اشهر جبال سيناء بعد جبل موسى ، يقع الى الشمال من مدينة الطور والغرب من جبل موسى على نحو ثلاثين ميلا من كل منهما وهو يطل على مدينة الطور ويحجبه عن جبل موسى الجبل الاحمر ، وله خمس قمم تمثل تاجا عظيما في شكل نصف دائرة ارتفاع اعلاها نحو ٦٧٣٠ قدما عن سطح البحر ونحو ٤٠٠٠ عن وادي فاران في سفحه الثاني وهو في رأي بعض المحققين جبل حوريب وجبل سيناء اللذين جاء ذكرهما في التوراة

وخطفه ، فاذا ارتد الى شماله بدت له ذرى جبل البنات وقد امعنت في الافق كابية شاحبة ، كأنها قطع الليل المديد ، وقد يروق المسافر ان يطيل تأملاته في هذه الروابي الفيح ، فيتراءى له جبل سربال في كل ناحية ، وعند كل منعطف ، فلا تكاد تواريه ثنية من الصخر الواعر ، حتى يظهر على مثال جديد ساحر ، وقد اوشك ان يزحم الفضاء في انبساط اطرافه . وامتداد شعافه ، وتبسق جنباته ، وتكاثف طرقاته

فاذا اطفلت الشمس ، وضوأت غواربها الجبل ومساربه ، واوديته الهاوية الى شواطىء البحر الاحمر ضربت الوانه الى الصحرة وخيل الى المسافر انه يرى الى جنة من العقيق والجمان . فاذا صرح النهار ولألأت ذكاء تلظت جنباته بدفء الحياة فالق الى الاشعة والبروق بروابيه وذرواته وانقلب مزهواً بحمرته وصفرته . ودل الناس على ان رواءه في متوع الصباح ، صورة روائه في متوع المساء

تعاورت جبل سربال الصحارى ، ورمته بالجيج من الرمل ، وزأرت الريح في صروده ونجوده ، وصرت العاصفة في هضابه وشعابه فما راعه الزئير . ولا امماله الصرير ، بل ظل مستبقياً الوانه وتحاسينه ، اما شعافه الخمس فما زالت تزخر بالروائع الفواتن . فاذا نظر المسافر اليها من اضلاع جبل الطاحون ، توهمها اكثر من عشرين شعفة كانما قد فصلت بينها فجوات سحيقه . وهوات عميقة . فهي في شموخها كطائفة من البروج رست قواعدها على الشواهق ، وترقرقت خيالاتها وظلالها على الجلامد ثم اخذت ترسم اغرب الصور ، واروع المشاهد . ثم جعلت تستفيض وتتسع كانها كفن يمده الليل الساجي على عزلاته ووحداته !

فاذا جنب المسافر عينيه النظر الى هذه القنن والقلل ، واستأنف طوافه بوادي فاران ضحكت له عن بعد واحة الحسوة الصغيرة ، بين صخور واعرة موحشة فلا يلبث ان يتدلف اليها ، فتحتويه بطحاؤها الريا ويظله نخيلها الباسق ، ويطفيء حر نفسه ماؤها السلسبيل فلا يشعر بجهد السياحة ، ولا يمل الصعود والهبوط ، ثم يمضي في طريقه فاذا اوغل اتسع الوادي امامه واستفاض وترامت في وسطه رابية

المحرد وطولها خمسون ذراعا ، تغمر اطرافها اطلال من صنع عرب الشمال النبطيين فاذا تلفت شمالا ابصر جبل الطاحون وقد ترقرقت على سفوحه تحت بريق الشمس خيالات المناسك والصوامع ، فاذا تلفت يمينا بدت له ذرى جبل سربال . ثم هو يدأب في سيره حتى اذا انتهى به مطـــافه الى اقصى الوادي غير بعيد من الرابية ، اخذت عينيه خيالة الارض الكاسية العاشبة بين هذه الجبال الحمراء وبهرته احراج متشابكة من نخيل واعناب . فحدق في الافق الساطع ، ثم حدق في الزهر اليانع ، واقبل بروحه وحسه على تلك الارض الفيحاء ، فاذا هي فاران لؤلؤة سينـاء ، فاذا وطيء اديمها العاطر ، ولذه مشهدها الساحر ، وضع يده على صدره الهادر فدله على احساس النبي الشاعر !

ثم يزدلف اليها ويستعرض المشاهد البارعة عن كثب فلا يستطيع عزوفا عنها بل يود لو انه يطيل مكثه حيالها وحينما تهاوى الشمس الى شواطيء البحر الاحمر يترفق في سيره ويتئد مخافة ان يفوته رواء الطريق ، فاذا استأنف طوافه في الواحة الظليلة النامية المتسدرة بغلالتها الخضلة استوقفته القبور الدوارس والطلول البلاقع والمنـــاسك المهجورة منثورة العقد على الحدور واليفوع واخذت يده تتجسس الكتابات المحفورة على البرفير والمرمر فيذهله ان يقرأ على النقوش في تلك النواحي المنعزلة عن ضجيج العالم اسماء اولئك الذين عمروا سيناء في ماضيـــات الايام واترعوها بالمعابد والصوامع والصروح . وحينما يقرأ اسم الحارث العربي صاحب دمشق الى جانب اسم فرعون صاحب مصر يحس في نفسه نشوة كبر واعتزاز ويعجب بهذه القبيلة العربية التي روضت جماح الصحراء لتبني على حواشيها المدن وتفجر في بطحائها الماء

فاذا اعتزل المسافر الوادي وتابع سيره في المنحدر الاوهد على مسـافة ثلاثين ذراعا من وادي عليات ابصر كثيباً من الصلصال كان في العصور المواضي بحيرة ذات اثباج فلما طغت الشآ'ل العاتية على الجبال ، وبددت اصلادها واذرت جلامدها

تناثر القار والكلس على البحيرة فانقلبت الى كثيب من الصلصال ، ولا تلبث المخاضر بعد هذا الكثيب ان تتوارى وتضمحل ، فما يبين لها اثر لا في السماء ولا في الغبراء ويشعر المسافر وقد خلف وراءه الارض العارشة بيأس شديد فيلتفت الى الواحة الظليلة النامية ويصيح : وداعا ، وداعا والى الابد ايتها الارض الضاحكة ، التي انسانا ظلها الماتع وافقها الساطع حاضراً نعيش فيه !

* * *

يعيش مالك الكندي راهب بصرى القديم في واحة فاران عيشة الذين روعتهم حياة المدن فصدفوا عنها ليفتشوا عن الصفاء والطلاقة والمرح والحرية في النواحي البعيدة ولا يجهل مالكا احد من كل هؤلآء الاعاريب الذين الفوا السياحة بين خليج ايلة وقفار سيناء فهو الصديق المعزي اذا ما احتاج الاعاريب الى الصداقة والعزاء ، وهو الدليل الهادي اذا ضلت القوافل وامعن رجالها في التيه ، وهو الطبيب البارع اذا اجتاحت الامراض البوادي وروعت سكانها العائشين تحت الخيام ، ثم هو الى جانب هذا كله ذلك الرجل الذي عرفته بصرى ودمشق قبل ان تعرفه سيناء .

وقد كان مالك الكندي عليما باخبار العرب فليس يفوته من ماضي هذه الامة التي اختارها الله للعمل الرائع الخالب يسير اوكثير ، وكان علمه باليسير والكثير من اخبار العرب باعثا لسراة البادية على اللياذ بمنسكه والاصغاء الى احاديثه عن رجال الماضي ، اولئك الرجال الذين وارتهم سدفة الموت من غير ان توارى شهرة طائرة خلصت اليهم من حياة حبسوها على المجد والشعر والحب ، وحينما كانت القوافل الصادرة عن جزيرة العرب تحط رحالها في وادي فاران ، لتستريح من جهد السياحة ثم تستأنف اسفارها الى مصر كان مالك يفتح ابواب منسكه الصغير امام غطاريف البادية وزعماء تبوك ودومة الجندل واسياد ايلة وسلع ، وبين هؤلآء الاثرياء الشرفاء فحول من قريش ومغاوير من ابناء عبد شمس فيسأله هؤلآء جميعاً ان يسمرهم في النهار القائظ ، او في الليل الصارد فلا يمتنع عن المسامرة ، فاذا اوغل

في اقاصيصه ذهب بهم الى الماضي وتحدث اليهم عن امريء القيس بن حجر واسمعهم قصص حبه في بلاد الروم ، او انتقل بهم الى قصص عنترة وطرفة والنابغة ، فاذا ملت نفوسهم احاديث الملاحم والمعارك تحدث اليهم عن الحب والشعر فتستريح نفوسهم الى البيان المهذب والادب الصحيح، ثم يسألون الراهب مضياً في اقاصيصه فلا يمنعهم ما سألوه اياه ويتحدث اليهم عن ملاحم الفرس والروم ويزهدهم في حاضر يعيشون فيه ، ويحبب الى نفوسهم مستقبلا لا يعلمون خوافيه ، ثم لا يلبث هـذا الذي قصه عليهم من احاديث المجد والحماسة ان يلهب نفوسهم ويفتح ابصـارهم ويوسع احلامهم واطماحهم ، ثم اذا هم يتطلعون الى ميراث الفرس والرومان من هذه الارض ، وهو ميراثهم من عصور متفاوتة ، وقرون مختلفة

وقد كان الكهـان القدماء في العرب ، قد اخبروا ان نبياً يخرج من الصحراء العارية الى الشام والعراق ليرث الرومان والفرس، فخمست احاديثهم شيوخ القبائل والهبت حمية الشباب ، ولكن اولئك الكهان الذين كانت لهم في بلاد العرب مكانة الانبياء في بني اسرائيل لم تمتد بهم الحياة ليروا ذلك النور الاسمى الذي دلوا على انبعاثه في صخور مكة فوارتهم غشية الموت عن عيون مواطنيهم ، وظلت صورة النبي في صدورهم وخواطرهم ، وطفق شبابهم وشيبهم يسألون عنه ، ثم تتالت الليالي وتعاقبت النهارات ، وتبدلت الحياة ؛ ثم تبدل الناس ، فاوشك الذين ظلوا احياء من الجيل الماضي ان ينسوا احاديث كهانهم عن النبي المنتظر ، لولا ان نبههم مالك الى قرب ذلك اليوم الذي يخرج فيه النبي الى العالم فعادت الحماسة الى النفوس ، وتحركت البادية من ايلة الى فاران في صحارى سيناء ، لتفتش عن ذلك النبي الذي سيضع ارث قيصر وكسرى تحت حراسة الشعب العربي !

من اين توافى مالك الى فاران ؟ لما اجتـاح الفرس بلاد الشام وخربوا بيت المقدس وباعوا النصارى لليهود ، واماتوا الكثير منهم ، واسروا بطريرك اورشليم زكريا فزع الشاميون الى مصر ومعهم رهبانهم وقسوسهم فاحتضنهم يوحنا الرحوم

بطريرك الاسكندرية وفتح امامهم ابواب الاديرة والكنائس . وتفرق بعض هؤلاء الرهبان في سيناء حيث احتوتهم الصوامع والمناسك في رواسي سيناء او عند وادي فاران وكان مالك في الذين هاجروا الى فاران ، وقد كان قبل اغترابه يعيش في دير بجوار بصرى عيشة البساطة والسذاجة ، فلم يلبث يوحنا ان قربه اليه ، وحمله على زيارته في الاسكندرية ، فاظعن اليها وامضى فيها اياما طوالا ، ثم ارتد الى بصرى فآوى الى ديرها والشام يومئذ تئن من جور الفرس ، وسراته المروعون يهيمون تحت كل كوكب ، فما هي الا ايام حتى فتح مالك ابواب ديره في بصرى للمروعين الماحلين ، فاطعم الجائعين ، ورد التائهين ، ثم قضى الله ان يطهر الشام من رجس الفارسية فاستمتع الناس بسلم ، ورأى مالك الذي احب الصحراء ان يهجر ديره في بصرى ليمضي ما تبقى من عمره في منسك منفرد في ارض فاران وقد نذر ان يعيش في قومه فلا يفارقهم حتى يموت بينهم وحتى يضم رفاته ثرى البادية تحت ظلال رخية من بواسق النخيل

وقد كان لا يغال الاجنبي في ترويع الشام وتنكيد بواديه وحواضره ، واسرافه في اذلال سراته واشرافه اثر كبير في طغيان حماسة الناس ، من وادي القرى الى ابواب دمشق ، فنهدوا الى فاران يسألون الكندي الناسك عن ذلك اليوم الذي يخرج فيه نبي عربي الى طرد الفرس والرومان معاً من العراق والشام فكان مالك يهمس اليهم عن قرب ذلك اليوم ، ولكن همسه لا يلبث ان يستفيض في الآفاق ، فتشتد حماسة الناس لذلك النبي ثم يرى هؤلاء الذين احمستهم احاديث البوادي عن محمد ان لا معدى لهم عن الاسراع في انقاذ الشام من الرومان ، فاذا تم لهم هذا الذي ارادوه لم يكن عملهم فتحاً عربياً في بلاد اجنبية وانما هو عمل نبيل يرمي اصحابه من ورائه الى تأثيل فكرة الحرية التي روعها الرومان والفرس في جزء من الوطن الكبير (١)

(١) فتح الشام للمستشرق دي غوج ص ١

وقد حدث في سنة احدى عشرة وستمائة ان انبثق من روابي مكة نور ضوأ جزيرة العرب ، ثم تفجر هذا النور على يدي يتيم ولد في بيت متواضع من بيوت القرشيين اصحاب التجارة بين ايلة والشام ، فما انتبه الرومان الى هذا اللألاء الذي فتح مغالق الصحراء . بل لقد سخر الرومان وهم اصحاب الامر في البلاد الممتدة من وادي القرى عن كثب من مدينة يثرب الى الفرات ، من نبوة ذلك القرشي اليتيم الذي رعى في طفولته الابل والماشية في بادية وطنه ، ثم عكف في شبابه على التجارة في مشارف الشام ، وفات هؤلاء الذين استعبدوا الدنيا ، واذلوا الامم والملوك ان قيادة الابل والماشية في البادية الغلفاء عمل مهد الله به لقيادة الشعوب في المدن الزهراء ، ثم كان هذا الذي اراده الله ، ولم يرده الرومان ، فظل هؤلاء معرضين عن ذلك السنى الذي ضوأ البادية من مدينة يثرب الى مشارف البلقاء ، وظل اليتيم محمد بن عبد الله ماضياً في رسالته من غير ان تروعه ذكريات فراره من اذى قومه الى مدينة يثرب ، وجعل سيد العالم الذي الهب الصدق حميته وسريرته في اصلاد غار حراء يراسل الملوك من مدينة يثرب ويدعوهم الى دينه الجديد !

ولم يفت العرب الذين كانوا يرتادون مختلف الفجاج جلال هذه النبوة ، فحملوا اخبارها في سياحاتهم ورحلاتهم بين ايلة وبادية سيناء ، وجعل سراتهم ينزلون على مالك في منسك فاران فيتحدثون اليه عن النبي اليتيم فيسألهم عنه ، وحينما يقص عليه هؤلاء الاعراب الذين هزموا من قيصر شيئاً من حياة النبي في غار حراء ، وكيف جاء امرأته في ذات عشية وهو يرعش فنظرت اليه وقالت له مابك فحدثها بهبوط جبريل عليه على ذرى الجبل كان مالك يهمس في قرارة نفسه « ذهب والله ملك قيصر ! ذهب والله ملك كسرى ! »

وحدث بعد سنوات تتالت على هذا الحادث الرائع ان جاس طارىء عربي ارض فاران ، فلقيه مالك في طريق يدفع الى وادي النسرين عن كثب من طلول النبط وسأله عما يعلمه من اخبار جزيرة العرب ، وما اراد مالك في سؤاله ان يعلم شيئاً

عن حياة البادية ، وهو ابن البوادي وربيب الصحـــارى ، ولكنه اراد ان يعلم شيئاً عن ذلك النبي الذي حاربته قريش واضطهدته ثم اخرجته من دار مولده فقص ذلك العربي على الراهب كيف رجع محمد من دار غربته ليجمع حول بيته الصغير المتواضع هذه الدنيا العظيمة التي تميد من ظلم الفرس والرومان

عاش محمد في دار اغترابه عيشة الرسل فما احس يأساً ، ولا شعر بالم ، وكان على كثرة هذه الاحزان التي غشيت حياته مطمئناً الى انه سيخرج كرة اخرى الى الناس وفي أحدى راحتيه نصف الارض التي اذلها قيصر ، وفي الاخرى ذلك النصف الذي استعبده كسرى

وكان يعلم ان ما وراء هذا الوطن الذي يعيش فيه معـابد عظيمة لبيزنطية وفارس ، وقد ورث اصحاب هذه المعابد امجاد الدنيا في شبابها الاول ، فاولى له وقد اختاره الله للعمل الرائع الخالب ان يرفع في مكة معبداً لا يدانيه في روائه اي معبد في اورشليم او في القسطنطينية فانه ليسير على الرجل الذي انتصرت تعاليمه في غار حراء على قريش والذي قهر اليهودية في يثرب ، واجلاها عن مواطنها الاولى ، ان ينشيء ذلك المعبد الاقدس ليظلل في الغد هذه الارض التي لم تجد ابراقها في معـابد الفرس وبيع الرومان

لقد كان من اقصى امانيه بعد ان خرج من غار حراء برسالته السامية ، انـــ يخلق وطنا يفهم هذه الرسالة فهما بارعا ، ثم هو يحبو هذا الوطن بعض روحه وبعض حسه حتى اذا استوثق من رجولته وعنفوانه وسع تخومه واطرافه واراق عليه شيئاً كثيراً من رواء الفتح وبهاء الالمعية

وكان يتلفت الى هذا الوطن الذي احبه فيغمه ويشجيه انه لايبرح طفلا صغيراً ثم يستعرض العالم فيرى اليه عظيما وجليلا ، ثم يفيء الى نفسه فاذا هو قد نذر ليمضين برسالته حتى يسعها البحر كله وحتى يسعها البر كله

في سنة ثمان وعشرين وستمائة اطمأن اليتيم الى مستقبل رسالته في جزيرة العرب

ولماذا لايطمئن يتيم قريش الى مستقبل هذه الرسالة ، وقد اذل الغطاريف من قريش في يوم بدر واذل حلفاء قريش يوم الخندق ، ثم اجلى اليهودية من يثرب ، وما دام اليتيم قد اطمأن الى مستقبل هذه الرسالة في الوطن الذي احبه . ففي ميسوره ان يجهر بدعوته في بلاد الظلال والاعناب عن كثب من القصور والقباب ، وفي ميسوره ان يخاطب الرومان والفرس ، ويعرفهما هذا الذي تعرف اليه في غار حراء نعم في سنة ثمان وعشرين وستمائة اطمأن اليتيم الى مستقبل رسالته ، فكتب بعد صلح الحديبة الكتب والرسائل الى كسرى وقيصر فسمع العالم الذي ورث مفاخر فارس وبزنطية صوت الصحارى الغارقة في الرمال فراعه ان يلمس في هذا الصوت الدافق الهادر ارادة الله في فنائه وعفائه !

كان الناس يقصون هذه الاقاصيص على مالك الكندي كلما نزلوا بسوح فاران فيصغي اليها ويتعرفها ملياً ، ويسأل محدثيه ان لا يمنعوه ما عرفوه ، فاذا تفرق الناس عن صومعته بين صبح ومساء وانتبذ مكانه بين كتبه واسفاره ، مادت نفسه ميداً ، وما كانت نفسه لتميد من خوف احسه ، او من قلق شعر به ، وانما مادت هذه النفس العابدة الزاهدة لأن الاحاديث التي استمع اليها من الناس ، كانت لها صورة صحيحة في كتبه واسفاره . فكان اذا قلب في يديه كتابا ابصر في صحفه المنشورة وصفاً بارعا لتلك الصورة فشجي ورق وابتعثته هذه الرقة الطاغية على منازعه ومشاعره الى سياحة في ايامه المواضي ، فذكر وهو قريب من امسه الدابر تلك العشية التي فرطت من حياته في دير قديم بجوار بصرى ، واذكرته هذه العشية التي غبرت من عشيات تتابعت على التقوى رجلا اقتحم تحت ذوائب المساء حديقة ديره الغناء ، وكان الراهب يصلي عن كثب من مسيل ماء فلما تلفت اذا هو قريب من رجل مزمل فسأله عن اسمه وعن بلده وعن حاجته في بصرى ، فقال له ذلك الرجل المتزمل اسمي عمر بن الخطاب ووطني الحجاز ، واما حاجتي لديك فتلك هي الا تذيع لي امراً ولا تكشف لي سترا فلقد مررت بدمشق في تجارة لقومي فبصر

بي فلافيوس عامل قيصر فتقصص اثري ثم ارادني على عمل لا احبه ، واسرف في العبث بي فقتلته . فلما نظر الكاهن الكندي الى يدي عمر وحدق في خطوطهما مليا احس رعدة عنيفة ثم نظر الى جبينه ثم ارتد الى يديه فنظر فيهما نزلة اخرى ثم قام الى كتبه واسفاره فلبث يحدق في صحفها المطوية حتى ركدت نفسه ، فعاد الى الرجل وقال له لترثن ملك كسرى وقيصر ، وكانت كتبه تفيض باوصاف هذا السري كما تفيض باوصاف ذلك النبي . فآمن بقرب ذلك اليوم العظيم الذي يخرج فيه العرب من فدافد جزيرتهم لانشاء دنيا جديدة لا تشبه دنيا الرومان والفرس ، ثم ترك هذا الراهب العربي بصرى الزهراء ونزل في هذه الواحة الغيناء فما ان احتوته الجنة الحادرة حتى تجددت في نفسه الذكر الغابرة . فطفق يسأل الرائح والغادي عن احداث جزيرة العرب فلا يمنعه مقبل او مدبر حديثا طيبــــا عن تلك الرائعة التي حسرت عنها صخور الغار

في ذات عشية خرج الراهب من منسكه المنفرد وهو يتهادى في طيلسانه الاسود فما ان ترفق في سيره حتى رعشت الواحة من النسيم العليل ، وسكرت من سجع الطير ونشيده ، وتمايد النخيل وانبعث من اعماق الوادي هواء رقيق اهتز له الراهب الناسك فدأب في طوافه ليصل الى سرة الجبل قبل ان يظل الغسق بجناحيه هذه الواحة النامية وكانت الجبال تبدو له متقاربة متشابكة فاسعف اليها متطامنا جذلا كأنما هو قد مرن على النظر الى ذرواتها الجاهمة او كأنما قد استعذى ان ينظر الى الكواكب وقد تناثرت على الربا كما يتناثر اللؤلؤ والمرجان

وكانت الشمس قد غربت وراء الاصلاد الحمراء فمــــا عادت تضيء في وادي فاران ووادي عليات ، وفي هذا الوادي طريق يدفع الى جبل سربال فاجتـــازه الراهب بجواده وقد آلى على نفسه ليصلين صلاة العشاء في اطلال دير قديم عند سفوح سربال ، وكان لا معدى له في هذه العشية الرخية الظل عن الانسلال الى حرجة فيحاء فاوغل في جنباتها واسكره ائتلاق الزهر وبهره نصوعه . ووقف يتأمل

من خلال الورق في شواهق جبل سربال وقد زخرفت بالالوان كانها قطع من الفسيفساء والهواء يلثم جبينه العريض نقياً صافياً والينابيع تغني في الكهوف المتكاثفة الرطبة فينصت للغناء ويهيجه صفاؤه

وكانت المياه تتفجر من المغائر لتخصب البطحاء على مدى واسع وتنتصر على الصحراء وتروض من جماحها وهي التي قهرت الحضارات وابتلعت المدن واجتفت البحار فاجتازها الراهب وتدلف الى حقول الحنطة ورأى الى خيالاتها الطافية على صفحات الغدير ولذ اشجار النخيل وهي تملأ الفضاء في انماط غريبة ومثل عجيبة وبعض هذا النخيل من ذوات الجذوع الرقيقة الرشيقة فبدت له منحنية متهادية ثم استطال بعضها وتبسق حتى ليوشك ان يشبه نعامة نفضت ريشها في الهواء !

وكان الاديم الى هذا كله مليئاً بالازهار والاعشاب ولكن هذه الازهار والاعشاب على وفرة اسمائها وكثرة الوانها لم تنسقها يد جنان حاذق ولم تشذب اطرافها محصدة الزارع فتكاثفت حتى اشبهت الاجمة الفرعاء وما عادت القوافل تستطيع الانسلال اليها . وربما كان جمال هذه الاماكن البارع مقتبساً من استمتاعها بوحدة مطلقة شاملة فلا يطرقها الناس الا قليلا ولكن الطيور كانت تجد في هذه الاماكن الظليلة صبابتها في الهدوء والسكينة فغنى البلبل على ادواحها الى جانب القمري وحسب الناس وهم يرتادون هذه المخاضر انهم عن كثب من حظائر للطير

وقد كان انتصار النصرانية على الوثنية في المعارك التي تلظت بين الرومان والفرس في خلال سبع سنين مصدر هذا الفرح الذي كان يبين على الراهب في هذه العشية حتى استفزه الفرح الى اعتزال منسكه فخرج من وادي فاران ليقضي صلاته في الفضاء ويرقى اعلى ذروة في الجبل الشاهق ويجهر بالدعاء فلا يفوت دعاؤه وهو على الذرى هذه البوادي المنبسطة التي اصغت في سابقات العصور الى صوت موسى النبي !

وقد كان ينبغي له ان يوغل كثيراً في سيره ليصل الى ذوائب جبل سربال

فمشى في محصاة واعرة والجبال ترعش من بعيد تحت بريق المساء ولمعانه ، والفضاء يزخر بالوان رمادية كابية وظلال الغيم الرقيق على الذرى البعيدة تهيم بين منحدراتها وشعافها ثم اخذت خيالات من هذه السحب تطفو على منبسط من الرمل لا نهاية له ولم تلبث ان جازت الرمال في خفة الوميض فترقرقت على الحجارة والحصى فندتها ورققتها !

وكان صرير الشمأل في صرود جبل سربال ونجوده ينبعث ضئيلا عن بعد ثم لا يلبث ان يبدو طاغياً على حواشي المساء منحدراً الى السهول ثم هو يتسرب الى الخيام فيهزها هزاً شديداً في وسط تلك الوحدة الرهيبة !

ثم تهدأ هذه الريح الجفول من حين الى آخر ، فيغمر السكون الجبل والسهل ويطلع القمر من بين السحب ويريق نوره على جبين الراهب فيأنس الى سياحته ويدأب في طوافه ، والقمر صفيه ونجيه ، وما كان الراهب ليخشى هذه السياحة في مثل هذه العشية فهو قد اعتاد ان يسيح في هذه الاطراف عند كل مساء وفي كل صباح فلا يلمح فيها خيالا لطائر ولا طيفاً لمسافر وقد كان احب الصور الى نفسه ان يرى الى الذرى محمرة الاديم من ضياء الشفق ، والى السفوح الخضلة وهي تضحك وتغني تحت بريق الصباح !

ولما اغسى الليل اغساء شديداً توارت الظلال والاشباح والاشياء وحجبت القمر شواهق جبل سربال فما عادت تبين تلك المخاضر الضاحكة على الحدور واليفوع في طول سهل فاران وعرضه فشعر الراهب بوصب شديد فامتنع عن السير واخذ ينظر الى السحب السود وهي تطفو على الشواهق في خوف وارتماض لم يحسهما من قبل وهو الرجل الذي مرن على السياحة في الجبال والاودية وقد كان عسيراً على الراهب ان يدرك مصدر هذا الخوف الذي تولاه ساعة واوشك ان يبلغ حضيض الجبل فهم برجعة عجلى الى منسكه لولا ان حافزاً خفياً في نفسه ثناه عن فكرته فتابع طوافه غير حافل بهذا الكفن المكفهر الذي خلعه الليل المديد على

الصحارى والاودية والجبال

وكان جواده قد اصطدم بارض محصبة ، فدفع به الى الامام لعله ينطلق الى السفح فما لان بل ظل جامحاً . فانحدر عنه وتركه في تلك القفرة العـارية ومشى الى الجبل بنفس اعارها الظفر بامانيها جناحي طائر ثم لم يلبث ان تسلق الصخر الواعر ، فاذا هو على حضيض سربال ، فاوغل في منحنياته ودروبه ، ثم تبارى في الصعود حتى بلغ القنة الشماء وفي تلك الفينة تصدعت السحب ولألا ضياء القمر على الاصلاد الرفيعة فاضرم فيها ناراً حمراء بلون الدهان فرفه مالك عن نفسه ومع ان الهواء كان يخرج صارداً من بين شقوق الصخور الرمادية ، فقد صمد الكندي للذعه وقرسه ولم يحفل بهذه النفحات الباردة التي بعثتها الصحراء من صدر يمور بالرطوبة ثم تابع طوافه في تلك المسارب الملتوية والتعاريج الخفية حتى اظلته الشواهق الراعبة في الجبل وحتى صافحت عيناه طللا من بناء النبط عرب الصحراء . ففي هذا الطلل الذي جمع الى نقوش المصريين القدماء كتابات النبطيين القدماء والذي ملأته النصرانية في عصر تيودوس بنقوشها وكتاباتها وجد راهب فاران صبـابة نفسه في صلاة متواضعة صافية افضى بها الى الله الذي جعل هذه الارض المقدسة من سيناء مصدر رسالات الرسل والنبيين !

ولما فرغ من دعائه المستطيل تلفت الى ناحية فاران فاذا بواسق النخيل تتراءى له من خلال السحب الرقيقة كأنها الاشباح ثم امتدت نظراته الى البيع والمناسك المتنـاثرة على الصعيد ، فبدت له من مكانه القصي البعيد كأنها اكوام من الحجارة فما راعه ان تتغاير سحب الليل وظلاله على المناسك والصوامع ولا اخافته ان تبدو له على مثـال التراب المتراكم وانما اخاف مالكا في الليل الغـاسق ان يزخر الفضاء بهدير لم يألفه في مثل هذه العزلة وان يصل هـذا الهدير الى سمعه كاصوات اللجج

وقد خيل اليه المرة الاولى ان البادية حسرت عن رمالها ورمت بفرسانهـا

المغيرين الى هذه النواحي المملوءة بذخائر الماضي فدعا الله نزلة اخرى وانحدر عن الجبل يريد ان يشق الطريق الى السهل الذي خرج منه !

ولما احتواه السهل وفيأنه ظلاله الفي جواده حيال مسيل ماء نخف اليه وركب غاربه ثم اجراه في طريق يدفع الى المناسك والكنائس ! وذلك الهدير الذي خرق سمعه وهو على الجبل لا يزال على عصفه وتكبيره !

ولم تنسه هذه المخاوف التي اقتحمت نفسه في ذرى جبل سربال صلاته المتواضعة الصافية فتخافت بالدعاء ورجا لمنسكه وللناس الذي يعيشون حوله امنا ودعة وسلاما وبعد ساعات من ركض مض موجع ابصر على كثيب فاران ناراً تلظى وقد رمت الى السماء بشهب حمراء فتدفق اليهـــا فاذا هو امام طوائف من الفرسان فما تبين وجوههم لأن الليل الجاهم قد اخفى هذه الوجوه ولأن واحداً من هؤلاء الذين استراحوا الى غوارب الخيل لم يفتح فمه فجعل يطيل تأملاته في ملابسهم وارديتهم وفي خيولهم ، وفي تلك الفينة اضـــاء القمر نواحي فاران وغسلت انواره وجوه الفرســـان فبدت راياتهم واعلامهم ورأى الراهب تحت تلك الرايات المنشورة صورة الزعيم الكمي فنهد اليه حتى قاربه وحتى قدر له ان يتفحص وجهه وجبينه وعينيه ثم انقلب وهمس قائلا :

ـــ اهذا انت ؟ فاجابه ذلك الزعيم الفتى :

ـــ الا عم مساء ! قال :

ما كان ليدور في خلدي ان تهبط ارض فاران في هذه الحاشية العظيمة ! فكأنما قد اعددت هذه الخيول لغزوة او لفتح ... اي فروة بن عمرو ! على الرحب والسعة نزولك في هذا الصعيد المبجل الذي عرف في آبائك الصيد ، واجدادك المغاوير ارق الشمائل واطيب السلائق !

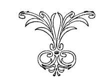
وكان فروة بن عمرو الجذامي امير ايلة وفيلارك معان وسيناء سيد هذه الكتيبة التي غشيت ارض فاران في هذا الليل الدجوجي فلما استمع لحديث مالك قال له :

— ما اتيت الى هذه النواحي لغزوة او افتح ، فان جميع الذين خرجوا معي من بني ابي وعمي قد ابوا الا ان يصحبوني في سياحة بدأت منذ ايام في ايلة وانتهت في هذه الليلة عند سفوح فاران اما باعثي على هذه السياحة فستعلمه متى احتوتنا معا عزلات ديرك وسيظل فرساني على خيولهم فلا يكلفونك امراً لا تطيقه ! .. فقال مالك وهو يومض بيده الى طوده الاشم :

— سنمضي معا الى الدير وستتكلم ولكنني احب وقد رأيتك بعد طول فرقة الا يفوتني التلويح بما عملت فلقد دافعت بسيفك عن محارم النصرانية دفاعا احبك قيصر من اجله فوق كل حب ، ثم اولع بك هذا الوطن الذي لم ينس سلائفه على وفرة بلاياه ورزاياه ! ... فقال فروة بلهجة يخالطها بعض اليأس والمرارة

— ما كان عملي من اجل قيصر ليحبني قيصر ويخصني بايثاره واكباره ، وانما كان عملي في سبيل وطني هذا الوطن الذي تقاسمه قيصر وكسرى فقال مالك :

نزلت اهلا ووطئت سهــــلا ولم يزد على ذلك شيئاً بل فسح لفروة في الطريق فلحق به الى الدير على سفوح جبل الطاحون بعد ان تفرق صحبه وفرســــانه في مضارب فاران عند وادي النسرين البهي ثم امضى الجميع في الواحة الظليلة ليلا ناعشا مطمئناً انساهم جهد الطواف في بادية كدراء لا تقع عين المدلج الساري في مداها الفريغ على شيء من المشاهد الزهراء



الفصل الثاني

ماضي فاران

في صباح اليوم التالي استفاقت فاران على خفق النواقيس في البيع والصوامع وخرج الرعاة الذين لم يستسيغوا الحياة النضرة الناعمة في خمائل دمشق باسرابهم الى نواحي جبل سربال يفتشون عن الارض العارشة، والغدران المتفرقة المبعثرة في الاودية والسفوح وذهب فريق من اعراب فاران بمحاصيل الارض التي احسنوا زرعها الى مصر، ومضى فريق في طرق تدفع الى فلسطين، وبقي فريق من الناس في الواحة الظليلة لقضاء المناسك في الاديرة والصوامع، او لزراعة الارض التي وهبها قياصرة بزنطية للقسوس والرهبان

كان الناس يعيشون في فاران عيشة رخية لا يحلم بمثلها اولئك الذين احتوتهم المدن الكبيرة في مصر والاسكندرية ولا اولئك الذين فيأتهم بواسق اللوز والجوز والنارنج والليمون في مدن سورية وفلسطين، وهذا الصفاء المطلق الذي يحسه اعراب فاران ويتقاسمه معهم اعراب البادية منبعث عن هذه الابعاد النائية والمسافات الشاسعة التي تفصل الصحارى عن المدن الوارفة الظل، فقد ظلت فاران في نجوة من الكوارث التي انزلها الفاتح الاجنبي بارض الشام، فلم تعبث بصفائها تلك الحروب التي زلزلت صروح الحياة في اسكندرية ودمشق. وليس من شك ان الصفو المطلق الذي صحب فاران من صدر النصرانيه الى القرن السابع قد نشأ عن هجرة النصارى المروعين في الشام ومصر اليها، وقد ظل هذا السلم الذي خلع حلله على الواحة الظليلة مصدر هذه الشهرة التي امتدت النصرانية اليها في الصحارى والبوادي. فبينما كانت الوثنية تضغط على ديانة المسيح في المدن الكبيرة وتقسرها على الخروج من محارمها ومناسكها احذ رهبان من دمشق ومن بصرى

يخترقون الصحراء ليبنوا البيع والكنائس ، وكان القرن السابع اسمى عصور النصرانية في فاران فقد حقق رهبانها وقسوسها ما يتردد في نفوسهم من احلام الشهرة والمجد ، واصبحت لؤلؤة الصحارى داراً لاسقف ، وكان طبيعيا وحياة النصرانية مقتبسة من العزلة ان يبني دعاتها مناسكهم وصروحهم على ذرى الجبال في الاماكن البعيدة النائية

وثمة طابع آخر تزهو به فاران على المدن ، وذلك هو صفاء روحها من البدع التي تسربت الى النصرانية بعد ان قامت عليها خلافتان ، واحدة في روما في بيعة القديس بطرس ، واخرى في القسطنطينية في بيعة الرسل ، فقد حدث في سنة اربع وخمسين وخمسمائة ان اقتحم وثني اسمه ماسير حمى فاران واخذ يدعو الى دينه فكتب الامبراطور مارسيان الى اسقفها يحذره من ذلك الوثني ، وظلت الواحة حريصة على شهرتها الطائرة في العالم حتى انتبه اليها زعماء النصرانية وحتى اشركوها في المجامع الدينية التي اقيمت في القسطنطينية سنة ست وثلاثين وخمسمائة وسنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وكان لقب زعيم فاران الديني « اسقف فاران وسيناء والجبل المقدس ، وقد قضى مجمع خالقدونكية (١) المقدس في سنة احدى وخمسين واربعمائة ان يخضع اسقف فاران لبطريك اورشليم (٢)

وقد ظلت فاران من القرن الرابع الى القرن الخامس من اراضي فلسطين الثالثة الخاضعة للملوك بصرى الغساسنة . ويقول المؤرخ اليوناني بروكوب وهو من معاصري الامبراطور يوستنانيوس ان اميراً غسانياً يدعى اباكرب وهب هذه الواحة لقيصر فاقطعها هذا الرهبان بعد ان منح الامير العربي لقب « فيلارك »

---

(١) خالقدونكية من مدن استامبول وهي واقعة على الشاطيء الاسيوي وتعرف اليوم باسم « قاضي كوي » اي قرية القاضي وقد عقدت فيه مؤتمرات دينية عظيمة وحاصرها العرب في الجاهلية والاسلام

(٢) كتاب سيناء وبلاد بطرا للعلامة الافرنسي ليون كارت

فلسطين والاردن لتنازله عن الواحة (١)

وفي اواخر القرن السادس تعاقب على فلسطين الثالثة امراء من متنصرة جذام فامتد امرهم الى فاران ولم يمنعهم القياصرة ان ينشروا سلطـــانهم على الاديرة والصوامع التي بناهـا الامبراطور يوستينانيوس في شبه جزيرة سيناء. وقد كانت الحامية التي تحرس الصحارى من غزوات البادية رومانية بزنطية فما لبث العرب من متنصرة جذام وقضاعة ان ورثوا حماية الكنائس والاديرة فانتقلت الحامية الرومانية الى مصر في زمن هراقليوس واصبح فروة بن عمرو الجذامي سيداً على فلسطين الثالثة من خليج ايلة الى سيناء .

---

(١) من كتاب سيناء وبطرا للاستاذ ليون كارت

الفصل الثالث

ثارات فروة بن عمرو

ينهض دير الراهب مالك الكندي على سفوح جبل الطاحون وهو صرح قديم بني في القرن الرابع للميلاد على الطراز البيزنطي ، ففي حجرة من حجرات هذا الدير التاريخي تلاقى في صباح اليوم التالي مالك راهب فاران وفروة بن عمرو امير ايلة وسيد البطاح من معان الى سيناء

لقد قال فروة للراهب « ان هذه الحجرة محاذية لصوامع رهبانك ، فهلا برحتها الى مكان آخر ، فاني اخاف ان يسمعنا احد ! فنظر الراهب الى سيـــد ايلة نظرة متفحصة ، فما فاته وهو يرى الى صورته قلق يساور نفسه فقال له « اذا شئت جنبتك هذه الحجرة ، ونزلت بك الى اماكن لايجوسها الناس ! فقال فروة افعل ماتريد »

وكانا ساعة شرعا في الاحاديث على مصطبة تطل على الوادي . فاعرضا عنهـا وطافا بكثير من الاروقة والمصاطب والغرف تظلهما الحنايا والقبب الرفيعة من غير ان يستوقفهما زخرف خالب على جدار قديم او يثنيهما عن تأملاتهما طلاء على حنية من الحنايا ، او تميلهما صورة لناسك على سقف من السقوف ، ثم توغلا في الدير ومرا بنوافذ صغيرة لا يتسرب منهـــا الا قبس كليل من ضياء الشمس الفاتن الى ذلك الصرح السابح في سكونه فبانت لهما من خلال هذه النوافذ المفتوحة قنن جبل سربال وقد تطاولت وبسقت كأنها مرقاة الى السماء ، وكان احدهما اذا تلفت الى جانب الجبل عرضت له شعاف فرعاء تترقرق عليها حمرة غاتمة لا اثر فيها لظل فاذا مضى في تأملاته ابصر هذه الشعاف وقد ضربت في الافق كالعمد الرفيعة فلا يستقر نظره عليها فيجفوها ويفيء الى نفسه فلا يفوته ذعر تملكها ويشعر برنخ اليم

ثم لاح لهما بعض الافق من شقوق النوافذ فاستراحا الى زرقة السماء وابصرا

اشعة الشمس وقداذرت بعض الضياء على الحياط والجدر، فاحسا الدفء وبعد قليل جاس الرجلان خلال ممرات ضيقة ملتوية تأكل القدم خشبهـــا المنقوش فاظلتهما اقواس منحنية تكاد لفرط انحنائها تلمس رأسيهما الشامخين . وما زالا على الهبوط والصعود حتى لاح لهما مصلى الدير فاذاهما في غابة مستطيلة من العمد واذا هذه الغابة المستطيلة تضيء بالالوان والاصبغة ، واذا هذه الالوان والاصبغة من عمل المثالين والنحاتين والمصورين الذين جاءوا بكنوز المعابد الوثنية في ايطاليـــا واليونان ليزينوا بهـــا في هذه الصحراء الغلفاء بيتا رفعه قيصر زلفى لمريم والدة الناصري ، وقد حشد الرومان هذه المفاتن في قرارة الدير لتظل في نجوة من السراق والفاتحين ، فما ان رأى فروة هذه اللآلىء حتى طفق يتأمل في الماضي البعيد ، ذلك الماضي الذي اقتبس حياته وامراءه وزهوه من عنصرين اثنين ، عنصر البساطة ، وعنصر المجد

وقد كانت الحياط مزينة بتصاوير الصالحين والزاهدين ، فلم ينظر فروة الى هذه التصاوير بل اعرض عنها ودأب في طوافه حتى بلغ به مالك حجرة صغيرة فقال له « لقد وصلنا »

ولما احتوت الحجرة الصغيرة راهب الدير وفروة بن عمر ابصر الجـــذامي على الحائط صورة تمثل السيد المسيح على الصليب فوقف يتأمل في جبين المسيح المسفوع وفي نظراته السادرة في السماء فريع وانكمش واقبل الى ناحية الراهب كأنما هو يريد ان يتذرى به فلا يبصر التمثـــال كرة اخرى وجعل مالك في تلك الاثناء ينظر الى حيرته والى هذا الالم الذي اعتصر نفسه ساعة رأى الى احزان النصرانية المنقوشة على الرخام والمرمر والبرفير فغمه شجنه وسأله في كثير من الرفق والموادعة عن مصدر هذا الشحوب الذي اراق ظله القاتم على جبينه ولما تمض عليه دقائق في الدير فتضاحك فروة وقال :

ماحزنت لشيء ولكنني عجبت لهؤلاء الذين ينحتون الجلامد وينقلون اليهـــا

الصور البارعة نقلا ناقصا وهم يعتقدون انهم ارضوا الفن الذي عبدوه واستساغوه ترى اي شهرة يخسرها المثال البارع اذا هو خلع على الجلامد صورة تفيض بالفرح والامل ! وهل صحيح ان شهرة الرجل النابه تتراخى عنه ، وتفلت منه حتى يتاح له ان يعير الفن الذي عبده صورة الالم المريع القاتل، ما انكر ان حياة المسيح قبست عناصرها من آلام ومنا كد زخرت بها حياة الرسل ، ولكن نفس المسيح كانت ريا بالفرح والامل ، وقد قال الناصري لجميع الناس الذين اصغوا اليه في بلاد الجليل انه ما احب لدنياهم غير الفرح والامل ، ان هؤلآء النحاتين والمصورين يمثلون لنا على الجلامد عالما يفيض بالتعاسة والالم والقهر ، فهم في شغفهم بالالوان الجاهمة ينقلون الينا صورة ناقصة عن حياة مملوءة باضواء السعادة والحب والامل والمجد ! ..

وقد كان فروة يتكلم وخيال كريستيا المثال يطفو على احساسه وشعوره ؟ ألم يقل له هذا الشاعر النابه يوم لقيه في مثواه عند ضفاف الاردن ، ان هذا الالم الذي يبين على وجهه قد اماله الى ان يستعير صورته ليخلعها على تمثال نذر ان يقيمه ويرفعه تخليداً لذكرى السيد المسيح ! ألم يشعر فروة في تلك الليلة بخوف شديد ما احسه من قبل وهو الفتى الصليب العنيد ، ألم يسأل كريستيا عن ذلك الحافز الذي حفزه الى استمراء الالم والى افراغه على تصاويره وتماثيله ؟

لقد كان في ميسور فروة وهو الذي ولد في مهـــد الفروسة والبطولة الا يستخذي لهذا الضعف الذي يشعر به المصورون والشعراء والمثالون وكان هذا النسيان سائغاً في البادية التي يعيش فيها بين طوائف من الناس لاتلين نفوسهم لاوهام الشعراء وخيـــالاتهم ، ولكن فروة ماكان يستطيع هذا النسيان الذي امل فيه وحظوظه العاثرة ما زالت تسوقه الى البيع الزاخرة بالام النصرانية واحزانها ومع هذا كله فقد تغلبت سلائق الصحراء على السلائق الفاترة التي هاجتها في نفسه صورة السيد المسيح على الصليب ، فتضاحك واغرق في تضـــاحكه حتى خيل الى مالك انه لا يتحدث الى الرجل الذي حمل نصيبه الرائع من انتصار النصرانية على

الوثنية ، وللمرة الاولى شعر الراهب بضخامة الاغراض التي بعثت سيد ايلة على زيارته في ديره ونبأته هواجسه المرة بوقوع مالا تطمئن اليه نفس ، وكان يعلم اي احساس يفيض في صدر فروة فتلفت اليه وقال له :

— ألا تجلس بجانبي الى هذا المقعد وتتحدث الي عما يرعش نظرانك ! ...

ولما جلس مالك على مقعد في الحجرة ادارفروة ظهره الى صورة السيدالمسيح واخذمكانه على المقعد وجعل يحدق الى جبين الراهب ، وبعد فترة من سكون شجي قال الجذامي :

— اسامعي انت ؟ قال تكلم فاردف سيد ايلة قائلا :

حملت اليك صورتين متنافرتين لقلبي ، صورة القلب الجائش الثائر ، وصورة القلب الساكن الفاتر ، ان جميع الناس حتى الذين احببتهم فوق كل حب لم يرقهم هذا التغاير المؤلم فطفقوا يسألونني عن مأتاه ومصدره فما خبرتهم بشيء وكل مااردتهم عليه هو ان يثقوا بان الليلة مهما رانت لا ندحة لها عن ان تلتي باشباحها الراعبة الى الصبح . وقد عاش قلبي في ليل شديد التعبيس وفي ذلك ما يهيجه وذلك لأن الليل مازال يزحم صدري بامواج من الريب والشكوك والبغض ولكنني مازلت اتوقع مسفر الصبح ، وهذا هو منبع فتوري ! ...

واطرق فروة بغتة اطراقه الجمة مضى مالك في خلالها الى غابر هذا الفتى الذي جاء يتحدث اليه بلغة قلقة لم يدرك شيئاً من معانيها ، وقد ود لو انه يستطيع ان يخرق غياهب الماضي رجاة ان تدنيه حوادثه المطوية من صورة هذا الحاضر الذي يئس الجذامي منه فكان كلما اوغل في طوافه بالماضي لا يجد غير ذكريات عامرة باضواء السعادة والاريحية والمجد ، وليس في هذا الحاضر الذي لايحبه الجذامي غير دجنات تراكب بعضها فوق بعض ! ولكن فروة لم يلبث ان جفـــا مقعده بجانب الراهب وجعل يذرع ارض الحجرة ثم غيب يده في صدره واخرج منه كتابا مطويا لم يلبث ان دفع به الي مالك وقال له :

— اقرأ ! فقال الراهب وهو يمد يده الى فروة !

ممن هذا الكتاب ؟ لعله من صديق لك ، قال لا ، قال اذن فهو كتاب بعث به تيودور اليك ، فازمهر جبين فروة وقال لا ، قال فلعل صاحبه قيصر الرومان قال : لا لا ، قال ممن هذا الكتاب ياصاحبي قال هو من رجل عربي اسمه محمد بن عبد الله! فقال مالك وماذا يريد هذا الرجل ؟ قال اقرأ ؛ فقرأ الراهب الكتاب وهو يرعش:

من محمد رسول الله الى فروة بن عمرو سيد ايلة

اما بعد فقد قدم علينا رسولك وبلغ ما ارسلت به وآتانا باسلامك وان الله هداك بهداه ان اصلحت واطعت الله ورسوله واقمت الصلاة وآتيت الزكاة (١)

ولم يشأ مالك ان يمضي في قراءة الكتاب الى النهاية فدفع به الى فروة وقال له: ان عملك هذا يغضب قيصر ، قال فروة لقد ارضيت قومي وارضيت إلهاً يعبده قومي فما يضيرني ان يغضب قيصر او يرضى ، قال فكيف تركت نصرانيتك ؟ فتبسم فروة واردف : سمعت بخبر هذا النبي فثلجت نفسي وبعثت اليه بمسعود بن وهب وهو اشجع رجل عرفته في معان فاصحبته بهدايا الى محمد وقلت له اخرج الى هذا الرجل وقل له ان فروة بن عمرو ينتظرك في ايلة او في معان فمضى مسعود الى محمد وبلغه امري فكتب الي كتابه الذي قرأت ؛ قال فاين سمعت بخبر محمد ؟ قال سمعته في وادي العربة بجوار الاطلال النبطية وكان ذلك في مساء رخي الظل ، وقد خرج الرعاة من البادية ، ونشروا خيامهم على مغيض ماء واخذوا يغنون اغاني جزيرة العرب فوقفت انصت اليهم عن بعد حتى سمعتهم يذكرون محمداً في اشعارهم فعفت مكاني وجئت اليهم وسألتهم عن هذا الرجل الذي احمسهم امره حتى راحوا يملئون اغانيهم باسمه فقالوا لي انه الرجل الذي انتصر على اليهودية والوثنية في معارك كثيرة

---

(١) كان فروة بن عمرو على ملأ من الروم في عمان من ارض البلقاء فاسلم وكتب الى الرسول باسلامه وبعث به مع رجل من قومه يقال له مسعود بن وهب واصحبه بهدايا في جملتها فرس وقباء مخوص بالذهب   ابن عساكر

فقلت لهم كيف تلقت جزيرة العرب دعوته ؟ فصاحوا دانت له اليمن ونجد وبعض الحجاز وهو يوشك ان يمشي بدعوته الى الشـــام والعراق قلت فهل افتتح الرجل حصون خيبر ووادي القرى ؟ فقالوا انه يوشك ان يفعل ذلك ، فلما سمعت اقوالهم قلت هذا هو الرجل الذي يرث ملك كسرى وقيصر ، وقد كان شيوخ من جذام قد تحدثوا الى ابي عن هذا الرجل قبل بعثه ونشوره وقالوا له ان خيبر باب الشام فان جازه يتيم قريش استطال امره في الشام والعراق !

ومنذ ايام لقيني عند وادي العربة ابو سفيان بن حرب سيد بني امية وحسان ابن ثابت شاعر الغساسنة ، فانزلتهما في سلع في قصور ابائي وسألتهما عن النبي فحدثاني عن امره كثيراً فطغت حماستي واريتهما تمثال الحارث النبطي ملك الشـام وهو ملقى على الارض بجانب اكوام من الحجارة علاها الشوك والطحلب وقلت لهما كان هذا التمثال مرتفعاً على اعلى ذروة في الوادي فاهوى به تيودور شقيق قيصر عن مستقره زاعماً انه لا ينبغي لعين في العالم ان تنظر الى غير تمثال قيصر الرومان ثم خرجت بهما الى الوادي واريتهما ما عملته لغسل هذه الاهانة التي لحقت بتمثال احب الملوك الى قومي ، وذلك عمل لا اتولى وصفه لك فلقد احتاج في وصفه الى امد ، وقصارى ما استطيع قوله ، هو انني نذرت لاعيدن التمثال الى مكانه في ذرى سلع واحطمن تمثال هراقليوس في ايلة عند شاطىء البحر وفي وادي العربة عند وادي النبط ، وفي دمشق بجوار البيعة الكبرى ، وفي ايلياء عن كثب من كنيسة القبر المقدس

وقد اردت نحاتاً رومانيا يقال له كريستيا على ترميم تمثال الملك الحارث وانزلته بجواري في وادي سلع بعد ان زوجت اختاً له وقلت له لتنتهين من صنعه في بضعة ايام فما تردد الرجل في الامر الذي اردته عليه ، وهو يوشك ان يفرغ من عمله الذي حبس عليه نهاراته ولياليه ، وسيرى شيوخ قومي بعد ايام رائعة من روائع كريستيا على ذرى سلع ، بل سيرى هؤلاء الشيوخ الذين روعهم ان يعبث بهم تيودور الطاغية على مشهد من النساء والاطفال ان وادي سلع لايتسع لتمثال قيصر !

وليس هذا الذي جئت احدثك عنه في هذه الساعة كل ما احب صنعه ، فان هنالك اشياء لا احب ان يفوتك يسيرها وكثيرها ، وذلك اني اعتزمت الا اذهب الى لقاء قيصر في ايلياء وقد يهيج قيصر امتناعي عن موافاته وقد يشجيه انني نهدت الى مساوقته في كبره وزهوه ، ولكنني لست ذلك الرجل الذي يفرق من مجاراة قيصر في مجده وخيلائه وما انا بالجبان الذي يخيفه ان يعبس قيصر في وجهه ، وقد قلت لك ان جبال جزيرة العرب قد اطلعت شمساً جديدة ، وهذه الشمس التي استعارت فتونها من تعاليم ذلك القرشي اليتيم زعيمة بطرد هذا الليل العبوس الذي ينزع قيصر الى نشره في جبال الوطن وفي اوديته وسهوله وشطآنه وخلجانه !

لقد كان من احب اماني ان تشهد عرسي وتباركه فمنعني ديني الجديد ان ينشأ اطفالي في الغد على دين الرومان وهم اعداء وطني واعداء قومي ، ومع هذا كله ما احببت ان تفارقني بركتك فباركني واسمعني صلاتك فاعود منها مترع النفس بالامل وانطلق الى سافو زوجي ! أتسمع ! ان سافو اسم عذب وشهي وقد رق كثيراً حتى اشبه نفس الحبيبة الرقيقة . ما يرعشك ياسيدي ؟ فهل اخافك هذا الذي تحدثت به اليك عن ذلك القرشي اليتيم ، ام روعك انني ازمعت مجافاة قيصر ! ام احفظك حبي الشديد العنيف ؟

اراك تنزع الى اسكاتي ، ويخيل الي ان سيلا من الالفاظ والكلمات قد اخذ يغمر نفسك وهو موشك ان يتفجر على فمك ، فهلا سكت ناشدتك الله الى النهاية فاني ما بدأت قصتي بعد ! وستعلم من هذه القصة الشجية ، ذلك لأنها قصة حياتي الشجية ، ان الرجل الذى اسماه الناس قيصر الرومان واسمته الكنيسة ظل الله على الارض (١) ما كان الا لصاً قاتلا ، وقد سرق هذا اللص حريات الناس جميعاً ! اواه لو كان في هذا العالم رجال يشعرون بالاهواء الكريمة والسلائق النبيلةلماتمادى قيصر في ظلمه وبغيه ، ولكن العالم على رحبه لا يعرف هذا النوع من الرجال !

(١) شارل ديل في كتابه بيزنطية

وابشع من هذا لله ان الناس يهزءون بالرجل الذي تغريه سلائقه الكريمة بالثورة على الظلم ، فاذا رأوه طائراً الى افق المجد الذي لاتدرك ابصارهم حسدوه ونزعوا الى منعه من التحليق في افقه ثم لا يخجل هؤلاء الذين لم يفهموا عمله الجليل الرائع ان يقولوا في الجماهير « حذار ان يقربه احد فان به لمسا من جنون » وما بالرجل النابه اللامع شيء من هذا الجنون الذي تحدثوا عنه ، ولكن النفوس الغارقة في الوحل والدم لا تستسيغ الصور البارعة ! ...

تقول لي ان هراقليوس قد مسح بيده آلام النصرانية ومشى بها الى عالم يزخر باضواء المجد والسعادة . فلا ينبغي لرجل ان يفكر في ايذاء قيصر لأنه اوفى بنذره لله وللوطن ، ولكن في هذه الدنيا التي سخر قيصر حظوظها واقدارها لسلطـانه اناساً في ميسورهم ان يقولوا لك ان قيصر قد اطل الدم الذكي من وادي القرى الى دمشق ! وقد كان هذا الدم الذي اطله نصرانياً لا وثنياً ...

منذ اسابيع خرجت الى لقاء قيصر في بصرى ، فلما عدت الى وادي سلع ابصرت شيوخا من قومي وقد هاموا على وجوههم في المفازات البعيدة فلحقت بهم الى رباع الجبال لاسألهم ماخطبهم واي جائحة عصفت بهم وهم الذين لم يزهدوا في الوفاء لقيصر ولجيشه ، وكنت امر بالقرى والضيع فلا ابصر في الطرق التي كانت طافحة بالشجر والثمر ظلا ولا فيئاً ، فلقد عرت يد عابثة تلك الارض الضاحكة من الورق والزهر ، فغمني هذا الذي رأيته ، ثم تدفقت في السير حتى اطللت على الذرى فاذا انا بجوار القطيع الشارد ، واذا شيوخ من قومي بعض هذا القطيع الشارد فصحت ماخطبكم ياشيوخ ايلة ومعان والبلقاء ؟ فقال واحد منهم لقد مرت بنا عصائب تيودور في الليلة الفائتة فجاست خلال الديار واقتلعت الافنان والاشجار ، واستاقت الماشية ، وحبست عنا رزقا كان قيصر اجراه علينا في السنين المواضي

في تلك الاثناء رفعت لي فتاة عارية الا من غلالة رقيقة ممزقة تستر عورتها فتدلفت اليها فاذا هي ترعش من البرد فقلت لها ما خطبك ايتها العربية ؟ فقالت لي

ناشجة شاجنة : كان لي حياء فسلبنيه تيودور اللص ! ثم اخذت تبكي وسترت بيدها وجهها حتى لا ارى اليه ، فخلعت عليها قبائي وقلت لهـــا هدئي روعك فاني ذلك الرجل الذي سيرد اليك حياءك !

ورأيت في الحدور الهاوية امرأة في الثمانين من عمرها فسألتها مابها فقالت لي ويدها تومض الى قعر الوادي الا تبصر ؟ فقلت وماذا عساي ان ابصر ؟ قالت رفات ولدي الطعين القتيل ! فلقد غيب تيودور النصل في صدره فما همس ثم رمى به من حالق الى اسفل ! ولم تزد تلك المرأة على حديثها شيئاً . ولكنني نظرت اليها فاذا خيال تيودور الدامي يبين في عينيها الغائرتين الغائمتين ولماظلتني الاصلاد الجاهمة في سلع واشتملت علي حجرتي في قصر الملك الحارث ، ترقرق خيال اليتيم القرشي في نفسي ، وخيل الي ويدي على صدري الهادر الثائر ان ذلك الصوت الذي سمعته اودية مكة وجبالها قد ترك صليله في قلبي ! فناديت محمداً وخيل الي ان صوتي العاصف قد شق طريقه الى فضاء مكة فسمعه محمد وسمعه هؤلاء الفتيان المساميح الذين يحفون به ، فما وسع محمدا الا ان يجيب ندائي ، بل لقد خيل الي ان صوت ذلك القرشي اليتيم قد استفاض في فضاء سلع حتى لقد هزت نبراته الرقود النيام من ملوك النبط فخرجوا من القبور التي وارتهم الى الحياة الدنيا ليستأنفوا الكفاح في سبيل حرية العرب !

وفي الصباح بعثت برسولي الى محمد ودعوته الى سلع ، بل لقد دعوته الى دمشق وما اخاله يصدف عن دعوتي ، انه ليتيم ولا مال له ، وقد نشأ في غير جند ولا حاشية ، ولكن الله رحم به جزيرة العرب فما لبثت هذه البلاد التي تبحث عن رجل يجمع امرها ويقضي لبانتها في الحرية ان صارت في حاشيته ! وهكذا اثاب الله هذا اليتيم الذي احب وطنه ورفع من قدره واصبح الناس يعلقون آمالهم على النبي اليتيم الذي ولد من ابوين عربيين في بلاد تتكلم العربية

وسيقول الناس متى رأوه ان وطنهم الذي احبوه قد باعته طوائف من الجبناء ذلاً فلم يرخصوا النفس في سبيله ولو فعلوا لجنبوه عار البيع . وسيفرح الناس

لأن الوطن الذليل لم تعد تتقمصه السلائق النبيلة منذ ذلك اليوم الذي نذر فيه محمد ليموتن او يطهر ارض الوطن من رجس الاجنبي !

هنالك ياسيدي عند سفوح مكة شيوخ من قريش لم تخالط نفوسهم اعراف الحرية وقد نشأ هؤلآء في جيل من العبودية ، فلم ينتبهوا الى جراحات الوطن ، ولم ينظروا الى قروحه وذلك لأن معظم هؤلآء الشيوخ كانوا سدنة لهياكل تعيش في ظلالها ديانات طائشة لا تنسجم في سلائق الوطن ، ولا تتحد في غرائزه ولو قدر لهؤلآء ان ينتصروا لكان لزاماً على العرب ان يظلوا عبيداً للفرس والرومـــان ، ولـكن الله الذي افرغ على يتيم قريش هذا الذي افرغه على الرسل من صفاء وطلاقة وكبر نفس وصلابة ايمان لم يلبث ان افاء على جزيرة العرب شيئاً كثيراً من نعمه السوابغ . فقام في مكة جيل من الشباب لاهم له الا ان ينظر فيجراحاتالوطنوفي قروحه ، وسيكون منهذا الجيل المتحمس سدنة لمعابد يتيم قريش في الشام والعراق!

قال مالك اني لأرى في عينيك صورة القتيل الشهيد ، وما احب ان يطل دم اراقه صاحبه في سبيل قيصر وفي سبيل النصرانية ، فهلا جنبت نفسك هذه الحماسة الطاغية ورجعت الى سكينتك ووقارك واستبقيت دمك ، نعم انه لمؤلم وشجي ان يعبث تيودور بشيوخ سلع وان يوغل في عبثه فلا يســـلم منه رضيع او امرأه ، ولـكنك الرجل الذي احبه قيصر لنجدته ومروءته . وفي ميسورك ان تقص عليه عمل اخيه ، فينهاه عن البغي ويمنعه ان يسرف في مجافاة الناس ، وذلك افضل من استنفارك عصبية قومك ، واجل من نزوعك الى استثارة حمية الصحارى ، وما اظن قيصر يتباطأ في امر تعود جدواه عليه وعلى الناس جميعاً ! وهو الرجل الذي عرفت بره بدينه وعرفت حرصه على دماء ذويه !

قال : اما انك رأيت في عيني صورة القتيل الشهيد ، فذلك امر ما كان يفوتني شيءمنه ، فلقد تنبأ كاهن لابي يوم مولديعن موتةاموتها فيوادي سلع ، وقالذلك الوالد الذي رق لمصيري ، انها لموتة تشرفالجيل الذي تعيش فيه ، وتمجد الاجيال

القادمة ! فقال ابي وعيناه تنظران الى مهدي ولما يسمع صوتي بعد ، هل يملك هذا الطفل ؟ فاجابه الكاهن يملك من شاطيء ايلة الى الاردن ، ويفتح بيده مغاليق الصحراء فيجتازها نبي عربي الى المدن الزهراء ! فصاح ابي : ممن يكون هذا النبي الذي تحدثت عنه ؟ فقال الكاهن من قريش سادة العرب فصفق ابي بيديه وصاح وافرحة النفس ! فان ابني هذا سينتهي الى شرف عظيم »

ثم تعاقب على احاديث الكاهن خمس وعشرون سنة ، هلك في خلالها ابي ولم تهلك مطامحي ، فلقد ملكت من شاطيء ايلة الى الاردن وبعثت برسولي وهداياي الى النبي اليتيم ، فدعا لي احر دعاء ، وباركني ولم اره بعد فكان من بركته ان انبثق في نفسي جناحان ، وما زال هذان الجناحان يحلقان بي في كل افق ، حتى خيل الي انني موشك ان اطل على المدن الوارفة الظل ، طارداً امامي جيش قيصر الرومان !

واما ان قيصر رجل طيب السلائق ، وانه الى ذلك ضنين بدماء ذويه فذلك امر قد يصدقه البسطاء من الناس ، ولا يصدقه فروة بن عمرو الجذامي سيد ايلة وامير سيناء ، وذلك لأن قيصر على ورعه وتقواه وبره بنصرانيته قد فتك بالمستضعفين ولم يعف عن المستضعفات ، وما زال يغري اخاه تيودور باحراق الضيع العامرة ، وقتل الشيوخ من الرجال ... اسامعي انت ياسيدي ؟ لقد دعوت رجالا من بني ابي وعمي الى سلع ليروا بعيونهم كيف استطاع فروة بن عمرو الجذامي ان يرفع على ذرى سلع تمثال الملك الحارث ، وسيرى شباب قومي وشيوخهم في الغد ان ساعدي القوي الذي ارسخ التمثال على الروابي الشم لن يحس وهنا وضعفا ساعة يهوى بتمثال قيصر الى الحضيض الاوهد !

وكانت الحماسة قد طغت على نفس فروة فما عاد يبصر الراهب ، ولا هذه الصور الحائمة من حوله فمست يده مجمرة من النحاس يحترق فيها البخور ، فرمى بهـا الى الارض وهو في ثورة من الجنون فتحطمت وانبعث منها صليل عنيف اخاف مالكا وارعشه ثم لم يلبث الراهب الذي عرف بسعة صدره ولينه وتواضعه ان هذأ

وسكن ، ثم تلفت الى فروة وقال له بلغة ناعمة :

— لعلك قد نسيت انك في بيت الله ايها الامير ؟

فاستحيا فروة وجعل ينظر الى المجمرة المحطمة فلم يغرب عنه انه افرط في حماسته وهو في مكان لا ينبغي فيه لا مريء ان يستكبر ، وكان على زهوه وخيلائه شديد التقى فانحنى على المجمرة وتناولها بيده الراجفة ثم اعادها الى مكانها في تواضع وخوف وكان شعوره قد رق كثيراً فقال لمالك :

صفحاً ياسيدي فاني ما اردت ان اسيء اليك ومـــا قصدت الى الزراية بالمعبد المقدس وانما انا رجل نذر لوطنه نذراً فاحب ان يقضي نذره في غير رياء ولا مصانعة ، وقد حفزني هذا النذر الذي اولعت به الى زيارتك لاعلمك بان هـــذه الارض من سيناء وهي في ظلي وتحت رعايتي ستطرد من الغد رجال قيصر ، فاذا مضيت الى ايلياء وحضرت الصلاة في كنيسة القبر المقدس وسألك قيصر عن فروة ابن عمرو الجذامي فقل له ان امير ايلة فعل فعلته وفاء لنذره !

— فروة بن عمرو ؟

— سيدي !

— اتدري ان قيصر سيد الكتائب ! ...

— ادري !

— وانه انتصر على ملك الملوك كسرى ! ...

— اعلم ذلك !

— ثم اتدري ان ايلة اسم لا يعرف الناس من امره شيئاً ، وان القسطنطينية اسم لمدينة تسيطر على العالم كله !

— نعم ادري واعلم الى جانب هذا كله ان في تاج قيصر من اللآلىء ما ليس في تيجان ملوك الارض ؛ ولكنني نذرت نذراً لقومي ولوطني فما احب ان يفوتني الوفاء به على الرغم من ان لقيصر البحر كله والبر كله ؛ وداعا ياسيدي ولا اقول الى

لقاء قريب لأن خيالة الموت بدأت تغشاني فقد تقلدت سلاحي في الليلة الفائتة !

ولم يشأ فروة وقد طفحت نفسه بالشجون ان يطيل مكثه في الدير فلثم يد الراهب المبجل وانحى ناحية الباب يريد خروجا منه ، فصافحت عيناه على الحائط للمرة الثانية تلك الصورة التي تمثل السيد المسيح على الصليب فرعش وحاول ان يتولى عنها فما استطاع الى ذلك سبيلا فلقد ظلت عيناه تنظران الى الصورة ، وظل الخوف طاغياً على نفسه حتى سمع مالكا يصلي ، فامــالته هذه الصلاة عن الصورة ووقف يتسمع لهمس الراهب ، فاذا ذلك الهمس الضعيف الذي اخذ يتعالى من صدر مالك دعاء شجي سأل الراهب فيه السلامة لفروة بن عمرو الجذامي ، فبكى سيد ايلة بكاء شديداً ، ثم ترك مكانه في الدير وهو في ثورة تشبه الجنون ، فلحق به مالك الى البـاب وفروة لا يعلم بلحاقه ، ولما انضم الجذامي الى رجاله وخالط صفوفهم جثا الراهب على الارض جثواً اثما ودعا لسيد ايلة ، وفي تلك الاثناء خرق سمع مالك نشيد حربي فانصت له ، فاذا هو نشيد اولئك الرجال الذين اظلتهم رايات الجذامي ، وللمرة الاولى سمع الكندي اسم يتيم قريش في الارض الكاسية النامية بجوار سفوح سربال !



الفصل الرابع

تمثال الملك الحارث

توافى جند فروة بن عمرو الجذامي ، وجميعهم من متنصرة سيناء وايلة ومعان الى وادي سلع ليشاطروا رؤساء الجيش وغطاريفه مفارح العيد الذي تنادوا الى احيائه تكريما لذكريين من ابر ذكريات سلع ، ذكرى انتصار القائد الزعيم على جيش كسرى في ميادين الشام والعراق ، وذكرى رفع تمثال الملك الحارث النبطي على جلامد المدينة الخالدة !

وقد جاش هذا العيد باسباب النعيم والترف ولكنه ظل خليا من عنفوان فروة بن عمرو وكبره فقد صدف عنه الزعيم قبل ايام ومضى في اسفاره الناصبة على ان يرجع الى سلع في ليلة العيد ويشهد بنفسه حمية فتيانه وهم يرفعون تمثال الملك الحارث على شواهق الاصلاد !

ومع ذلك لم ينس رفاق فروة ان يريقوا على هذا العيد جمال النصر الذي ادركوه غضا جنيا في سوح القتال فالهبوا الوادي بحميتهم وطغت اناشيدهم على افقه حتى راحت تشق طريقها الى قبور الذادة النيام في قبور سلع وحتى تندت عظام هؤلآء الهالكين فاحسوا سحر تلك الاناشيد فغنوها وهم في قبورهم ومضاجعهم

ولو ان طائفاً من الناس طاف بالوادي في صباح العيد ، ومر بالفرحين الناعمين لشاقه ان يستمع الى اغانيهم ، ثم لا يلبث ان يتعلمها ويجريها على لسانه او يطوي صدره على لحونها ليحمل معانيها في غده المقبل الى افق جديد !

اراد قيصر غطاريف سلع على موافاته الى طرق ايلياء ليمشوا في موكبه الحافل فابوا نزولا على ارادة سيد الدنيا ، ورأوا في مسايرته ومساوقته اذلالا لهذه الارض الصغيرة التي حملت نصيبها الضخم من الانتصار على جيوش كسرى واقسموا ليكون

في سلع عيد لا يماثله في روائه وكبريائه هذا العيد الذي حشد له هراقليوس كل ما في القيصرية الرومانية من رواء وكبرياء !

وقد كانوا على حق في نزوعهم الى منافسة قيصر في شممه وعنفوانه ومساوقته في زهوه وكبره ، فلولا سيوفهم ما كان قيصر يستطيع ان يسلب كسرى انتصارات اثنتي عشرة سنة بجحاملك الملوك في ثلاثة ميادين ، ارمينية ، والشام . ومصر ، ولولا هذه الحماسة التي طغت على صدورهم وافهامهم لكان لزاما على النصرانية ان تعاني الما ماعانت مثله في شبابها الاول ؛ ولولا هذه الدماء التي اراقوها على بطاح دجلة ما كانت هذه النصرانية التي اورف ظلها على جبال الناصرة تستطيع ان تسترد الصليب وهو شعارها السليب ، بل لولا هذه الحمية العربية ما كان لجندي من جنود الرومان ان يرفع راية لبيزنطية على حصن ، او يقيم تمثالا لقيصر على جبل ، وذلك لأن الرومان على كثرة عديدهم قد امضوا اثنتي عشرة سنةوهم يخافون كسرى وظل هراقليوس نفسه هائماً على وجهه في نواحي ملكه حتى اشركت النصرانية العربية حظوظها في حظوظ النصرانية الرومانية ، فابتسم النصر لسيد الدنيا وظفر بطرد الوثنية من الارض المقدسة

وكان البسطاء والسذج من صحاب فروة بن عمرو يعرفون كيف احجم قيصر عن اللحاق بالمدائن ، وكيف ان عصابة كريمة من رجال فروة عبرت دجلة فلحقت بملك الملوك ، ثم عادت هذه العصابة الى هراقليوس ومعها صندوق من الذهب يحتوي على خشبة الصليب !

نصب الجنود الفرحون في الوادي خياما من الارجوان تهدلت على حواشيها مصابيح من الذهب غنمها الغزاة الفاتحون من مدائن كسرى ، فاظلت هذه الخيام الوادي من منبعه عند قبور النبط الاولى الى منحدره بجوار قصر الفيلارك سيد ايلة ، ثم استفاض هذا البحر الزاخر من الكماة المساعير على الوادي حتى طفحت به مسارب ذلك الممر الرهيب المعروف بالسيق ، واخذ الجند اماكنهم تحت بواسق

التين ولحق بهم عند الضحى رفاق لهم من حامية الحصون والقلاع التي بناها اللخميون من عمال قيصر في اطراف زيزاء ! وتفرق بعض هؤلاء حيال الماء وهم يغنون ويلعبون ويهتفون لفروة بن عمرو وكانوا كلما ذكروا اسم الرجل الذي اداناهم من النصر في مدائن كسرى شخصوا بابصارهم الى الطرق المفتوحة امامهم ليروا اطلاله عليهم ثم ارتدوا الى كئوسهم وشربوا الرحيق صافيا

ولما يئسوا من الانتظار صعد شباب منهم الى سطح المسيل الذي ما انفك منذ اطول العصور يشق طريقه الى الوادي حتى اطمأن الى حضيضه . فمائوا اطراف السطح وبدت لهم في حافتيه على ارتفاع سبع اذرع قناتان عميقتان تتصلان بنخاريب الصخور ، فزرفوا اليها فاذا الماء يراق منهما ليسقي المدينة الخالدة ، وقد كان عرب النبط في العصر المواضي يخشون من تجمع الامطار ومن الزوابع فحفروا عنـــد مدخل المضيق نفقاً تزاق اليه المياه ثم تتسرب منه الى الاودية !

وكان الوادي يزخر بالرطوبة فزها العشب وبسق الغار ، واورف التين ، في هذه الاماكن ردد رفاق فروة بن عمرو اناشيدهم الصافية وقضوا نذرهم لسيدهم فلم يذهبوا الى ايلياء ليسيروا في حاشية قيصر !

لقد قال شيخ من شيوخ سلع وهو يرتدي قباء من الديباج ليت لقيصر عينا فترى الى هذه الحماسة الطاغية على شبابنا في هذا البكور البهي بل ليته يرى الى تمثال الملك الحارث وهو في مستقره على ذرى الوادي ! لقد قيل ان فروة بن عمرو اتى بنحات رومي فسأله ان يصنع له تمثالا للملك الحارث فاين هو ذلك النحات ؟ وما باله قد تباطأ علينا فلم يخرج الينا بما صنع ؟

فقال فتى من قضاعة : اتدري اسم هذا النحات ؟ قال لا ! قال اسمه كريستياوان نبأه لعجيب فقد رأيته بعيني منذ ايام يصعد الجبل ، ثم رأيته لايمل ترويض الصخر الواعر فهو يتهافت عليه بفأسه تحت افق شديد القيظ ، فما يثنيه عن عمله رسوخ الصخر في مستقره ، وكنت الحظه من بعيد وانصت الى همسه فاسمعه يردد الفاظا

شديدة الغموض ، ولكنها الفاظ اجراها على فمه بغض يخفق لمصدره ، فلقد رأيت في عينيه وهو يهوي بفأسه على الصخر قبساً من بغض وشعلة من موجدة ثم تدافع جنونه على الصخر فانفلت من مكانه متداعيا لخمسه استخذاء الصخر فادمن الضرب بساعد قوي وصبر عجيب ، حتى جمع اليه شيئاً كثيراً من الصخر وكان رفيق له ينتظر اوبته عند حضيض الجبل فرمى اليه بالحجارة من حالق بعيد ، فتدحرجت عـلى الذرى حتى استقرت على السفح ، ثم لحق النحـات برفيقه فتناصر الرجلان على الحجارة وحملوها الى سلع ، وبعد ايام مررت بالملعب فاذا المثال قد دأب في نحت الحجارة فجعلت اسف النظر اليه عن كثب حتى رأيت وجهه الذي تمثلته قبل ليال مسفوعا عانيا قد زها واشرق ثم اذا ذلك الخليل الذي رافقه الى الجبل عاد يتحدث اليه بلغة معسولة محببة تطامن اليها ثم اصغيت فاذا ذلك المثال يمتنع عن نحت الحجارة ويلقي نظراً شارداً الى ابواب قصر امير ايلة المقابل الملعب . ثم تعاون الخليلان على التحديق في ابواب القصر وفي مساربه وشرفاته واطنافه . وكنت لا انفك انظر اليهما فبدا لي ان النحات لم يفارقه غمه ويأسه فلقد كان وجهه على روائه ولمعـانه يفيض غما ويأساً فقلت في نفسي : « اي رجل هذا ؟ وما باله يلقي على القصر هذه النظرات الحائرة ؟ »

وخالجني شك في امره فتوهمته عدوا تساقط على سلع ليتعرف الى امورهـا ، ويسترق ما تهمس به في ليلها وصحيها ، ثم هو يحمل نبأهـا الى قيصر بينما الزعيم الغطريف لا يزال في سيناء او انه صاحب ثأر تواثب البغض الى نفسه فراح يلقي الى القصر حدجات الرجل الذاهب اللب !

وفي تلك الاثناء فتحت نافذة في القصر تطل على ساحة الملعب ، وبعد قليل بدا على الطنف سرب من نساء جذام بينهن تلك الفتاة الاغريقية التي تزوجهـا فروة قبل ليال فلما اطلت على الملعب من الطنف الرخامي برق الفرح في جبين ذلك النحات وضحك رفيقه ، ثم رأيت الفتاة الرومانية تومض بيدها الى الرجل كأنها

تحييه فما منعها تحيته ثم سمعتها تناديه :

كريستيا ! كريستيا ! فخيل الي وانا انظر الى هذا المشهد ان المرأة التي علق بها سيد ايلة قد اجتوت الحيـــاة وملتها في صخور سلع او ان زوجها الغطريف قد ابتعث في نفسها شجنا فاحبت ان تلهو بحب جديد !

وكررت الفتاة نداءها : كريستيا ! كريستيا ! اين انت ؟ فصـاح وهو لم يبرح مكانه : سافو ! سافو ! فقالت : مضت ليال وانت في عزلتك بين الحجارة والجلامد حتى لقد خيل الي انك ما تحب ان تفارق حياتك الماضية بين الصور والاصنام ! هلم الي واسمعني صوتك ، ناشدتكم الله ايها الرفاق الا تقطعوا حديثي فان هذا الشك الذي تحيف نفوسكم لم تفتني صورته الجـاهمة ، فلقد تدفقت في سيري حتى اتيت الملعب ونذرت ان احسر عن الرجـــل وامنعه الوقوف تحت الطنف وفاء للزعيم الغطريف . فاذا النحات قد فارق مكانه ولحق بباب القصر وعرس تحت الشرفة فجريت اثره فلم يفته امري ، فتلفت الي وقال لي بلهجة صـافية هادئة : مكانك ياسيدي فانها اختي وتطاولت الفتاة اليه فاذا هي تناديه هلم الي يا اخي وقص علي نبأك ! فقال لها هوني عليك فان فروة لا بد ان يؤوب وسيزول هذا الضجر الذي احسسته متى اسمعك صوته ! انه الرجل الوفي الامين يا اخية ! فتضاحكت وقالت له ، متى تفرغ من نحت الحجارة ! قال عما قليل قالت : لمـاذا لم تذهب الى الوادي فتشترك في مفارح سلع ؟ قال : ولـكنني اكره الاعياد والمواسم وليس يفوتك من كرهي لها يسير او كثير ! ومعذلك فقد ازمعت خروجا الى لقاء فروة عند رجعاه من اسفاره ! ثم عاد الى عمله وزوج الزعيم تنظر اليه في رفق ودعة فاستحييت من امري ورجعت رجعة الخائب » ولما فرغ القضاعي من حديثه ضحك الجند وصاحوا ما اشد غفلتك فلقد كدت تقتل بريئاً لاذنب له الا انه احب الناس بعد فروة بن عمرو الى المرأة التي جاء بها من بلاد الاردن ! وقال قائل : من يسمعنا احسن القصص عن امريء القيس بن حجر فصاح فتى من كندة العراق : انا لذلك ! ثم

استوى في قعدته واخذ بيده كأساً تفيض خمراً وصبها في جوفه فتبارى الجند في محاكاته ومجاراته ، حتى احمرت عيونهم وتلظت في نفوسهم سورة البأس فقال الفتى الكندي تعلمون ان عفراء ام فروة بن عمرو من كندة فهي تمت بنسب صحيح الى الملك الضليل . فان جدها الاعلى حجر آكل المرار ، وهي اخت فاطمة ام الحارث ابن ابي شمر ملك غسان وصاحب قيصر ! وقد كانت شديدة الاعتزاز بقومها فما تمضي ليلة الا قصت فيها على ابنها شيئاً كثيراً من اسفار امريء القيس ورحلاته فاذا مل فروة احاديث امه عن الاسفار والرحلات قصت عليه شيئاً كثيراً من اشعاره في الحب والخمر فلا تدعه يفيء الى حجرته في القصر حتى تطمئن الى ان احاديثها عن سيد كندة قد علقت بنفسه . فقد كان يهمها ان ينشأ فروة كنديا في روحه وشممه فيتنكر للرومان كما تنكر امرؤ القيس لهم ! وكان زرعها شهي الحصاد ، فان فروة لم يلبث ان ارتد كنديا فهو عدو لقيصر وعدو للرومان معاً وهو شديد الولع بامريء القيس ، شديد الولع باخباره واشعاره معا ! بل ان فروة يذهب في محاكاة امريء القيس الى المدى البعيد ، حتى انه ليردد اشعاره ليل نهار ، ويتغنى بها في قصور سلع ثم يقولها على مسمع من رجال البوادي ويزعم ان روح امريء القيس لبست روحه ، وانه سيثأر بدمه من قاتليه ! وقاتلوه يوستينانيوس قيصر وهؤلاء الرومان الذين نشروا اشباحهم الراعبة على ذرى سلع حتى اخاف مشهدها ولدان الحي وشيوخه

حدث بعد ليلة العرس ان خرجت نسوة من جذام الى غدير بجوار سلع ومعهن سافو فتعرين ورحن الى الماء تحضنه ، وفروة لا يدري من امر عروسه شيئاً ! فقد كان الزعيم الغطريف ساعة خرجت سافو من القصر يلهو بترديد اشعار امريء القيس ويقسم امام اصدقائه ليحذون حذوه في قتال الرومان ، فلما ابطأت حسناؤه في الرجوع الى القصر همه ذلك ، وطفق يبحث عنها بجوار سلع حتى اطل عـــلى الغدير ، فاذا اشباح بيض عائمة على الماء فتدفق في سيره وقد سحره المشهد ، فاذا نسوة مستنقعات في الماء فلما ابصرهن عاريات استحيا ووارى عينيه بكفه فرأينه وعرفنه وصحن

« اجهش الينا ايها الفتى فروة بن عمرو » فقال اتركنني فوالله ما انا بالرجل الذي يطيق مكركن ، فارينه سافو وقلن له هذه عروسك فما بالك تنأى عنها وهي تقرب منك ! الست صاحب امريء القيس بن حجر ؟ الا تحاكيه حتى في عبثه ولهوه ومراحه ؟ فثنى عنان فرسه راجعاً . فقلن له على رسلك نخبرك بشيء . قال وما هو فقلن: حديث طريف عن امريء القيس ، اتعلم شيئاً عن يوم دارة جلجل ؟ فطغا حياؤه ونادى سافو ! هلمي فنبتعد ! فنادينه انك لن تفعل ! فاسمع : وكان الماء يتدافع على اجسامهن حتى بلغ حلوقهن ، وسافو معهن في غلالة رقيقة تستر جسمها ، فلما ايقن ان لا محيص من سماعه حديثهن قال تكلمن ! فقالت واحدة منهن !

« كان امرؤ القيس قبل نزوحه الى قيصر قد اولع بفتاة من بنات عمه يقال لها عنيزة فمضى الى اهلها وسألهم ان يزوجوه منها فابى عمه عليه ذلك لأنه زير نساء وشريب خمر فجعل يرقب غرة من اهلها ليزورها فلم يقض له حتى كان يوم الغدير وهو يوم دارة جلجل وذلك ان الحي احتملوا فتقدم الرجال وتخلف النساء والخدم والثقل فلما رأى ذلك امرؤ القيس تخلف بعد ما سار مع قومه غلوة فكمن في غابة من الارض حتى مر به النساء فاذا فتيات وفيهن عنيزة فلما وردن الغدير قلن لو نزلنا فذهب عنا بعض الكلال فنزلن ونحين العبيد عنهن ثم تجردن فاغتمسن في الغدير ، كحالنا الساعة . فأتاهن امرؤ القيس محتالا وهن غوافل فاخذ ثيابهن فجمعها وقال لهن والله لا اعطي جارية منكن ثوبها ولو اقامت في الغدير يومها حتى تخرج مجردة فابين عليه ذلك حتى تعالى النهار ثم خشين ان يقصرن دون المنزل الذي اردنه فخرجت احداهن فوضع لها ثوبها ناحية فاخذته فلبسته ثم تتابعن على ذلك حتى بقيت عنيزة فناشدته الله ان يطرح اليها ثوبها فقال دعينا منك فانا حرام ان اخذت ثوبك الا بيدك ، فخرجت فنظر اليها مقبلة ومدبرة فوضع لها ثوبها فاخذته واقبلن عليه يلمنه ويعذلنه ويقلن له عريتنا وجوعتنا ، قال فان نحرت لكن مطيتي اتأكلن منها قال نعم فاخترط سيفه فعقرها ونحرها وكشطها وصاح بالخدم فجمعوا له حطباً

فاجج ناراً عظيمة ثم جعل يقطع لهن من سنامها واطايبها وكبدها فيلقيها على الجمر فيأكل معهن ويشرب من ركوة كانت معه ويغنيهن حتى شبعن وطربن فلما اراد الرحيل قالت احداهن انا احمل طنفسته وقالت الاخرى انا احمل رحله وقالت الاخرى انا احمل انساءه ، فتقسمن متاع راحلته بينهن وبقيت عنيزة لم يحملها شيئاً فقال لها امرؤ القيس يا ابنة الكرام لا بد لك ان تحمليني معك فاني لا اطيق المشي وليس من عادتي فحملته على غارب بعيرها فكان يدخل رأسه في خدرها فيقبلها فاذا امتنعت مال حدجها فتقول يا امرأ القيس عقرت بعيري فانزل فذلك قوله :

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري ياامرأ القيس فانزل (١)

ولما انتهت الفتاة من حديثها وقفت تنظر الى فروة لترى الى الاثر الذي تركته هذه القصة في نفسه فاذا الزعيم الغطريف لا يزال على حيائه ، واذا هو يأبى ان ينظر الى الاشباح البيض العائمة على الماء وكان اشد ما ارمض نفسه وآلمها ان لا يكون هذا المشهد الذي رآه حاضراً في ذهنه قبل اطلاله على الغدير ومع ذلك ماكان يستطيع ان يبقى طويلا على حيائه وتردده ، فلقد قالت تلك الصبية التي تحدثت اليه عن قصة غرام امريء القيس بعنيزة « ان الملوك يفعلون اكثر من ذلك ياسيدي ، وما اظنك نسيت ان امرأ القيس كان ملكا ! ولماذا لا يفعل الملك فعلة امريء القيس وله عين تبصر ، وقلب يشعر ! ثم ضحكت ضحكة استفاض جرسها الرقيق الناعم في افق الوادي ، فتدفق فروة الى الغدير حتى اتى حافته فاذا النسوة قد القين رءوسهن الى الماء . ثم بدون ضاحكات عابثات ورمين وجه فروة بالماء وهو مقبل عليهن ، فما ثناه عبثهن عن اقتحام حافة الغدير وعليها ملابسهن ، فلما ظفر بضالته والقى الملابس في ناحية صحن به الا اردد علينا لباسا اخذته ! فضحك وقال لا افعل حتى تخرجن الي عاريات ! ... فخرجت احداهن فوضع لها ثوبها ناحية ، فاخذته ثم تتابعن على

(١) الاغاني ج ١٩ ص ٢٧

ذلك حتى بقيت عروسه في الماء فسألته ان يلقي اليها بثوبها فما فعل ، ثم رأت الا معدى لها عن مجاراته في ميوله فخرجت من الغدير واقبلت اليه وعيناها تنظران الى الارض من الحياء. فرق لها وخلع على الغلالة الرفيعة التي تستر جسمها قباءه المذهب ثم احتواها بين ذراعيه واخذ يشم ريحها والنسوة ينظرن اليه وهن يضحكن !

لقد قالت له كبراهن : تعال اسمعك شعراً لامرىءالقيس ، ثم غنته بعضاشعار ذي القروح (١) في وصف دارة جلجل (٢) فطرب وقال لهـــا ويده تدغدغ شعور الرومانية : لو ان لهذه بعيراً كبعير عنيزه لوطئته فلا افارقه حتى تقول لي ماقالته عنيزه لحبيبها العميد : « عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل » ثم شق طريقه الى القصر تحف به صواحب الحبيبة الغالية ،

فضحك الجند من هذه القصة وتعالى هتافه لفروة بن عمر سيد ايلة .

٭ ٭ ٭

امتدت خيام الجند من الصهاريج الرومـــانية الى المكان الذي قام فيه هيكل ايزيس البديع ، ويجتاز المرء هذه المسافة في دقائق معدودة ، يرى في خلالهـا الى اجمل المعابد والهياكل التي كانت ولا تزال الى عصرنا هذا مصدر شهرة سلع ومنبع مجدها ، وامتع هذه الطرف البـــاقية على مدى الدهر هيكل بني باسم ايزيس ربة المصريين اهداه الى مدينة سلع الامبراطور هادريان في القرن الثاني فاذا نظر انسان اليه وتأمله عن كثب بهرته تحاسينه واخذته بروقه ، وشاقته صور الآلهة الى جانب صور الانسان والحيوان منقوشة على اطرافه وجنباته ، وقد نحت هذا الهيكل البارع من حجارة رملية حمراء اذا احرقتها الشمس ترقرقت عليها صور بعضها بلون الذهب وبعضها بلون الزمرد ، وقد اضاف سكان سلع الى هذا الجمال البارع الذي خلقه الانسان شيئاً كثيراً من مفاتن الطبيعة ، فانبتوا حوله الرياحين والاوراد ، فلو قدر

(١) لقب لامرىء القيس بن حجر

(٢) معلقة امرىء القيس ومطلعها « قفا نبك الخ ... »

لسائح ان يرى الى هذا الهيكل الجاثم في هذه الاطلال التي تظلها بواسق السحب لعسر عليه ان يستأصل خياله الرائع من نفسه ، وما كان اهنأ للمسافر ان يستعرض ذكريات اسفاره ورحلاته . وما رافق هذه الاسفار والرحلات من شؤون وشجون فلا ينسى وهو يعيدها في خواطره وهواجسه صورة في اثر صورة ، ومشهداً اثر مشهد ، هذا الذي ملأ سمعه وبصره من محاسن سلع ومفاتن الوادي .

بجوار هذا الهيكل الضخم الذي رفعه الامبراطور هادريان زلفى لربة المصريين ايزيس فج يمتد على مسافة بضعة اقدام فاذا اتسع وتطـــاول الى اليمين دل على روائع جديدة وفتح الطريق امام الملعب الروماني ، فبدا هذا الصرح الذي وسع اهواء الاغريق الى جانب اهواء الرومان الى جانب اهواء النبط ، في سمته الزهراء وحجارته الحمراء ، فوق خمس عشرة مصطبة تراكب بعضها فوق بعض ، بينما تطل ساحة التمثيل على المسيل الجائش الثائر ، وعرض هذه الساحة ثمانون ذراعا ، ثم تبين فوق اعلى مصطبة في الملعب حياط من الحجر الصلد تخترقها غرف ومقاصير قيل ان قدماء النبط كانوا يجتمعون اليها ، ثم يخرجون منها الى الملعب ليعرضوا على المتفرجين ذكريات اللات والعزى وذي شرى من آلهة النبط عرب الشمال وآلهة قريش في الجاهلية وقيل ان ممثلين رومانيين كانوا ينزلون في زمن الفتح الروماني بهذه المقاصير لعرض بعض المشاهد التي كانت تصادف هوى في نفوس الناس

ومن المحال الزعم ان سلع كانت تضم الى اطرافها مدرسة للتمثيل كمدرسة روما ومدرسة اثينا والراجح ان الشهرة التي يتمتع بها الملعب الروماني في سلع مقتبسة من جعله ميدانا لتعذيب شهداء النصرانية في صدرها الاول في زمن الامبراطور ديوسليسان

في غرفة من غرف هذا الملعب التاريخي يعيش المثال الشاعر كريستيـــا الى جانب صديقه الوفي مارسيليوس وعلى مسافة عشرين قدما تعيش سافو الحسناء في قصر الفيلارك فروة بن عمرو الجذامي سيد ايلة

لقد كان الجند يهتفون في وادي سلع لفروة ، فلا يلبث هذا الهتاف ان يستفيض

على مسافة مائة وعشرين ذراعا فتميد له القبور المنحوتة والهياكل المحفورة ويصل صداه الى الملعب فلا يفوت كريستيا وصاحبه. ثم يصل هذا الصدى ندبا رقيقا الى سمع سافو الصغيرة فتجفو مكانها في حجرتها وتأتي الى الشرفة المطلة على الملعب وتنادي كريستيا فيخرج اليها من مقصورته فيضحك لها ثم يرفع ذراعيه الى الشرفة فترى سافو اليه فتقول له : الا تنتهي من عملك ؟ فيرد عليها رداً جميلا ثم يعود الى حجرته ويستأنف النحت على الحجارة ومارسيليوس لا يفارقه ولا يجفوه . ثم يستأنف الجند النشيد عند سرة الوادي ويستأنف كريستيا الضرب على الحجارة بشدة وعنف فيضيع نشيده في صليل الحديد على الجنادل ويصل الى سمع كريستيا ضعيفاً ضئيلا ولكن النشيد يظل على صفائه وروائه خارج الملعب حيث لا يرى الناس جبين كريستيا المكفهر وحيث تغيب عنهم صورة مارسيليوس الكامدة

كان الملعب ولا يزال جزءاً من القبور القديمة ، وقد نقر في الطرف الشمالي من صخرة سلع فاذا انعكس نور الشمس على حجارته بدا مكسواً بالوان زرقاء وحمراء ولكنها الوان يرف عليها شحوب شديد ، وكانت عمد الملعب تزخر برسوم رومانية ونبطية ومصرية فاذا تأملها انسان من بعيد تحت بريق الشمس خيل اليه انه يرى الى صور للطير فاذا صاقبها لم يلق غير الحجارة وقد كان الملعب مقراً لعبادة البطولة ، ثم لعبادة الحياة بافراحها واتراحها

لا يماثل كريستيا في ولعه بفنه وحرصه عليه اي مثال في جيله ولكن الشاعر الضاحك في جنات الاردن وخمائل طبريا على شديد حماسته لفنه ، وشديد رغبته في الانصراف الى نحت تماثيله . ما كان يحب هذه العزلة التي حمل على استساغتها في صخور سلع فكان يشعر بان حياته اكبر من ان يسعها هذا الصخر النابي عن العالم ، وما زالت حياته الفارطة على سفوح طبريا حيال شواطيء البحيرة تغريه بالصدوف عن حياته الجديدة فكان اذا اظله الليل وانتبذ مكانه في مقصورته بجوار الملعب يفيء الى ماضيه الداثر فيستعرض احداثه وصروفه . وما يبالي ان تطرفه

خيالة هذه الاحداث على وجه لا يرضاه ولا يحبه ، فهو يستمريء ان يتعبد في حرمه الاقدس ولا يمل ان يتحدث الى مارسيليوس عنها فيواسيه هذا الصديق الوفي ويعزيه فاذا طلع النهار ولألأت ذكاء على قبور سلع جنح الى النحت فلا يلبث ان يبدو متشاجيا ثم يرق رقة الهمة ويترك عمله الذي ما اتمه بعد ويجفو الملعب الى غرب الوادي حيث تقوم مقابر عظيمة على شكل هرمي تنفصل عن الجبال المحاذية للسواقي فيقف في هذه الناحية حيال الاكربول ثم يأتي الى ناحية الشرق فيجلس الى رواق في بناء مربع يسميه العرب قصر فرعون جاء يذكره بذلك الهيكل الروماني الذي طاف حوله في لياليه عند شاطيء بحيرة طبريا الى جانب تلك الحبيبة العمانية بنيامينا ؛ وفي كثير من الاحايين يلقي نظراً شارداً على قصر فرعون فيخيل اليه ان بحجارته شيئاً كثيراً من ذلك الشعر المهذب الذي اسمعه بنيامينا ساعة مشى معها الى المعبد الدارس على ضفاف طبريا فلا يستطيع عزوفا عنه ، ويشعر بحاجته الى رفيقه فيناديه ابن انت يامارسيليوس ؟ ولماذا لا يأخذك هذا المشهد ؟ وحينما يرى صديقه قبة قصر فرعون وعمده وحناياه واقواسه تحت ضياء القمر في الليلة الساجية او على نور الشمس في متوع النهـــار يهز رأسه في ألم وحزن ويقول لذلك الخليل الذي رضي بنصيبه من آلام الصداقة الهادمة : كأن هذه الاماكن التي لا يعرف العـالم شيئاً عنها خلقت لاجلي يامارسيليوس ، انك لن تسخر من قولي ولست بقادر على ان تعير هذه المشاهد الشاحبة سنا الشمس ، انظر الى الموت في ليله المكفهر وفي اشباحه الجاثمة على مسارب الوادي الصارخة في قننه الرفيعة . افلا ترى في شحوب هذه المشاهد صورة لشحوب وجهي ، ان هذه الصحراء يامارسيليوس قد قبست اظلامها من صحراء حياتي ! كأن الله قد خلق هذا العالم وهو لا يعدو بعض الحجارة وبعض الجنادل يوم خلقني ، الا يشبه هذا الطلل الذي ترى طللا نمت فيه احلامي الموجعات المضنيات على الشاطيء الخفيض من بحيرة طبريا ؟ وهذه العمد المرمرية وهذه الحنايا . وهذه القناطر ، ثم هذه الابواب وهذه المقاصير ، الا تشبه

عهد المعبد الدارس وحناياه وابوابه ومقاصيره ؟

ان لحوني في هذا الوادي المنعزل عن الناس تشبه لحوني في المعبد الدارس ! فقد كنت اقول الشعر فتسمعه انصاب الآلهة من ابولون الى منرفا الى ديانا ، واليوم اقول الشعر في هذا الوادي فتسمعه انصاب الآلهة والارباب ! والفرق الذي احسسته بين المشاهد هنالك على شاطئ البحيرة ، والمشاهد هنا عند سرة الوادي ، هو ان آلهة سلع ولدت في شعر الصحراء الحماسي ، لا في شعر هوميروس الرائق ولا في شعر سفوكليس الصريح

وكان مارسيليوس يستمع لاحاديث كريستيا ، فلا يمنعه ان يمضي فيها ، فلقد كان يعلم اي نفس تجيش في صدر الشاعر المثال ! وكان يمانئه على ان الحياة في صخور سلع ليست مما يروق فهو يؤثر لو ان الماضي الذي نعم به كريستيـــا عند شواطئ البحيرة او حيال ضفاف الاردن لم يختتم في صخور سلع ، ولكن صبح الحياة مهما زها واشرق لا معدى له عن الانحدار الى ليل يواريه ويحجبه والماضي في ضحكه وعبثه واضوائه ورياحينه ، ساقية صغيرة تبتعلها بعد حين لجج بحر عظيم لا ساحل له اسمه المستقبل !

واقبل مارسيليوس يسأله في كثير من الحب والرأفة ان ينزع هذه الهواجس من نفسه ويحبب اليه الخروج من مقصورته لعله اذا جفا الخفق على الحجارة ، ونظر الى مفاتن الطبيعة يعود الى نفسه فيراها قد زخرت بجمال جديد وكثيراً ما احب مارسيليوس ان يخرج الشاعر الى الوادي ويمزج غناءه بغنـــاء الجند فابى وفضل الخروج الى الجبال لجاراه في هواه ، وانقلب معه الى الذرى حيث يستطيع كريستيا ان يستعرض هذا العالم الجديد الذي يعيش فيه

ولما اقلته البواذخ البواسق اخذته امواج من الضياء رمت بها ذكاء الى القنن فاحرقتها ثم ترقرقت على الحدور الهاوية ظلالا بلون البنفسج ، وتسربت عصـــائب من اشعة بيضاء الى الربا فتصدعت عنها بروق وسحب بلـــون الدهان ، ثم تتالى

التحريق واتسع وجعل يلتهم الصخور والجنادل فرأى كريستيا على هذه الاضواء الغامرة قبور النبط المرمرية وقد بدت تحت البريق الخاطف كمرآة من المعدن ! فشعر بخوف شديد من هذا المشهد ورعش رعشة عنيفة احسها مارسيليوس فتلفت اليه وقال له : مابك ياصاحبي ؛ فاشار بيده الى القبور وعيناه تصالحان هذه الرموس الماثلة من ريود الجبل الى حضيضه ثم انثني قائلا : الا ترى الى ما ارى ؟ ويلك اي رجل انت ؟ فاني ما رأيت اثبت منك جنـانا عند لقاء الموت في مملكته الراعبة ! فتضاحك مارسيليوس واجابه : لقد رافقتك احلامك الخبيثة الى هذه الاماكن ! قال اني ليخيل الي ان هذه القبور التي ترى قد نفضت ناسها فخرجوا يملئون الوادي بانات تشبه الصليل ! فتضاحك مارسيليوس كرة اخرى واردف :

« ان هذه الاطلال لقصيدة بارعة ، ولكنها حالية بالشيء الكثير من شجونك وآلامك ! فلم يجبه كريستيا ، بل استأنف طوافه بالجبال خلال نهاره حتى اذا خلف وراءه الجانب الغربي من الجبل عند مغاور الوادي وكهوفه اقبل الى الجانب الشرقي فاذا هو على مرتفع شاهق من جبل هارون حيث تسبح الشمس في مزالق مستورة وشعاب خفية ، فهاجه ان يتفاوح الافق امـام عينيه بل لقد هاجه ان يرى في امد واحد الى وادي العربة ونجود التيه وبادية سيناء كأنها اجتمعت كلها في صعيد واحد! ثم تلفت الى ذلك الصديق الغالي وقال له وهو يشير بيده الى سيناء : من هذه الطرق التي ترى يامارسيليوس خرج موسى النبي بشعب اسرائيل الى ارض الميعاد ، فهل يتاح لكريستيا السادر الحائر ان يخرج بامانيه من هذه الطرق الى ارض الموعد عند شواطيء القسطنطينية ؟ وللمرة الاولى بعد جفائه منزله في وادي الاردن ذكر كريستيا وطنه الاول واشتد حنينه الى ملاعب الطفولة ومراتع الحداثة فبكى بكاء شديداً تقاصرت له نفس مارسيليوس فاقبل عليه يمسح دمعه الهـامر ثم جعل يهدهد آلامه ويتحدث اليه عن حيـــاة جديدة تنتظره في القسطنطينية فزفر زفرة الرجل اليائس وقال ما احسب فروة يستطيع الوفاء بنذره ؟ الم يقل لي انه قد اعد

لقيصر موتة ماحلم بابشع منها احد ! اذن فقيم يتردد فروة في الوفاء بنذره وهو الرجل الشريف ؛ فقال مارسيليوس : صدقت فان فروة رجل نبيل وما احسبه قد ابطأ في القصاص لامر ؛ قل لي الم تلحظ على حياته تبدلا منذ وطيء هذه الصخور ؟ قال بلى ولقد رأيته مغموما حتى كأنه لم ينعم بعرسه ؟ ولما سألته عما به تكلف الضحك وقال لي اني ليسرني ان تجد في ارض وطني ماينسيك آلامك ولم يزد على ذلك شيئاً وفي اليوم التالي طرقت باب القصر وسألت سافو عنه فقالت لي انه انطلق الى سيناء وهو منقلب الى سلع ؟ ...

ولما انحدر كريستيا عن الجبل وتطامن الى الوادي مشى في ارض تمور بالمقابر وكان لا معدى له عن اجتياز هذه الرموس ليصل الى مقصورته في الملعب فاحس في نفسه رغبة ملحة تغريه بقراءة الكتابات المحفورة على القبور فلم يستطع فهمها لأنه يجهل لغة عرب الشمال ، وكان الهواء في الوادي شديد العصف والتكبير فروعه ان ترتمي الريح على جبينه ، ثم طغا خوفه حينما امتزج عصف الهواء بزمزمة الماء فالتفت الى مارسيليوس فقال له : يخيل الي ان هذه القبور عادت تهمس ؛ ولم يكن كريستيا كاذبا فان صرير الريح اخذ يطفو على القبور والاضرحة ، ثم اخذت الوان الجبال الغربية تهتز في عينيه وترعش فبرقت نظاراته وذكر وقفته على القنة واطلاله من ذرى جبل هارون على بادية سيناء ونجود التيه فقال لمارسيليوس وهو يقارن بين وقفته على صخور جبل هارون ووقفته في الوادي . لقد اترع الجبل المقدس نفسي بعزاء لطيف فخيل الي وانا احدق الى سيناء كأنني جد قريب من السماء ! على انني لست اجد شيئاً من ذلك في هذا الوادي حيث فتحت امامي هذه القبور الماثلة ابواب الجحيم ! واحنيني اليك ايتها الربا الضاحكة في جنات الاردن عند حدور بيت صيدا ، بل واشوقي اليك يا ليالي الفوانت عند بحيرة طبريا عن كثب من بنيامينا ! ولما همس باسم بنيامينا شحبت صورته وتندى وجهه بدمع ثم رفع صوته بالبكاء ولكن بكاءه لم يسمعه مارسيليوس فلقد غيبته ريح الوادي الجفول وطغت

عليه اناشيد الجند تخرج من صدور احس اصحابها على قلتهم انهم سادة الدنيا !

وبعد قليل هدأت ثورة الجند ، وسكنت الصرصر العاتية ، فتلفت مارسيليوس الى كريستيا فاذا هو قد راح متوكئاً على نصب يمثل العزى إلهة النبط وإلهة قريش معاً في قلب حرجة صغيرة ضحك فيها الورد والزنبق واورف على حافة غديرها شجر التين ، فخيل الى مارسيليوس انه لم يحف حياته على شواطىء الاردن ، فلقد كان كريستيا في وقفته صورة الحب الضاحكة يحف بها زهر وماء ، وكان الشاعر قد اغمض عينيه كأنما قد عرض له حلم جديد فاحب ان يغرق نفسه في متعه ولذائذه ، نخف مارسيليوس اليه يريد ان يحتويه بين ذراعيه ويرجع به الى حجرته في الملعب فثناه عن ذلك سبح كريستيا وشروده فلقد ظل الشاعر حيال التمثال امداً طويلاً في غير همس حتى ماثل وجهه لفرط شحوبه وجه ميت حديث عهد بالموت ، ثم غشيت نفسه غيمة من الم فاهوى بيده على الاوراد النائمة على صدر الخميلة الخضلة المطارف ، فعبث بها عبثاً شديداً . وقد حدث هذا الحادث الرائع بينما طيور الوادي تغني على بواسق التين لحونها الشجية ، وبينما قسطلة الماء على ارض الخميلة تمتزج بهذه الاصوات الخفية التي تنبعث من شقوق الوادي ودروبه !

قال مارسيليوس : ان الملعب غير بعيد من هنا يا كريستيا فهلم اليه قبل ان يخلع الغسق ظله الفاحم ؟ فصاح الشـــاعر : ان قلبي الراجف قد بدأ انشودته في هذه الاماكن في الناس لا يعير لحوني قلبه ...

منذ لحظات توائب خيال بنيامينا الى فكري وخيالي فتمثلتها دالفة الي لتحتويني بين ذراعين مشبوبتين او لتجذبني الى صدرها الخافق وتريني عينها الشبيهتين بكوكبين من كواكب السماء ! الا ثق يا مارسيليوس ان في عينيهـا السحورين بعض صور الرحمة التي نستجديها من النجوم السوافر فتضن بها علينا ...

ماذا يفعل مارسيليوس ؟ وقد استثارت هذه المضاجع الخرساء في نفس الشاعر جنون ذلك الهوى القديم الذي واراه عند سفوح الاردن ؟ أيستزيده الحديث عن

بنيامينا ، وهو اذا فعل الهب حميته وابتعث في صدره شجونا وآلاما لا يستطيع لها صموداً ، ام يعنفه على ضعف نفسه وشرود حسه وهو اذا فعل عرض الصداقة التي يكرمها لريب شديد !

وفي تلك الفينة زخر الوادي باصوات الفرحين المستبشرين من جند فروة بن عمرو فبرق جبين مارسيليوس من الفرح ورأى الفرصة سانحة ليتحدث الى الشاعر عن المجد ، والمجد وحده هو الذي يحجب في صدر كريستيا صورة بنيامينا فقال له ان الجند يهتف وقد بلغ هتافه الابعاد الشاسعة في سلع ، فهل عاد فروة من اسفاره حتى تدفق اسمه العذب على اناشيد المساعير الكماة ؟

فاهتز كريستيا واهتزت الحياة في جسده وفي نظراته فصاح : اتقول فروة ! قال نعم فروة ؟ أ غرب عنك ان هذا الاريحي ينتظر لعملك نهاية ، ثم يستعين بك على رفع ذلك التمثال الذي اوصاك بترميمه ؟ ألم يجتمع هذا الجند من النواحي البعيدة ليشهد معجزة كريستيا في صخور سلع ؟ ولما فتح كريستيا عينيه بهرته اضواء الشمس وارتفعت امامه في الفضاء شاهقات سلع وبان له الملعب الرومـــاني بجوار قصر الفيلارك فروة فزرف الى صاحبه وشد على يده صائحاً :

صدقت ياصاحبي فنحن على ميعاد مع فروة ، وافرحة النفس وفي صباح الغد تستفيق سلع وتفتح عينيها فترى الى جانب هذه الروائع التي افتتن بها قياصرة الرومان وامبراطرة الاغريق رائعة كريستيا فتميد من كبر وعنفوان وتشعر برجعة قريبة الى حياتها الماضية !

الا ترى معي يامارسيليوس ان الله قد افاض كثيراً من نعمه السوابغ على هذه البقعة الصغيرة من الارض ، فجعلها في امد واحد ، وطنا لشعب باسل لايستمريء غير صليل السلاح وغير نشيد الحرية ، ووطنا للفنون الهـاربة من عبث الاجنبي واحتقاره ، اتظن يامارسيليوس ان الظالم كان يستبقي هذه الروائع الفواتن من غير ان يحلم بوطئها تحت نعليه ! ؟

لقد شهدت بعيني في ذلك العهـــد الذي تصرم من طفولتي في قصر ابي التعس كيف امتهن هراقليوس كرامة الفن الروماني فقد وطيء الشقي تمثالا لابي ولم يخجل في مساء ذلك النهار من اضرام النار في بيعة القصر الصغيرة وفي هـــذه البيعة يامارسيليوس ميراث ضخم من صور العبقريين والنابهين ! ولو ان الطاغية يشعر ببعض الحب حيال وطنه ما عبثت يده القذرة بميراث هذا الوطن من اذكى بنيه ! أكان هراقليوس يمتنع عن العبث بفني ، لو قدر له يوم جاس وادي الاردنان يتسرب الى حرمي ويرى الى تماثيلي وهي كما علمت تمثل الوطن في امجد عصوره ، واپهى فنونه ؟ لن تكذبني يامارسيليوس في مزاعمي لانك تعلم اي رجل هذا الذي يسميه عصرنا الفاجر قيصر الرومان ؟

كنت احب ان تمتد بي ايامي في صخور سلع ، حيث قبور الابطال والمساعير تطالعني في كل ناحية ، وحيث الصور الجاهمة ترافقني عند صعودي في الجبل ، وفي انحداري الى الوادي ، فانه لا ينقصني شيء في هذه الاماكن من اسباب الحياة الناعمة الوادعة ، فالطبيعة هنا كريمة ، والشمس سواء اكانت على رباع الجبل ام كانت على حضيض الوادي اجمل بكثير من اي شمس تضيء في افق آخر ، وفوق هذا كله فاني اشعر بحماسة ما شعرت بمثلها في ايامي المواضي ، وذلك هو اثر هذا العالم الصغير الذي لا يعرف ناسه غير الحرية ! ولكن مطـــامحي يامارسيليوس وقد قصصت عليك من امرها شيئاً كثيراً لن يقدر لها ان تورق في سلع ، فلا بد لي من المضي الى بزنطية وطني الاول لا سجد على انقاض مجدنا الداثر . .

لم يعد في ميسور كريستيا ان يمضي في احاديثه فلقد تحيفه تعب عنيف فتساقط العرق من جبينه وامتقع وجهه وبردت يده فاوشك ان يتداعى لولا ان ترقرق في اذنيه نشيد الجند في الوادي ، فتجلد وتهافت على يدي مارسيليوس يلثمهما في كثير من الحب ثم رفع صوته صائحاً :

لقد فرطت كثيراً في حقوق الصداقة يا اخا طفولـــتي ، وجاوزت المدى في

اشراكك معي في المي الهادم ، فقال مارسيليوس وهو يحاول ان يخفي دمعاً تسايل من عينيه ، جنبني بربك هذا الكلام الشديد العنيف ، وتعال معي الى حجرتك فتكمل عملا شرعت فيه ولا ينبغي لك ان تهمل امره ، فلم ينبس كريستيا بحرف ، بل راح متوكئاً على ذراع مارسيليوس وبعد قليل شق الصديقان طريقهما الى الملعب .



الفصل الخامس

سلع

من هم بناة هذه المدينة المنقورة في الصخر ؟

يلقي السائح الذي يغور في الصحراء وينجد ثم تطلع عليه هذه الرائعة الفاتنة في سلع هذا السؤال على نفسه ثم لايلبث ان ينغمس في ليل الماضي فلا يفوته في جهمة هذا الليل قبس يضيء امامه الطرق ، فيرى على برقه الكليل وخطفه الضئيل الى جذور سلع ويتعرف اصولها الذكية فاذا امعن في قراءة التوراة صحيفة العهد القديم ادرك ان سلع كانت وطن ادوم والادوميين من قبائل اسرائيل

حدث في القرن الخامس قبل الميلاد ان حسرت جزيرة العرب عن رمالها فخرج منها فرسان عطاش الى الفتح والمجد ، ثم تدفق سيل هؤلاء على سلع فاجلوا الادوميين عنها ، ورجعوا الى وطنهم القديم موقرين بالاسلاب ، فوصفت التوراة هذا الحادث الخالب في رؤيا عوبوديا فقالت تخاطب آدوم :

اضلتك نوازع النفس ، فرحت مزهواً بمقامك السني في فج من الصخر وابطرك معاذك بالبواذخ البواسق فناديت : اي الناس يسف بي الى الحضيض الاوهد ؟ فلئن سموت سمو النسر وجعلت وكرك بين مطالع النجم لا نحدرن بك الى منخفض من الارض

هكذا قال الله سيد الكتائب

ثم طردك مصانعوك ومعاهدوك الى ما وراء تخوم الوطن ، وخدعك مسالموك ورنقوا ما كان صافيا من حياتك (١)

---

(١) واليك الاصل الذي وجدناه في رؤيا عوبوديا نقلا عن التوراة :

تكبر قلبك قد خدعك ايها الساكن في محاجي الصخر ، رفعة مقعده القائل«ب»

وتصور التوراة في سفر ملاخي مدينة سلع تصويراً بارعا فتقول :

قال الله لقد احببتكم فقلتم واي حب هذا ، اليس عيسو اخا ليعقوب فقال الله علقت بعقوب واجتويت عيسو ، وجعلت من جباله الدمن البلاقع ، ورميت بوطنه الى شهب البوادي ، وحينما قال ادوم : طمس الله آثارنا فهلموا نبني المدن وننشر ما انطوى ، قال الله سيد الكتائب « ماذا علي ان يبنوا المدن فاني انا مهلكها وسيقول الناس متى رأوا آيتنا « كفرت بلاد بالله فصب عليها سوط عذاب » (١)

* * *

فهذا الشعب الجديد الذي وطأ الله له اكناف الصخور ، فوطىء وكر النسر في شعاف سلع ما كان غريباً عن مهد العربية الاول ، يدلك على نصوع هذا الامر مؤرخ اليهودية الاكبر يوسيفوس ، ثم المؤرخون الذين تعاوروا البحث من بعده فخبطوا في غسق من الهوى وامتـــارت نفوسهم الشكوك ولكنهم ما كانوا يستطيعون ان يقروا الكذب ، فلقد خلص هؤلاء من بحوثهم الى امر واحد هو ان هذا الشعب الصغير الذي اصطحب معه الى صخور سلع ثقافة وطنه وسلائق قومه كان عربيا في اصوله وفروعه ، عربيا في اسماء الملوك الذين توارثوا الامر في ذروات سلع ، عربيا في اسماء الآلهة التي عكف على عبادتها في هياكله وبيعه ومحـــاريبه ،

»« في قلبه من يحدرني الى الارض ، ان كنت ترتفع كالنسر وان كان عشك موضوعا بين النجوم فمن هناك احدرك يقول الرب :

طردك الى التخم كل معاهديك خدعك وغلب عليك مسالموك

(١) اما الاصل في التوراة فاليكه :

احببتكم قال الرب ، وقلتم بم احببتنا ، اليس عيسو اخا ليعقوب ، يقول الرب واحببت يعقوب وابغضت عيسو وجعلت جباله خرابا وميراثه لذئاب البرية لأن ادوم قال قد هدمنـــا فنعود ونبني الخرب هكذا قال الله رب الجنود هم يبنون وانا اهدم ويدعونهم تخم الشر والشعب الذي غضب الله عليه الى الابد (نقلا عن سفر ملاخي)

عربياً في نقوشه وكتاباته ، عربيا في اساطيره واوهامه وحقائقه ، ثم كان الى جانب هذا كله عربيا في مروءته وعنفوانه وفي ايثاره النار على العار ، وحماية الجار ، وفي صموده للاجنبي الغاصب .

توافى هؤلاء المهاجرون من مهدهم الاول وهم انصاف بدو فما كادت نفوسهم تطمئن الى الوطن الجديد حتى وثقوا صلاتهم التجارية بمصر والشام وحتى اقتبسوا الجديد الانيق من ثقافة البلدين ، فاضافوه الى القديم الانيق من خلق الوطن . ثم اتسق الامر لهؤلاء الغزاة فظمئوا الى الفتح في البلاد المصاقبة وفيها محارس قوية اسلائل الاغريق والرومان وانه لينبغي لنا وقد ازمعنا الحديث عن شهرة سلع ان نرجع بقراء هذه الرواية الى الماضي السحيق البعيد ، فتجتمع لهم بهذه الرجعة لذتان اثنتان ، لذة الرواية ولذة التاريخ ، ونكون بذلك قد ادينا واجباً قوميا حيال الذين لم يتصلوا بعد بحوادث الوطن وصروفه من عمره الاول وعهده الاطول

فطن الاسكندر الكبير المعروف باسكندر المقدوني الى شهرة البوادي الشامية والى قدرتها على منافحة الفرس وهم اعداؤه واعداء الاغريق ، فظمىء الى اخضاع القبائل العربية التي ابلت اشد بلاء في دفاعها عن مدينة غزة يوم حاصرها الفاتح العظيم في القرن الرابع قبل مولد المسيح (١)

وكانت رغباته في الثأر بدماء جنوده تعادل رغباته في الفتح ، فلما نزع الى محاصرة سلع وصمد له اهلها في جبالهم الواعرة لم يفته انه كان يحلم فارتد بجيشه ليحقق مطامحه في القضاء على الامبراطورية الفارسية وهو موقن ان لا معدى له عن الرجوع الى سلع في الايام القابلة ليقضي على حرية شعب صغير عرف كيف يصطنع سلائقه وغرائزه في الدفاع عن حرية ارضه

---

(١) شدد الاسكندر الحصار على مدينة غزة فخرج العرب من المدينة المحصورة الى قتاله فقضوا على ثلث جنده وخربوا معداته في القتال فارتد بجيوشه عنها تاريخ بطرا والنبط للعلامة كامرر

ومن ذلك اليوم الذي تراجع فيه الاسكندر الى الجنوب واسس مدينة اسكندرية وجلس على سرير الفراعنة ظلت خيالة سلع تطفو على احلامه وهواجسه ثم انقلب الى شمال سورية فسحق داريوس الفارسي وامعن في زحفه الى الشرق حتى حقق حلمه الرائع ، ولكن هذا الحلم الذي هاج نفس الاسكندر لم يعتم ان مات بموته في بابل فما عاد في ميسور الفاتح العظيم ان يشق طريقه الى سلع

ثم تنازع الامر من بعده خلفاؤه . فاقتسموا ميراثه في الشام ومصر والعراق وفينيقيه ، فكانت مصر من نصيب البطالسة فظلوا فيها الى زمن كليوبطره وكانت فلسطين وفينيقيه من نصيب سلوقوس خليفة الاسكندر وظلت مدن الشام في نجوة من امر هذا القائد لأنها كانت خاضعة مع آسية الصغرى لانتيغون احد كبار قواد الاسكندر غير ان سلوقوس ما عتم ان تعاهد مع بطليموس صاحب مصر على قتال انتيغون وكان الشأن الاول في هذه الحرب لبطليموس لانصراف سلوقوس الى استصفاء العراق

وقد وقعت الملاحم في السواحل فرأى انتيغون ان يعدل عن افتتاح المدن رجاة ان يلحق به اهلها فينصروه في حربه وكانت الطريقة المثلى التي جرى عليها انتيغون تنم عن حصافته وذكائه وبراعته في استمالة الناس فلقد منح جميع الحقوق السياسية للمدن التي طاف بها فربح بعمله قلوبا ما كان يستطيع ان يربحهـــا لو انه وطيء حرمة الحرية !

وفي مستهل سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة قبل الميلاد استطالت جيوش بطليموس وسلوقوس في غزه على جيوش بوليوردسيت بن انتيغون فوطأت هذه المعركة الظافرة لصاحب مصر ان ينشر ظله على الشام كله وعلى فلسطين كلها ، وكان العراق حصة حليفه القوي ، ثم تبدل طالع الحرب فزحف انتيغون الى العراق فاخضعه ، وتسرب ابنه الى مدن الشام فاوغل في نواحيها وملك امرها ، وكان لزاما على انتيغون وقد ورث الاسكندر في ممالكه وامصاره ان يرثه في منازعه واحلامه ، ففكر في اجتياح

سلع لعله لا يعجز عن امر عجز الاسكندر الفاتح الكبير عنه ، ثم اقبل على خميسه العرمرم فاقتطع منه جيشاً مؤلفاً من ثمانية آلاف مقاتل ، وعقد لواءه على آتناحاد بسلاء الاسكندر فخرج هذا بجيشه الى اطراف سلع والعرب لا يعلمون من امره شيئاً لانصرافهم في يومهم الى سوق للتجارة مردوا على المضي اليهـا بمحاصيلهم ومواشيهم واعتاد مجاوروهم ان يفيئوا اليها ليأخذوا بتجاراتهم ومحاصيلهم مما في سلع من طيوب وعطور واصواف

وقد ربح الاغريق من غفلة العرب ربحاً عظيما فاجتازوا خلال ثلاثة ايام الفين ومئتي فرسخ حتى عرسوا في سلع فقتلوا من اهلها مقتلة عظيمة واسروا عدداً كبيراً وعادوا ادراجهم وايديهم مملوءة بخيرات سلع وكنوزها وطرفها على ان التعب الشديد العنيف ما عتم ان هدّ قواهم هداً فنصبوا سرادقاتهم على مسافة مائة وتسعين فرسخا واعماهم الكبر والزهو عن انشاء المحارس حول خيامهم ومضاربهم ولم يفطنوا الى قدرة عدوهم على استئناف الكرة ولما انقلب العرب من السوق الى سلع ورأوا الاودية والبطـــاح تغص بجثث القتلى واستمعوا الى اقاصيص الجرحى عن تمثيل الاغريق بالضعاف من الشيوخ هزتهم كبرياء الوطن الى الثأر بجراحه فحملوا سلاحهم وآلوا على انفسهم الا رجوع الى سلع قبل بلوغ وطر ناثئين ، تطهير ارض الوطن من رجس الاجنبي الخادع ، وتنكيد الذين اذلوا الشيوخ الضعاف من بنيه

وكان الاغريق في غضون ذلك يغطون في نومهم فما يبالي احد منهم بما يحدث في جوار خيامهم ومضاربهم ولا يفطن قائدهم العربيد الى انسلال اسرى العرب من الخيام ولياذهم بسلع تحت ذوائب الغلس ، وقد جاء هؤلاء الاسرى الذين افلتوا من الموت اخوانهم فحدثوهم بامر الحامية الاغريقية ودلوهم على اماكنها بجوار الغدران والاودية فتحمس الغطاريف وطهم من شباب جزيرة العرب لمصاير الوطن الجريح ونهدوا من فجاجهم بفرسانهم ومشاتهم حتى اشرفوا على خيام العدو الذاهل السادر ثم تدفقوا تدفق الآتي على الاغريق النيام فحصدوهم حصاداً ما كان اشهاه واحلاه

في صدور تحفق بحب الوطن وتضطرب لمصار الحرية في حزونه ونجوده ولم ينج من الذبح غير خمسين رجلا ممن تعاورتهم الجراح فخرجوا بدمائهم الطليلة يريدون لحاقا بخميسهم العرمرم ، وعاد حماة سلع باهى ظفر واعظم ربح فاستقبلهم الوطن في صخوره وجباله مغنيا راقصا ولما اطمأن هؤلاء الذين اعادوا الى الوطن الذليل كبرياءه وشممه وسلائقه الى غدهم لم يجدوا بدا من انذار انتيغون بماحدث ، فكتبوا اليه كتــــابا بالسريانية (١) شكوا فيه من عنت آتنه واسرافه فرأى انتيغون ان يذهب الى مدى بعيد في مصانعتهم ومسايرتهم حتى لا تخالجهم ريبة في نياته ومقاصده فكتب اليهم كتابا زعم فيه ان آتنه تبع هواه ولم يتبع نصائحه ، وان انتيغون الى ذلك بريء من مناكره وقد كان لزاماً بعد ان كشف انتيغون سوأة قائده ان يطمئن غزاة سلع الى معاذيره ولكنهم لم يؤمنوا كثيراً بمزاعمه فتهافتوا على انشاء المسالح بجوار مسارب سلع وعززوها باحراس من بسلائهم فاقلع انتيغون منذ ذلك اليوم عن التحرش بهم وطفق يحاسنهم ويصانعهم ولكنه جعل يفترص الفرص ليأخذهم في عقر دورهم على حين غرة

ثم تتالت شهور على هذه الاحداث دأب انتيغون في غضونها في اعداد جيش جديد لغزوة جديدة ، حتى اذا اجتمع اليه جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل من الفرسان امر عليه ابنه ديمتريوس وقذف به في طريق سلع ليثأر بدم القتلى من فتيان الاغريق وقد كان ينبغي لهذا الجيش الكثيف ان يسلخ ثلاثة ايام في بلاد واعرة قليلة الطرق والمسارب ثم كان ينبغي له ان ينتبه الى الغارات الوشيكة فلا يترك امره نهباً مقسما لعدو ما عرف انتيغون اغير منه عــــلى حريته ومع هذا فلله ما كان امر هذه الغزوة الاجنبية ليفوت اسياد سلع لا في يسير ولا في كثير فلقد ابصر رجال المسالح العربية زحف الجيش الاجنبي فاوقدوا النار على الجبال لينذروا قومهم بالامر الجلل فطغت على هؤلاء الذين ظفروا بكتيبة آتنه موجة عنيفة من

(١) كتاب بطرا والنبط للعلامة كامرر

حماسة ونجدة وكانوا يعلمون ان الاغريق لا ينفذون الى سلع الا من طريق واحد فبثوا رجالهم لحماية هذا الطريق ونقلوا مواشيهم ونساءهم وشيوخهم الى الصحارى حتى لم يبق في سلع غير فتيانها الاباسل ، ولما رابط ديمتريوس حيال الصخرة لم يفته هذا الذي عملته العرب ، فقذف بجيشه الى سلع في غارات متقطعة فصمد العائذون بداخل الصخرة لعدوهم صموداً ما عرف الاغريق له مثيلا في حروب الاسكندر ، ثم انفرط نهار وانفرط ليل وديمتريوس لا يجرؤ ان يقتحم الصخر الواعر وفي اليوم التالي دعا ديمتريوس جنده على صليل الابواق واقتحم محارم سلع ، فناداه من اعلى الحصن عربي مدرع وقال له : ايها الغطريف ديمتريوس ! اي رجل انت ؟ وفيم غارتك على سلع وما بها هذا الذهب الذي يخطف على البيع والمحاريب والقصور في دمشق وايلياء وليس في حقولها هذا الذي تطمح اليه من ظل جني وخمر شهي ، وزرع سني فانما نحن في هذه الصحراء الغفلاء رواد حرية واصحاب حق في الحرص عليها . فما نطمح ان نزيد على هذه الحرية شيئاً جديدا وما نحب ان نخالط احداً وقصارى ما نحبه ونريده هو ان نظل في هذه المزالق الواعرة اصحاب الامر وقد تركنا لابيك هذه الدنيا عرضاً وطولا

« لقد جئناك ايها الزعيم ديمتريوس نخيرك بين امرين اثنين فاما ان تفيء الى سربك آمناً مطمئناً فتربح بذلك قلب سلع واما ان تنازلها فنـــازلك فلا تربح ولا نربح معك غير اثم هذه الحرب ؛ وانه لخير لك ولجندك ان تقتلع خيامك وتعود الى اهلك فان مقامك في هذه الاطراف الخالية من الماء والزرع قد يضني جندك فيعطش ويجوع فاذا عطش وجاع اراق بعضه دماء بعض ، ثم كانت لك ردة الى ذويك في غير رجال ، فاي الامرين احب الى نفسك رجعاك بقلوب اهل سلع ام رجعاك باشلاء جندك ! » (١)

وكان حديث العربي وهو على شرفة الحصن صحيحاً صريحاً وكان على صحته

(١) تاريخ سيناء والبتراء للعلامة ليون كارت

وصراحته شديد الوقع في نفس ديمتريوس فمنع جنده محـــارم سلع وناشد العربي ان يبعث قومه برسلهم اليه فيحدثهم في امر صاح طويل الامد ثم كان هذا الذي اراده ديمتريوس . فذهب الى لقائه في مضربه شيوخ سلع ، فصالحوه وصالحهم على شروط استبقت لهذه العصبة الفتية من امة العرب العظيمة حريتهـــا الثمينة واستبقت للاغريق صداقة الصحارى التي لا تعرف غير الوفاء ورجع ديمتريوس منذ ذلك الذي طويت فيه رايات الحرب الى ابيه فحدثه ابرع حديث عن شعب صغير انشأ بفضل استمتاعه بالحرية وذوده عنها اسمى حضارة في صخوره واوديته

ماذا فعل هذا الشعب الصغير بعد ان اطمأن الى مناعته في محارمه ومحارسه ؟

لم تكن الحرية وحدها صبابة العربي النبطي فانه ليستطيع ان يحصل عليهـــا ويستطيع الى ذلك ان يدفع عنها عبث الاجنبي وظلمه ، ما دامت سلائقه وغرائزه مقتبسة من سلائق هذه الجبال ومن طبيعة الصحراء التي تصاقبهـــا ، ولكن هذا العربي الذي امتحن قدرته على المنافخة والمقارعة كان يشعر بحاجته الى وطن عظيم حتى تكبر حريته الطفلة وتكبر امانيه ، وقد كانت المعركة الاولى بين حماة سلع وبين جنود الاسكندر الكبير اولى المراحل التي كان ينبغي لشعب سلع ان يجتازها للاستيلاء على المدن الكبيرة ويقيم على رأسها مهده الصغير المتواضع

فاذا اردت ايها القارىء ان تعرف الى اي مدى وصلت جهود هذه العصبة الفتية من عرب الجزيرة في سبيل الحرية والفتح فافتح اذنيك واستمع لما يقوله مؤرخو العالم القديم :

حدث في حقبة من الحقب ان عصفت ببلاد الشام عاصفة من البغي ، فقوضت صروح الحياة وروعت الناس واجتاحت المدن واتت على العمران ، ثم طغا على الناس سيل من الرعاع والدهماء فتوزعوا الامر بين ساحل وداخل فاستحـــال الوطن الواحد الى ممالك وامارات وشهد الشيوخ عصائب من قطاع الطرق يلبس رجالها القساة ارجوان القياصرة ويحملون في ايديهم صوالجة من الذهب ، ويطوفون

المدن في عجلات مرصعة بالآلىء الثمينة واليواقيت النادرة ، فنفرت نفوسهم من ملك يقوم على امره سفاح جريء من طراز سامبازسيراموس حاكم الرستن وحمص وبرح بهم ان يتولى الامر في طرابلس رجل من نوع سامبازسيراموس اسمه ديونوزيوس ، بل لقد تمنى شيوخ الشام وعيونه لو ان هذه الارض التي لقيت زهوها وامراءها في ظل الملوك المنشئين المبدعين تضمهم الى صدرها فلا تبصر عيونهم سيلاس اليهودي الافاق سيداً في انطاكية واللاذقية او يسمعوا خبراً عن زينون كوتيلاس احد لصوص مقدونيه الذي استطاع ان يخضع لسلطانه حصون عمان ثم يفيء اليها ويصطنعها في قتال جيرانه

لقد كان عرب النبط ينظرون الى هذه المآسي التي نزلت بسورية وهم اصحاب الامر في مدن حوران ففكروا في الذهاب الى دمشق لانقاذها من ليل العبودية الجاهم ، وكانت المدينة الخالدة بعد هزيمة انطوخيوس الثاني عشر تخضع لبطليموس ابن مينزيوس وهو رجل لا يمت بنسب الى بطالسة مصر ، وكان هذا الطاغية الجريء على الشر قد اجتاح بلاد الجليل وبعلبك وحارب اللبنانيين (١) واقسرهم على دفع الجزية وحمل كبارهم على الجلاء عن وطن الاباء والاجداد ، ووضع يده على مدينتي بيروت وجبيل ثم ارتد الى دمشق من النواحي الجنوبية الشرقية فاتسق له الامر في قصورها الشماء ورياضها الغناء ، ولما رأى سكان دمشق ان العدو المجتاح قد اسرف في اذلالهم فزعوا الى ملك اليهودية اسكندر جانيه واستنفروه على العدو

---

(١) ذكر العلامة كامرر في كتابه بطرا والانباط ان اللبنانيين كانوا يلقبون بالاترانيين وهم من العرب الخلص وينتمون الى يترو بن اسماعيل وروى يوسيفوس المؤرخ اليهودي أن اللبنانيين العرب كانوا ينزلون بلاد الاردن الشرقية قبل نزوحهم الى لبنان في العصر الروماني الاول وكان الرومان يعتبرونهم سوريين ويزيد يوسيفوس على روايته ان اللبنانيين هم العرب من سكان الصفا — حوران — وهم اقرب الشعوب السامية الى عرب الصحاري «المؤلف»

فتحركت شهوة الفتح في نفس اسكندر ومرت بخاطره صورة دمشق فذكر زمنا كان فيه داود ملك اليهودية سيداً في دمشق ولكن اسكندر ما كان يستطيع ان يحقق حلمه في المدينة الخالدة فلقد سبقه الى اغاثتها الحارث الثالث ملك العرب النبطيين فانزل جيشه بالمدينة فدعا اهلها له احر دعاء وفي سنة خمس وثمانين قبل ميلاد المسيح مضى الملك الحارث في زحفه الى المدن الاخرى فما ابقى في نواحيها اثراً لاجنبي ثم امر اخوته على السواحل وضرب النقود باسمه تخليداً لذكرى هذا الفتح الذي وثق مطامعه في انشاء دولة عربية حاضرتها دمشق وقد نشأ عن نزول الملك الحارث بمدينة دمشق حادث عظيم حصد النبطيون منه حصاداً شهياً فلقد بهرت غزاة الصحراء حضارة سيدة مدن الشرق فاستساغتها نفوسهم ولذتها اذواقهم فاقتبسوا منها الحسن البارع فاضافوه الى الحسن البارع من حضارتهم النامية في سلع وفي حوران

ولكن هذا الفتح القومي الذي اتمه عرب النبط في احب المدن الى نفوسهم والى نفوس اسلافهم لم يرق ملك اليهودية اسكندر جانيه فجعل يفترص الفرص لقتال الملك الحارث الثالث ، ولكنه كان مسوقاً قبل الشروع في المقارعة والمناجزة الى تطهير الشمال من السلوقيين بعد ان اطمأن الى ولاء البطالسة في الجنوب وكان الملك الحارث يكره ملك اليهودية كرهاً شديداً فانمى هذا الكره الشديد النزاع بين اليهود والعرب وجهز الملك الحارث جيشاً عظيماً لاجتياح المدن التي نزل بها جيش اسكندر جانيه في شمال مواب ، ويقول المؤرخ اليهودي يوسيفوس ان جيوش الملك الحارث سارت ليلا الى بلاد اليهودية ونزلت بمدينة اللد ونشرت سلطانها على الطرق التي توصل مابين يافا وارشليم وكانت قد عبرت الاردن وتوغلت في جبال اليهودية حتى استقرت على السواحل ثم تصالح العدوان على ان يترك الملك الحارث لملك اليهودية بلاد الجليل

ولم يلبث هذا الصلح ان تخللته منازعات عنيفة فاستأنف العدوان الحرب سنة — ٨٠ — ٨٣ قبل ميلاد المسيح — وعبرت جيوش ملك اليهودية نهر الاردن

ونزلت بضيع كثيرة ، وحدث ان مات اسكندر ملك اليهودية وهو قائم على حصار احدى المدن فاستروح الحارث لهذا الموت ، ودأب في انتصاراته حتى استتب له الامر في الاردن وحوران ودمشق وفي مدن الشام (١)

لم يكد الشام يتنفس وينجو من مخالب السلوقيين حتى اخذته احداث جديدة ، فقد نهد تيغران ملك ارمينيه وحليف كسرى عظيم الفرس الى اجتياح سورية فتوغل في مدنها حتى عبر نهر العاصي (٢) فانثنى ذلك الحارث ملك النبط فخرج الى قتاله بجيش لجب من غزاة البوادي

وفي غضون هذه المآسي التي روعت الشام ماتت الملكة الكسندرا ملكة اليهودية وزوج اسكندر جانيه عدو الملك الحارث الثالث فساءت بموتها شؤون الشام وكثرت شجونه ويئس اهله من اطلالهم على افق الخلاص ، فقد كانوا يأملون ان تنجو ارض الوطن من مخالب الاجنبي فلا يجتاح الحرية مجتاح ، فما تحقق هذا الذي املوه وظلت المآسي تتعاور هذا البلد فلا يكاد يفلت من اجنبي حتى يتلقاه اجنبي آخر

وبينما كان الروماني ليسلوس يحارب ملك ارمينيه في قلب بلاده ويحمله على الخروج من مدن الشام كان النبطيون يقاتلون انطوخيوس الثالث عشر (من سنة اربع وستين الى سنة تسع وستين قبل الميلاد) على ابواب دمشق وكان انطوخيوس يستعين على قتالهم بشيوخ الشام وصغار ملوكه فجلا الملك الحارث عن دمشق فدخلها انطوخيوس فلم يلبث هذا الاخير ان مات خنقاً بيد امير عربي يدعى ابا كرب (٣) وقد حدثت هذه الاحداث قبل ان ينزل الرومان مدن الشام بسنوات

(١) ظل النبطيون حتى بعد خروجهم من دمشق قرنين كاملين في حوران استبحرت في خلالهما ثقافة هذا الشعب العربي الناشيء واستفاضت روائعها ومفاتنها حتى اظلت حوران مبسوطه وحالقه « كامرر »

(٢) و(٣) كتاب بطرا والانباط للعلامة كامرر

ولم تستطع بلاد اليهودية ان تصمد للكوارث التي تعاورتها بعد موت اسكندر جانيه فاستخذت لها وقام على الامر في اورشليم شقيقان احدهما هيركانوس الثاني كاهن الهيكل الاعظم وثانيهما اريسطوبولس الثاني ، ثم تفاقم الخطب بين الاخوين فنفرا الى القتال فتغلب هيركانوس على اريسطوبولس وسلبه سريره ولما نهض على ملكه ثلاثة اشهر ومع هذا كله لم يشعر اريسطوبولس بوهن ولا احس ضعفا فالب على احيه الناس والحق به هزيمة شنيعة ثم اضطره الى اطراح الملك والى التنازل عن حقوقه في الهيكل ولكن انطيبار احد كبار اليهود لم يرقه ان يتداعى ملك هيركانوس فاستغل ضعفه ولينه وابتعثه على استجداء الحماية من الحارث الثالث ملك العرب ففعل هيركانوس ذلك ولم يتردد الملك العربي عن نصرته فقد رأى في ضعفه ولينه عدواً سلس القياد وذلك في رأيه افضل من مجاورته اريسطوبولس الملك الشديد القوي ، ولما اطمأن انطيبار الى وعود الملك الحارث عمل من ناحيته على اذكاء نار الفتنة في اورشليم فثار الشعب على هيركانوس وانزله عن سريره فخرج تحت ظلال الغسق الى بلاد النبط فاجاره الملك الحارث ومنعه وسأله في مقابل هذه الحماية التي خلعها عليه ان يعيد الى سلع اثنتي عشرة مدينة من ارض مواب كان الملك اسكندر جانيه انتزعها من الملك الحارث قبل موته فقبل هيركانوس شروط سيد سلع وفي اليوم التالي زحف الملك الحارث بخمسين الف مقاتل الى اراضي اريسطوبولس فهزمه وضرب حصاراً شديداً على اورشليم (١) واضرم النار في الهيكل فذعر النـــاس وخافوا صقر البادية فجاءوا اليه بالهدايا والطرف ودعوه ملك اليهودية

في خلال ذلك كان الرومان ينسلون الى سورية بقيادة بومبي بعد ان هزموا ملك ارمينيه تيغران (سنة ست عشرة قبل المسيح) وكان النبط قد استطالوا على مدن الشام في بر وبحر وضربوا قبابهم في معاقل لبنان المنيعة فما افلت من سلطانهم صنين في بواذخه وشواهقه واستخذت لهم سهول طرابلس وسواحل بيروت (٢) وقد

(١) و (٢) كتاب بطرا والانباط للعلامة كامرر

كان طبيعياً ان يقاتل بومبي قائد الرومان في ارض يقوم على حراستها محاربون من الطراز الاول (١) فزحف بجيشه زحفاً شديداً كان من حصاده ان اصبحت سورية ايالة رومانية من جبال طورس الى الفرات الى صحراء العرب الى اطراف مصر (٢) وفي هذه السنة تصالح الاخوان اليهوديان اريسطوبولس وهيركانوس وتناسيا الاحقاد والمنازعات خشية ان يسلبهما الحارث ملك ابيهما الى الابد ورأى هذان الا معدى لهما عن استنفار بومبي اليهما فاجارهما .

ولكن سورية لم تنعم بهذا العهد الروماني الجديد ولم يسمع بومبي نداءها الصارخ ولا اقرها على الحرية التي ظمئت اليها ، بل لقد عمل بومبي في الشام على ايذاء هذه الحرية وتنكيدها ، فجعل من البلد الواحد امارات تابعة لروما ، ودولا مستقلة ثم عمل من ناحية اخرى على توثيق صلاته بالنبلاء والاشراف فاقره هؤلاء على سياسته وجاروه في اساليبه فاطمأن اليهم واستبقى لهم حقوقهم في ضرب النقود باسم مدنهم (٣)

وكانت دمشق وحوران وبلاد الجليل من البلاد التي استبقى لها بومبي حريتها السياسية (٤)

احفظ الملك الحارث الثالث ان ينزل بالشام عدو من طراز بومبي ، ثم احفظه ان ينزع الاخوان اليهوديان اريسطوبولس وهيركانوس الى هذا العدو فشدد الحصار على اورشليم حتى اوشك ان يدخل المدينة المقدسة لولا ان منعه سكوروس القائد الروماني دخولها ، وكان سكوروس قد زحف بجيش عظيم الى بلاد اليهودية زلفى للاخوين اريسطوبولس وهيركانوس فارسل الى الحارث يقول له : « لئن لم ترجع عن اورشليم ليحسبنك بومبي عدواً لروما » (٥) فلم يرجع واستحر القتل بين الجيشين الروماني والعربي في جبال اليهودية اياما طوالا ثم جلا الحارث عن البلاد القائمة الى غربي البحر الميت فلحق به سكوروس الى وادي العربة ، وهو

(١) و (٢) و (٣) و (٤) (٥) كتاب الانباط والبتراء للعلامة كامرر

ميدان الحرية العربية من اقدم العصور ، فصمد العرب لعدوهم الشديد العنيف ، وحملوه اشنع خسار ، ثم لاذوا بمعاقلهم في جبال سلع واستعدوا لقتال العدو الذي جاء يغزوهم في وطن لم تعرف حياته الماضية غير الانتصار على عدو الحرية !

وقد وصف يوسيفوس مؤرخ اليهودية بلاء العرب النبطيين في سبيل حرية الارض التي انبتتهم فقال : زحف سكوروس بكتائبه الى سلع وهي دار الملك الحارث فما قدر ان يخترق جبالها الشم وكان الجوع قد عض جنده في الضواحي فهلك بعضهم واوشك بعضهم ان يهلك فاشفق سكوروس ان يصير جنده البواسل الى هذا المصير الراعب ففكر في رجعته الى بومبي ، ولكنه ما كان يستطيع ان يفعل ذلك مخافة العار فلم يجد بداً من ايفاد سفارة الى الملك الحارث فدخلت السفـــارة مدينة سلع وصالحت الملك الحارث على شروط استبقت له حرية الوطن ، ثم رجع سكوروس الى بومبي وحدثه عن قيصر عربي اسمه الحارث واسم عاصمته سلع ؛ فلم يجد بومبي في اسم الحارث ذلك الرواء الذي رافق اسماء قياصرة روما ، ورأى روما اسمـا لدنيا كبيرة بينما سلع اسم لعالم من الحجارة ولكنه اخفى كبرياءه لأن الحارث كان اغزر مروءة منه ، ولأن سلع كانت ابر بالحرية من روما

ليست هذه الخلاصة الوجيزة كل تاريخ سلع ، ولا هذا الجهاد الذي مضى فيه عرب النبط كل جهادهم في سبيل تأثيل فكرة الحرية في ارضهـــا البكر ، فان في هذه القبور التي خلفها النبط عند حضيض الوادي ، وفي الذرى الحمر بقايا ملوك وفاتحين لم يقصروا اعمالهم في صباح الحياة الذي ابتسم لهم على الفتوح في الاراضي الاجنبية ولا على الملاحم الماجدة التي انتصر فيها عرب الصحـــارى على جيوش الاسكندر وجيوش بومبي بل جازوا هذا الفتح البهي الى فتح جديد في ميـادين الحضارة والانشاء فرفعوا المدن في بر وبحر ونثروا حصاد المعيتهم فما حبسوه عن قطر ولا منعوه من مصر . فخلدتهم نقوشهم واثارهم كما خلدتهم مغازيهم وملاحمهم هؤلاء هم اجدادك الاول ايها العربي الذي تعرض له في سيرة عمر بن الخطاب

صورهم الحسان فيرق لها ولا يمنع قلبه ان يشعر بشعور سلع وهو قريب من تاريخ سلع !

لقد كان جنود فروة بن عمرو يهتفون لسلع في هذا النهار فيتعالى هتافهم شديداً الى الافق فتميد له هذه القبور التي طوت الرجال وغيبت الابطال . ويشعر الاحياء الذين ضحكوا لمتع الحياة بحماسة هؤلاء الذين اظلهم ليل الفناء فيتبارون في الغناء . ولا ينسون وهم يذكرون ما آلف الطفولة في سلع وطناً كبيراً اذله قيصر واستعبده الرومان . فاذا هاجهم الذكر واشتد بهم الحنين وضعوا ايديهم على سيوفهم وتلفتوا الى مدخل الوادي لعل خيالة البطل الذي ينتظرون معاده تطالعهم من بعد او لعل هذا البطل الذي امعن في اسفاره يسمعهم صوته الشديد العنيف ، فيخرجوا وقد لذوا هذا الصوت من هذا الفج السحيق الى دمشق والغوطة

الفصل السادس

مدينة الموت

كان كريستيا عزوفا عن الضحك ، وكانت الوحدة حبيبته الغالية في وطنه الجديد مثله في ازوراره عن الناس وصدوفه عن مخالطتهم مثل هؤلاء الذين اولعوا بالفنون فانغمسوا في ليلها واتخذوها وطنا لاحساساتهم وفيأ لاهوائهم ، وقد كان الماضي الذي اولع كريستيا به واحبه وطن روحه ومسكن قلبه في هذه الشواهق البواذخ فما فكر في مجافاته ولا نزع الى اطراح صورته من خاطره فلما احتوته حجرته بجوار الملعب تهافت على عمله في مثل حماسته يوم كان يدأب في نحت، الحجارة تحت سقف بيته المنعزل ، ذلك المنزل الذي خلفه على شاطيء الاردن وخلف فيه ذكريات عمر ماكان احلاه واعذبه لو ظل على صفائه واشراقه ولم ترنقه ذكريات البغض وهواجس الثأر

لقد امضى الشاعر النابه ايامه في مثواه الاول بين الدمى والتماثيل ، وهو الآن يمضي ايامه في حجرته بجوار الملعب الروماني بين الدمى والتمـــائيل ، كان رفاقه في عزلاته الغابرة هوميروس وسفوكوليس وفيدياس فاصبح رفاقه في عزلاته الحاضرة اللات والعزى وذو شرى ، ولكن الحب العذب الرقيق الذي صحب كريستيا على حدور الاردن وضفافه العارشة لم يصحبه في سلع على الربا العارية ، وما كان ذلك عن فتور احسه ولا عن سأم شعر به ، وانما كان ذلك لأن نزاعا شديداً قام بين كبريائه وهي وليدة المجد وبين اهوائه وهي وليدة الوجد ، ثم جعل نفسه حكما بين الجامحين مجده ووجده فلصق بجانب الاول واعرض عن الثاني ، وحمله رضاؤه بهذا الحكم القاسي على الزهد في الحبيبة الغالية التي اختارت وطنها الجديد على جدة البحر الميت في ارض لا تعرف حبا ولا تنبت حباً . ومع هذا كله ظل احســاس كريستيا في سلع احساس الشاعر العبقري . لا احساس الامير السري ، فكان اذا

تحدث عن المجد تخافت بصوته فلا يعي حديثه غير قلبه المطوي على حزن بليغ واذا تحدث عن فنه استفاض حديثه في افق سلع فسمعه الاحياء من جند فروة بن عمرو وسمعه الاموات من جند الحارث النبطي ، وما كان هذا التغاير الذي تدفق على احساسه وشعوره ولبس اوهامه واحلامه ليفوته فاحزنه ان تتنافر سلائقه وامضه ان يظل خلق المصور البارع ، اشد طغيـــانا على نفسه من خلق البطل المقارع ، فاكب على عمله بحماسة وشغف حتى الف بين اجزاء التمثال القديمة وبين الاجزاء التي نحتها نحتا جديداً ثم استعان بمارسيليوس صديقه الوفي وشريكه في آلامه واحزانه على رفع التمثال ، فاذا هذا النصب الذي خلقه خلقاً جديداً صورة شبابه الاصيل ! واذا الملك الحارث هذا الذي استطال على قواد الاسكندر اليوناني وهزم قواد بومبي الروماني ، لاينقصه في روائه الجديد الا ان تخفق الحياة في صدره الحجري فيتحرك ويفتح عينيه ثم يتلفت يمنة ويساراً ، ثم يرفع صوته فيهتز لهذا الصوت احراس سلع ، فيخرج هؤلاء من قبورهم الى دمشق او الى اي ناحية اخرى من نواحي العالم ، ثم يفيء هؤلاء الى سلع وقد حملوا معهم ميراثهم من الفتوح والنصر ثم يضمون هذا الميراث الى الوطن فينطلق مزهواً بحماته وكماته !

* * *

قال مارسيليوس وهو يحدق الى التمثال ، لانادين سافو اختك فتنظر الى حصادك في هذا النهار وتبارك لك فيه ! ... فقال كريستيا وعيناه تنظران الى شرفات القصر نادها اذا شئت ولكني لا اجنبك الصراحة ايها الرفيق اذا قلت لك ان سافو لاتحب في الشاحب ولا تأنس الى صوري الكامدة ! فاذا تغاضيت عن استنفارها فعلت ما ينبغي لك فعله ومنعتها ان تنظر الى المشهد البغيض فضحك مارسيليوس حتى تطاول في الضحك وقال انك لتغلو في القول حتى ليدفعك غلوك الى العبث بشعور النساء ، فليس في العالم كله امرأة تزهد في نصر تواضع على جنيه اخوها القريب او زوجها الحبيب !

فقال كريستيا ولما يعدل عن تأملاته في شرفات القصر ، افعل ماشئت ولكنني اناشدك المروءة ايها الرفيق الا تغلو في اقاصيصك ، فان سافو يا قلت الساعةامرأة تشعر بمثل شعور اترابها النساء ، ثم هي الى ذلك تفوقهن في رقة الطبع فاذا اسمعتها تهاويلك انطلقت مدنفة عانية ! فقال مارسيليوس لك علي ألا اقص عليها خبرا يفزعها ، ولكن حذار ان تطلع عليها بصورتك العابسة الجـــاهمة ! ... ثم ضحك مارسيليوس ضحكة مستطيلة واقبل الى ناحية الطنف وصفق بيديه ثلاثا وهتف باسم سافو ثلاثا فخرق نداؤه سمع المرأة فاقبلت الى الطنف واطلت منه على رواق الحجرة فبدت لمارسيليوس في روائها الخالب وملابسها الزاهية فقال لها :

— الا تسرين اذا قلت لك ان كريستيا اتم رائعته في هذا النهار ؟ فتبسمت ورفعت يدها الناعمة الى مارسيليوس كأنها تريد ان تقول له اقترب ففعل واستأنف حديثه قائلا :

— الا تسرين اذا قلت لك ان كريستيا اتم رائعته في هذا النهار ؟

فصفقت بيديها وبرقت اساريرها وصاحت :

او اتم كريستيـــا رائعته ؟ يااللذة ! لقد كنت احمسه وابتعث رجولته فلا يمل النحت على الجلامد وكنت اســـأله متى تفرغ من عملك ؟ فيبتسم ويشرق وجهه بضياء شديد ، فاما وقد اتم رائعته ، وحقق حلماً قديماً مر بهاجسه فقد صـــار في ميسوره ان يمضي الى الجند ليشترك في مناعم سلع !

فضحك مارسيليوس كرة اخرى والتفت الى كريستيا واردف :

ألم اقل لك ايها الفتى منذ حين ان ليس في العالم امرأة تزهد في نصر تواضع على جنبه اخوها القريب وزوجها الحبيب ! الا ترى اليها وقد حمسها حديث التمثال حتى سألتك الذهاب الى الوادي لتشترك في مفارح الجند ؟

صدقني يا كريستيا اذا قلت لك ان قلب المرأة يخفق للمجد خفوقه للحب وللعطر

ثم رفع مارسيليوس عينيه الى الطنف وقال لسافو :

انحدري الينا فاني ليلذني ان تنظري الى التمثال في روائعه ، وسترين متى اطللت عليه جمال صاحبه ! بل ستقولين عند وقوفك حياله ما اجمل هذا الوجه ! لقد كان صاحبه فتنة الجيل الذي عاش فيه ، وقد تقولين متى رأيت جبينه العريض وعينيه السحورين ، حبذا لو نحت كريستيا تمثالا من هذا الطراز لفروة ، فصاح كريستيا وهو على وصيد الباب في حجرته اتدري انني نذرت في ايامي المواضي للمسيح تمثالا على صورة فروة ؛ وكان كريستيا يقول ذلك في كثير من المرارة فامتعضت سافو وقالت : يخيل الي انك لم تعدل عن فنك الشاحب فما يليق بالمثال النابه ان يجعل من الشباب الضاحك صورة لآلام المسيح على الصليب !

فصاح مارسيليوس انه يهذي فقالت سافو بلغة بائسة ولكن هذيانه قد ارمض نفس فروة وبرح بها حتى راح يسألني وهو الرجل الشديد العنيف لماذا تخبرني اخوك الذي تحبين مثالا لصوره العابسة ؟ فعصاني الجواب فما راقه سكوتي فاردف انه لن يفعل انه لن يفعل !

وتخافت مارسيليوس بصوته : بلى انه لن يفعل ؟ ثم رفع عينيه نزلة اخرى الى الطنف وقال لسافو هلمي الينا فلعل احاديثك العذاب تنسي كريستيا وهما عاق بنفسه فقالت : اين هو كريستيا ؟ ولماذا لا يسمعني صوته ؟ فقال مارسيليوس لقد ارف الطائر في وكره فما يستطيع ان يفارقه فضحكت وقالت عرجت الشمس يامارسيليوس وعسلج الشجر وضحكت زواخر الوادي ، فما ينبغي للطائر ان يلصق بوكره وفي ميسوره ان يغني ويضحك لمرابع الارض فهتف مارسيليوس قائلا : ولكن الطائر الذي تتحدثين عنه قد لاعه جهد السياحة فالتاح وحط في وكره فاذا نزلت اليه واطللت عليه وانصت لغنائك رنق وشدا ... قالت سانزل اليه فلعله ان سمع صوتي ، ورأى صورتي يلين جناحه فيرتد مرحا وينسى حظوظه العاثرة

ثم توارت عن الطنف في مثل خفة الوميض ، فانقلب مارسيليوس الى كريستيا فاذا وجهه قد تجون وعادت هواجسه كأنها لم تفارقه لحظة واحدة فقال له : لقد

روعتها كثيراً يا كريستيا وكان ينبغي لك الا تدخل على قلبها وساوس قلبك !...

ولكن كريستيـــا لم ييئس فلقد مضى يفكر في الحلم الذي غشي نفسه وهو في منز له عند حدور بيت صيدا بجوار الاردن وذلك حلم كان يغريه بتصوير المسيح على صورة فروة ، ولو ان مارسيليوس نظر الى وجه الشـــاعر لا شجته غضونه ولروعه ان بنفس هذا الفتى برودة الصقيع !

* * *

يكاد الملعب يكون جزءاً من قصر الفيلارك فروة بن عمرو عامل قيصر على ايلة وسيناء ، فقد نقره اصحابه في الجانب الثاني من الصخرة ، حتى ليطل على رائيه كأنما هو بعض هذه الشواهق الحمراء ، وليس يستطيع احد ان يذهب بتصوراته الى الزمن الذي سلخه بناته الاول في نحت الجنادل ، فليس من شك ان الذين ترعوه بالزخارف وملئوا اعمدته واقواسه بالصور والنقوش قد مردوا على العمل اياما وليالي وشهوراً حتى اذا فرغوا من ترصيعه وتجميله رموا به الى ليل الزمن السحيق فاذا هو في مكانه المنعزل احجية الاحاجي واذا الناس يتقاصرون عن فهم هذه الاحجية فيردون امرها الى الشياطين ، واعجب من هذا كله وافتن ان يلطم موج الحياة هذا الملعب النائي وان تتعاوره فصول العام فلا يمسح رواءه موج الحياة العاصف الجارف ولا يطمس سناءه اختلاف العمر بين خريف وجيع ، وشتاء مريع وربيع شهي وصيف جني حتى ليجوز القول ان افاعيل الليالي واحداث النهارات ونظام الطبيعة المسنون وهذه الرياح الروامس تلفظها البوادي من صدرها المسجور في صباح ومســـاء ما كانت تستطيع وصولا الى سلع

لقد كان ينبغي لسافو بعد ان توارت عن الطنف وتركت القصر ان تمر بغيران كثيفة واجواف عميقة ربما كانت في الايام المواضي مقاصير للمتفرجين من سراة سلع فلما صاقبت هذه الشعاب المنقورة في الصخر التفع وجهها الوضيء وفطنت المرأة التي امضت زمن الطفولة في الخمائل الضـــاحكة على شواطيء البوسفور الى

مصدر هذه الهواجس المضنية التي تملاء نفس كريستيا ، وادركت ان حياة الشاعر في هذه الغيران لا تشبه حياته في بيت صيدا عند حدود الاردن فتوجعت له ورقت لمصيره ولكنها لم تغفر له ادمانه على اتراع نفسه بالمخاوف فلقد كان ينبغي لكريستيا وقد ازمع الثأر بابيه الا يتواضع في حياته فان المجد الذي يشتاقه لا يعرف الحياة الوادعة الرخية الظل ، وحيث قد صدف الشاعر عن الحب والشعر زلفى للمجد فقد وجب عليه ان يعود نفسه النظر الى المشاهد العابسة .

وكانت قد جازت بعض الطريق فاستوقفها تكاثف الغيران في الحجر الصلد وبدا لها من شكل هذه الكهوف المتشابكة المتقاربة انها كانت قبل نقر الملعب رواميس لغزاة سلع وملوكها ، وشد ما كانت ذهلتها حينما ابصرت اطراف الملعب وحواشيه تغص بهذه الرواميس المنحوتة نحتاً جميلا ثم تلفتت على كره الى فناء الملعب حيث المصاطب التي اعدت للمتفرجين تبين الرائي كأنها درجات تراكب بعضها فوق بعض فما فاتها وهي تنظر ذات اليمين وذات الشمال شيء من هذا الليل الغاسق الذي ينشره العدم في هذه الارجاء مثلها وهي تستعرض مشاهد الموت مثل اولئك الغابرين من سكان سلع فلقد كان في ميسور هؤلآء الذين غيبتهم ظلمة الراموس اذا زخرت بهم افناء الملعب ومصاطبه ودرجاته ان ينظروا كلما تلفتوا يميناً او شمالا الى مضاجع الاسلاف فاذا استقبلت وجوههم الملعب عند المسيل الجائش الثائر ، او في الجانب الشرقي من الصخرة تفاوح امامهم مشهد الموت ، ورأوا القبور العظيمة وقد نحتت نحتاً بديعاً وطليت بالزخرف الخالب

وبعد ان تملت سافو من رواء الموت حيال الراموس الضخم الذي يستريح الحارث الثالث ملك العرب الى فيئه استأنفت طوافها حتى بلغت ذلك الكهف الراعب الذي يعيش كريستيا في دجناته غير بعيد من اساطير الاولين واوهام الغابرين وكانت تمشي في لين ورفق فلم يسمع مارسيليوس خفق قدميها على المرمر الاحمر ولولا هذه العطور التي ملأت شعورها المرسلة على كتفيها حتى استفاض اريجها

في افق الملعب لم ينتبه صاحب كريستيا الى امرها فلقد افعم العطر نفسه فتلفت فاذا الفتاة تشق الرواق المستطيل الذي يوصل مابين القصر والملعب ، فاجهش البهاو جمع بيده ذيول ثوبها ثم مشى بها الى الحجرة حيث وقف كريستيا يتأمل تحت الظلام الفاحم في حصاده الماتع فحبس مارسيليوس لسانه كأنه قد اراد في لياذه بالصمت ان يخلع على تأملات كريستيا روعة مخوفة ، فاخترقت سافو الحجرة ورددت نظراتها الحائرة في جوانبها الغابشة ، فاذا تمثال الحارث قد توسط الحجرة واذا كريستيا مطوقه بذراعيه كأن الشاعر يخاف فراقه فنظرت سافو الى التمثال فاعجبها منظره واذهلها تساوق في ملامحه وفي ملامح فروة بن عمرو ، فقد كانت عينا الحارث ساجيتين مطمئنتين ، وكانت عينا فروة ساجيتين مطمئنتين ، ثم ان في عيني التمثال الفارغتين شيئاً كثيراً من هذا الكبر الذي يغشى عيني فروة المملوءتين ، وكان جبين الرجل الهالك صورة جبين فروة الضاحك فحملها هذا التساوق على التساؤل عن معنى هذا التماثل فلما شق عليها ان تدرك معناه اعرضت عنه ونظرت الى كريستيا فهزتها وقفته الشجية ، وروعها ان تبصره غاشياً عانياً ، حتى ليوشك ان يتداعى تحت وقر هذه الاحزان المطلة من عينيه السادرتين والمرة الاولى نازعتها في امره ومصايره شكوك هادمة فاغمضت عينها وانطلقت تسأل نفسها عن هذا الفتى الذي امات الشعر والحب في نفسه عبقرية الرومان بني ابيها ؟

وما كانت في حاجة الى أن تسأل الناس عن امره ، فان في حياة هذا الشاعر من صور يغاير بعضها بعضاً ما يجلعها تزهد في الرجوع الى الناس فلقد نشأ كريستيا كما نشأت سافو في قصور الملوك الذين توارثوا روما وبزنطية واسموا انفسهم قياصرة الرومان ، وكان ابوه سيد ملوك عصره في شممه وعنفوانه وفي ولعه بامجاد الوطن ثم مات ابوه قتلا وتقاسم قاتلوه وهم بعض اللصوص وبعض قطاع الطرق سريره وصولجانه ، فتفرق ذووه في كل فج من الارض وهم ثلاثة عشر رجلا هلك تسعة منهم في مؤامرات دبرها هراقليوس وصحبه وبقي اربعة في هذا العالم الزاخر بالمآسي

والاحداث . فكان احد هؤلآء الاربعة شيخا فانيا فلم يلبث ان سبق رفاقه الى القبر فطوي خبره عن الناس ، وظل الثلاثة يكافحون ليل الحياة الصارد فيكافحهم هذا الليل المديد بثلجه وقره ويمنعهم ان يطلوا على فجر يمور بدفء الحياة ونورها

كانت سافو احد هؤلآء الثلاثة ولكنها كانت طفلة فلم تحفل ببرد وقر ، وكان كريستيا وتيوفانو امه بقية هذه العصبة الصغيرة ، فاضطلع كريستيا بوقر الثـــأر ، وماتت تيوفانو بعد عمر استطالت غمومه وزخرت همومه وكان من امتع اماني المرأة الفاضلة ان ينشأ ابنها رومانيـــاً في كبريائه وسلائقه فلا يتردد متى اكمل ربيعه العشرين في الرجوع الى الوطن الذي نزح عنه صغيراً فيجمع من حوله عيون الرومان من انصار موريس ابيه ، ويسترجع ملكا استعان هراقليوس على سلبه باللصوص والسراق

ولكن رجاء المرأة التي شاطرت زوجها الطعين القتيل كبرياءه وشممه كما شاطرته بلاءه والمه ، لم يتحقق فلقد نشأ كريستيا رومانياً في بعض شمائله ولم ينشأ رومانياً في كل فضائله ، فاولع بالجمال البارع وبالشعر المائع والنحت على الجنادل واطرح المجد فلم تبهره طيوفه واشبـــاحه ولم يلحق ببروقه الى مواطن العواصف والزعازع حيث يتراءى المجد لابنائه في غلائله الحمر على سرير صيغ من الذهب الصراح وحيث يحف به احراس من الفتيان في برود من الارجوان وما كان زهده في المجد وقعوده عن اللحاق به الى الافق البعيد القصي وانكماشه عن الاصغاء الى اناشيد الكماة المساعير ، وكرهه النظر الى الرايات الخافقات على الحياط والاسوار والشرفات ، ما كان هذا كله منبعثا عن بغض يحسه كريستيا في نفسه حيال المجد ، فلقد احب هذا الذي كان ابوه قيصر الرومان السلائق الكريمة واوغل في حبه المجد ولكن حبه الشديد ماكان حب الرجل الثائر ، بل كان حب الرجل الشاعر ، فاذا صبت نفس كريستيا الى التاج والسرير ورقت جوارحه لحياة القصور واستهواه كبره وزهوه واحس القدرة على الطيران الى الافاق البعيدة فذلك كله لأن عبقرية

الشاعر تحب من المجد اقاصيصه وروائعه وتجفو ملاحمه ووقائعه

كانت سافو تعلم هذا كله وكانت تعلم الى ذلك ان الارث الضخم الذي تركه ابوها في بزنطية بجوار القصور العظيمة والميادين الفسيحة والمعابد الرفيعة لايستطيع الشاعر الدميع ان يضطلع بوقره لأن الله قد اراد هذا الفتى شاعراً ولم يرده ثائراً واختاره للحب والشعر ، ثم لليالي الحافلة بمناعم الشباب واحلامه ولم يختره للمجد واسفاره الناصبة وملاحمه الجاهدة ، وما دام الله قد خلق كريستيا على صورة الشاعر الشريف ، لا على صورة الزعيم الغطريف ، فقد وجب على سافو ان تمضي الى آخر المدى في موادعته وملاينته ومسايرته في شؤون القلب وشؤون الخيال فلا تعنفه على حبه ولا تنكر ايغاله في عبادة فنه

قالت له وقد التي بظهره الى التمثال لو قدر لفيدياس ان يخرج من رمسه ورأى الى هذه الرائعة لخجل من حياة طويلة زخرت بكل جميل انيق ولكنها ظلت عارية من مثل هذه الرائعة ؟

فضحك كريستيا ضحكة متشنجة فاخافها ضحكه ولكن هذا الخوف الذي غمر نفسها لم يمنعها ان تخاطبه بلهجة حلوة فساقت اليه الاحاديث المعسولة عن فروة وقالت له ان الزعيم الذي تنتظر سلع رجعاه سوف لايحجم عن تخليد هذا اليوم ، لأنه يوم الشاعر العبقري ثم تهافتت عليه في لين ورفق وحاولت ان تأخذ يديه في يديها وتضمه الى صدرها الزاخر بشعور الاخت الوفية فما امالته احاديثها الرقيقة ، وعباراتها الرحيمة عن شروده في الرؤى الباردة ولم تثنه توسلاتها الندية عن هذيانه وجنونه وانه لمؤلم وشجي ان يسقط جرسها العذب في صدره فتضيع لحونه في صريره وزفيره وكانت يده لاتزال في يدها فاحست التعسة ذلك الثلج الذي يغسل نفسه وخيل اليها وهي تنظر الى عينيه الذاهلتين السادرتين ان الموت الذي ينشر ظله المخيف على الاصلاد والجنادل قد غشي هاتين العينين اللتين نعمتا بضياء الشمس في المثوى المنعزل عند شاطيء الاردن فرجت مارسيليوس الذي كان ينظر الى هذا المشهد

الراعب في التياع وارتماض ان يساعدها على ايقاظ هذه النفس النائمة ففعل وجعل يحدث كريستيا عن الشهرة الطائرة التي تنتظره في ميادين القسطنطينية وكان حديث مارسيليوس رقيقاً نديا ، وكان الصديق الوفي بارعا في عرض الصور الفاتنة امام كريستيا الغاشي ، بل لقد ذهب مارسيليوس الى آخر المدى فغنى كريستيا بعض اناشيده وقرأ عليه اشعار هوميروس الحماسية فاستفاق قليلا ، وفتح عينيه قليلا وتحرك قليلا ، ثم اذا هو ينزع يديه من يدي سافو في شدة وعنف ثم رفع ذراعيه الى افق الغرفة المظلم وصاح صيحة اليمة مادت لها نفس سافو فاخذت تنظر الى مارسيليوس نظرة راجية كأنما هي تريد ان تسأله عن معنى هذه الصيحة العنيفة ، فتوسل مارسيليوس اليها ان تسكت فسكتت واخذت تنظر من جديد الى وجه الشاعر فاذا هو قد تلألأ وزها ، ثم اوغل مارسيليوس في قراءة شعر هوميروس فاوغل كريستيا في الصياح ! واوغلت التعسة في مخاوفها ، وفي تلك الفينة زخر الوادي باصوات الكماة المساعير ، واستفاض خفق البوق في سماء سلع فجاوبته ابواق القصر ، ورجعت الجبال الحمراء عصف الابواق وتلا ذلك خفق نعال الجند المغاوير على الجنادل ، ودعاء الحرس في مسارب الوادي للزعيم الغطريف !

لقد قالت سافو وهي تنصت لهذه الاصوات !

الا تسمع يامارسيليوس ؟ ان الجند ليهتف باسم فروة هتافا اهتزت له ربا سلع فماذا حدث حتى تعالى صوت البوق واستفاض ؟ انه ليوم جليل رائع ، فقد خرجت سلع بشيبها وشبانها الى مفارق الطرق لتحية الزعيم العائد ورفت الرايات السود على الربا الحمر كأنها جناحا نسر ! انظر يا مارسيليوس الى شرفات القصر ! انها تضيء وهي توشك ان تحترق لفرط الضياء فكأن فروة الذي منع اهله وقومه صورته الضاحكة قد ارتد الى محارسه ومحارمه ! الا ترى ؟ ناشدتك الله ان تسمع انهم يغنون غناء حماسيا كثيراً ما سمعت فروة يغنيه !

وكان الجند يتتابع من اقصى الوادي الى سلع واصوات الابواق دائمة الهدير ،

فصاح كريستيا صيحة عنيفة :

— لقد رجع الرجل الظافر يامارسيليوس باسلاب هراقليوس ، فهلا خرجت اليه واسمعته صوتك وسألته عن مكاسبه من الحرب فقال مارسيليوس انك لتهذي ايها التعس فهمست سافو همساً اليما : بلى انه ليهذي بينما هـــذه المدينة المنحوتة على الجلامد تحرص على جدها ووقارها في تحية البطل ! ناشدتك المروءة يامارسيليوس ان تخرج الى لقاء فروة فانه ليوشك ان يهبط القصر ! الا ترى الى حرسه وقد صاقب الملعب ! ان هذه الاشباح لخيفة جداً يامارسيليوس : فان بريق المســاء قد اراق ظلاله الصفراء على القبور فكأن طيوف الاموات قد تركت عالمها المخبوء لتمزج اصواتها المبهمة باصوات الاحياء في هذه الارض الصلداء ! اي اشباح هذه ، باللرعب بل باللحماسة ! لم تشأ سلع ان تتمصر افراحها على الاحيـاء فقذفت بالاموات الى دروبها ومساربها !

كانت ســـافو تتكلم بصوت راجف ولكنه صوت المرأة التي انتظرت اياب زوجها المسافر ، فلما عاد اليها امالها الكبر والزهو ، وفي تلك الاثناء تسلق بعض الجند درجات الملعب وفي ايديهم الرماح والسيوف فهاج هذا المشهد حمية سافو فهزت يدي كريستيا في شدة وعنف وقالت له : الا استفق من غشيتك ايها السادر فليس يليق بك ان تستقبل البطل الكمي وانت ذاهل ! فارهف كريستيا اذنيه فاذا الجند يشتد في وطئه ارض الملعب فبرق وجهه بضياء الحياة وعاف التمثال في مثل خفة الوميض ثم مسح عينيه بكفه فمسح احلامه المروعات المضنيات وجعل يخفق ارض الغرفة خفقاً شديداً فما فات سافو انه يساوق الجند في وطئه الشديد العنيف وادرك مارسيليوس هذا التبدل الذي بدا على خلق الشاعر فاستروح قليلا ورأى ان لا معدى له عن استثارة حماسته فاستأنف احاديثه عن الشهرة الطائرة التي تنتظر كريستيا في بزنطية فما انفرطت ثوان حتى طفرت الحياة الى نفس كريستيـــا فرق وغنى اشعار هوميروس بينما كانت سافو تبكي في خفوت وهمس وبينما مارسيليوس

يمسح دموعاً اراقها الالم على خده

وكانت اولى كلمات الشاعر ساعة رفت الحياة على جبينه ، واخضل الامل في صدره « صفحاً ايتها الحبيبة سافو فلقد امعنت في الاساءة اليك حتى كدت انزع من نفسي شعورها الرقيق » ثم مضى يطوقها بذراعيه وقد سالت مذارف دمعه فاحست سافو بكاه فرقت له وقالت :

ــ انك لم تسيء الي يا كريستيا ! فقد كنت تحلم وكانت احلامك صورة لهذه القبور التي تعيش عن كثب منها ! فاطرق الشاعر اطراقة اليمة ولم يفته وهو مطرق ذلك الجنون الذي طغا على ذكائه حتى انتزع من صدره تلك الصور الماجدة التي كان يبتسم لها في ايامه المواضي ولما رفع رأسه اشار بيده الى التمثال وقال لسافو بصوت ناعم :

ــ كيف رأيت معجزتي ! فقالت : انها المعجزة الباقية

لم تفقد سلع شيئاً من روائها وزخرفها على الرغم من هذه السيادة المطلقة التي ينشرها الموت في افقها الوضيء. فلقد جعلت تضحك وتغني كأن ملوكها الذين نافسوا قياصرة الرومان وقياصرة الاغريق لم تزعجهم اسفارهم البعيدة في مفازة الموت ، وكأن هؤلاء الملوك الذين ارضوا الوطن في شهواته وميوله وسايروه في مطامحه ونزواته اصحاب هذا العيد الرائع ، وكأن فروة بن عمرو الجذامي قد جمع الى كبره وزهوه في هذا المساء الرقيق الناعم سلائق هؤلاء الموتى من ملوك سلع فبدا لناظريه وهو يجتاز الوادي في طريقه الى القصر في شبـابه الرائق ، وخلقه العابق ولباسه المذهب وتاجه المرصع وكان بعض الحاشية قد حملوا محفته على المناكب فلم تره امرأة في سلع الا رمته بالذي جمعته من ازهار الوادي ، ولم يشهده شيخ عربي الا خف اليه على الرغم من كبره ودعا له احر دعاء وافتن من هذا كله ان تفتح سلع حضنها فتضم اليه اولئك الذين جاءوا من الاردن وعمان ومعان وايلة لتحية البطل العائد واروع من هذا كله ان تتساوق الاناشيد على افواه الناس فيغني هؤلاء نشيداً

لم يضع معانيه ولحونه شعراء من الرومان بل وضع معانيه ونسق لحونه شعراء من العرب وذلك النشيد مقتبس من شعر الاعشى ومن شعر كعب بن زهير في مدح سيد قريش وسيد العالم محمد بن عبد الله ، وقد كان الناس يرددون هذا الشعر المهذب بينما الطبيعة تنشد انشادها الساحر على الربا والذرى ثم على الروامس السابحة في غبشة المساء ولا يماثل الطبيعة في انشادها اي منشد مهما برع في النشيد فلقد كانت تريق على الاصلاد افنانا من السحب وتنثر الالوان والاصبغة على ذوائب الجبل فيستفيض بهاؤها الخاطف على الملعب وعلى القصر فيرى الناس وقد تسلقوا المصاطب وانتشروا على السطوح ، الى هذا الرواء العجيب فلا تمله نفوسهم فاذا اشاحوا بابصارهم الى سرة الوادي اخذتهم الالوان الحمراء والصفراء وهي تطفر الى الغيران المنقورة والكهوف المحفورة ، ثم يبين لهم على نورها الغامر وجه كريستيا الغارق في سكونه ولا تفوتهم وقفة سافو حيال التمثال بجوار مارسيليوس ! وعلى هذه الصورة كان الناس في سلع يحسون في امسيتهم المعطرة لذتين اثنتين لذة هذا النشيد الذي يردده الجند ولذة النشيد الذي تردده الطبيعة ، وكانت سافو تشعر بمثل شعور الناس فلم تنقصهـــا حماستهم ولم تفتها اناشيدهم بل كانت المرأة التي علقت بزوجها البطل وافتتنت به على القرب والبعد تغني في امد واحد اغنية الناس واغنية الطبيعة معا حتى لكأن ماضي سلع الداثر وحاضرها الزاهر حصـــاد هذا الزوج الذي احبته فوق كل حب وساوقته في ميوله وارضته في اهوائه ومنازعه وما كان هذا الفرح الذي لألأ على جبينها امراً يجهله كريستيا ويتعامى عنه مارسيليوس فلقد اخذت هذه المرأة التي همها ان يصدف اخوها عن منازعه وسلائقه ، تستعرض الكماة المساعير لعلها تنظر الى الصورة الماجدة التي تحبها بين طوائف من الصور فلما ابصرت الجند يملئون ارض الملعب وشهدتهم يشقون الطريق الى القصر وهم في لباس الحرب زهر وجهها زهورة رائعة والتفتت الى كريستيا وقالت :

— قل لي أمستطيع انت ان تخلد هذه الرائعة في شعرك ؛ فلم يجب ولما اجتاز

حاملو المشاعل الملعب ولحق بهم حاملو المحفة ورأت على اضواء المشاعل وجه الرجل الذي احبت لم تطق مكوثا في مغارة كريستيا فتولت عنها وجاءت الى احراس فروة وقد كادوا يدخلون القصر فقالت لهم بصوت شجي انه لايليق بهم ان يدخلوا بالبطل الظافر الى حرمه قبل ان يستمع الى امرأته ، فترفق الجند في السير اجلالا لسافو وحيوا زوج الزعيم بمثل تلك التحية التي خرجت من صدورهم ساعة اطل الزعيم على ارض سلع ، ثم طلع موكب الجذامي فالقت سافو بنفسها الى المحفة وقد تهدلت شعورها على منكبيها العاريين وبرق وجهها من الحماسة فعرفها احراس فروة فلم يمنعوها ان تتدفق على المحفة ، وعرفها فروة نفسه فلم يجنبها ذراعيه ثم صاحت صيحة عنيفة خفق لها قلب كريستيا ورعش منها جنان مارسيليوس فزهدا في مكانهما حيال التمثال واقبلا الى ناحية المحفة ، فاذا هما يريان سافو بين ذراعي فروة فروعهما المشهد واسال عبراتهما ولع سافو الشديد العنيف ببعلها الغطريف ، بل لقد اذهلهما ان يريا الى فروة مكبا على زوجته يخصب شفتيها بالندي الرقيق من قبلاته ويضرم قلبها بعاصف لاهب من زفراته حتى لقد خيـــل اليهما وهما يريان الى جسديهما المتلاصقين انهما يريان الى اسطورة من اساطير الحب عند الاغريق !

ولقد حدث هذا كله والناس يغنون ويهزجون واشباح المشاعل تترقرق على منازل الاموات ، كما تترقرق على منازل الاحياء ، فذهل الرفيقان النجيان من ايراق الحب في هذه الارض الموحشة العارية ولكن هذه الذهلة التي اخذتهما لم يطل امرها فلقد تكلم فروة واسمع صوته سافو الغاشية العانية ففتحت عينها وراحت هامسة :

— فروة فروة ، فقال لها الزعيم الكمي :

— انك بين ذراعي وتحت كنفي فما امتع هذه العشية التي وسعت افراح الامس وافراح اليوم ! ثم اطل برأسه من خلال سجوف المحفة وصاح في الجماهير :

ايها الرفاق من احراس سلع هاكم امرأة الزعيم الذي تحبون . انها لتحييكم وتهتف

لكم : فهلا رجع الوادي تحية قلوبكم الصافية فتسمعها سلع ويهتز لها اباؤنا الاول !

فردد الجيش المتحمس انشودته البارعة وهتف كرة اخرى لسيد شباب العرب في بادية الشام ، ثم هتف لسافو هتافا لم تسمع الصخرة النابية اكثف منه في الحقب المواضي ، فشجيت سافو واغيمت عيناها وكادت لفرط حماستها تطفر من مكانها في المحفة الى الجند فتصافحهم جميعاً وتقبلهم جميعـــاً ولكن صورة فروة البارعة ثنتها عن هذه الفعلة ، فعادت الى التحديق في وجهه فاذا قسمات هذا الوجه قد غشيها غبار الطريق فودت لو انها كانت في القصر فتخرج الى فروة بطيوبها وعطورها وتمسح هذا الغبـار الذي غشي وجهه حتى كاد يواري بياضه الاصيل ولما سكنت نفسها وتلألأ جبينها سألها فروة عن كريستيا ثم سألها عما اذا كان النحات النابه قد فرغ من ترميم تمثال الملك الحارث فاومضت بيدها الى الناحية التي تذرى بها الشاعر واردفت قائلة : ان كريستيا لم ينم لياليه الطوال . فلقد تهافت على عمله حتى اتمه ، ثم تدفقت في حديثها عن رائعة كريستيا فقالت ان سلع ستبارك الشاعر لأنه حقق اهواءها وجدد رواءها ، ولأنه الى ذلك لم ينس وهو دائب في عمله ان يصب روحها في التمثال حتى تندى الحجر الصلد وشعر بالحياة فتضـــاحك فروة ونادى كريستيا فخف الشاعر اليه فما جنبه يده وكان حديثه حديث الرجل الشفيق الرفيق فاستأنس الشاعر بطلعته ولذه ان يرى غبار الطريق على وجهه وتجددت احلامه الهائمة فما عاد يفكر في احلامه المضنيات الموجعات

لقد قال فروة لرجاله وهو ينحدر من المحفة ليدخل القصر مع سافو انه لن يستسيغ نوما في ليله المائل قبل ان يوافيه رفاقه بالنبأ السـار عن مصير تمثال هراقليوس الذي رفعه تيودور الطاغية عند مدخل الوادي على الذروة التي كانت خلال عصور وطاء لتمثال الملك الحارث ثم جهر بصوته فسمعه الجند جميعاً وقال لينطلق عشرة من رجال جذام وعشرة من رجال قضاعة الى الوادي حيث يغطي تمثال الرجل الظالم صورة الحرية فاذا عرس هؤلاء البواسل الذين اخذتهم من بين

صفوف الجند المنتصر على كسرى في مدائنه حيال نصب الطاغية لحذار ان ينكصوا على الاعقاب وليعلم هؤلآء الذادة انه لا يليق بسلع وهي تجهر بالدعاء لحريتها ان تنظر الى شبح الطاغية الذي امتهن كرامة الاباء والاجداد !

ايها الشجعان من رفاق فروة بن عمرو لايخفينكم ان يتبجح قيصر وان يسرف في تبجحه فان سلع وهي مقبرة الغزاة من قياصرة الاغريق والرومان اجل من ان تستخذي لتبجح الظالم ! ان يومنا الذي نعيش فيه لا يشبه يومـــا عاش فيه اباؤ نا الاوائل ، فلقد اطلعت جزيرة العرب وهي مهدنا الاول امة عظيمة سترث ميراث كسرى وقيصر في هذه الدنيا ! فاذا بلغ فرسان سلع سرة الوادي ولاح لهم شبح لرجل البغيض على الذروة السامقة فليكن شعارهم اسم يتيم قريش محمد بن عبد الله فاذا جرى هذا الاسم الرفيع على الافواه فليتقدم احدكم الى تمثال الطاغية ويزلزله عن قواعده ! اليوم يوم سلع وغدا يوم دمشق ! ...

كان حديث فروة حديث الرجل الواثق بقدرة فتيانه على المقارعة ، فمـــا كاد يفرغ من خطبته حتى خرج من صفوف الجند عشرون كميا من فتيان جذام وقضاعة فبارك سيوفهم وقبلهم جميعاً فخرجوا الى الوادي في غير همس ولا ضجيج وظل فروة يستمع لخفق اقدامهم على الصخر حتى وارتهم بواسق التين ثم انقلب الى كريستيا وهمس في اذنيه همساً امتقع له جبين هذا الفتى الرقيق الشفيق ورعشت منه سريرة سافو !

لقد قال فروة في همسه ان حاجة المرء الى المجد قد تزجيه الى اعمال جسيمة ، فهل لا تزال ايها الشاعر في حاجة الى المجد الذي حدثتني عن بروقه ومفاتنه في بيتك المنعزل عند شاطىء الاردن ؛ وهل لا يزال فمك يقذف هراقليوس باللعن الشديد العنيف !

ولما استطال صمت كريستيا واستطالت معه هموم سافو ضحك فروة واردف قائلا : لعلك قد نسيت مواثيقك ايها الفتى الشريف ؛ فتقدم مارسيليوس من الجذامي

وحسر عن صدره وقال له :

— كلا كلا انه لم ينس مواثيقه ولم يجنب فمه ان يلعن هراقليوس ولكن ادمانه على نحت الجنادل في لياليه الطوال واسفاره الناصبة الجاهدة في رؤى المجد وحرصه على الوفاء بالعهد وشوقه الى الحمى القديم ، وولعه بالجيل الانيق من ميراث وطنه كل هذه الشجون التي اجتمعت عليه وهو في عزلته الموحشة في كهفه الواعر قد حجبت عينيه فلم يبصر سناءك ولم يتح له ان يفهم كلامك

فاخذ فروة بدي مارسيليوس وقال له :

— ان مرانك على المقارعة في الحصون ايها الفتى مارسيليوس يدفع بي الى استنفارك فلعلك تصطنع ذكاءك في تعويد الجند على القتال في حصون سلع وهذا امر لا بد منه لأن آمال سلع في الحرية ستصطدم بآمال هراقليوس في تدويخ هذه الحرية ، ولا يفوتنك امر سلع فانها بلدة صغيرة بينما هراقليوس وهو عدو حريتها يعيش في دنيا كبيرة ! قل لي يامارسيليوس أمستطيعانت ان تحقق هذا الحلم الخالب

ينبغي لكما تدرك روعة العمل الذي ارادتنا مشيئة الوطن على المضي فيه الى النهاية ان تجيل طرفك في هذه الجبال الكابية النابية ؛ وانا موقن ان مارسيليوس الفتى النابه لا يرى انى تلفت غير كهوف مهجورة وقبور منثورة تصاقبهـــا سلوع جرداء يضيع الفكر في اطرافها الفيحاء ! فاذا بلغت في طوافك بهذه الرباع المنيفة والاصلاد المخيفة اعلى الذرى تراءت لك صدوع وادي العربة ونجوده فاذا امعنت في التحديق الى غيرانه وكهوفه ومســـاربه وغدرانه رأيته يفصل بين البحر الميت وخليج ايلة ، فمن نواحيه الشمالية يزلق الوادي وينحدر حتى يبلغ شاطيء هذا البحر الراعب الذي طوت لججه السامة مدن الســـادوميين والعموريين ، ومن نواحيه الجنوبية تنخفض الارض وتتضاءل حتى تصل الى خليج ايلة ، اما اذا قدر لك ان تبدأ طوافك بسلع من ناحية السيق فسيتراءى لك سيل الوادي الدائم الترديد والتسجيع ، فاذا استرحت الى هذا الحائر الثائر بدت الى جانب الروائع الفواتن من

مخلفات عرب النبط طرق تدفع الى معان ، فاذا احتوتك هذه الطرق ونظرت الى الافق رأيت السحب الرمادية تتهاوى على الجبال وابصرت الصحراء وقد اوشكت ان تزحمك عند كل فج فلا تستطيع افلاتا منها ! انها لعالم من الرمل سحيق لا يجرؤ على وطئه اجنبي !

هذه كل حدود سلع يامارسيليوس في هذه الحدود الضيقة وجدت حرية الآباء والاجداد الواذا تفيء اليها في عصور ماضية ولكن حرص الاجنبي على مجافاته للحرية ظل حافزه الاول الى الانتصار فاستطال هذا العدو المقيت على سلع اكثر من مرة وازرى بكبريائها ! وذلك لأن لهذا العدو سواء اكان اغريقيا كالاسكندر امكان رومانيا كبومبي دنيا تمور بالمدن والشعوب والشواطيء والقصور والحصون والكتائب ! ان هراقليوس في مطامعه ومطامحه وفي تنكره للحرية العائذة بالصخور والسلوع من طراز الاسكندر وبومبي على الرغم من هذا التفاوت البعيد الذي نلحظه بين عصري الاسكندر وبومبي وعصر هراقليوس ! ومع هذا كله فلا يحس وطننا الصغير سأما في نضاله لأنه يجل حريته ولأنه يحب مجده ، ولأن الحرية والمجد كانا ولا يزالان ذلك الارث المتعب المرهق الذي تسلل الينا من اباء صحاح الافهام !

اننا نشعر يامارسيليوس بظلم شديد من عظمة الآباء . ولكن نفوسنا لم تمل هذا الظلم العذب ، فهي تستسيغه وتلذه لأنه يهيج في سلائقنا الهاجعة حبنا لهذه الارض فاذا وطيء العدو ارض الوطن وآوينا الى الجبال لندفع الغارة الاجنبية عن منازلنا وسهولنا خرج موتى القرون العافية من قبورهم واظلتنا اشباحهم وصورهم فنرجع الى نفوسنا ونحن نستمع لاصوات الموتى فنرى اليها ندية بكل شعور كريم فنخرج الى القتال في حمية البطل العميد . لاني بؤس الجبان الرعديد ، ونمنع العدو الذي دنس ارض الوطن ان يقتحم هذه القبور المغلقة ليلقي بودائعها الغالية الى كواسر الطير او الى ذئاب الطريق ويستأصل بعمله الشائن ذكريات الاجداد من نفوس الاحفاد

ما انكر ان ميراثنا من الماضي شديد الرواء ، ولكن هذا الارث الشديد الرواء مازالت تنقصه دوافع واسباب تنميه وتبقيه ، وليس في سلع المنقورة في الحجر الصلد من هذه الدوافع والاسباب ما يحقق شهواتنا في المجد . فينبغي لنا ان نبحث عن دنيا جديدة تنقل اناشيد حريتنا الى دنيا الرومان فيسمعها قيصر ويسمعها معه هذا العالم الذي يدين له في بر وبحر .

اسامعي انت يا كريستيا ! ان الما شديداً يطل من عينيك حتى ليوشك ان يمنعك الاصغاء الي ولكن في وسعك ايها الفتى النبيل ان تنيء الى غيرانك وكهوفك فاذا فعلت ذلك وخلوت الى التمثـــال الذي اصلحته ورممته فامسح الملك وجدد املك واسأل هذا الحجر الذي ينظر اليك بعينين فارغتين من اضواء الحياة عن تاريخ سلع فليس من شك ان هذا الجلمود الذي اكملت زينته وزخرفه سيقول لك هذا الذي جئت، اقصه عليك في هذه الساعة الروعاء عن حاضر سلع ! فان الرومان حينما استفاضوا على العالم وجردوه من كنوزه وخيراته وسرقوا حريات شعوبه وامه فكروا في البحث عن ارض جديدة تحقق شهواتهم في الفتح والتدويخ فعرضت لهم خيالة سلع وظنوها الارض التي تسع احلامهم فنهدوا اليها فلما صاقبوها وامتحنوا قدرتها على المناخة ارتدوا على الاعقاب ثم نظر لصوص العالم الى ايديهم فاذا هي تشد على سيوف لم تضرج بحمرة ، فاغمدوها في صدورهم وصبغوها بدمائهم ذلك لأن عدو الحرية اللعين ان لم يجد دماً ذكيا يسفكه ويطله سفك دمه واطله وقد فعل الرومان ذلك في عصر من العصور تحت عيون المغاوير المساعير من احراس سلع ! وسيفعلون ذلك في عصر هراقليوس ! ... اي مارسيليوس الشريف ! قل لي أحاضر انت لتمرين الجند على الحصار !

فصاح مارسيليوس وقد اسكره عنفوان فروة ، وسحرته كلماته البارعة لاحققن حلمك في سلع وصاح كريستيا صيحة نمت على حماسته : لاقتلن قيصر برا بيمين حلفتها لامي ووفاء لعهد قطعته لك ! فقال فروة : لن تنتهي ثاراتي يا كريستيا حتى

يكون تساوق بين مجد جزيرة العرب ومجد بزنطية ! ولما ردد فمه ذكر المهد الاول للشعب العربي اخذته نشوة من كبر فزهر وجهه زهورة شديدة وتخافت بصوته : لقد وهبت حياتي ليتيم قريش فليبارك هذا النبي في عملي وليرافقني اسمه البسيط المتواضع في اسفاري الجاهدة الناصبة فلا افي الى هذا الصخر الواعر الا ضرجت يدي بدم قيصر

ما كان في ميسور كريستيا ، ولا في وسع مارسيليوس ان يساوقا الجذامي في حماسته وكبره حينما تكلم امامهما عن ماضي سلع او حينما قص عليهما اشياء كثيرة عن طموحه الى المساواة بين عظمة وطنه المحتجز في فج من الصخر ، وبين عظمة هذه الدنيا التي تخضع لقيصر ، فقد كان فروة يتحدث اليهما وهو سيد الكتائب وامير ايلة وزعيم البطاح الممتدة من سيناء الى مشارف البلقاء . فتستهوي احاديثه قلب كريستيا فيميد ويحس الشاعر النابه غيرة لاذعة وحسداً شديداً ، وذلك لان كريستيا الذي كان هراقليوس في جند ابيه قيصر الرومان ما كان يستطيع ان يسير الجيوش تحت اللواء ، ولا كان في طوقه ان يحلم بافتتاح قرية صغيرة على الرغم من ان شعوره المضطرم مقتبس من مجد بزنطية الطويل العريض وعلى الرغم من عمر امضى بعضه في محارس الجند ومعاقل الغزاة ، وماذا كان في ميسور كريستيا ان يفعل وقد تغاضى عنه احراس ابيه ، واهملوا امره ولحقوا بالرجل المغتصب ليكونوا في جيشه المنافح وفي ميسور هؤلاء لو انهم حرصوا على ولاء ابيه ان يثأروا بدمه الطليل من مريقيه ، بل لقد كان هؤلاء الذين حشروا انفسهم في صفوف هراقليوس يستطيعون ان يحملوا كريستيا الى العرش ، فتخضع له هذه الدنيا التي تخضع للقاتل السفاح ! ولكن هؤلاء القادرين على اجتناء النصر في المواطن البعيدة لم يفعلوا شيئاً في سبيل هذا الصبي فتخطفته حظوظه العواثر ورمت به الى صحراء الحياة فاخذته رياحها البوارح ، وتتالت عليه لياليها الكوالح ثم انتهى به المطاف الى سلع فاذا هو في واديها النابي لا يملك اكثر من دموعه الواكفة واحلامه الراجفة

وقد كان مارسيليوس من طرازه فما ابتسم لحلم مشع منذ جفا حياة الجند في

جيش هراقليوس ، وكان هذا الفتى الذي عبد الصداقة وكرمها وحمل نفسه اعظم نصيب من آلامهـــا قائداً من قواد قيصر ، بل لقد كان احب رجال الحرب الى هراقليوس لحسن بلائه في الفرس وشديد فتكه بالبربر اعداء بزنطية . فصدف عن الحياة الماجدة تحت اللواء مساوقة لهذه الصداقة التي تربطه بالشاعر وزلفى لأهواء جامحة ولدت في نفس كريستيا الفاترة ، وقد سمع مارسيليوس فروة بن عمرو وهو يلعن هراقليوس فلم يهتز شعوره لقيصر ، ولم يغضب من اسراف فروة في لعنه ، وذلك لأن قيصر كان عدواً لكريستيا وكان الى ذلك عدواً لبيزنطية وللحرية وحينما اراده فروة على تمرين رجاله على اساليب الحصار في حصون سلع واستساغ هذه الذي اراده ، فكر في تعاسة كريستيا وفكر في احاديث فروة فما وسعه الا ان يقاسمه رأيه في ان الرومان وهم بنو ابيه ليسوا الا لصوصا ظمئت نفوسهم الى الفتح في بلاد جديدة ، فلما لم يجدوا دما يطل ، اراق بعضهم دماء بعض ، وهذا ماتعمله الشعوب الظالمة تزعم العطف على الحرية ، ثم لا تتورع بعد امعانهـــا في تدويخ الشعوب الآمنة من ترويع الحرية وتخويفها وتشريد ابنائها !

وبغتة فاضت شؤون كريستيا . ففاضت شؤون مارسيليوس فزرفا الى الجذامي وقالا له : نحن معك وفي جندك فامض بنا الى حيث تشاء فلن نعصي لك امرا

فقال فروة ، كنت في سيناء فحدثني رجال من قومي عن دخول هراقليوس الى ايلياء في موكب خلع عليه الظالم ظله القاتم اما انا فقد ابيت لحاقا بهذا الموكب لأني اعتزمت البقاء في سلع وساطرد في الغد رجال قيصر من ارض الآباء والاجداد فاذا فكر هراقليوس في القصاص وجاء الى سلع بخميسه العرمرم فلاردنه اقبح ردة!

ان رجالا من قضاعة وجذام يتولون اليوم حماية الطرق ، وقد بعثهم عـــلى مراقبة قيصر فقال شيخهم وقد اناف على الستين : ان وهن الكبر قد فشا في بدني وما انا بمن يستطيع ان يرفع نصلا فيصوبه الى صدر عدو ولكني سأنفذمشيئتك فاني ادا مر بي قيصر عرفته فقلت له او قاتله انت فصاح نعم ولو كان تحت اللواء !

الا اذهب يا كريستياالى غارك فسيخرج اليك في صباح الغد بواسل منجذام فاذا رأيتهم في لباس الحرب فلا يخيفنك ماعليهم من الحديد واستعن بهم على رفع التمثال الذي صنعت بجوار الوادي ! اما انت يامارسيليوس فلست مفارقي بعد هذا اليوم ! قال ذلك وهو يشد يدي كريستيا ، ثم اومأ الى الجند ايماءة لم يفت معناها هؤلاء البواسل الذين مرنوا على القتال في المواطن البعيدة ، ثم دخل القصر ويده تدغدع شعور سافو السادرة الذاهلة ، فلحق به مارسيليوس وهو صامت وانفلت كريستيا يعدو في طريقه الى صخوره وحجارته !



الفصل السابع

الليلة الليلاء

قال فروة وهو مطل من شرفة القصر على سلع لسافو التي اخذت تريق علـى وجهه الماء النمير ممزوجا بعطورها وطيوبها :

لو رافقتني في اسفاري وشاطرتني بعض متاعبي ورأيت الى مارأيت وسمعت الذي سمعت لثلج صدرك وثرت عينك ولألأ جبينك ولقلت وانت تشهدين الى الناس مجتمعين عند مفارق الطرق من ايلة على ساحل البحر الى سينـــاء في القفر كأن الله قد خلق هذه الدنيا التي تمور بكل عظيم وجليل من اجل فروة بعلي ! اراك تضحكين فهل امالك الى الضحك ضيق دنياي هذه عن دنيا ابيك تلك ، لا انكر عليك انه كان لموريس وهو قيصر الرومان وصديق كسرى ملك لايساوقه في كبره وزهوه ولا يدانيه في اتساع اطرافه وانبساط اكنافه اي ملك في العالم ولكن في هذه الصحراء العارية من الرفق بالحرية ما ليس في بزنطية حيث يعيش الرجل الذي خلف اباك عيشة لا تشرف عصره وجيله ، فالتاعت سافو من هذه الشكوك التي علقت بنفس زوجهـــا فقالت له لقد هزني ان ترجع الى سلع رجعة البطل فتفجر الضحك على شفتي ورجع صدري ذلك النشيد الذي هتف به اولئك الذين خرجوا الى لقائك عند مفارق الطرق ، وبهرتني دنياك وهي مهد الحرية ولم تبهرني دنيا الرومان وهي قبر الحرية فاذا قلت ان غيران سلع واجوافها اجل في نفسي وافضل من صروح بزنطية وقصورها فصدقني ولست اخدعك اذا قلت ان اعرابيا خشنت حياته في البوادي اندى نفساً وارق طبعاً من هراقليوس الذي اغتصب ملك ابي القتيل الشهيد ! فروة ! فروة ! ان في غبـــار الطريق الذي اذرته الريح الجفول على جبينك لونا جاهما لا يماثله بريق اللؤلؤ في تاج قيصر ولا يحاكيه خطف الذهب

الصراح على عصا البطريرك ، وفي قبور سلع ورواميسها المنقورة من الكبر والشمم ما ليس في هذه القصور البواذخ التي كانت لابي في عصره الذاهب ، ثم صارت لهراقليوس من بعده ! فروة ، فروة ! لقد احببت المجد على متاعبه واوصابه لأنك احببته في متاعبه واوصـــابه ، ولذت نفسي صليل البوق لأن نفسك قد لذت هذا الصليل ، ورحت كلفة بمشهد الرايات الخافقة لأنك كلف بهذه الرايات الخافقة ، واستسغت الحياة في محارس الجند ، لأنك لا تفارق هذه المحارس ، ولكن قلبي الذي وسع مجدك وانصت لصليل البوق وطرب من مشهد الاعلام واستروح الى حماسة الجند في الخيام لم ترققه اغانيك في الحب فهلا تحدثت الي عن الهوى فيرتد قلبي رقيقا نديا وتثب الرحمة وهي ابنة الحب الى نفسي فاحس جناها وانظر من خلال سحبها الرقيقة الى صورة الحياة الحالية بالضحك والفرح والامل والشعر والعطر ...

وكان فروة يستمع لحديثها فيعبه ويلذه ويخفق قلبه لجرسها الناعم فيود لو ان هذا الجرس الذي لم يستمع له في لياليه الفارطة يظل دائم الصليل في اعماق نفسه ولكنه على الرغم من ولعه بسافو وافتتانه بحديثها الرائق لم يجنب عينيه النظر من شرفة القصر الى صورتين اثنتين ، صورة الكهف الذي لحق به كريستيا قبل لحظات وصورة وادي سلع السحيق ، وقد كان في ميسوره ان يجمع في عينيه هاتين الصورتين فلا يفوته وقوف الشاعر بجانب التمثال ولا تنأى عنه اشباح رجاله وقد تتالوا على الوادي وانتشروا في سفوحه وتساق فريق منهم تلك الرابية السامقة التي يقوم عليها تمثال هراقليوس !

وكانت اعراف المســـاء تطفو لينة رقيقة على ربا سلع واضواء القمر تترقرق على حافتي الينبوع ، وخيالات الكواكب ترعش على القبور فتبين على ضوئهــــا الشديد صور اللات والعزى محفورة على الجنادل والجلامد ، ثم تتصدع عن هذه البروق سحب بلون الذهب فتتدافع في الوادي فتتلقاها اجوافه ومســـاربه ، فاذا هامت هذه السحب على الربا وغسلت انوارهـا الوردية راموس الحارث النبطي

تلاْلأت نقوشه وكتاباته ، ورأى فروة ان في وسعه ان يقرأ على حجارة الراموس قصة البطل العربي الذي استطال على جيوش الاسكندر الكبير وجيوش بومبي !

كانت تأملات فروة في هذا المساء ابعد غوراً من تأملات سافو ، فلقد اغرق الجذامي الثائر على قيصر نفسه في غيران كريستيا وفي وادي سلع ، وفي مضاجع الاموات ! واغرقت سافو نفسها في رؤى الحب ولما تسمع عن شؤونه كلمة واحدة منذ ليال وعلى هذه الصورة كان عسيراً على الحبيبين النجيين ان يتلاقيا في صعيد واحد على الرغم من هذا الهوى الصحيح الذي الف بين قلبيهما وفي تلك الاثناء تطاول فروة الى الوادي حتى اوشك جسمه ان يجفو الشرفة فتبعت سافو نظراته لترى الى تلك الاشياء العظيمة التي حفزته الى الشرود في الرؤى الجاهمة وفي تلك الفينة اخذت انوار القمر تحسر عن الاشياء والصور والجبال والقبور والاشجار والصهاريج والقصور فرأت سافو صورة ذلك المشهد الذي بعث فروة على الوقوف في الشرفة فشاطرته النظر اليه وقلبها يميد من الذعر

وكان في ميسورها ان تفتش في ذاكرتها عن هذا الذي عرض لها فلا يفوتها يسيره او كثيره بحيث تستطيع هذه المرأة التي رضيت بنصيبها من التهاويل الجسام ان تقص على الناس ذكريات هذه الليلة في الايام القابلة ، وكان الرجال الذين تخيرهم فروة لتحطيم تمثال قيصر قد بلغوا في طوافهم الذروة الشامخة فرأى الجذامي على ضوء القمر خيالاتهم واشباحهم وهي تتحرك وترعش ، ثم رأى ذلك التمثال الضخم الذي رفعه تيودور على انقاض تمثال الملك الحارث فاذا هو يمثل هراقليوس على فرس ابيض وقد استقبل وجهه طريق سلع من نواحي معان وقبضت يده على صليب حديدي فلوح به الى دمشق فماثل في الصورة والمعنى نصب الملك الحارث الذي كان يشير بسيفه الى دمشق !

وللمرة الاولى وقعت عينا سافو على خيال الرجل الذي اغتصب ملك ابيها وكان مصدر هذه التعاسة التي يعانيها كريستيا في صخور سلع ، فحملتها صورته على

الرجوع الى الماضي فذكرت ذلك اليوم الذي جاءت امها فيه فاذا هي تحتضر فجلست حيالها واخذت يدها وقالت لها : وصاتك يااماه ! فقالت لهـــا تلك الام الشهيدة وصاتي لك ان تلعني الرجل السارق !

ولما ذكرت هذه الكلمات التي سمعتها من امها في ساعاتها الاخيرة فتحت فمها ولعنت هراقليوس لعناً شديداً سمعه فروة فتلفت اليها وقال لها انك لترين الى ماارى وقد اخافك هذا الذي اخافني فهزت رأسها وقالت نعم اني رأيت الى مـــا ترى ، واخافني ما اخافك ؛ فاي رجل هذا الذي يسميه الناس قيصر الرومان

وكانت تحب الاكثار من الاحاديث عن ماضي هراقليوس لتستثير حماسة زوجها فما استطاعت الى ذلك سبيلا ، فلقد حدث في تلك الاثناء ان تهافت عشرون كمياً من احراس فروة على نصب هراقليوس حتى زحزحوه عن مستقره ورموا به الى اعماق الوادي فسقط على الصخور الواعرة واحدث سقوطه المخيف صليلا مائلا اهتزت له حياط سلع ، ثم تلا انحداره الى الهوة السحيقة ايغال الفتيان في الغناء فخرقت اصواتهم افق الوادي ممزوجة بقسطلة الماء في الحدور الهاوية فصاح فروة لقد خرجت الحرية من ليلها الصارد الى صباح يمور بدفء الشمس !

وكانت سافو عن كثب منه فسمعت الصليل الراعب الذي احدثه سقوط التمثال في الهوة ولم يفتها غناء الجند واختلاطه بترجيع الماء الدافق الهادر تحت سمـــاء سلع الغارقة في السكون فوضعت يدها على قلبها كأنما هي تريد ان تمنع خفوقه ثم اكفهر جبينها وراحت هامسة :

— ولكنها الحرب ايها الفيلارك فروة بن عمرو ! فما اظن هراقليوس يمتنع من خوض غمارها بعد حادث هذه الليلة ، فصاح فروة نعم هي الحرب ايتها الغالية سافو ! ولكن ثقي ان سلع قد اعدت عدتها لاحراز النصر !

وتمثلت لها الحرب بصورها الجاهمة المخيفة واحزانها المتتالية ولياليها الشداد ، فشعرت للمرة الاولى بخوف شديد من تهاويلها ، وذلك لأنها كانت تقارن بين حاضر

سلع وحاضر بزنطيه فبلغت بها هذه المقارنة الى نتائج لا تستسيغها فلقد بدت سلع في حاضرها المائل كغيمة صغيرة في ليل بعيد النواحي اسمه بزنطية ، فاحزنها هذا التفاوت بين حاضر سلع وحاضر بزنطية وادركت الفتاة ان عصائب فروة اعجز من ان تظفر بكتائب قيصر فقالت لبعلها الشريف :

اتدري انني بدأت اخاف عليك فاحمرت عيناه وشد يدها صائحاً :

— ممن ، فقالت من رجل اسمه هراقليوس ! فابتسم وترك يدها واردف :

— قري عينا فلن يدرك قيصر سؤله مني ، قالت : ولكنه الرجل الذي اذل الدنيا قال اعرف ذلك

— اتدري ان قلبي بدأ يهمس في اذني همساً لا احبه

— وهذا الهمس الذي لا تحبينه ؟

— لقد قال لي قلبي ان الحب الذي اظلنا في سلع سيجفو مثوى راحته وامنه ، لأن قيصر سيغلو في مطاردته !

— اهذا هو حديث قلبك ياسافو ! انه لحديث المرأة التي ملت الحبفصاحت صيحة اليمة اكاد لا اصدق هذا الذى تقوله . فاني لم اعرف الحب بعد فامله ، وقد عشت في محارس الجند بجوار الاموات ولم اسمع من الرجل الذي علقت بهوفضلته على العالمين اقصوصة هوى صغيرة حتى خفت ان تموت في نفسي رغباتها الثائرة ، وليس يفوتك ان موت الرغبات في نفس المرأة توطئة لموت الذكريات ...

— لقد احببتك كثيراً ياسافو ومازلت احبك فاذا رأيتني قاسيا في احاديثي فما ذلك الا لأني احب ان اعرف الى اين ينتهي بك الوفاء لزوجك حينما تعصف به رياح الايام وتلقي بازهاره ورياحينه الى خريف الحياة الوجيع

فقالت له وودت لو انني استطيع حملك على البقاء في سلع فلا تبرحها الى قتال عدوك لأني اخاف الوحدة في هذه الجبال ولأني لا احب ان تنأى اناشيدك عن سمعي ! ولكنني لا استطيع ردك عن عمل آليت ان تمضي فيه الى النهاية على الرغم

من اني لا احب ان تمنعني امـــاني واحلامي . فاذا خرجت باحراسك الى قيصر واسمعته نشيدك فاجعلني في حاشيتك او دعني اقف على الطريق فلعلني ان قدر الله لك رجعة الرجل الظافر امسح بدموعي غباراً اذرته ميادين الحرب على جبينك !

وجعلت سافو تبكي فقربها فروة اليه وادنى رأسها من صدره وقال لها :

— ان قبور سلع ستسمع صوتي في هذه الساعة ياسافو ! وسيفتح هؤلآء الذين استراحوا الى الموت في ليله العبوس المكفهر عيونهم بعد غمض طويل ليروا الى صورة حياتي فياسافو ان سعادتي التي احسستها بين ذراعيك حتى في هذه الساعات المروعات سيرافقني خيال منها الى الملحمة ، وسانظر الى هذا الخيال واحرص عليه واقاتل عدوي عن كثب منه ثم اعود الى سلع ويعود خيالك معي فلا ادعه يفلت حتى يبين وجهك في بهائه وروائه

لقد ضللت طريقي في امسية ماضية فاذا انا بعد تيه شديد حيال مخضرة تمور بكل ندي ضحوك من الازاهر فقطفت وردة بيضاء وجئت بها منزلي فوضعتها في اناء رجاة ان تزهر ، فما انفرطت ايام حتى ازهرت وردتي البيضـــاء وملأت نفسي بعطرها الشهي ولا تزال هذه الزهرة تملأ ذلك الاناء الذي تخيرته لها فلن امسهـا حتى تذبل ويتناثر ورقها ! ...

انت هي تلك الوردةالبيضاء ياسافو وهذا هو عطرك يملأ نفسيفاتنشقهولكني لا اجرؤ على مسك لأني اخاف ان تهب انفاسي الباردة على ورقك فيذويويذبل !.

— ما ابرع وصفك فان حياتي في سلع تشبه حياة هذه الوردة البيضاء التي لقيتها في طريقك ولم تمسها مخافة ان تذوي وتذبل ، ولكن صدقني ايها الفيلارك فروة ابن عمرو ان هذه الزهرة تستبقي عطرها ولونها اذا ندتها شفتاك برحيق الحب ! قبلني ! بلى قبلني ولا ضير ان تسمع قبور سلع صوت القبلة وهو يجري على فمك كما يجري النغم . قل لي انك غير مفارقي فما احب ان تنأى عني ولو لحظة لأني اخاف الوحدة ولأني اخاف الذبول ولما تمسني شفتاك بعد !

وخيل الى سافو ساعة عرض لها شبح هراقليوس ان الحرب توشك ان تقوض صروح السعادة التي لقيتها في حياتها الجديدة وانها الى ذلك مسوقة في غدها الى الشرود في طريق لا يعرف لها مدى ، ورأت نفسها تروح وتغدو في عرض هذه الطريق في غير امل ولا رجاء وقد كان ينبغي لها وقد فكرت في ايام تعاستها المقبلة ان تفكر في اختصار آلامها ولا سبيل الى ذلك الا اذا صحبت زوجها في اسفاره الجديدة فاذا اتيح لها ان ترافقه لم يعد عسيراً عليها ان تخرج من هذا الليل المديد الذي غمر نفسها وليس من شك ان احتمالها بعض متاعب هذه الاسفار الوشيكة سيلطف صور الموت التي اخذت تلوح لهـــا منذ قارنت بين حاضر سلع وحاضر بزنطية ولما وقر في ذهنها ان لا معدى لها عن الخروج مع زوجهـــا الى الميادين ، زالت وساوس نفسها ولألأ الفرح على جبينها ورق صوتها فقالت لفروة :

ــ لن افارقك ؛ الا تشاطرني رأيي فقال لها وذراعاه ممدودتان الى ذراعيها بلى انك ستبقين الى جانبي في خيام الجند وسيظل عطرك مالئاً حياتي وستظل اوراقك على رواثها حتى يجيء ذلك اليوم السعيد الذي تزهر فيه هذه الاوراق على قبري في صخور سلع او في الحدور الضاحكة عند وادي العربة؛ ان الموت لعذب ومستحب في مثل عمري الناشيء ياسافو فاذا طوى العدم في غيهبه الراعب صباح هذا الحب الذي يضيء قلبي فسيقول فتيان من قومي اذا مروا برفاتي الرميم ما اجمل هذه الاوراق التي تغطي هذه الحجارة فانها على الرغم من شحوب الموت وقطوبه قد استبقت لهذا الرفات الثاوي ذكريات حياة مملوءة بزهو المجد وعنفوانه وسيطوف هؤلاء الرفاق بهذا المثوى الظليل طوافهم بمناسك مرنوا على تبجيلها في حياتهم الزاخرة باصداء الشهرة والمجد والحرية .

٭ ٭ ٭

طحا القمر على رؤوس الاودية في المدينة السادرة في بحر لجي من الظلمـــات فصع الافق وانصاح الغيم في السفوح والحدور وبدت سلع في مساربها ودروبها

وطرقها وقصورها ورواميسها واطلالها واخذ الجند الذين حطموا تمثال قيصر يزايلون الربا والذرى في طريقهم الى القصر وجعل فروة يتقصص آثارهم وهو على الشرفة حتى غيبتهم بواسق التين ووارتهم الشواهق البواذخ ، ثم تتــالى على سلع صمت طويل كأن مدينة القبور والتماثيل قد خلت من اهلها الاحياء ، وبعد قليل تواءمضت اشباح الجند تحت ضياء القمر على حضيض الملعب ورقصت خيالات الرماح والسيوف عــلى السلالم المرمرية ثم صعد هؤلاء الذين قضوا نذر الزعيم الغطريف الى الملعب وجازوه الى القصر فوقفوا تحت طنوفه وشرفاته وفروة ينظر اليهم من شاهق فهتفوا له اطول هتاف ، فحياهم الجذامي باسم الوطن الذي حقق اولى شهواته في الحرية ، وازال عن ربواته شبح الظلم ليرفع عليها في غده المقبل تمثال الملك الحارث ، فاستأنف الجند الهتاف لفروة وجهروا بالدعاء لأولئك المروعين الجافلين من عرب الشام والعراق ، ولما ارادوا مضياً الى محارسهم حسر فروة لهم عن يده واشار الى كهوف كريستيا وغيرانه وسأل فتيانه العشرين ان ينطلقوا الى الشاعر فيساعدوه على رفع تمثال الملك الحارث قبل بزوغ الفجر ، وقال ان شيوخ سلع سيجتمعون في غدهم في الوادي وسيلحق بهم شيوخ من الاردن وعمان ومعان وايلة ، ثم رفع صوته واردف : ان هراقليوس قد وطيء ارض ايلياء المقدسة تحت عزيف الابواق ونشيد الجند ومشى في ركابه ملوك الشام من آل جفنه ، وحلفاؤهم من امراء البوادي فينبغي لسلع ان تردد اناشيد الحرية بصوت تتضاءل تحت عصفه اناشيد هؤلاء الاذلاء الذين امتهنوا في استخذائهم للعدو كبرياء الوطن !

ولم يزد فروة على ذلك حرفا ، فانحى رجاله العشرون ناحية الغيران وهم يرددون شعراً لكعب بن زهير في رسول الله محمد يتيم قريش

⁂

قالت سافو لفروة : ان سهداً انما يطل من عينيك ياحبيبي فهلا جنبت نفسك لذع البرد وقرسه في هذه الليلة وعدت الى فراشك حيث توافيك احلام خلية من

السحب وحيث امكث حيالك بجانب السرير واستريح عند ركبتيك فتملأ نظراتي نفسك وتهجك لحوني وقبلاتي فتنام عليها وتستفيق في غدك وعلى شفتيك قبس من قبلي وفي عينيك وميض من عيني

وكان النعاس قد برح به واضواه جهد السياحة فشعر بحاجته الملحة الى رقدة هانئة في سرير من الارجوان نثرت عليه سافو في الصباح ازهار البنفسج ، فوضع يده على كتفي الحبيبة العامدة وقال لها هامسا : خذيني الى فراشي فلعل متاعي وشجوني تغيب وتضمحل في الرؤى المائعة التي يريقها حبك على عيني وفي قلبي ، هـات يدك فاني مالمستها مرة وعدت الى نفسي العارية الا رأيتها تمور بخصب شديد !

اواه كان ينبغي لي ان اسهر على حبي الطفل في ارض لا تعرف تبعاتهـا حيال المجد . ولو ان هذا الحب الذي وثق بين روحي وروحك ظل غريباً عن تعـاسة تحسها النفوس الكبيرة الظامئة الى الامور الجسام لكان في ميسوره ان يطمئن الى غده فينمو ويكبر وهو لا يدري ان في العالم منافساً جامحا اسمه المجد ! فليس يؤذي الحب في لينه وتواضعه وفي جنوحه الى الحياة الرقيقة الصافية غير هذا المنافس القوي الذي لا يحب ان يكون له شركاء في كبريائه وخطره ! خذيني الى فراشي فقد استطيع ان اهب ما تبقى من متوع هذه الليلة للحب فاذا لألأت ذكاء وافاقت سلع على نشيد الجند كان لزاما علي ان اهب متوع النهار للمجد منافسك الجامح !

ولكن سلع التي ظلت ساهدة ارقة بجوار الرواميس والقبور والغيران والصخور ما كانت تستطيع في هذا الليل المديد ان تشاطر زعيمها الغطريف رغبته في التعرف الى المواداعة على سريره ، فلقد مضى فروة الى غرفته ليستريح ومضت سافو معه لتلبث بجانبه في فراشه وتسمعه عن الحب ارق الحديث واعذبه وانطلق الفتيان الى مغاور كريستيـــا ليشدوا ازره في الامر الذي انتدبه فروة اليه وذهب مارسيليوس الى محارس الجند ليتولى تمرينهم على اساليب الحصار مساوقة لاهواء امير ايلة وسيناء ولم تشأ سلع عزوفا عن سهدها الطويل ، كأن المدينة العظيمة التي

قهرت جيوش الاسكندر وجيوش بومبي كانت تتوقع ان يحمل اليهـــا هذا الليل الصارد حادثا لا تحبه ولا تطمئن اليه . فلما مضى الليل الا اقله تعالت الى الافق من اطراف الوادي صيحات شداد استفاق على ترجيعها الوجيع احراس المسالح فحملوا سلاحهم ووقفوا على اسوار المدينة ينظرون الى ابوابها وقد طفحت بجماعات منع الذعر الشديد بعضها ان يتعرف الى بعض ثم تدفق سيل هذه الجماعات على مدينة القبور حتى بلغ في دفقه نواحي الملعب فماثل الناس في تدافعهم وتزاحمهم وشرودهم جيشا فشا في صفوفه الانكسار والرعب فلحق به عدوه الظافر فلم يجد معدى عن اللحاق بمحارسه وكان المشهد مريعاً فلقد حمل بعض هؤلآء الجافلين المروعين على لوح من الخشب جثة رجل ثم لم يلبثوا ان القوا بالجثة الى ارض الملعب فانبعث بعض الجند من محارسهم الى طرق المدينة فقاموا على حراستها واقفل بعض الجند الابواب من الداخل، ومضى فريق الى الابواق فنفخوا فيهـــا فخرجت سلع بشيبها وشبانها الى الملعب على صليل الابواق .

حدث هذا كله وفروة بن عمرو الجذامي في سريره وسافو بجواره تريق انفاسها على الفراش الناعم فتستحيل الى رؤى لذيذة وتطاير هذه الرؤى اللذيذة على عيني فروة المغمضتين فيبتسم لخيالاتها وطيوفها وهو ذاهل !

وكانت سافو قد غنته بعض اغانيها ، فنام عليها فلصقت بجواره وشاركته في سبحه وما عادت تفكر في هذا الليل الذي يخلع ظله على شعاف سلع ، وقد القت التعسة نفسها الى الفراش لتحلم وهي نائمة بالسعادة التي منعت منها في الاســابيع الماضية ، ومع انها كانت تلذ الاغفاء وتستسيغ الايغال فيه لتخلو الى الحب وتنظر الى بهائه واشراقه وتتأمل في صوره البارعة فقد ظل نومها خفيفا وظل احساسها طاغيا حتى ليوشك الهمس الضعيف ان يوقظها من نومها ، فلما تعالى صياح الناس في الوادي فتحت سافو عينيها واصغت اصغاء شديداً فخرق سمعهـــا صوت البوق وانسلت من سريرها في رفق ودعة مخافة ان يستفيق فروة على صياح الناس ، ثم

زرفت الى الطنف واطلت منه فاذا هي ترى الى ساحة الملعب فهمها تكاثف الناس على درجاته وسلالمه واشجاها مشهد الحرس المسلح ، وكادت تفقد وعيها حينما رأت كريستيا في الجماهير وقد برز في غلالة رقيقة وحسر عن ذراعيه العاريتين وجمد فمه فلا يتكلم ، ثم جعلت تجيل نظراتها في عرض سلع وطولها لعلها تتعرف الى البواعث التي حملت الناس على الشعور بالفزع الاكبر في هذه الليلة ، فما رأت في المشاهد التي عرضت لها ما يفسر هذه المخاوف التي طغت على افهام الناس فارتدت بنظراتها الى الجنوب حيث حصن سلع يميد من صليل الابواق وحيث خرج الجنـــد الى الاسوار باسلحتهم ومعداتهم فخيل الى التعسة ان قيصر دهم المدينة تحت ذوائب الليل وناسها لا يدرون من امره شيئاً فشحب وجهها شحوبة الميت وراحت تهمس في كثير من الذعر ذلك الهمس الذي اسمعته فروة :

انها الحرب ! انها الحرب !

ولما خرجت كلمة الحرب من شفتيها الراعشتين امالت رأسها الى ناحية السرير فاذا فروة لا يزال نائماً ، واذا النوم الشديد العميق لم يبدل شيئـــاً من هدوء نفسه وهدوء وجهه فشعرت سافو للمرة الاولى بسحر هذا الجمال البارع الذي يطفو على جبين زوجها الحالم ، ولكن هذه المرأة التي كانت تسمع لنداء المجد اكثر مما تسمع لنداء الوجد ، لم تفكر في هذه الليلة الروعاء في قبلة تضعها على عيني فروة الحالمتين السادرتين بل جعلت تفكر وهي تنظر الى انوار القمر التي ظللت جبين فروة الوادع الساكن من خلال الطنف في الموت الوشيك القريب وهو حصاد زوجها من حرب لا تكافؤ ولا توافق بين ابطالها المساعير ورجالها المغـاوير فلقد كان فروة عاملا لقيصر لا اقل ولا اكثر وكان جيشه هذه العصائب الصغيرة المتفرقة بين ايلة ومعان بينما هراقليوس يسود الدنيا لهـــا في بر وبحر وبينما يقود جيشاً عظيماً في صفوفه وكتائبه طوائف من القواد والزعماء وكلهم من طراز فروة فماذا تستطيع سلع ان تفعل اذا ما نزل بارضها اولئك القواد الذين عرفتهم روما واثينا وبزنطية والعالم كله

وماذا يستطيع فروة نفسه ان يفعل ولواء قيصر يخفق على رءوس الملوك والشعوب ومع هذا كله لم تجرؤ على ايقاظ زوجها وكان صياح الناس لا يزال على شديد عنفه فلم يمنعها الصوت الشديد العنيف من تأملاتها فاخذت تهمس: مرت ليال لم ينم فروة فيها بمثل هذا الهدوء، وهذا الصفاء!

وجعلت تردد هذه الكلمات وعيناها تطفحان بالدمع وشعورها غارق في الظلام ونفسها تكافح اشد الآلام ثم رققت صوتها مخافة ان يستفيق الرجل الذي احبته بطلا واحبته زوجا

وفي تلك الفينة طرقتها خيالة هراقليوس فتمثلت زحفه الى سلع في موكبه تحت اللواء وقد شق طريقه بين قبور الوادي حتى بلغ القصر واوغل فيه وفروة في سريره يضحك لخيالات الحب وطيوفه . ثم تمثلته واقفا حيال فروة النائم ويده التي لا تزال مضرجة بدماء اولئك الابرياء من انصار ابيها موريس تقبض على نصل لامع ، ثم تمثلته ثائراً طاغيا وقد تجهم وجهه واكفهر وامتدت يده الى عنق فروة لميته خنقا وهو نائم ، تمثلت التعسة هذا كله وهي المرأة التي لم يفتها يسير او كثير من حياة هراقليوس فرمت بنفسها على السرير لتمنع القاتل من ان يطل بصورته الراعبة ووجهه المشوه المجدور على وجه الحبيب العميد فسقط جسمها على جسم فروة فاستفاق في ذعر وصرخ صرخة عظيمة لم يسمعها احد من سكان سلع لأنها ضاعت في صياح الجماهير ولم يسمعها حرس القصر لأن هؤلاء كانوا اطرحوا مضاجعهم ليلحقوا برفاقهم عند الملعب ولم يسمعها مارسيليوس لأن الرجل كان في الحصن عن كثب من الجند ولكن سافو سمعت هذه الصرخة فلم يفت التعسة وهي تحاول ان تجفو السرير ان هواجسها كانت منبع هذه الصيحة الاليمة التي خرجت من صدر فروة وبددت احلاماً لم ير اجمل منها في لياليه المواضي!

ولما تركت السرير ابصر فروة على جبينها الصورة المخوفة فادرك انها كانت تبكي فقال لها: اكنت تنظرين في الرؤى الى مشاهد لا تحبينها؟ فحنت رأسها الى

الارض وراحت هامسة :

بلى كنت احلم وكانت احلامي مما لا يروق فقال لها :

— اي صورة عرضت لك في الحلم فسكتت فقال لها ان احلامي كانت جميلة ياسافو فلقد رأيت فيما يرى النائم كأني انظر الى موكب ذلك القرشي اليتيم الذي نبت في المنبت الذاكي في مكة ثم رأيتني انظر الى الارض وقد طويت امامه والقت اليه بزبرجها الخالب ودنياها الفيحاء فما حفزه الى الزهو ان يمشي كسرى وقيصر وهما كل هذه الدنيا التي ترين في موكبه المتواضع ! واجمل من هذا كله الا يفوتني دعاء هذا اليتيم الذي تحدثت اليك عن امره في ليالي الغوابر ، فاي صورة استثارت نفسك الهادئة في نومك الوادع الســـاكن ؟ وما بالك تحذرين ان يقع طرفك علي وقد كنت تلذين النظر الي !

وكان صياح الجماهير لا يزال على عصفه فقالت له بصوت راجف : الا تسمع ! فزرف الجذامي الى ناحية الطنف فاذا عزيف الابواق يخرق سمعه ممزوجا بهدير الجماهير فقال لسافو : ان ابواق سلع شديدة العصف في هذه الليلة المدجان وذلك ينبيء عن حادثين اثنين فاما ان يقتحم عدو جريء عرين الاسد فلا ينجو من موت ذريع ، واما ان ينزل في سلع صديق عظيم فلا نمنعه من بر هذه الارض وعطفها ! وما احسب في الدنيا عدواً يجرؤ على اقتحام عريني الا قيصر ، ولكن قيصر في ايلياء وبين سلع وايلياء نجود وصرود فما يستطيع قيصر ان يجتاز هذه المفاوز في ليلة واحدة ولو قد استعار جناحي طائر ، اذن فهذه الابواق التي تعصف فيميد لها حضيض الوادي وهذه الصيحات التي تقصف فيملأ قصفها رباع الجبل لا تعدو الهتاف لصديق احببته فاحبته سلع ! سترين انني كنت صادق الظن ! فاغمضت عينها مخافة ان يعرض لها ذلك المشهد الذي رأته ساعة القت الجماهير بجثة الرجل القتيل على حضيض الملعب وراحت هامسة :

— ان الامر لاجل مما زعمت فصاح صيحة الثمة من يجرؤ على مس حرمي

خرجت اليه بجيشي ! ...

قال ذلك وهو يسرع في ركضه الى الطنف فاذا هو يطل على سلع وعلى الملعب وكانت الجماهير قد اشاحت بنظراتها الراعشة الى القصر فرأته ولمحت قباءه المذهب فعرفت في صورته صورة الزعيم الكمي فصاحت صيحة الرجل الواحد !

— انه لحادث جلل ايها النبيل فروة بن عمرو !

فقلب الجذامي نظراته في وجوه الناس وفي وجوه الجند ، فما فاتته احزان تضني نفوسهم وادرك وهو ينصت لا صواتهم الشجية ان خطباً عظيما نزل بهم على حين غرة وابتعثهم على الخروج من منازلهم في ليلة حبسوها على الموادعة والملاينة فصاح :

— ماخطبكم ياسكان سلع !

وكان صوته شديداً قاسياً فسمعته الجماهير فكفت عن الصياح واخذتها ذهلة مروعة فكأنما هي في لياذها بالصمت هذه الرواميس التي تملأ الوادي وتزدحم بها الربا الشم فاستأنف فروة صيحته ؟

— ماخطبكم ياسكان سلع !

ولكن واحداً من هؤلاء الذين رمت بهم الطرق المجاورة الى سلع لم يجب فردد فروة نظراته في رجال الحرس الذين كانوا يملئون درجات الملعب وسلالمه ونادى قائد حرسه بصوت راعش :

— اسمعني صوتك ايها الغطريف عدي بن الحارث القضاعي !

وكان الرجل الذي اسماه فروة عديا قد عرس برجاله حيال الجثة بجوار رجل مديد القامة ضخم الجثة ، شاكي السلاح فلما خرق سمعه صوت فروة اقبل الى ناحية الطنف ورفع عينيه الى القصر صائحاً :

— سلني ابيت اللعن ماتريد ! فقال فروة اي جائحة نزلت بكم حتى جفوتم ملاذ هذه الليلة فهل اتاكم نبأ عن عدو مغير ام بلغكم حادث لا تحبونه عن ذلك الرسول الذي بعثت به الى يثرب منذ ايام طوال فلم يرجع !

وكان الالم يبين على وجه عدي فصاح ويده ممدودة الى الجثة المطروحة على ارض الملعب !

ان سلع تحت فيئك فما يجرؤ عدو مهما ذاع خطره واشتد امره ، ان يدنس حرمها ولكن رعاة الزعيم الغطريف كانوا قد سرحوا اغنامهم وابقارهم وابلهم في ارض مكلئة بين عمان ومعان فلما اطفلت الشمس اشفقوا ان يظلم الليل فانقلبوا الى خيامهم . فما ان صاقبوها حتى اجفلت الابل وانفلتت تعـــدو في البيد فخرج الرعاة في اثرها فظلت في عدوها وركضها الى ان دهمها المساء. فوقفت عند حافتي غدير كان قد اجتمع حوله فرسان من العراق من اصدقاء فروة بن عمرو وكانوا يقصدون الى سلع ففاجأتهم الليلة بظلامها فنصبوا خيـــامهم حيال الغدير وخرج اميرهم الى طال قريب ثم لم يلبث ان انقلب الى رجاله وعلى جبينه سحابة من حزن والم فسألوه مابه فحدثهم عن جثة رجل عثر عليها في الطلل ، ثم ارادهم على المضي معه الى ذلك الصرح الدارس ففعلوا وفتشوا جيوب القتيل فعثروا على كتاب كان بعث به محمد بن عبد الله يتيم قريش الى شرحبيل بن عمرو الغساني عامل قيصر على عمان ثم تناصر الامير وفرسانه على نقل الجثة الى جانب الغدير ، وسألوا الرعاة الذين خرجوا في طلب الابل ان يدلوهم على سلع وقالوا لهم انهم سينزلون ضيوفا على فروة ابن عمرو ، ثم احتمل القوم جثة القتيل وجاءوا بها مع الرعاة الى سلع فلحق بهم في الطريق اناس كان القتيل نزل بجوارهم قبل عشرين ليلة وقص عليهم نبـــأ ذلك القرشي اليتيم فاستبالتهم احاديثه ورقفت نفوسهم اقاصيصه فعلقوا به . ثم روعهم ان يقتل هذا الرجل وان يظل امر قاتله اكثف من الغيب !

كان عدي بن الحارث القضاعي رئيس الحرس — وهو الرجل الذي ابتعثه فروة على تحطيم تمثال هراقليوس — يتكلم بصوت راجف لمس فروة نبراته الشجيـــة الحافزة على الرغم من وقوفه على الطنف فساوقه في حزنه وشجوه وتطاول من الشرفة حتى صار في وسعه ان يرى الى جثة الرجل القتيل والى ذلك الرجل المديد

الذي اخذ في تلك الاثناء ينظر الى الجثة نظرات يطل منها الالم الجاهد

وقد كان اسم يتيم قريش الذي ردده عدي بن الحارث كافياً لاستثارة نفس الجذامي فطفقا على الرجل احساسان يتغايران صورة ومعنى ، احساس حمله على ان يرق لمصير الرجل الذي لقي مصرعه في سبيل رسالته ، واحساس ابتعثه على الخجل من موته في ارض اظلها بحمايته ، ثم لم يعد في طوقه ان يطيل مكثه على الطنف فتولى عنه ولحق برجاله فشق صفوفهم حتى اتى الملعب ورأى الى ذلك الجسد الهامد المضرج بالدم فوقف حيال الرجل المديد الضخم الجثة وجعل يتأمل في وجه الميت وقد اذهله الا تتغير الصور في هذا الوجه الذي دل صفاؤه على نبل صاحبه وبغتة ازدحمت في صدره طائفة من الشكوك فهمس باسم ذلك الرسول الذي بعث به الى محمد واصحبه بالهدايا وحمله تحيته وحبه الى اليتيم سيد الدنيا فخيل اليه ان رسوله الذي ابطأ في رجعاه الى سلع قد ورد هذا المورد الذي ورده رسول رسول الله فرعش وتلظى وجهه الجميل بحمرة ادرك احراسه معناها البعيد ، فشاطروه هذا الذي يدور في خلده ، ووضعوا ايديهم على سيوفهم ونظروا اليه فدلت نظراتهم على استعدادهم للمناخة

ثم استطال حزنه فركع على قدميه بجوار الجثة ، وجمع يدي القتيل الى يديه فاذاهما في مثل بياض اللؤلؤ ، واذا عيناه اللتان عجز الموت عن اغماضهما لا تزالان مفتوحتين فانحنى على الجثة وحدق في تينك العينين المفتوحتين كأنما هو ينظر فيهما الى صورة القاتل بينما هؤلاء الذين توافوا من نواحي سلع من رعاة الابل وحماة الكتائب وشيوخ الاحياء يشاطرونه الهه وشجوه ، وبينما ذلك الرجل المديد الذي وقف بجوار القتيل الشهيد لا يمنع نفسه من مثل هذا الشعور الذي طغا على نفس فروة وبينما رفاقه لا يرفعون اصواتهم بهمس

وكان الفجر قد لألأ على قبور سلع فتعرف بعض الناس الى بعض ورأى فروة وهو مكب على الجثة الهامدة وجه ذلك الرجل الشامخ الباذخ **فعرفه فعاف مكانه**

واقبل نحوه وقد بسط يده اليه مسلماً ومحييا ثم اردف بلغة يتخللها شيء كثير من شممه وزهوه ورباطة جأشه على الرحب والسعة نزولك ياعمرو بسلع !

ثم تعانق الرجلان عناقا خلعت عليه هذه المأساة الماثلة ظلها الشاحب وكان المشهد شجيا وحافزا ، فما قدر واحد من هؤلاء الغطاريف المساعير ان يجنب عينيه البكاء ثم اردف فروة صائحاً في قومه :

— اتدرون اي رجل نزل بسلع ؟ انه فارس اليمن والعراق عمرو بن معدي كرب الزبيدي ! ثم التفت الى عمرو قائلا :

— لا يجهل امرك صبي او غلام من ايلة الى عمان ، ولا ينقضي ليل الا اخذ شيوخ من جذام وقضاعة وبهراء يتحدثون عن الرجل الذي ملأت اقاصيص شجاعته بلاد العرب من صنعاء الى دمشق ! ... قل لي بربك ياعمرو كيف لقيت هذا الرجل الذي عقل الموت لسانه ؟ واين كتاب رأيته في جيوبه ؟ وماذا بهذا الكتاب الذي بعث به يتيم من قريش الى شرحبيل بن عمرو الغساني عامل قيصر على عمان !

فادار عمرو عينيه في الناس فاذا هم ينظرون اليه في لهفة وحب ، واذا بعض هؤلاء قد فتحوا عيونهم ليروا الى طلعة الرجل الذي كان فارس العراق حقا ، وكان فارس اليمن حقاً ، وليس بين جميع هؤلاء الذين حسرت عنهم طرق معان وعمان وايلة من يجهل حياة هذا الفارس الشاعر الذي عاصر عنترة الفارس الشاعر ، فلقد كان عمرو على امعانه في العمر صورة العصر الجاهلي في عصر محمد سيد قريش بل كان عمرو قصة الماضي الرائعة فلا تنازع نفس صاحبها الى الجاهلية الا وجدت في هذه القصة الرائعة اشهى حديث عن الحب والحماسة والشعر وما كان تاريخ الرجل ليزيد على كلمات ، فهو عمرو بن معدى كرب بن ربيعة ، ثم هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان وامه من جرم وهي معدودة من النجيبات ، ثم هو الى جانب ذلك كله سيد قومه وشاعر جيله ، وقد سمي في موعة

العمر مائق بني زبيد ، وذلك ان قومه بلغهم ان خثعم تريدهم فتأهبوا لهم وجمع معدي كرب بني زبيد فدخل عمرو على اخته فقال اشبعيني ، ان غدا الكتيبة ، فجاء معدي كرب فاخبرته ابنته ، فقال هذا المائق يقول لك قالت نعم قال فسليه مايشبعه فسألته فقال فرق من ذرة وعنز رباعية ، فصنع له ذلك وذبح العنز وهيء الطعام فجلس عليه فسلته جميعاً

واغارت خثعم الصباح على زبيد فلقوهم وجاء عمرو فرمى بنفسه ثم رفع رأسه فاذا لواء ابيه قائم فوضع رأسه فاذا هو لواء ابيه قد زال فقام فلقي اباه وقد انهزموا فقال له انزل عنها فاليوم ظلم فقال له اليك يامائق فقالله بنو زبيد خله ايها الرجل وما يريد فان قتل كفيت موته وان ظهر لكفألق اليه سلاحه فركب ثم رمى خثعم بنفسه حتى خرج من بين اظهرهم ثم كر عليهم وفعل ذلك مرارا وحملت عليهم بنو زبيد فانهزمت خثعم وقهروا فقيل يومئذ عمرو فارس زبيد (١)

ثم طارت شهرته في جزيرة العرب حتى خف الناس اليه يسألونه من اشجع العرب فكان يقول لهم :

لو سرت بظاعينة وحدي على مياه معد كلها ما خفت ان اغلب مالم يلقني حراها او عبداها فاما الحران فعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، واما العبدان فاسود بني عبس عنترة بن شداد والسليك بن السلكة ، وكلهم قد لقيت : فاما عامر بن الطفيل فسريع الطعن على الصوت . واما عتيبة فاول الخيل اذا غارت وآخرها اذا آبت ، واما عنترة فقليل الكبوة شديد الجلب ، واما السليك فبعيد الغارة كالليث الضاري (٢)

هذا هو تاريخ الرجل الذي جعل الناس في سلع ينظرون اليه في كثير من اللهفة والحب ساعة سأله فروة بن عمرو ان يقص عليه خبر القتيل لأنه اول الذين شهدوه بين عمان وسلع فقال عمرو بعد ان نظر في الناس بصوت الرجل الشديد الصليب

---

(١) و (٢) الاغاني

اراد كسرى ابرويز بعد ان استطال على العرب في العراق وقتل سيدهم ومولاهم النعمان بن المنذر ان يتفرغ لقتال عدوه عظيم الروم لحشد المقاتلة وجمع الجموع ، ونزل بها الحيرة حيث يعيش عامله الرعديد اياس بن قبيصة في الخورنق والسدير عيشة لا تشرفه ولا تشرف قبيلته ، ثم لم يلبث كسرى ان اراد عامله على استنفار العرب ليسيروا في ركابه وتحت لوائه فابت بكر بن وائل المنتصرة في ذي قار على الفرس ان تقره على الامر وساوقتها قبائل معد جميعاً في الاباء فتم ذلك كسرى واشجاه ولكن الرجل الذي وطئت افياله وخيوله جثة الملك الشهيد النعمان بن المنذر ما كان يستطيع ان يجهر باستيائه مخافة ان تلحق بكر بن وائل واحلافها بكتائب قيصر ، فمضى الى قتال عدوه بجيش لجب من الفرس وصحبه في اسفاره الى الشام اياس بن قبيصة الطائي بجموع من طي ، ثم آب اياس الى الحيرة . فما احتواه قصره حتى دعا اليه عمال كسرى من الفرس فاستعان بهم على قتال بكر بن وائل وكندة وتغلب ، فعاذ هؤلاء بالصحارى وصمدوا لعدوهم فارتد عنهم بعد ان احرق دورهم ومساكنهم فهامت النساء المستضعفات تحت كل كوكب وذعر الشيوخ فكرهوا البقـــاء في الطلول البلاقع والقصور الدوارس فعافوها ولحقوا بالنساء ومعهم الاطفال والصبيان ثم تخيفهم تعب شديد مرهق فهلك فريق كبير منهم وبقي فريق على شروده حتى تعرفوا الى الارض التي فزعت اليها بكر بن وائل في مشارف الشـام ونزل هؤلاء الذين برح بهم ظلم اياس بن قبيصة على اكيدر بن مالك الكندي عامل قيصر على دومة الجندل فاجارهم وحماهم واكيدر يومئذ يقاتل في صفوف قيصر الى جانب الاصبغ سيد بني كلب ثم استنفر فتيان بكر بن وائل فمضى هؤلاء معه الى قتال ابرويز في دمشق وايلياء . ثم قضى الله ان تطوى رايات كسرى فرجع الطاغية الى المدائن في كتائبه الممزقة وصفوفه المطوقة ورجعت طي معه رجعة ما كان احلاها على نفوس سحقتها كبرياء اياس بن قبيصة واذلها عنفوان كسرى ! وقد كانت هذه الرجعة الخائبة حصادك انت وحصاد البواسل من ملوك الشـــام ، وكنت لذلك اليوم في

البحرين مع اهلي فغمني ألا اخرج الى لقائك على ابواب الحيرة فاهز يداً هي يد ابيك الذي احبه العراق كله لنجدته ومروءته وعنفوانه !

ولما عدت الى مساكن قومي حدثني شيوخهم عنك ووصفوا لي تلك الليلة الماجدة التي ادنتك من قصر الخورنق واياس بن قبيصة في فراشه لا يعلم من امرك شيئاً ، ثم قصوا علي كيف افلت اياس من القصر بلباس نومه وكيف جريت في اثره حتى نزل على كسرى في مدائنه واقسم لو انني كنت من شهود هذه الليلة لشددت يديك وحطمت صمصامتي على قدميك ، فانه لا يليق باي رجل مهما سما شأنه وبعدت مطامحه ان يزعم الرجولة والعنفوان في زمن انت سيد شبابه في رجولتك وعنفوانك فاني شهدت في ايامي الغابرة عنترة وعامر بن الطفيل ، وزيد الخيل والسليك بن السلكة ، واشتركت مع هؤلاء وهم فرسان العرب في طعن وضرب ونافستهم جميعا في اشرف السلائق واطيب الشمم فما رأيت في جميع هؤلاء الذين ازجوا الكتائب والجحافل الى المعارك الظافرة من يساويك في علائك ومجدك وفي قدرتك على اجتناء النصر في مواطنه الحافلة بالزعازع فلقد نصرت قيصر مظلوماً ، وقهرت كسرى ظالماً وكان جميع اولئك الفرسان الذين شرف جيلهم بهم عبيداً لقيصر وعبيداً لكسرى ولا يجهل احد ان مجد هؤلاء انما هو مقتبس من ملاحم صغيرة اثارها الحب والطمع على حين هذه الملاحم التي اثارها حبك المجد ولعلك به قد قبست زهوها وامراءها من ميدان اوله في الشام وآخره في العراق

لقد نذرت عند رجعاي الى ارض العراق لامضين الى سلع فاراك واصحابك واحمل تحية العراق الى فتى الشام النبيغ النبيل فمنعني من ذلك غرق العراق في مناكده وايغال الظالم اياس بن قبيصة في ترويعه وتحفز الناس للثأر بالدم الطليل ، ثم منعني هذه الامنية حنين شديد في نفس العراق الى تسرق اخبار جزيرة العرب مهد ابائنا جميعاً وملتقى احلامنا جميعاً وما اخالك تجهل امر ذلك اليتيم القرشي الذي ولدته مكة واراده الله على ان يكون نبيه ورسوله ، فلقد حدث منذ سنين ان

لع هذا النور في غار حراء . فاقبل الناس من كل اوب واقصى امانيهم الا يفوتهم بريق منه . وكان فرسان بكر بن وائل يقاتلون الفرس في ذي قار تحت لواء هانيء ابن مسعود سيد شيبان وحنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي ويزيد بن سهر الشيباني وكان قواد كسرى يحاربون هذه القبائل بجيوش تعودت ان تشق طريقها الى اي ناحية من نواحي العالم من غير ان تأخذها في ترويع الشعوب والامم لوعة او رحمة . وقد كان عسيراً على العرب ان ينتصروا على الفرس الذين وطئوا الارض العراقية بافيالهم وخيولهم فلاذوا بحصونهم وآطامهم حتى وافاهم الاعشى الشاعر من يثرب فنزل عليهم ورأى الى عجزهم عن قتال كسرى وادرك ان هؤلاء الذين امضوا الشهور الطوال في المقارعة في حاجة الى نشيد حماسي يلهب احساساتهم ويذكي مشاعرهم ويحمل من قبائلهم وقد استرخت عزائمها وفترت هممها امة واحدة فعلمهم ذلك النشيد الحماسي فاذا هذا النشيد الذي تعلموه اجل في نفوسهم من شعر امرىء القيس واسمى من شعر النابغة . بل لقد كان هذا النشيد الحماسي الذي تعلموه من الاعشى افضل مما قالته الجاهلية في ايامها الماجدة ، وذلك لأن اسم محمد يتيم قريش كان هذا النشيد الذي رددته قبائل العراق في ذي قار وانتصرت به في غدها على جيوش كسرى سيد الدنيا ، وقد كان الاعشى الشاعر صادقا في مزاعمه ، فان الذين خرجوا الى قتال الفرس بحمية القبيلة وعصبية العشيرة ، لم يلبثوا بعد ظفرهم بعدوهم الضخم ان آبوا الى وطنهم بحمية الامة وعصبيتها ، ولا يزال هؤلاء الذين ازالوا شبح الظلم من سهول الوطن ونجوده يرددون اسم يتيم قريش ويأملون ان يشرق نوره في سماء العراق اشراقه في جزيرة العرب مهد ابائنا الاول

ولقد حدث منذ اربعين يوماً ان نزل بارض العراق رسول لليتيم يحمل كتابا منه الى كسرى ابرويز فما ان ذاع امر هذا الرسول حتى خرج النـــاس من القرى والضيع والمدن الى الطرق يسألون عنه واقصى همهم ان ينزلوه ارضهم ويتحدثون اليه عن نبي الله ورسوله ، بل اقصى هم هؤلاء الذين احمسهم امر هذا اليتيم العظيم ان

تعمهم بركته فينهالوا على عدوهم حتى يزحزحوه عن ارض العراق وتشعر هـــذه الارض التي خسرت حريتها منذ اطل كسرى دم النعمان بن المنذر أن في قدرتها وهي في ظل رسول الله ونبيه ان تطمئن الى غدها !

واـكن جميع هؤلاء الذين خرجوا الى الطرق للسؤال عن عبد الله بن حذافة السهمي رسول النبي الى كسرى لم يظفروا بالذي املوه فلقد قيل لهم ان كسرى قد احفظه ماجاء في كتاب محمد فقتل رسوله وقيل انعبد الله بن حذافة قد تخطفه اناس من طي وان اياس بن قبيصة عامل كسرى على العراق قد ابى الا ان يحبس الرجل فرجعوا الى مساكنهم في خيبة ويأس وبعد ايام مر عبد الله بـبكـر بن وائل فارتاحوا الى رجعته وانزلوه ارضهم وسألوه عما حدث له وهل بلغ كسرى رسالة اليتيم فحدثهم عن سعيه في المدائن وقال انه دخل على كسرى فاذا هو في حاشيـــة عظيمة من عيون قومه فسأله مابه فقال اني رسول رسول الله اليك وقد بعثني بكتاب فيه صلاح دنياك وآخرتك فتناول كسرى الكتاب وقرأ فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا اسلم تسلم فان ابيت فعليك اثم المجوس

فاحمرت عينا كسرى من الغضب وتلفت الى قومه قائلا : يكتب الي هذا وهو عبدي (١) ثم اراد رجلين من رجاله على السفر الى المدينة ليأتيـــا بالرسول اليه وقال لهما اذا بلغتما محمداً فقولا له ان كسرى ملك الملوك يريدك على ترك هذا الامر الذي تدعو اليه فان فعلت ارضاك واغنـــاك وان ابيت فهو من قد علمت بل هو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك (٢)

فانطلق الرجلان الى يثرب ثم سرحني كسرى ولم يشأ قتلي لاني رسول وكنت

(١)و(٢) الطبري ج ٣

يوم وفد عبد الله على العراق في بكر بن وائل فسألته ان يقص علي شيئاً عن النبي ففعل فقلت هذا هو رسول الله وهذا هو سيد العرب ! ثم تعالى هتاف العراق ليتيم قريش ورجع عبد الله السهمي الى يثرب وطنه ليتحدث الى محمد عن حمية العراق وحماسته لدعوته

وبعد أسابيع مات كسرى ابرويز شر ميتة ، قتله ابنه شيرويه وتنازع الملك من بعده اصحابه واصدقاؤه . وعاد الرسولان اللذان بعث بهما كسرى لحدثا الفرس عن معجزة محمد وقالا انهما دخلا عليه وبلغاه هذا الذي قاله كسرى فرفع يديه الى السماء وقال مزق الله ملكه (١) وقد كان مقتل كسرى يوم لعنه رسول الله !

ثم تتالت احداث جزيرة العرب وارتفع شأن اليتيم فاحاط به الناس وسمعوه يقول لسائليه انه سيرث ملك كسرى وقيصر ، فقلت لابن اختي قيس بن مكشوح المرادي : ياقيس انك سيد قومك وقد ذكر لنا ان رجلا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز وانه الى ذلك نبي فانطلق بنا حتى نعلم علمه ! (٢) فابى قيس وما انكر ان يتبجح قيس فانه فتى قومه !

ولما ازمعت فراق اهلي فكرت في اللحاق بسلع لعلني ارى عند فروة بن عمرو اولئك الاصدقاء الذين نصروا بكر بن وائل على كسرى فنزلت بقصر امريء القيس ابن عمرو بن هند ملك العراق في دومة الجندل ، وصاحب هذا القصر اكيدر بن مالك الكندي ، فسألته اذا كان يعلم شيئاً عن رجل اسمه محمد ، فقال لي انه اخذ كتابا منه يدعوه فيه الي دينه ويستفزه الى نصرة اخوانه وابناء عمه في جزيرة العرب ، ثم ذكر لي اكيدر ان رسل محمد يطوفون اليوم برباع الشام وقد ذهب احدهم الى ايلة فنزل على يوحنا بن روبة عاملك على البحر فبلغه رسالة النبي فزهد في نصرانيته وفارقها زلفى لقومه ومساوقة لهم في احساساتهم ومشاعرهم وذهب واحد الى

---

(١) و(٢) الاغاني

الاصبغ بن عامر الكلبي عامل قيصر على تبوك ولا يزال عنــده ، ثم ذهب ثالث الى شرحبيل بن عمرو عامل الحارث الغساني على عمان ، وانطلق رابع الى بصرى ليلحق بقيصر

وقد حسر لي اكيدر عن مخاوفه فقال لي ان قيصر لا يرضيه ان تتسق دعوة اليتيم في الشام وزاد على ذلك ان تيودور ثعلب البوادي قد نزل عليه في قصر امريء القيس بن عمرو وكاشفه برغبته في الزحف الى الحجاز بجيش من غســان وبهراء وجذام وطلب ثم لحق تيودور باخيه قيصر في ايلياء

سمعت هذا كله من اكيدر فغمني ان يجنح قيصر الى ترويع العرب في حريتهم فقلت له « لعل من الخير لنفسك ان تبقى في دومة الجندل فلا تخرج الى قتال بني ابيك زلفى لقيصر ، انك كندي وقد كان امرؤ القيس بن حجر ملكا على كندة وكانت قبائل معد تدين له جميعاً ، ومع هذا فله ما كان في ميسور امريء القيس الملك الشاعر ان يمنع نفسه من قيصر ، فمات في بلاد الروم شر ميتة ، وكان قاتلوه يوستنانيوس قيصر وزوجه الساحرة تيودورا (١)

وجعلت اقص عليه شيئاً كثيراً من فتك الروم بسراة العرب ، فازمهر جبينه ورعدت فرائصه وقال لي انه لن يعمل عملا لا يقره عليه بنو ابيه وانه الى ذلك يؤثر ان تطويه هذه البادية فيموت منسيا على كثبانها على ان يلتمس الشهرة في قتال قومــه

ولما ازمعت فراقه قلت له : ساذهب الى سلع فلا البث فيها الا ريثما استريح من سفري الجاهد ، ثم الحق بقيصر في ايلياء لارى الى موكبه واسمع حديث الناس عنه واستوثق من امره . فاذا كان قد وطن النفس عــلى ترويع العرب في حريتهم اسمعته ما لا يستطيع سماعه ونبأته بامري ولوحت له بما تستطيع زبيد ان تقدمه لزعيمها الغطريف واذا كان قيصر لا يطمح الى فتح في بلاد العرب منعته شري

---

(١) راجع الجزء الثاني من رواية سيد قريش — المؤلف

وجنبته كبرياء زبيد ؟

ثم تركته وقد اشفى على الموت لفرط جزعه ، وجئت هذه الارض فما ان احتوتني بين ذراعيها حتى رفع لي من بعيد طلل قديم كان في امسه الغابر مثوى راحة ، ومكان دعة لقس بن ساعدة الكاهن ثم لسطيح الكاهن ثم لغيرهما من كهان البوادي ، فاجتذبتني الى الطلل اعراف ذكية من ماض شديد الرواء ، فمضيت اليه وتغلغلت في نواحيه ، فاذا انا حيال هذا القتيل الذي ترى ، فروعني دمه الطليل ، وهزني اني رأيت في عينيه نوراً لم يسلبه الموت بريقه فانحنيت على الجسد الهالك وفتشت جيوبه فعثرت على كتاب من محمد رسول الله الى ملك غسان ، ثم ابتعثت رجالي على الطواف بالاماكن المجاورة لعلهم اذا تحدثوا الى الناس عن هذا القتيل عرفوا من امره ما كان خافياً ، وبعد قليل تهافت رعاة الضواحي على الطلل ، واقبل في اثرهم بعض شيوخ القبائل ، فلما لاحت لهم هذه الجثة الغارقة في الدم تداعى بعضهم على بعض وكنت انظر الى وجوههم لعلي اتبين وجه القاتل فرأيت بينهم شيخاً في الثمانين من عمره وكان قد عرس حيال الجثة واسال مذراف دمعه واغيمت نفسه فقلت له ما يبكيك ايها الشيخ فهل كان هذا القتيل من ذويك فقال لي لا ولكنه رسول رسول الله ! وقد مر بنا قبل ليال فانزلناه منازلنا وسألناه عن طريقه فقال : ان اسفاره تنتهي في عمان وهو يحمل كتاباً من محمد نبي الله الى شرحبيل بن عمرو الغساني ، ثم جعل يقص علينا احسن القصص عن محمد فلما عدنا الى قلوبنا الفيناها عامرة بنور ذلك اليتيم فاذا شهدتني باكياً حزيناً فذلك لأنني عرفت اي رجل قتل واي قتيل هذا الذي ترى ؛ فقلت له من القاتل ؟ فتدلف الشيخ الي حتى اوشك كتفه ان يزحم كتفي وقال لي هامساً : انه شرحبيل بن عمرو ! ولما ذكر لي اسمه رأيت صورة البغض تخطف على وجهه فكأن هذا الشيخ الذي امتدت به ايامه واعوامه كان يخاف ان يخرج اسم القاتل من فمه فيسمعه الناس فاذا هم سمعوه اذاعوه ونشروه ثم لا يكون في قدرة هؤلاء الذين اجدبت حظوظهم ان يطمئنوا الى غدهم

وقد شعرت ساعة اكببت على القتيل وغمست يدي في صدره الدامي لافتش في جيوبه عن اثر يهديني الى امره بشعور جديد ما شعرت بمثله ، واني لا جدني عاجزاً عن تفسيره ولكنه على غموضه وابهامه لا يعدو الرحمة ، ثم سألت الرعاة نقل الجثة الى سلع ونظرت الى يدي فاذا عليها بعض دمه فلما وضعتهـــا على فمي شممت عرفا طيباً ورأيتني كأنني اشم عرف الارض المقدسة التي اخرجت هذا الرجل ثم كان معادي الى سلع !

ولما سكت عمرو التفت فروة الى قومه صائحاً :

ياشيوخ جذام هل فيكم من رأى الى مثل هذا الحادث ؟ وهل كان بنو ابيكم يقتلون الرسل ؟

فصاحت جذام لا والله ما رأينا مثل هذا ولا قتل اباؤنا الرسل ! قال فهل تصدقونني اذا قلت لكم ان قاتل هذا القتيل كان عربياً غسانيا ؟

فصاحت جذام انك لتثير آلامنا ايها الزعيم فمن عسى ان يكون القاتل ؟

قال : هو شرحبيل بن عمرو الغساني ! وددت لو انني رأيته وهو يغمس سيفه في صدر هذا القتيل الشهيد ! لقد يسألني احدكم فماذا كنت تفعل وشرحبيل من علمت فاجيب سائلي على ذلك : ان شرحبيل لا يستحق سيفي ولكنني لا امتنع من ان القي به الى الكلاب وهذا ايسر ما يحصل لرجل ازرى بشرف قومه !

ثم تلفت فروة الى عمرو بن معدي كرب واردف !

ــ هل علمت اسم القتيل الشهيد ؟ فقال فارس زبيد :

ــ انه الحارث بن عمير من الازد !

فحدج فروة الجسد الهامد بنظر دميع ثم اقبل على رئيس حرسه عدي بن الحارث فقال له :

ــ اسامعي انت يا عدي ! قال :

ــ قل ما تشاء ايها الامير قال : غيبوا هذه الجثة في ابهى الغـــلائل واربقوا

عليها عطور دمشق وانزلوها في راموس ابي ، فلقد والله اعددته لنفسي فسلبنيه رجل لم يمت ميتته زعيم في دنيانا هذه ؛ ثم نادى كريستيا اليه فشق الشاعر الصفوف حتى بلغ ناحية فروة : فقال له الجذامي بلغة حركت اهواءه « سننتقم لهذا الرجل القتيل ثم لابيك فرعش كريستيا والون وجهه واردف هامسا :

— متى ؟

فشد فروة يدي الشاعر شدة مؤلمة وانثنى قائلا :

انك لن تنتظر طويلا !

وكان الحزن قد هد قواه هداً فبدا للذين يحيطون به على شاكلة الخيـال ، فلقد روعه ان يلقى هذا الرجل مصرعه بجوار سلع واشجاه ان يريق دمه عربي من نوعه وطرازه لا روماني اجنبي ولما لم يعد في طوقه ان يغالب هذا الحزن الذي تولاه جثم حيال الجثة واخذ يتفرس في الصورة التي لم يسلبها الموت رواءها وفتونها فلذ هذا الموت الشريف المجيد في سبيل ذلك اليتيم الذي حسرت صخور مكة عنه ليذهب في غده المنتظر الى المدائن حيث يعيش كسرى ، او الى بزنطية حيث يعيش قيصر ، ويسمعهما رسالته فلا يؤيء الى سربه حتى ترقد الحرية على صوته الدافق الهادر

وبغتة رقت نفس هذا الجذامي العبقري ، وارتسمت عـــلى وجهه الذي بدا حزينا ملتاعا ابتسامة لم يرها احد هؤلاء الذين اجتمعوا حوله ، فلقد خيل اليه وهو يتملى من مشهد الموت الرائع انه مدرك شأو هذا القتيل النبيغ ، ولماذا لا يدرك فروة بن عمرو شأو الشهداء الكرماء وقد ازرى بقيصر وازرى بالرومـان زلفى لليتيم العظيم !

لقد كان فروة اول الذين احمسهم امر محمد في الشام ، فزهد في ملك ابيه واطرح مجدا خلص اليه من معارك ظافرة خلع عليها رسمه واسمه ثم جفـا هذه النصرانية الرومانية لأنها استعبدت قومه واذلت وطنه واعرض عن ارثه من الماضي فمـــا يرضيه ان يظل جذامياً رومانيا بينما هذه الرسالة المهذبة التي دعا اليها يتيم من قريش

قد ارضعت سلائقه واهواءه وجعلت منه سيداً عربياً !

قال فروة بن عمرو لعدي بن الحارث رئيس الحرس وهو يشير بيده الى الناحية التي عندها راموس ابيه

اراد ابي ان يخصب هذه الارض الصغيرة التي اختـــارها مثوى راحته وامنه فاحاطها بكل رقيق ندي من الازاهر وملأ مرتفعاتها الشم باشجار اولع بهـــا في شبابه الماضي فزها الشجر وبسق بجوار المسيل الجائش واظلت الادواح الرخية هذا القبر المنعزل فلطفت من صورة الموت فاذا لألأت ذكاء في الصباح واراقت نورها على المرتفع الشاهق تسرب قبس منها جميل الى قبر ابي فحرك فيه الجسد الهامد !
ففي هذا المكان الذي اخصبه ابي قبل موته والذي ارتضيته معاذاً لي حينما تهدأ نفسي من متاعب عمر حبسته على المجد سيستريح رفات الرجل الذي قتله شرحبيل بن عمرو !
وسنخرج جميعاً في الصباح الى دفنه ونمشي في موكبه ثم نسمعه هتافنا للحرية حتى اذا نزل به الجند الى حفرة ابي ، ارتد اليه وعيه وحسه فلذ اناشيدنا واستعـــذى حماستنا ، واطمأن الى قدرة سلع على الثأر بدمه !

الى الغد يا صاحبي بلى الى الغد ايها الفتى الشريف الذي اختصر آلام الوطن ليجمعها في كلمتين اثنتين « موتا لقيصر »

ولما حمل الحرس جثة الحارث بن عمير الازدي على المناكب ، غامت عينا فروة ولكنه ظل على عنفوانه وكبره فلوح بيده الى الجثة واردف صائحاً :

ياله ضريحا جميلا ! وداعا وداعا ايها القتيل الشريف انك غير مفارقي وسيظل خيالك ماثلا نفسي فلا انزعه الا يوم انطلق الى قيصر فاوقظه واوقظ الرومان من بني ابيه واسمعهم جميعاً انشودتي في الثأر ! ثم اعود الى سلع واقف بجوارك واسمعك هذا الذي اسمعته قيصر ثم اصيح ياله ربيعا جميلا قطوفه الدواني رءوس قاتليك !..
ولما ارتد فروة بنظراته الى عمرو بن معدي كرب لم يفته جـــوى فارس العراق واليمن فقال له :

لقد هاجتك لحوني الشجية فتندت عيناك وادركت من بكائك انك تشاطرني هذا الالم الذي احسه ، فقال عمرو نعم اني مشـاطرك الملك وقد بكيت مصير هذا القتيل الشهيد ولـكن اي غنم لي ولك ولجميع هؤلاء الذين يلتفون بك من الوقوف في الشكوى عند حد البكاء فانه لا يبتعث عدو الوطن الذي نخافه على الضحك آلامنا غير ايغالنا في البث ولا يغريه بالشماتة بنا الا ان نرجع الى منازلنا رجعة ذلك الراعي التعس الذي خرج بسرب من المعز الى المراعي البعيدة فلما جاز بعض الطريق اخافه مشهد الارض الفضاء وروعه همس الرياح فظن الذئب دالفة اليه فارتد الى مثواه وجعل يبكي حظه وحظ المعز ، ثم لم يعد يجرؤ على الخروج من مكانه فهلك وهلك قطيعه وجاءت الذئاب في الغد فوجدت رزقها السائغ ، فلولا خوف هذا الراعي التعس من الذئب ، ولولا انه تمثل الموت قبل أن يرى اليه لكان في وسعه ان يجنب نفسه ابشع تعاسة !

فاذا كنا نحب الحياة والحرية والشهرة وكنا نعاف ميتة هذا الراعي الذي قتله جبنه وخوفه فما احرانا باجتياز طريق الحرية الى آخر المدى وما اجدرنا بلقاء العدو وجها لوجه وقسره على مجاراتنا في اهوائنا ورغباتنا او يقسرنا هو على مجاراته في اهوائه ورغباته ، وذلك اجل وافضل من موت صامت ساكن !

فقال فروة ويده في يدي عمرو اتقاتل معنا ؟ قال نعم ويقاتل معي فرسان من العراق ! افلا يسرك ان يمزج العراق صوته بصوت الشام ! فاجتذب فروة عمرا الى صدره وصاح :

دعني اشم عرفك فانه ذلك العرف الطيب الذي يقطر من قلب العراق وروحه ثم هو الى ذلك عرف الشام وعرف جزيرة العرب مهدنا الاول !

حينما يمزج العراق اناشيده باناشيد الشام وتتألف من هذا التساوق لحون جزيرة العرب ويستريح شيوخنا وفتياتنـــا من سفر بعيد لابد منه للظفر بالحرية قف جميعاً عند باب المنزل الصغير الذي احتوى يتيم قريش ونهتف باسمه ذلك

الاسم البسيط المتواضع الذي ضاق العالم بعظمته ثم نسأله ان يبارك في عمر هذا الوطن لعله يستطيع اذا طالت ايامه وامتدت اعوامه ان يضيف الى ارثه من الحرية ارثا ضخما من الفتح !

وكان مشهد الرجلين وقد تلاصقا وتعانقا جليلا ورائعا فدعت سلع احر دعاء لحرية الشام والعراق في ظل سيد قريش محمـــد بن عبد الله نبي الله ورسوله ! ثم اخترق الجند الذين احتملوا الجثة على المناكب تلك الطريق التي تدفع الى الراموس العظيم ، وانحى فروة بضيوفه ناحية القصر تحت عزيف الابواق وتهافت رجال من جذام وقضاعة على غيران كريستيا فاحاطوا بتمثال الحارث ومضوا به الى جانب الوادي

وكانت سافو في تلك الاثناء تنظر من الشرفة الى هذه المشاهد فلا تمنع نفسها ان ترق !

الفصل السابع

جزيرة العرب

تمتد مصر الى الشمال الشرقي من افريقية ، فهي بلاد النهر الازرق والسهل الاخضر ولكن الصحراء الغلفاء تغمر هذا وذاك ، ثم يربط مصر بالعالم الاسيوي شسع من ارض كدراء ،و تمنعها ان تقرب من دجلة والفرات شواهق الرمال وبواسق التلال

تتالى على مصر في عمرها المديد فراعنة وقياصرة ، وتعاقب على العراق امتان عظيمتان بابل واشور ، ثم طلعت مصر على العالم بالروائع الفواتن ، فطلعت بابل واشور على العالم بالروائع الفواتن ، ونزعت مصر الى الفتح في بابل واشور فمنعتها الصحراء هذه الامنية ، ثم نزعت بابل واشور الى الفتح في مصر لحاربتها الصحراء في اقدس شهواتها القومية

ولم يلبث اسياد الدنيا القديمة في دجلة والفرات والنيل ان فطنوا الى خطر البيد التي تصاقب بلدانهم فنزعوا الى اذلالها وترويعها ورموها بالجيوش والكتائب لجنبت ارضها الذل والروع وقهرت الجيوش والكتائب ، لجنح اسياد الدنيا الى اسلوب جديد في التضييق على الصحارى فاقاموا على اطرافها الحواجز وخلقوا في هذه الاطراف الفيح طوائف من المالك وولوا امرها صنائعهم وعبدانهم من ملوك وامراء فامعن هؤلاء الملوك والامراء في طوافهم بالصحراء يريدونها على ان تلين فلا تقرهم على الملاينة لأنها تحب الحرية ولأنها المهد الاول للحرية .

ثم طويت مصر القديمة وادرج الفراعنة في رمال العفاء ، وامحى رسم بابل واشور ، وتتالت على شواطيء النيل ثم على شواطيء دجلة والفرات امم وشعوب ودول . وشرع هؤلاء الذين ورثوا دنيا المصريين ودنيا الاشوريين والبابليين في

انشاء الحياط والاسوار والحصون ، ثم جهزوا الجيوش والكتائب ورموا بها الى الصحراء فعبثت بكبرياء الجيوش ، ولم يرعها زهو الكتائب وذلك لانها تحب الحرية وتحرص على ان تظل مهدها الاول !

وهكذا ظلت شواطيء النيل وشواطيء دجلة والفرات ميدانا واسعاً لمصارع الدول والامم في افريقية وآسيه فشهد التاريخ في متباين عصوره عبقرية هذه الامم في الاعمار والانشاء ثم شهد عجزها عن الصمود امام بواعث الفناء

حدث هذا في عالمين اثنين يختلفان في السلائق ويتباينان في الشيم ، بينما الصحراء الغلفاء تقبس نشاطها وزهوها من بريق الشمس على الرمال وبينما ابناؤها يتبسمون للحياة وهم شخوص الى مصارع الامم ! وذلك لأن الصحراء تحب الحرية ولأنها تحرص على ان تظل مهد الحرية الاول !

اسم هذه الصحراء جزيرة العرب وما بهذا الاسم سرف ولا اغراق وكيف يكون في هذا الاسم سرف واغراق ورمال جزيرة العرب تحتدم وتضطرم كما تحتدم البحار وتضطرم ، ثم تفور وتثور كما تفور البحار وتثور ! ثم هي الى ذلك ليل مديد ينشر ظله المحرق في بطحاء غبراء تبلغ رقعتها ثلاثة ملايين كيلو متر يفصلها عن بلاد الاكاسرة خليج فارس وعن الهند الاقيانوس الهندي وعن افريقيه البحر الاحمر وقناة السويس ، وتحول بادية الشام بينها وبين بحر الروم وتمنعها رمال العراق من دجلة والفرات

يتألف هذا العالم السحيق من تهامة على السواحل ومن نجد في السهول وتنحرف هذه السهول العليا من الغرب الى الشرق مبتدئة بتلك القمم الرفيعة التي تحدق بالبحر الاحمر ومنتهية عند الهضاب والتلال في الخليج الفارسي ، ثم تبلغ هذه الجبال اوسع مدى في السمو والارتفـــاع في اقليم مواب ، ولا تلبث ان تنحدر حتى تبلغ في انحدارها صعيد اليمن من غير ان تكون لها صفة الجبال المتقاربة المتشابكة لأن اودية عظيمة تفصل بين اجزائها ، واعظم من هذا كله واجل ان تتفاوح شطآن

الجزيرة على البحر الاحمر في اماكن واعرة لايجرؤ اجنبي على وطئها ولا تقربها السفن فاي خارقة من الخوارق هذه الدنيا الغارقة في الرمال ؟

لقد فكر الاسكندر الكبير في النزول بشطآنها ، وقديما كان البحر طريق بعض الامم الى بعض وصلة الوصل بينها جميعا ، فحصد الاسكندر من فكرته الخيبة والهزيمة ، ثم فكر قياصرة الرومان في مجاراة قيصر الاغريق فحصدوا مثل حصاده ورجعوا الى بلادهم مثل رجعته ، وظل البحر فاصلا بين جزيرة العرب والعالم على حين كان البحر ولا يبرح ملتقى شعوب وامم ومنشأ هذا كله طغيان رمال جزيرة العرب ففي شمال العراق تنبسط صحراء النفود والى الجنوب الربع الخـــالي وقفار حضرموت ورمالها الحمراء يضاف الى هذا كله ان جزيرة العرب تعيش على تفاوت في عصور الدول واختلاف في اعمار الامم محتجزة منعزلة تغشاها الظلمات المتراكبة ويضنيها الفقر والبؤس بينما هذه المدن العظيمة التي تجاورها تلعب دورها المقدر لها في تهذيب الشعوب ، وبينما الحضارة السامية تضحك على ضفافها الرخية ومع هذا كله ظلت جزيرة العرب تنعم بحريتها لأنها المهد الاول للحريه

في اساطير القدماء احاديث لذة وبارعة عن المهد الاول لحرية الانسان الاول ومن هذه الاحاديث اللذة البارعة ، ان سيد العالم حينما خلق الارض واترعهـــا بالصخور والمياه والمروج والاودية وخلع عليها بدائعه وروائعه لم يمنع جزيرة العرب من نعمه السوابغ ففجر في بطحائها الانهار واخصب مراعيها ثم احب ان يهب لكل مصر من امصار الدنيا حظه القليل من الرمال وفي ذلك نفع كبير للناس فابتعث جبريل رئيس الملائكة على توزيع الرمل فلذعت الغيرة ابليس رئيس الشياطين وهو في مستقره فاقسم ليكيدن لجبريل ، فلما حلق سيد الملائكة في سماء جزيرة العرب تهافت ابليس عليه واحدث في الكيس المليء بالرمل ثقوبا فاستفاض على الجزيرة وطغا على الاودية والانهار والبحيرات فاصحرت الارض وجفت المياه واستحال البلد الذي حباه الله بضحك الربيع المونق الى فلوات جاهمة شديدة التعبيس

ولكن الله الذي احب جزيرة العرب لم يرقه هذا الذي فعله زعيم الشياطين فقال: ولاكسونها حلة من ضياء وبهاء ، ثم افاض على ترابها الذهب واترع آفاقها بضياء الشمس وملأ نفوس ناسها بنشيد الحرية الرقيق . فاشجى ابليس ان تغمر هذه الارض الكابية سيول من الضياء وروعه ان يلطف نشيد الحرية الرقيق صدرها الجائش الثائر ، فاحاط افقها بالغيوم وطفق يقهقه ، ولكن الله كان يحب هذه الجزيرة العارية فلم يشأ ان يتمادى ابليس في طغيانه فابتعث ملائكته على تبديد تلك الغيوم ففعلن واترعن سماء الجزيرة بالنجوم الزواهر فاذا خطف هذا الذهب الآلهي في المساء بهرت بروقه اعرابي الصحراء وتسرب من هـذه البروق قبس جميل الى خيمته فضوأها فرق وافتتن ووضع يده على صدره فاذا هو يمور بذلك النشيد العلوي فيلذ صليله ويفتح فمه لا ليقول ما يقوله الناس بلغة الناس بل ليقول الشعر المهذب الصريح في الحرية التي صقلت كبرياءه ولطفت اهواءه وجعلت منه وهو الذي يعيش عيشته الجافة الخشنة في وطنه الجاف الخشن سيد دنياه في صفـاء فضائله ورقة شمائله ، ثم ليجعل منه الشاعر الذي يكرم الحرية والنبي الذي يؤثل هذه الحرية !

تمر شهور العام الطويلة وهذا الافق المديد لا يفارقه بهاؤه ولا يجفوه رواؤه فاذا تفاوح الحر وتثاءبت هذه الارض العطشاء وضاقت الحياة بناسها وانشب الفقر مخالبه في الرضيع والفطيم ورانت ليـالي البؤس على الوضيع والعظيم وزخرت الاودية والجبال بالصرير والهزيم وارتفعت الرمال في رقيع السماء وهامت السحب على حواشي الدأماء تحركت جزيرة العرب في مجثمها اللاهب ورمت الآفاق بنظر ثاقب ، ثم اخذت بنيها الى ذراعيها وفتحت لهم صدرها واسمعتهم انشودة السماء في الحرية والمجد ! وعلى هذا الصدر الخافق ينظر الابناء النجباء الى طرق العالم الفيحاء فلا يفوتهم وهم يسمعون غناء الام الشفيقة الحادبة نزوع هذه الام الى الظلال والجنات والانهـار !

وعلى هذا الصدر الخافق ينظر الكماة المساعير الى ارض الوطن فيرون الى شبح

الموت وقد امتد من صحراء النفود الى الدهناء الى الربع الخالي ، فيروعهم ان يطوف بنفوسهم بحر متلاطم الموج لا ساحل له من رمال حمراء ، ويؤلمهم ان يخفق نشيد الحرية في صدورهم فلا تسمعه غير هذه الرياح الباكية على الرمل القائظ فاذا نظروا الى الشمال بدت لهم مقاصير الطرق وارتفعت في عيونهم خيالات القصور والصروح فظمئت نفوسهم الى الجنات والانهار ! ثم يخرج هؤلاء من جزيرتهم للبحث عن المجد في البلاد التي اذلها الرومان واستعبدها الفرس فلا يمنعهم صبابتهم في المجد ايغال قيصر في صلفه ولا اسراف كسرى في زهوه

ولدت هذه الصحراء العارية نبياً كريماً اسمه ابراهيم ، ثم ولدت هذه الصحراء العارية نبياً عظيما اسمه اسماعيل ثم ابتعثت هذه الامة العربية من صدر اسماعيل ، فيالها امة عظيمة بدأت حياتها بالانبياء ثم بالشعراء ثم بالملوك والزعماء ! ثم بالغزاة والفاتحين

لقد استهل هذا الشعب العربي حياته في الصحراء ، فاذا هي حياة قاسية جاهمة واذا حظوظه من هذه الحياة القاسية الجاهمة جدب في الامل وجدب في العمل ثم هاجه ان يقصر هذه الحياة على رعي الابل في القفرة النابية فنازعته نفسه الى رعي الشعوب في المدن الزاهية ، ثم كان من امره ان خرج من عزلته مهاجراً الى ارض العراق فكان عراقيا في شبابه الاول ، ثم لم يلبث وقد ابتسمت لمولده الجديد في ارض العراق ضفاف دجلة وشواطىء الفرات ان استساغ حياته في الارض العارشة الوارفة الظل فتهافت على المحراث وامتحن المعيشة وذكاءه فاذا هو اقدر ما يكون على زراعة الارض ، واذا هو غير عاجز عن اترئاعها بالطيب السائغ من زهر ونبات وبقول ، ثم اذا هو يبني على ضفاف الانهر ما لم يبنه في صحرائه الاولى من قصور وصروح ومدن وضيع !

وكان قد سبقه الى الخروج من جزيرة العرب الى الارض العراقية البابليون الساميون والكلدانيون الساميون. وجميع هؤلاء من ذرية ابراهيم فلحق بهم هذا الشعب

العربي وطفق ينافسهم في الاريحيات والمروءات حتى تفوق عليهم واجلاهم عن ارضهم ونزل منازلهم وورثهم في ارضهم وملكهم ولغتهم · فاذا العراق بعد هذا الفتح الادبي عربي في منازعه عربي في مطامعه فكأنه لم يعرف في عصره الغابر جماعة بابل ورهط اشور !

نعم في العراق بدأ هذا الشعب العربي عمله المهذب . فلما اورف هذا العمل واطمأن اصحابه الى غده لم يقصروا غايتهم من المجد على ارض العراق بل ظمئت نفوسهم الى هجرة جديدة في ارض جديدة ، فتطلعوا الى الشام وهي جزء من وطنهم فزرفوا اليها وتطلعوا الى مصر وهي بعض هذا الوطن فتهافتوا عليها ووزعوا على الشام الملوك ونثروا على وادي النيل الفراعنة وهكذا دل هـــذا الشعب العربي في زمن يسير من حياته الطويلة على صلته القديمة بالتاريخ وعلى انه ليس بالشعب الغريب عن امه وشعوبه بل هو قديم عتيق وحضارته قديمة عتيقة وديانته وادابه قديمة عتيقة ، ثم هو الى ذلك كله اول شعب حمل تجارته وتهذيبه الى نواحي العالم ولا يجهل العالم في حيـــاته الماضية صلات هذا الشعب بسليمان ملك اليهودية ولا تفوته صداقته لملوك حيرام وصور ، في ذلك الماضي البعيد ، كان الشعب العربي عظيماً وغنياً وكانت قوافله تنقل الذهب من الجنوب الى الشمال باسم بلقيس العربية ملكة سبأ ليجعل منه سليمان ملك اليهودية زينة هيكله الرائع في اورشليم

وقد ازدهرت دول انشأها هذا الشعب العربي في الشمال ازدهـــار دوله في الجنوب فتعرف الرومان والاغريق في الشام الى ملوك من طراز ملوكهم وخالطوا قواد الجيوش وزعماء الكتائب ففتنهم ان يكون ثمة تساوق في حمية هؤلاء وحمية قوادهم ، بل لقد بهر الرومان على ضخامة سلطانهم ملك زينب الزباء في تدمر وهي امرأة عربية كان همها الاول ان تزجي الكتائب لمحـــاربة قيصر زلفى لاغراض الوطن في الحرية !

في القرن الرابع توارث هذه الدولة الناشئة التي احرق اورليـــانوس قيصر

مدنها فانقطعت بذلك صلة العرب بالملك في ارض الشام ولكن جنوب الوطن ظل عامرا بالدولة المنيعة ، ثم جاء القرن الخامس فجدد العرب شبابهم في الشام والعراق وقامت على ضفاف الانهر الظليلة دولة الغساسنة ودولة المناذرة : وعاد العالم القديم الى استماع صليل السلاح العربي في معارك ماجدة آثارها الشام والعراق في سبيل الحرية التي اذلها الرومان والفرس !

وفي اواخر القرن السادس شعرت جزيرة العرب التي انجبت الملوك والابطال والشعراء والناسهين بمولود جديد يثب في احشائها فاحست روحا جديدا من الكبر لم تحسه في عمرها الماضي ، ثم وضعت ذلك الوليد على صخورها النابية فاذا هو يتيم قريش واسمه محمد بن عبد الله رسول الله وكلمته المددية في ارض كسرى وقيصر !

ولد هذا العظيم في عصر اضاع العرب في مسائه وحدة الوطن السياسية ولكنهم استبقوا وحدته اللغوية فحصد الوطن من لغته الخالدة اشهى حصاد ، وزخرت ارضه بدنيا من الشعراء فما ينافسها في البيان الرائق والخيال السامي هذه الدنيا الرومانية الاغريقية التي زخرت بالشعر والتصوير والنحت على الجلامد

في هذا الشعر الذي نضره امرؤ القيس بن حجر الملك ورققه المهلهل بن ربيعة الزعيم ووثقه النابغة الشاعر وهذبه فرسان الملاحم عنترة العبسي وطرفة بن العبد والحارث ابن حلزة اليشكري ولد وطن العرب لا في التصاوير الملونة ولا على الجلامد المنحوتة ثم حرص هؤلاء الذين اشتركوا في بناء الوطن على ان تظل لغتهم لغة الحرية والمجد والمرح والحب : فما فات هذه اللغة ان تزهو وتسمو في الحالتين المتنافرتين حالة الانتصار وحالة الانكسار حتى لقد جمعت في امد واحد بلاغة التعبير عن الفرح وروعة التعبير عن الترح وكذلك كان شأنها في عمرها الاول جمعت بين عبقرية الوطن الموهوب وعبقرية الوطن السليب والفت بين شعور الاول بحلاوة الانتصار ، وشعور الثاني بمرارة الانكسار فكان اثر هذا التساوق في حياة العرب اجل واسمى من اثر التصاوير الملونة والحجارة المنحوتة في حياة الرومان والاغريق

ثم كان من امر هذه اللغة ان لقيت صبابتها من الخلود في غار حراء. في هـذا الصخر الواعر رفت احلام السماء على الارض فانبثق من صفائها واشراقها كتاب الله ورسالته في العرب وفي الناس جميعا ولما خرج سيد قريش من عزلته في الحجر الصلد واشرف على قومه وملأ اذانهم واذهانهم بايات الله شعر الذين فتنتهم القصيدة البارعة بجمال الديانة الساطعة ففتحوا نفوسهم لبيان السماء من غير ان يفرطوا في بيان الشعراء ، ثم كان من امر هذا القرآن وهو كلام الله ان نفخ في روح هـذا الوطن الذي ولد في خيال الشعراء ، فرعش وتكامل واصبح في ميسوره ان ينظر من صحرائه الى هذه المدن التي تحيط به ويغشاهـا الظلم الشديد العنيف ! بل لقد اصبح في ميسور هذا الوطن ان يجهر بالدعوة التي القيت الى اليتيم وهو في الغار فيسمعها قيصر ويسمعها كسرى ! فاي يتيم هذا الذي اختاره الله للعمل الرائع ؟

كان عبد المطلب بن هاشم جد محمد قد نذر حين لقي في حفر زمزم ما لقي لئن ولد له عشرة رهط لينحرن احدهم لله عند الكعبة فلما توافى له بنوه العشرة وعرف انهم سيمنعونه جميعهم اخبرهم بنذره الذي نذر ودعاهم الى الوفاء لله بذلك فاطاعوه وقالوا كيف نصنع قال يأخذ كل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ثم أتوني به ففعلوا ثم اتوه فدخل على هبل في جوف الكعبة وهبل اعظم اصنام قريش بمكة فقـال عبد المطلب لسادن الكعبة اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه واخبره بنذره الذي نذر فاعطى كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ اصغر بني ابيه واحب الناس اليه ، فلما اخذ سادن الكعبة القداح ليضرب بها قام عبد المطلب عند هبل في جوف الكعبة يدعو الله ثم ضرب السادن فخرج القدح على عبد الله فامسك عبد المطلب ولده بيده واخذ الشفرة ثم اقبل الى اساف ونائلة وهما وثنا قريش فقالوا ماذا تريد ياعبد المطلب قال اذبحه فقالت له قريش وبنوه والله لا تذبحه ابدا حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه فما بقـاء الناس على هذا ، فقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم — وعبد الله ابن

اخت القوم — والله لا تذبحه ابدا حتى تعذر فيه فان كان فداؤه باموالنا فديناه وقالت له قريش لا تفعل وانطلق به الى الحجاز فان به عرافة لها تابع فسلها ثم انت على رأس امرك ، ان امرتك ان تذبحه ذبحته وان امرتك بامر لك وله فيه مخرج قبلته فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوا العرافة بخير فوثبوا اليها حتى جاءوها فسألوها وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه وما اراده به ونذره فيه فقالت لهم ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فاسأله فرجعوا فلما خرجوا من عندها قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها فقالت نعم قد جاءني الخبر كم الدية فيكم ؟ قالوا عشر من الابل قالت فارجعوا الى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الابل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح فان خرجت على صاحبكم فزيدوا في الابل حتى يرضى ربكم وان خرجت على الابل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ، فخرجوا حتى قدموا مكة فلما اجمعوا لذلك من الامر قام عبد المطلب يدعو الله ثم قربوا عبد الله وعشرا من الابل وعبد المطلب يصلي في جوف الكعبة يدعو الله فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا فكانت الابل عشرين وقام عبد المطلب في مكانه لذلك يدعو الله ثم ضربوا فخرج السهم على عبد الله فزادوا عشرا من الابل فكانت ثلاثين ثم لم يزالوا يضربون بالقداح ويخرج القدح على عبد الله فكلما خرج عليه زادوا عشرا حتى ضربوا عشر مرات وبلغت الابل مائة وعبد المطلب قائم يدعو ثم ضربوا فخرج القدح على الابل فقالت قريش ومن حضر قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب فقال عبد المطلب لا والله حتى اضرب عليها ثلاث مرات فضربوا على الابل وعلى عبد الله وقام عبد المطلب يدعو فخرج القدح على الابل ثم عادوا الثانية وعبد المطلب قائم يدعو ثم عادوا الثالثة فضربوا فخرج القدح على الابل فنحرت ثم تركت لا يصدعنها انسان ولا سبع (١) ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد ابنه عبد الله فمر على امرأة من بني اسد يقال لها

(١) الطبري ج ٣ ص ٦

ام قتال بنت نوفل بن اسد بن عبد العزى وهي اخت ورقة بن نوفل (١) بن اسد فاذا هي عند الكعبة فقالت له حين نظرت الى وجهه اين تذهب يا عبد الله قال مع ابي قالت لك عندي مثل الابل التي نحرت عنك وقع علي الآن ، قال ان معي ابي ولا استطيع خلافه ولا فراقه فخرج به عبد المطلب حتى اتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة ووهب يومئذ سيد بني زهرة سنا وشرفا فزوجه آمنة بنت وهب افضل امرأة في قريش نسبا وموضعاً ، فدخل عليها فحملت بمحمد ثم خرج من عندها حتى اتى المرأة التي عرضت عليه ماعرضت فقال لها مالك لا تعرضين علي اليوم ما كنت عرضت علي بالامس فقالت له فارقك النور الذي كان معك بالامس فليس لي بك اليوم حاجة وقد كانت تسمع من اخيها ورقة بن نوفل وكان قد تنصر واتبع الكتب حتى ادرك فكان فيما طلب من ذلك انه كائن لهذه الامة نبي من بني اسماعيل (٢)

ثم خرج عبد الله الى الشام في عير لقريش فلبث فيها زمنا ، ثم انقلب الى اهله فنزل بالمدينة وهو مريض فاقام بها حتى توفي ودفن في دار النابغة الذبياني

---

(١) راجع الجزء الثالث من رواية سيد قريش للمؤلف .

(٢) روى الطبري ان عبد المطلب خرج بعبد الله ليزوجه فمر به على كاهنة من خثعم يقال لها فاطمة بنت مر متهودة من اهل تبالة قد قرأت في الكتب فرأت في وجهه نورا فقالت له يافتى هل لك ان تقع علي الآن واعطيك مائة من الابل فقال

اما الحرام فالممات دونه والحل لاحل فاستبينه
فكيف بالامر الذي تبغينه

ثم قال انا مع ابي ولا اقدر ان افارقه فمضى به فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فاقام عندها ثلاثا ثم انصرف فمر بالخثعمية فدعته نفسه الى مادعت اليه فقال لها هل لك فيما كنت اردت فقالت يافتى اني والله ما انا بصاحبة ريبة ولكني رأيت في وجهك نوراً فاردت ان يكون في وابى الله الا ان يجعله حيث اراد فما صنعت بعدي قال زوجني ابي آمنة بنت وهب فاقمت عندها ثلاثا فقالت لتلدن امرأتك سيد الرسل ! ومثل هذه الروايات كثير في كتب السيرة النبوية

الشاعر (١) وشاء الله ان يتولى اليتيم برعايته فكفله جده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وهو صاحب الشرف الرفيع في قريش وفي هاشم يقول الشاعر :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وذلك ان قومه كانت اصابتهم لزبة وقحط فرحل الى فلسطين من ارض الشام فاشترى منها الدقيق فقدم به مكة فامر به فخبز له ونحر جزوراً ثم اتخذ لقومه مرقة ثريد بذلك الخبز، وهاشم الى ذلك اول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف، وكان هاشم وعبد شمس وهو اكبر ولد عبد مناف والمطلب وهو اصغرهم امهم عاتكة بنت مرة السلمية ونوفل وامه واقدة بني عبد مناف فسادوا بعد ابيهم جميعا وكان يقال لهم المجبرون وهم اول من اخذ لقريش العصم فانتشروا من الحرم اخذ لهم هاشم حبلا من ملوك الشام الروم وغسان واخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشي الاكبر ملك الحبشة فاختلفوا بذلك السبب الى ارض الحبشة واخذ لهم نوفل حبلا من الا كاسرة فاختلفوا بذلك السبب الى العراق وارض فارس واخذ لهم المطلب حبلا من ملوك حمير فاختلفوا بذلك السبب الى اليمن فجبر الله بهم قريشا فسموا المجبرين (٢)

وقد توفى عبد المطلب بعد الفيل بثماني سنين فكفله عمه ابو طالب، ثم ان ابا طالب خرج في ركب من قريش الى الشام تاجراً فلما تهيأ للرحيل واجمع السير صب به اليتيم فرق له ابو طالب فقال والله لاخرجن به معي ولا يفارقني ولا افارقه ابداً، فخرج به معه ونزل به الركب بصرى من ارض الشام وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له وكان ذا علم من اهل النصرانية فصنع لهم بحيرا طعاماً كثيراً وذلك انه رأى اليتيم وهو في صومعته عليه غمامة تظله من بين القوم، ثم اقبلوا حتى نزلوا في ظل شجرة قريباً منه فنظر بحيرا الى الغمامة حين اظلت الشجرة وهصرت اغصانها على الصبي اليتيم فلم يلبث ان عاف صومعته وارسل اليهم فدعاهم جميعا

---

(١)و(٢) الطبري

وجعل يلحظ اليتيم لحظاً شديداً وينظر الى اشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته (١) ثم فرغ القوم من الطعام وتفرقوا فسأل بحيرا اليتيم عن اشياء في حاله في يقظته وفي نومه فجعل الرسول يخبره بها فيجدها بحيرا موافقة لما عنده من صفته ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه فقال لعمه ابي طالب ما هذا الغلام منك قال ابني فقال ما هو ابنك وما ينبغي لهذا الغلام ان يكون ابوه حياً قال فانه ابن اخي قال فما فعل ابوه قال مات وامه حبلى به قال صدقت ارجع به الى بلدك واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شرا فانه كائن له شأن عظيم فقال اشياخ قريش ما علمك ؛ قال انكم حين اشرفتم من ايلة لم تبق شجرة ولا حجر الا خر ساجداً فهو سيد العالمين ورسول رب العالمين (٢) ثم ناشـــدهم الله الا يذهبوا به الى الرومان فان هؤلآء ان رأوه عرفوه فقتلوه وفي تلك الفينة اقبل على صومعة بحيرا سبعة نفر من الرومان فاستقبلهم فقال ماجاء بكم قالوا جئنا ان هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق الا بعث اليها اناس قال لهم هل خلفتم خلفكم احداً هو خير منكم قالوا لا انما اخترنا خيرة لطريقك هذا قال افرأيتم امرا اراد الله ان يقضيه هل يستطيع احد من الناس رده قالوا لا فتابعوه وناموا ليلتهم عنده ثم انقلب الى ابي طالب فلم يزل يناشده حتى رده وزوده الراهب من الكعك والزيت (٣)

ثم اشتهر امر هذا اليتيم العظيم بالصدق والامانة فما بلغ ربيعه الخامس والعشرين حتى احبه الناس جميعا وانتهى شرفه الى خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى ابن قصي وهي امرأة في الاربعين ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالهـــا وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم وكانت قريش قوما تجارا فلما بلغها عن اليتيم ما بلغها من صدق حديثه وعظم امانته وكرم اخلاقه بعثت اليه فعرضت عليه ان يخرج في مالها مع غلامها ميسرة فطافا بنواحي جزيرة العرب ثم قدما الشام فنزل سيـــد قريش في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان فاطلع الراهب رأسه الى

---

(١) و (٢) و (٣) الطبري

ميسرة فقال من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة فقال له ميسرة هذا رجل من قريش من اهل الحرم فقال له الراهب مانزل تحت هذه الشجرة الا نبي ثم باع اليتيم سلعته التي خرج بها واشترى ما اراد ان يشتري ثم اقبل قافلا الى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة اذا كانت الهاجرة واشتد القيظ يرى ملكين يظلانه من الشمس على بعيره فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ماجاء به فاضعفت وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من اظلال الملكين اياه ، وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبه شريفة فلما اخبرها ميسرة بما اخبرها بعثت الى محمد فقالت له يابن عم اني قد رغبت فيك لقرابتك وسمعتك في قومك وامانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها وهي يومئذ اوسط نساء قريش نسباً واعظمهن شرفا واكثرهن مالا وكان كل قومها حريصا على ذلك منها لو يقدر عليها فلما قالت ذلك لسيد قريش انقلب الى اعمامه فحدثهم بحديثها فخرج معه حمزة بن عبد المطلب عمه حتى دخل على خويلد بن اسد فخطبها اليه فتزوجها (١)

وفي سنة خمس وستمائة وذلك بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة اجتمعت قريش لهدم الكعبة وتجديد بنائها والكعبة يومئذ عند قدماء العرب بمنزلة البانتيون عند قدماء الاغريق وقد وصفها ديودور الصقلي وصفا بارعا في سنة خمسين قبل ميلاد المسيح ، فلما تجزأت قريش الكعبة كان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة وكان ما بين الركن الاسود والركن اليماني لبني مخزوم وتيم وقبائل من قريش ضموا اليهم وكان ظهر الكعبة لبني جمح ولبني سهم وكان شق الحجر وهو الحطيم لبني عبد الدار بن قصي ولبني اسد بن عبد العزى بن قصي وبني عدي بن كعب ، ثم ان الناس هابوا هدمها وفرقوا منه فقال الوليد بن المغيرة انا ابدؤكم في هدمها فاخذ المعول ثم قام عليها وقال اللهم لم ترع اللهم لا نريد الا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس به تلك الليلة وقالوا ننظر فان اصيب لم نهدم منها شيئاً

---

(١) الطبري

وردناها كما كانت فاصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله فهدم والناس معه حتى انتهى الى الاساس فافضوا الى حجارة خضر كأنها اسنة اخذ بعضها ببعض ثم ان القبائل جمعت الحجارة لبنائها فجعلت كل قبيلة تجمع على حدتها ثم بنوا حتى اذا بلغ البنيان موضع الركن اختصموا فيه كل قبيلة تريد ان ترفعه الى موضعه دون الاخرى حتى تحاوروا وتحالفوا وتواعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو كعب على الموت وادخلوا ايديهم في ذلك الدم ومكثت قريش اربع ليال على ذلك ثم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، وكان ابو امية بن المغيرة اسن قريش فقال يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه اول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ، فكان اول من دخل عليهم سيد قريش وهو يومئذ ابن خمس وثلاثين سنة فلما رأوه قالوا هذا الامين قد رضينا به هذا محمد (١) فلما انتهى اليهم واخبروه الخبر قال هلم لي ثوبا فاتى به فاخذ الركن فوضعه فيه بيده وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه بيده وبنوا عليه (٢)

ولما بلغ يتيم قريش الاربعين نزع الى العزلة على الشواهق البواسق في غار حراء حتى اذا كانت الليلة التي اكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل رسولا من ربه وقد وصف محمد هذه الرسالة الرائعة (٣) فقال «جاءني جبريل وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ فقلت ما اقرأ فغتني حتى ظننت انه الموت ثم ارسلني فقال اقرأ فقلت وماذا اقرأ وما اقول ذلك الا افتداء منه ان يعود الي بمثل ما صنع بي ، قال اقرأ باسم ربك الذي خلق الى قوله علم الانسان مالم يعلم فقرأته ثم انتهى ثم انصرف عني وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتابا ، فحسبتني شاعرا ولم يكن من خلق الله احد ابغض الي من شاعر او مجنون ، ثم قلت لاعمدن الى حالق من الجبل فلاطرحن نفسي منه . فلاقتلنها فلاستريحن ، ثم خرجت اريد ذلك حتى اذا كنت في وسط من الجبل

(١) و (٢) و (٣) الطبري

سمعت صوتا من السماء يقول يامحمد انت رسول الله وانا جبريل فرفعت رأسي الى السماء فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في الافق يقول يا محمد انت رسول الله وانا جبريل فوقفت انظر اليه وشغلني ذلك عمــا اردت فما اتقدم وما اتأخر وجعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء. فلا انظر في ناحية منها الا رأيته كذلك فما زلت واقفا ما اتقدم امامي وارجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا اليها وانا واقف في مكاني ثم انصرف عني وانصرفت راجعا الى اهلي ، واتيت خديجة فجلست اليها فقالت يا ابا القاسم اين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا الي فقلت اني لاحسبني شاعراً او مجنونا فقــالت اعيذك باللهمن ذلك ، ماكان الله يصنع ذلك بك معما اعلم منك من صدق حديثك وعظم امانتك وحسن خلقك وصلة رحمك وما ذاك يا ابن عم لعلك رأيت شيئاً فقلت لها نعم ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت ابشر يابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده اني لارجو ان تكون نبي هذه الامة ثم قامت فجمعت عليها ثيابها وانطلقت بي الى ورقة بن نوفل بن اسد وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب فقــالت اسمع من ابن اخيك فسألني فاخبرته خبري فقال هذا الناموس الذي انزل على موسى ابن عمران ، والله انه لنبي هذه الامة ، ليتني فيها جذع ليتني اكون حيا حين يخرجك قومك قلت امخرجي هم قال نعم انه لم يجيء رجل قط بما جئت به الا عودي ولئن ادركني يومك لا نصرن الله نصراً يعلمه ثم ادنى رأسه فقبل يافوخي (١)

ثم كان اول ما انزل علي من القرآن اقرأ ن ٓ والقلم وما يسطرون ماانت بنعمة ربك بمجنون وان لك لاجرا غير ممنون وانك لعلى خلق عظيم فستبصر ويبصرون (٢)

امتدت هذه الرسالة المهذبة التي وصفها رسول الله ونبيه ابرع وصف الى جزيرة العرب فما فات جناها عربي الصحراء ، وعربي المدن فلما انتبه ضمير القبيلة الى روعة هذه الرسالة تلتفت الى نفسها فاذا هي تمور بشعور الامة الواحـــدة

---

(١) و (٢) الطبري

فاجتمعت الى الرسول العظيم لتمشي في خميسه العرمرم الى المدن الوارفة الظل حيث يعيش جيل كبير من العرب عيشة لم يتسرب اليها هذا السنى البـاهر الذي فجرته صخور غار حراء !

وقد كانت هذه الروح العالية التي استجاشتها تعاليم النبي في نفوس قومه المصدر الاول لتلك الشعلة المقدسة التي احرقت اوهام العالم القديم في مطلع القرن السابع لمولد السيد المسيح

في سنة ستمائة تتنازع امر العالم القديم دولتان عظيمتان ، فارس وبزنطية ، فزهت الاولى بماضيها البعيد ، وساوقتها الثانية في الزهو بارثها المجيد ، ثم وقفت الدولتان على انقاض ذلك الارث الضخم الذي خلفه الاسكندر الكبير ، فخلع كسرى ظله على آسيه فكان سيد الشرق وحامي الوثنية ، وخلع قيصر ظله على القسطنطينية فكان سيد الشام ومصر وافريقية والجزر اليونانية ثم كان حامي النصرانية ووريث الامبراطورية الرومانية !

ومنذ ذلك اليوم الذي تقاسم فيه كسرى وقيصر اسلاب الاغريق والرومان ذوت ازهار الحرية في ارض الشرق فما عاد عرفها يغشى صدور الناس ويئس الذين احتوتهم المدن الزاهرة من الحياة ، فذلوا لكسرى ذلتهم لقيصر ، وجعل الفرس يقولون نحن اسياد الدنيا الاول فما ينافسنا منافس واخذ الرومان يقولون « لقد ورثنا روما وشرائع روما وجعلنا قيصر امبراطوراً رومانيا فما ينبغي لشعب من الشعوب ان يطمح الى اذلالنا »

ولكن الله الذى رعا الحرية في مهدها الاول وجعل ازهارها احب الازهار الى نفسه لم يشأ ان يتمادى الفرس والرومان في وطئهم منبتها الذاكي فبعث الى العالم السادر الحائر بالنبي الذي ولد يتيما في بيت عبد المطلب واخرجه من الصحراء العارية ليذهب في غده الى المدن الكاسية العاشبة ويغرس في بطحائها غرسه الجديد فيورق هذا الغرس ويزهو وتتأرج منه اعراف الحرية فلا يفوت شذاهـا الاقدس هذا

العالم القديم الذي طواه ليل من الظلم مديد

وله النبي في مكة في الارض التي مجدها فحول الشعراء بجوار البيت الذي خرج منه الانبياء وتلق رسالة ربه في غار من الصخر، ثم خرج من عزلته الى الصحراء فرفع صوته. فاستمع له الضعاف والفقراء من الناس ثم اذا جميع هؤلاء في موكبه وحاشيته وكذلك هي مواكب الانبياء ثم خرج مهاجرا الى يثرب المتواضعةفاظلته وحمته، وما بيثرب عامئذ يسير اوكثير من رواء التاريخ القديم الذي كتبت قريش صفحاته على جدران الكعبة ولكن محمدا اليتيم الفقير لم يلبث ان كتب تاريخ مجدها الباقي فما ينازعها في روائها الجديد هذا الشعر الذي علقه شعراء الجاهلية على الجدر المنيفة في بيت ابراهيم

وفي يثرب التي فتحت ذراعيهـــا لليتم والفقر والالم والاغتراب اصبح يتيم قريش سيد هذه الدنيا القديمة التي روعها الفرس واذلها الرومان، وفي يثرب طفق محمد بن عبد الله النبي يرسل الرسل الى ارض الشام والعراق ليبشر هؤلاء بدنيا جديدة لا تدين لكسرى ولاتخضع لقيصر، وفي يثرب ارتفع صوت الطفل الذي لم يعرف في طفولته المتواضعة ابا يهدهد اوجاعه واما تغنيه اغانيهـــا الرقيقة العذبة، فسمعته جبال الشام فرقت له ووعته سهول العراق فصبت الى جرسه، بلى في يثرب لا في فارس ولا في بزنطية كان مصدر هذه الشعلة المقدسة التي ضوأت صحـــارى جزيرة العرب وجعلت منها سيدة الانهار والبحار من شواطيء عدن الى شواطيء البوسفور !

الفصل الثامن

احزان الشاعر

وضع رجال سلع وحماتها المغاوير رفات عمير بن الحارث الازدي رسول سيد قريش في تابوت من الذهب الصراح مساوقة لميول فروة بن عمرو الذي ابى الا ان يكرم الرجل القتيل قبل ان يظله ترابه ، ثم احتمل التابوت اربعة من فرسان جذام ولخم وبهراء وقضاعة وجاءوا به الى الراموس الكبير فوضعوه عند حافته وطفق الناس وفيهم شيوخ سلع ونساؤها يطوفون بالجسد الهامد طوفة المتبرك وكان اول الذين تمسحوا بالقتيل فروة سيد ايلة ثم عمرو بن معدي كرب فارس العراق واليمن ، ثم غيب التابوت في ظلمة الراموس تحت صليل البوق ونشيد الكماة المساعير

حدث هذا كله في صباح اليوم التالي بينما احراس فروة يرفعون تمثال الملك الحارث على الذروة السامقة التي كان عليها تمثال هراقليوس وبينما عزيف الابواق في جلامد سلع يمر بالاودية والحدور الهاوية ليمتزج بعزيف الابواق وغناء الناس عند الراموس الكبير ، ثم انقلب فروة الى القصر ولحق به عمرو بن معدي كرب فودعه على الباب ولما سأله فروة الى اين يمضي قال عمرو الى ايلياء لاشهد موكب قيصر ، ثم الى يثرب لاشهد موكب النبي ! ثم الى العراق لاستنفر قومي الى نصرة الشام ! فقال فروة :

— فماذا تفعل اذا ابصرت عيناك قيصر في موكبه الرائع ؟ فرفع عمرو عينيه الى فروة واخذ يده فشدها واردف في كثير من الحماسة :

— سيأتيك نبأي ؛ قال فماذا انت قائل للنبي اذا رأيته وسمعته ؟

فقال عمرو : ساقول له ان فروة بن عمرو الجذامي قد اوفى بنذره ! فشجي فروة

وضم عمرا الى صدره وقال له هامساً :

لقد روع قيصر شعوبا كثيرة كانت آمنة في اوطانها فلما وطيء ارضها طفرت هذه الشعوب من محارسها لقتال لصوص الرومان ومنعهم ان يدنسوا قبور الاجداد ، ثم اسلمت هذه الشعوب منازلها وحقولها واطفالها وشيوخها الى النيران وآثرت ان يتداعى الوطن كله تحت صليل الحريق ، فتلتهم النار رفاته الغالي وتحصد حريته حتى اذا قدر للعدو المغير ان ينشر ظله الراعب على جبال الوطن وسهوله لم يلق في هذه الجبال والسهول شعبا يعذبه ويضطهده ! ناشدتك الله ياعمرو انتقول لسيد العالم اذا لقيته واستمعت له ان سلع قد اسلمت جبالها ونساءها وشيوخها الى النار لتستبقي حريتها وشممها فلا يعبث بها قيصر ! فقال عمرو :

والله اني لقائل ما اردتني على قوله ! ثم تعانق الرجلان عناقا طويلا وافترقا

وكان كريستيا الشاعر المثال في تلك الفينة يمشي الى جانب مارسيليوس وقد انحى الصديقان معا ناحية القصر فسمعا حديث فروة فتملكهما ذعر شديد وجعل كريستيا يقول لصاحبه : « ارأيت الى هذا الرجل ، اسمعت حديثه ! الم ترتعد فرائصك حينما اخذ يتحدث الى صاحبه عن الحرية ، وعن الموت ، وعن الحريق ! فسكت مارسيليوس ولم يجب

ولما اظلت الرجلين حجرتهما في غيران سلع بعد ان تفرق الناس مرت بصدر كريستيا صورة ذلك التابوت الذي غيب في الراموس ، وذكر كيف اراقت الشمس نورها الشاحب على ذهبه الصراح فتلفت الى مارسيليوس وقال له بلغة رقيقة شجية :

اسدفت الشمس لمصرع الرجل البريء الذي اطل عمال قيصر دمه في هذه الارجاء . فما عادت السحب المضيئة ترف على موكبها الرائع ! فكأنما حال هذه الشمس حالها يوم مصرع ابي ، فلقد رأيتها شاحبة كابية من جزع واشفاق

اي جريرة احتقبها الرجل الذي غيب في ظلمة الراموس ، حمله وطنه على قضاء الواجب فلانت نفسه لقضائه ، ومضى في الطريق التي اختارها وطنه له ، فلما اوشك

ان يبلغ امنيته خرج عليه لصوص قيصر فقتلوه ، وكذلك كان ابي ، ابتعثه وطنه على قضاء الواجب فما تريث . فلما اوشك ان يقرب اهواءه مزق اللصوص ، لصوص قيصر صدره بجرابهم ، فما اتعس الرجل الذي يريده الوطن المروع على قضاء لباناته وشهواته في الحرية ، انه يمضي في بداية طوافه الى حقول يضحك فيها الربيع الخضل فيخيل اليه انه في نجوة من العواصف ويظن الحياة ربا بعطور القرنفل والورد فيفتح صدره للربيع المونق ، ثم لا يكاد يوغل في طوافه حتى يرى نفسه قد ضلت الطريق فاذا فتح عينيه ونظر الى ماحوله لم يفته سبحه وشروده في مفازات الحياة حيث تضطرم رمال الصيف وحيث يشتد قرس الشتاء ولذعه فيحني رأسه في الم وارتماض ويدرك ان الربيع المونق ليس صورة صحيحة لحياة الناس وانما هذا الربيع الذي توهمه خضلا سائغا لا يعدو ضحكة هامسة في حياة شديدة الصخب خلقها الله من عنصرين ، صيف محرق ، وشتاء قارس

ولكن مارسيليوس الذي كان يعرف خلق كريستيا المتقلب لم يجب بل جعل ساعة اخذ الشاعر يتحدث اليه يستعرض في تصوراته غد سلع . في هذا الغد الذي لم يتبين صورته بعد شرع مارسيليوس في سياحة مضنية متعبة واخذ قلبه يهمس همساً ضعيفا لم تعرفه شفته ولم يسمعه كريستيا وحدثه شعوره باحاديث شجية لو حاول ان يلقي بها الى سمع الشاعر لزخرت نفسه بيأس شديد ، وما بهذه الاحاديث التي لم يحسر عنها سرف ولا اغراق فقد نزع الى المقارنة بين دنيا قيصر ، ودنيا فروة بن عمرو فما اعجبته المقارنة ، لأن دنيا قيصر دنيا الناس جميعا ، بينما دنيـــا الفيلارك امير ايلة لا تعدو هذه المدينة المتواضعة المنقورة في الصخر ! ثم افضت به المقارنة بين دنيا الرومان ودنيـا الجذامي الى الشعور بالالم فاستوثق من قدرة قيصر على طحن هذه الدنيـــا الصغيرة . فجزع لمصير البطل الذي استهوته اناشيد الحرية واخذته عزة الصحراء ، وود لو انه يستطيع ابتعاثه على نسيان ثاراته فيظل على وفائه القديم لسيد الجيوش وامير الكتائب وقاهر الفرس ! بل لقد ود لو انه يستطيع

ان يحمل كريستيا على فراق سلع فيخرج الى فارس ويعيش في كنف كسرى صديق ابيه موريس فلقد تسكن بذهابه الى فارس حماسة فروة فلا يفكر في منافرة قيصر ومفاخرته ولما اراد ان يتكلم طرقته خيالة ذلك الرجل المخيف الذي ابصره يتحدث الى فروة وذلك هو فارس العراق عمرو بن معدي كرب فذكر ازماعه الخروج الى قيصر في ايلياء وذكر حديثه عن نبي عربي يدعو الناس في الشام والعراق الى رسالتين اثنتين رسالة السماء، ورسالة الحرية ، فايقن ان لا سبيل الى مخاطبة فروة في امر لا يحبه ولا يطمئن اليه . الم يقل الجذامي لذلك الفارس المخيف ساعة ودعه « ان قيصر اذا حدثته نفسه باجتياح سلع لم يلق في بطحائها غير اكوام من الرماد وغير الحجارة » وذلك الفارس المديد الطويل الم يقل لفروة ان فرسانه لا يعجزون عن اذلال قيصر »

وقر في ذهن مارسيليوس ان يغيب احاديثه الهامسة في صدره فلا يحسر عنها مخافة ان يثير الشكوك القاتلة في نفس الرجل الذي حماه واجاره فسكت ولكنه لم يستطع اخفاء دموعه فبكى فلم يسمع بكاءه كريستيا الغارق في تأملاته وهواجسه

في المساء تهافت كريستيا على كتبه فقرأ الشاعر الاغريقي الذي فضله على شعراء الاغريق جميعا وذلك هو سفوكوليس الذي لم يفارقه لحظة واحدة في تلك العشيات العطرات التي سلخها عند حدور بيت صيدا على شواطيء بحيرة طبريا ، وكانت سافو لذلك العهد الذي تصرم تعيش بجواره بين تماثيله وتصاويره وكان يسألها في كثير من الرجاء ان تقرأ عليه اشعار سفوكوليس ، واحب هذه الاشعار الى نفسه ما كان متصلا بحياة اوديب الملك في مدينة كولون ، وما ينكر كريستيا ان مأساة اوديب كانت مأساة حياته ، وحيث قد ماثلت حظوظه وجدوده ، حظوظ اوديب وجدوده ، فقد كان لزاما عليه ان يترع لياليه الطوال في سلع باناشيد سفوكوليس فقرأ بعض هذه الاناشيد وغناها غناء شجيا واصغى مارسيليوس لغنائه في صمت والم ولما ادركه التعب الق بكتابه الى ناحية قريبة من سريره وقال لمارسيليوس انا

تعب ايها الصديق وقد نازعتني نفسي الى نوم شهي فلعلي ارى في الحلم صورة المرأة التي احببت ! صورة بنيامينا !

وللمرة الاولى جرى على فمه اسم بنيامينا عذبا نديا فرقت نفسه رقة لهـ‍ـمه ثم نهض ليلحق بفراشه وهو يوشك ان يتداعى من الاعياء والحزن فاحتمله مارسيليوس بين ذراعيه ، وقربه من سريره ، وقال له : نم فلعل احلامك في هذا المساء تجدد حياتك فترتد مرحا . فغامت عيناه وقال « يخيل الي ان عطرها عاد مالئا نفسي بل انني لموشك ان اسمع حفيف ثوبها وهو يتهدل على ثرى الخميلة في طبريا . . اواه من لي برجعة وشيكة الى ظلك الوارف ايها الحب الذي اطمأن الى عشياته الساجية تحت رؤس الشجر المترعة بالطل ... بنيامينا ، بنيامينا ...

وكان اسم الحبيبة الغالية شعراً بارعا ختم به كريستيا يقظته الراعبة فنام عـــلى سريره وجعل مارسيليوس ينظر الى وجهه الشاحب نظرة الشفيق الحادب

* * *

تتالت على مدينة الموت اسابيع مضت في خلالها الى توثيق محارسها واتراع حصونها بالجند وفي ذات صباح هب كريستيا مذعورا من سبـــاته فتسدر برداثه واقبل الى ناحية القصر فطرق بابه وســـأل رئيس الحرس عن سافو فقال له ان اخته في حجرتها وحدها وقد خرج فروة في هذه الفينة الى لقاء رسوله الذي عاد من جزيرة العرب فاجتاز كريستيا سلالم القصر المرمرية ليتحدث الى اخته عن حلم مضوجيع عرض له في امسيته الفارطة فلما دخل عليها الحجرة الفاها على الشرفة وقد شحب وجهها شحوبة لطفت من زهورته وروعته . فما ان سمعت خفق نعليه على مرمر القصر حتى تلفتت الى ناحيته فعرفته وقالت له اهذا انت ؟ كنت انتظر وفودك علي فما ابطأك فقال : — احزاني فقالت له : الا تزال حزينا فحنى رأسه واردف « انظري الى وجهي فماذا ترين فيه ؟ فزفرت وقالت سحابة من يأس لم يفارقك لونها الشاحب من زمن طفولتك ، قال صدقت فما زالت هذه

السحابة تظللني حتى لقد خفت ان ترافقني الى خاتمة المطاف ! قالت فما دعاك الى زيارتي في هذه الساعة قال : حلمي الممض الموجع ؛ قالت الا تزال تحلم ؟

فنظر اليها ناظرة يائسة وانثنى قائلا :

— اكنت تأملين ان تفارقني هواجسي؟ قالت ولكنني رجوت ان تلاقي في سلع ما يهدهد آلامك ، فاي حلم مريع ابتعثك على الخوف ؟ قال :

رأيت فيما يرى النائم كانني انظر الى صورة انسانة خرق ضياؤها ظلمة ماضي كما يخرق القمر سدفة الليل وكنت ساعة عرضت لي هذه الصورة البارعة انظر الى مغيب الشمس على شواطىء البوسفور من شرفة قصر ابي فوقفت في مكاني لا اجرؤ على فراقه مخافة ان تفلت الصورة البارعة من عيني . وكانت اشعة الشمس الحمراء تدغدغ وجهها الجميل فاطللت من الشرفة لعلني اتسرق نظراتها او لعلها تنظر الى ذهلي فتترق لي . ولكنني لم افعل لأني التفت الى نفسي فرأيتني في لباس قيصر وما يجمل بقيصر ان يرق رقة المحبين ، وما ينبغي له ان يذل ذلتهم ، ثم عصيت هواي وروضت من جماح نفسي واخذت انظر من عليا القصر الى البحر فاذا الشاطىء يطفح بالقوارب والزوارق ، واذا السحاب الرقيق قد عسعس حتى اوشك ان يزحم الارض ، ثم اقمر الليل فاصغيت فاذا طائر الحب قد ارف على الشاطىء وجعل الذين في الزوارق يغنون ويضحكون فزخر الشاطىء بالغناء والضحك ثم نظرت الى السماء فاذا هي في زرقة لم ار الى مثل صفائها في ماضي ففاحت نفسي وطفرت منها اماني في الحب فزهدت في حياة القصر واقبلت الى الشاطىء لالحق بالصورة التي تراءت لي ، وامزج غنائي بغناء الناس فبدا لي الشاطىء كأنه القفرة العارية فما يغرد في ارجائه مغرد . لقد رأيت في الصورة خيال فتاة تعسة قرأت عنها كثيراً في شعر سفوكوليس ، فلما حدقت اليها لم يفتني امرها فهي انتيغون ابنة ذلك التعس اوديب الذي لعنته الآلهة ومنعته ان يعيش في وطنه بين الناس ، لقد حسبتني الفتاة اللعوب اباها فارفأت الي وقالت لي ويدها تشير الى جمجمة ميت مطروحة علي

الشاطيء الجديب المقفر : الا تضع على رأسك هذا التاج الغالي يا ابي فقلت لها ولكني لست الرجل الذي هو ابوك ، فقهقهت وقالت في شيء كثير من العبث ولكنك ابي رضيت ام ابيت ! ثم رأيت الى وجهها الذي بدا رائعا فاذا هو قد تجون فاطرقت خشية ان ارى الى حزنها الهادم فلقد امرح نفسي والاعها ان بنفس هذه الساحرة الفاتنة شيئاً كثيرا من حزني ، وانني لمطرق اذا يدها قد ارتفعت الى رأسي فشعرت بثقله ثم علمت انها تبدلت تاجي بتلك الجمجمة المخيفة التي رأيتها على الاديم فصحت صيحة الميمة وفتحت عيني فاذا انا على فراشي في غيران سلع

جعل كريستيا يقص حلمه على سافو بصوت لمست فيه المرأة العاثرة الجد حياته الجائشة الثائرة ، فتوقعت ان ينبثق من هذا الحلم نوع جديد من الالم قد تعافه نفس كريستيا ولا تطيقه ورأت في الجمجمة التي اظلت رأسه نذيرا بخيبة آماله في الثار بدم ابيه . وآية ناطقة بعجزه عن الرجوع الى القسطنطينية رجعة الفاتح المنتصر ولكن سافو على الرغم من شعورها بعجزه عن مساوقة الابطال الغطاريف لم تشأ ان تزجيه الى اليأس فتكلفت الضحك وقالت له :

— لعلك قد قرأت في ليلتك شعرا لسفوكوليس فهاجت صوره القاتمة احلامك الخبيثة ! قال نعم اني قرأت قصة « اوديب في كولون » قبل ليال فهل تظنين هذه الصور الجسام التي اراقها الشاعر على مأساته قد علقت بنفسي ! فقالت :

— نصيحتي لك ان تجفو شعر هذا الشاعر اذ ليس ينبغي لك وانت في هذه الاماكن الزاخرة باناشيد القتال ان تردد شعرا قاله سفوكوليس في رجل لعنته السماء لانه قتل اباه وتزوج امه وكان ابا لاخوته واخواته ! لماذا لا تقرأ الياذة هوميروس يا كريستيا ! فهل لا يروقك شعر الملاحم وانت الفتى الذي نذر لامه ان يعيش عيشة الابطال المساعير الذين برع هوميروس في وصفهم وتصويرهم فقال ما كرهت شعرا لهوميروس ولكنه الفن الشاحب يريدني على مسايرة اوديب في تعاسته وآلامه

— ولكنك تسيء الى نفسك والى ذويك وتعرض ميراثك من مجد ابيك

للضياع فاذا كنت تظن في نفسك القدرة على انتزاع ملك ابيك من يدي هراقليوس بهذا السلاح الفاتر الذي لا تقره الرجولة فقد بلغت في ظنك مـــدى هو الجنون بعينه فما تجدي تصاوير سفوكوليس واشباحه الماثلة في مآسيه في قتال سيد الجحافل فمن الخير لنفسك اذا كانت ميولك ميول الرجل الفاتر ، لا ميول العبقري الثائر ان تجفو سلع الى مكان آخر ، فان بعلي قد ازمع الخروج الى قيصر بجيش لجب فلا يفيء الى معاقله ومحارسه الا باحد الخالدين ،نصر جني او موت سني ! وقد خيرني في البقاء هنا بين ذويه او الحق به فقلت له بل الحق بك ، وسافعل ذلك فانه لا ينبغي لامرأة زوجها من علمت ان لا تصانعه في احساسه ! قال فاين زوجك الآن ومالي لا اراه الى جانبك فقالت :

— خرج الى لقاء رسول كان بعث به الى بلاد العرب وقد عاد هذا الرسول بعد غياب طويل الامد حاملا الى فروة خبرا كان ينتظره على احر من الجمر وقد قال لي قبل خروجه انه منقلب الي وسيحدثني عن عمله ثم يخرج بجنده الى الى قتال قيصر ! .. كريستيا كريستيـــا ، ما نكرت عليك احلامك ولم اخالفك في نوازعك بل كنت اتتبع حياتك وراقب ما تغاير من خلقك وسجاياك ، فلا امنع نفسي من انتحال المعاذير لضعفك وفتورك فاذا كانت حيـــاتك في سلع لا تماثل حياتك على ضفاف الاردن ، فان ما وراء سلع جبالا وظلالا تمور بالالوان التي تشتاقها نفسك فانطلق اليها واقبس من حرارة اضوائها سنى جديدا تخلعه على حياتك فليس يهدهد نفسـا الاعها الهم الا ان تطل على افق جديد يمور بالالوان ويزخر بالاعراف ، في هذه الجبال التي تتراءى لك هضابها الشم غارقة في السحب ذلك الضوء الذي تحتاج الى دفئه فاذا قدر لك ان تنحدر عن هذه البواذخ البواسق بدت لك السهول الفيحاء واستفاضت امامك مماريع الارض فلا تشعر بالتياع ثم تمتد امامك الطرق الموصلة الى الاردن فاذا كنت لا تزال ذلك الشاعر الذي تسترقه زرقة السماء وزرقة الماء فامض الى هذا النهر وافتح روحك لبهائه ! ..

لقد كانت تتكلم بلهجة يخالطها جد كثير فلما تحدثت اليه عن الاردن ذكر منفى نفتالي على ساحل البحر الميت ، وذكر بنيامينا التي ابت الا ان تصحب اباهـــا الشريد الطريد الى صخور المنفى في ارض مواب فقال لسافو :

— اتقولين الاردن ؟

فنظرت اليه فاذا عيناه سادرتان فقالت له في خوف شديد :

— نعم ! قال :

— اتعلمين ان بنيامينا تعيش اليوم على جدة البحر الميت بجوار الاردن قالت اعلم ذلك ، وقد اردتك على الذهاب الى هذه الاماكن لعلك ترى الى بنيامينا فينسيك خيالها وحبها هذا الالم الذي تحسه في مدينة المقابر ، وذلك افضل من ظهورك في الناس في مظهر لايشرفك ! اذهب فاني راضية عن ذهابك ، وسيرضى مارسيليوس كذلك . فاذا سألني زوجي عنك فسأقول له انك مضيت الى ايلياء لتتعرف امور قيصر الرومان !

وهل تقصين عليه الكذب ؟

— ولكنه كذب سائغ ، وهو الى ذلك كذب يبرره هذا الهوى الشديد الذي يتجاذبك وانت في سلع !

— ولكني لا افعل ! وما انا بالرجل الذي يريدك على ان تخدعي رجـــلا شريفا كفروة ...

— اذن فماذا انت صانع ؟

— سالبث هنا بجانب مارسيليوس فلا افارقه حتى يتسـق النصر لزوجك او يغلبه قيصر على امره ، فاذا غلبه قيصر غمست يدي في دمي ! ..

— بل اغمس يدك في دم قيصر فانه كما علمت قاتل ابيك موريس قيصر الرومان

فسكت ولم يجب وجعل يستعرض حلم الليلة الفائتة . ذلك الحلم الراعب الذي حكاه لسافو ، وما كان ليحتاج الى كاهن يفسر رؤياه ، فلقد اغنته احاديث سافو عن التفسير والتعبير فوثق بضياع آماله . في الذهاب الى القسطنطينية ليرث ملك ابيه وفي تلك الفينة دخل فروة بن عمرو بلباس الحرب الى الحجرة ، فما انردد نظراته في

الاخوين ، حتى فطن الى حيرتهما . فتوهم امرأته جازعة عليه ، فرق وقال لها بعد ان حيا كريستيا :

— الا تزالين في خوف علي ؟ فلم تنبس فاخذ يدها في يده وانثنى قائلا

— ان يدك باردة كالصقيع ! فسقطت من عينها دمعة على يده فشجي وقال لكريستيا انها لاتبرح قلقة على مصيري ، فيالضعف النساء ! ثم تبسم وقال لسافو

— لقد باركني النبي الذي ولد في صحراء الوطن باسافو ، وحمل الى دعاءه رسولي الذي كنت بعثته اليه ، واصحبته بهداياي ، اني ما نكرت عليك ان تخافي ولكن ينبغي لك ان تطمئني الى غدي ، فان النبي قد احفظه ان يقتل رسوله عمير بن الحارث الازدي ، فازمع على الثأر بدمه ودعا شباب العرب الى الخروج الى الشام افلا يبهجك ان ينسجم هذا الجيش الذي رأيته في سلع ، في جيش بارك الويته الرجل المقدس الذي اراده الله على خلاص هذه الارض التي تئن من ظلم قيصر ؟

قالت انك لتثير كبريائي ، وتبعث في نفسي احســـــاس المرأة التي تحب في زوجها وفاءه للحب وولعه بالمجد ! نعم لقد رأيتني ساعة دخلت علي عانية قلقة ، وما كان ذلك لانك ازمعت قتال عدوك العظيم ، فاني لواثقة بقدرتك على اجتناء النصر ، ولكن الحياة في سلع لاتروق الرجل النبيغ ، وكريستيا ذلك الرجل النبيغ الذي يشاطرك ولعك بالمجد ، ويقاسمك حبك الشهرة . . .

لقد دخل علي منذ هنيهة فغمني ان بصورته شيئا كثيرا من الالم فسألته مابه فقال لي انه كره البقاء في سلع بين المقابر وانه الى ذلك يحب ان يخرج معك الى افق جديد يمور باصداء الشهرة ! فضحك فروة وقال ، ان كريستيا لعلى حق ، فان المقام بسلع لايحقق شهواته في المجد ! اي صاحبي ، لامندحة لنا عن التريث الى اليوم الذي يصل فيه الى هذه الاطراف اصدقاء لنا في جزيرة العرب وفي بادية العراق !

وكان الفرح العظيم يبين على وجه فروة فطفق يتحدث الى الاخوين عن عمرو بن معدي كرب حتى استجاشت احاديثه سافو فالقت نفسها بين ذراعيه وقالت له لقد قلت لك اكثر من مرة ان المجد والعطر هما كل ماتحبه المرأة في هذا العالم . فقبلها في جبينها قبلة حارة

الفصل التاسع

على ذرى جبل هارون

بعد اسبوع طاف فروة ومعه مارسيليوس باحياء سلع فابتعث الشيوخ والنساء والاطفال على الخروج بمواشيهم وابلهم الى وادي العربة جريا على سنن قومه في اليوم العصيب المكفهر ، وقد كان المشهد مؤثرا شجيا ، فان هؤلاء الشيوخ الذين واروا احبتهم في بلاقع سلع ما كانوا يأملون اكثر من ان تحتويهم قبور الاجداد ولكن ارادة الزعيم الغطريف ، وهي ارادة الوطن الذبيح الشهيد ، قد لطفت في نفوس الشيوخ هذه الهجرة التي حملوا عليها ، فلما مرت مواكبهم بالملعب الروماني ورأوا فروة على الدكة العالية في الملعب بملابس الحرب ، فتنهم جماله واخذتهم حميته وأثر في نفوسهم ان تلتف به عصائب من الشباب لا يزيد عمر صغيرهم على خمس عشرة سنة ، فمسحوا دموعهم الهاملة ، وزرفوا بنسائهم واولادهم الى ناحية الزعيم الغطريف فحيوه فاحسنوا التحية ، فشاطرهم هذا الوداد الصحيح ، واقبل عليهم يهدهد الآمهم بلغة حببت اليهم البقاء في سلع بجوار عرينه ، فاما ان يقاسموه وهم قريبون منه جنى النصر ، او يموتوا الموتة السامية التي تخيرها لنفسه ولصحبه من الشباب فلا يفوتهم في الحالين شرف الدفاع عن الوطن وشرف الموت في سبيله ولكن فروة وهو سيد شباب جيله وفتى قومه ما احب للشيوخ الضعاف هذا الغسق الفاحم الذي استعذى الغرق في زواخره ، فلما قال له احدهم ان اباءنا كانوا يتبركون بالشيوخ ، ويخرجون بهم الى قتال العدو شرقت نفسه بالدمع وقال لهؤلاء الذين شخصوا اليه بابصارهم وفتحوا له صدورهم وصدور نسائهم واطفالهم ان صورة الوطن في ماضيه الرائع ماثلة في صدره فهو يقاسمهم رأيهم في ان الاوائل كانوا يتبركون بذوي الشعور البيض ، فلا يمنع شيخ او امرأة من الخروج الى سوح

الوغى ، وقد حدث هذا في زمن كان العدو يعف فيه عن تقتيل الشيوخ وتذبيح النساء ! ولكن عدو اليوم لا يشبه عدو الامس ، وسلع في حالها الحاضر ، لا تماثل سلع في حالها الغابر ، وان من ايسر الامور على هراقليوس وهو عدو الوطن وعدو حريته ان يشرع في قتل النساء ، ثم هو يمضي الى قتل الشيوخ ، ولا يأنف ان يغمس يده في دماء الاطفال ! فماذا ينتظر شيوخ سلع من قيصر اذا اتسق له النصر وجعل من ارض الوطن قبرا لحريته ، اتظنونه يصفح عنكم ويستبقي دماءكم ويترككم حقولكم وجناتكم وهذه المواشي التي تعيشون من البانهـــا عيشة السلف الماضي ! لا والله ما كان هراقليوس ذلك الرجل الذي تظنونه وتتمثلونه فلقد اجتمعت في قيصر هذا الذي بسط ظله عليكم سلائق الرومان الذين استعبدوا وطنكم في عمره الاول

وبعد فانكم لا تتركون وطنا قريبا الى وطن غير قريب ، وانما تتركون جزءا من الوطن سليبا ، الى جزء من الوطن غير سليب ، فاذا وارتكم في عشية هذا اليوم قنن جبل هارون الرفيعة ، واظلتكم السحب الوردية ، فستنزلون في غدكم المقبل سهول وادي العربة وترون على حضيض الوادي تلك الينابيع الهادرة التي يردها اخوان لكم في جزيرة العرب ، فلا تفوتـكم وقد اظلـــكم الجبل الشاهق ، واحتواكم السهل العابق . صورة الوطن الذي تحبون وتكرمون !

انها لهجرة قصيرة العمر ، ثم تفيئون بعدها الى منازلكم على اناشيد الكماة وصليل ابواق النصر ، وخفق الاعلام ، ثم تنظرون الى الارض التي كانت تضيق بكم قبل مولد محمد فترون اليها وقد تفاوحت عرضا وطولا حتى ليوشك البصر ان يضيع في مداها الفريغ ، وحتى ليخيل الى رآئيها انها دنيا الناس جميعا !

خرج محمد مهاجراً الى يثرب ومعه بؤس الذين آمنوا برسالته ، ونزح اصحابه الى الحبشة ومعهم حظوظهم وتعاستهم ، ولكن هذه الجزيرة العربية التي تنـكرت لليتيم المغترب ما لبثت ان اجتمعت اليه في يثرب ، لتكون في حاشيته وموكبه ، وتصحبه في غده المأمول الى ارض الروم والفرس ، وتلك الطائفة التي قاسمته آلام

البعد ، ومناكد الاغتراب ، وركبت البحر الى وطن الاحباش فرارا من القتل والتحريق عادت اليوم الى مآلف الطفولة ، لتعيش في وطن هذبه الالم وصقله الروع ، وتشترك في عرس الحرية وهو عرسكم وعرس ابنائكم من بعد .

ان الشمس لاتشرق دائماً في افق عالم يمور بالسعادة ، وتمنع نورها الافق الذي تعيشون في فيئه ، بل هي ستشرق في منازلكم اشراقها في نفوسكم وسترون على ضوئها طرق العالم كله ، ثم لاتلبث هذه الطرق ان تجيش باصواتكم واغانيكم !

لقد عبث القياصرة باحزان هذا الوطن وسخروا من آلامه : ولم ترق قلوبهم مآسيه واوجاعه ، فكلما رأوه باكيا ملتاعا اسرفوا في ترويعه وتنكيده . وذلك لان دموع المغلوب لا تطفىء نار البغض في صدر العدو الغالب ، ولقد وجد القياصرة في اتضاع وطنكم الصغير وفي فقره وذله مشهداً يتلذذون بالنظر اليه فدأبوا في عبثهم به ، واي وطن هذا الذي كان لا بائكم ثم انتهى اليكم انه لا يعدو اخاديد ملتوية في ارض غبراء تظلها جبال سمراء ، وتلتف بها صحراء غطشاء ، وتنتشر في اطرافها الفيح اسراب من المعز الشاردة والابل النافرة ، ومن خلفها رعاة حفيت اقدامهم من فرط الصعود والهبوط ، وجاعت نفوسهم لأن وطنهم ظل خليا من الثمرات التي تضحك على رءوس الشجر عند الينابيع الهادرة في غوطة دمشق او حيال الشواطيء الساحرة في دجلة والفرات . وماذا يعمل هؤلاء الرعاة الا ان يضلوا السير في المفازات البعيدة ، او في الاودية الهاوية او في الحزون التي تعصف برياح العشي ؟ ان هؤلاء التعساء الذين محلت نفوسهم محل هذه الارض لا يعيشون عيشة الناس في المدن الرخية الظل ، فحسبهم من هذه الرمال التي تغرقهم في اسدافها ان يفتحوا صدورهم لزئير السباع الضارية ، ولتسجيع الطير ، ثم لثغاء الماشية . ولعواء الذئب في الليلة المدجان بينما الناس في المدن الزهراء يفتحون صدورهم لاناشيد الحياة واناشيد الحب ، ثم لاناشيد المجد ...

وقد جاء الزمن الذي يستريح فيه الوطن من طوافه الناصب برمال الصحارى ، فلا بؤس بعد هذا اليوم ولا تعاسة ، ولا يأس ، ولا شرود ، وما انا بالرجل الذي يزين لكم الكذب ويخلع عليه رواء الصدق ، فان يتيم قريش قد استمع في غار حراء الى صوت ربه ، وسيخرج على هذا الصوت الاقدس الى المدن ويخرج معه عربي الصحراء بجيش من الكماة لا بجيش من الرعاة ، وسيمشي هؤلاء جميعاً في الارض العارشة لا في الارض الغابشة ، ثم يفتح هؤلاء صدورهم لا ناشيد الحرية واناشيد الحياة ، ثم لاناشيد المجد ، ثم لاناشيد الحب ،

هذا هو امركم الجديد ، في زمنكم الجديد ، وعدكم سيد قريش بملك كسرى وقيصر ، وهو اصدق الناس وعدا ، واطيبهم حديثا فينبغي لكم ياشيوخ سلح ان تطمئنوا الى وعد رسول الله فانه وعد الله ، ولا يخلف الله وعده !

بهرت حماسة فروة بن عمرو الجذامي شيوخ قومه ، فتباروا في تقبيل يده وهم الذين افنوا العمر في اكبار هذا الوطن واجلال شأنه ، فـكرمهم الوطن واثابهم على اخلاصهم له في مآسيه الجاهمة ، وبرهم به في احداثه القاتمة ، ولما اراد فروة ان يمنعهم تقبيل يده اورق الالم في نفوسهم واخضل الدمع في عيونهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد

دعنا ايها الجذامي نقبل يداً باركها يتيم قريش ورسول الله ! . . .

وقال كبيرهم لقد رضينا هذا الذي اخترته لنا ايها الزعيم الاصيل ، وما كان لواحد منا ان يرفض امرأ احبه رسول الله لنفسه ثم لصحابه الذين هاجروا معه !

فصاح فروة « ايها الناس لقد وسعنا هذا الوطن ووسع افراحنا واتراحنا فعشنا على ربواته وهضابه وفي محارسه الواسعة عيشة الطير الاليف في وكره الوادع ولكن هذه النسور الكواسر التي تحلق في سمائه لم يرقها ان نطمئن الى مآ لف الطفولة فجاءت تترع اوكارنا الهادئة باصوات لا نستسيغها ولا نألفها ! فما ينبغي لنا ان نعمل لنحمل العدو على اكبار امانينا في الحرية ، لقد كانت احب المنى الى نفوسنا

ان يخصب السلم هذه الارض الوادعة فننطلق الى زراعة حقولنا وتثميرها وتتوفر على انماء فنوننا وادابنا فانى العدو هذا الذي اردناه ومضى ينشر ظله على الارض المقدسة التي احتضنت عظام الاباء والاجداد !

ان ايسر ما يفعله شعب كريم المنبت ، ان يستبسل في الدفاع عن محارسه حتى يموت تحت انقاض الوطن ، او يبتسم له النصر فيرفع اعلام حريته على الربا الشم !

حينما يتاح لي ان اخلو الى نفسي في ليلة طامسة تراكم على حواشيها سيل راعب من سحب باردة اجدني مسوقا الى الطواف بماضي ابائي . فاذا اوغلت في طوافي وتعرفت الى صورة الوطن في غابره الداثر . لم تفتني في هذه الصورة جهمة مريعة تظلل جبال الوطن وتطفو خيالاتها على سهوله وشطآنه ، ثم ارتد الى نفسي فارى الها تمور بالصخب ذلك لأن هذا الخافق الملتاع الذي هو قلبي قد اسمعني همسه المؤلم في الليل الذي امتريه وقال لي في غير رياء ولا تصنع « رويدك ايها التعس ، فماذا عسى ان تجد في هذه الصورة الموحشة التي تنظر اليها ؟ ان وطنا تبحث عنه في دياجر الماضي لم يبعث بعد »

نعم ان وطننا لم يبعث بعد ، وما زالت فصول الحيـــاة تتوالى فلا نفطن الى الربيع المونق ، ولا الى الصيف اللذ ولـكن نفوسنا تهفو الى الخريف الوجيع ولا تعاف النظر الى الشتاء المريع لأنها صورة التعاسة التي صحبت الوطن في عمره الاول !

ان هذه التعاسة التي نخافها كلما نظرنا الى مشاهدها العالية . كانت تقول لنا في بيانها الرائق ان شعبا ينزع الى توثيق حريته ، وتكبير مطامعه ، وتحقيق شهواته ، لن يبلغ امانيه في المجد الا اذا وطيء جثة شعب آخر

لم تفتني هذه الحقيقة البارعة ، وقد جاء الزمن الذي نحصد فيه حصادنا الشهي من الحرية فاذا وطيء الاجنبي جثة هذا الشعب العربي لم يخجل ابناؤنا من موت كريم واذا وطئت اقدامنا جثة العدو خلعنا على ارثنا القديم من المجد رواء ميراثنـــــا الجديد من الحرية !

لم يبق في مدينة المقابر غير الذين ارادهم فروة على اللياذ بالحصون والقلاع من شباب قومه ، فلقد خرج الشيوخ والنساء والاطفال الى الجبال والصحارى المجاورة فصحبهم في هذه الهجرة احراس من لخم وجذام فلما اسدف الليل ونشر ذوائبه السود على الجبال تراءت اشباح المهاجرين على القنن الرفيعة كأنها السحب . في تلك الاثناء وقف فروة بن عمرو على شرفة القصر الى جانب سافو العانية الذاهلة وطفق برها القمر في حاشيته المضيئة وقد شجيت نفسه شجواً اليماً ثم قال لها في خفوت وهمس :

ــ الآن اصبح في وسعك ان تحدثيني عن الحب ، ولكن سافو لم تتكلم فنظر اليها فاذا عيناها غائمتان ، وقد تألقت في جبينها سحابة من الالم رقيقة فبدا وجهها زاهيا مضيئا ، كأن هذا الحزن الذي غشيها قد ابتعثها على الهدوء . فزهر وجهها زهورة رائعة فقال لها نزلة اخرى :

ــ لماذا لا تحدثيني عن الحب ، الا تشعرين في هذا الليل بافراح الحياة ؟ الا تعلمين ان من احب اماني ان انقل الى سمعي الفاظك الرقيقه ، وصوتك الساحر ، ونظراتك العذبة وهذا الضياء الذي يخطف على جبينك ؛ اي غنم تجدينه في سكوت ممض موجع ؟ تعالي الى صدري واسمعيني جرسك فلقد تورق صحراء حياتي اذا ندتها اغانيك الشجية ! ...

تكلمي ؛ حدثيني عن الحب فاني وهبت لك في هذه الليلة قلبي واذني وعيني وهذا الاحساس الشديد العنيف الذي يغمر نفسي ثم اجتذبهــــا الى صدره فاستخذت له وجعل يتجسس لدونة جسمهــــا الرخص من خلال الغلالة الرقيقة فتسرب الى صدره طيب انفاسها ، وهذا الطيب الذي اراقته على شعرها المرسل فاسكره شــــذا روحها ،كما اسكره شذا الزهر ، ولكنه لم يستطع ان يبتعثها على الغناء ، فلقد كانت خيالات الضنى والخوف تخطف على وجهها فروعه هذا الذي بنفسها من الم وحزن فقال لها :

ــ واحزناه ، فاني ما فكرت في سعادتي الا في هذا الليل الذي حبسته على التعاسة

ولم اسألك متع الحب وشهواته ، الا ساعة اجدبت نفسك من متع الحب وشهواته ولم اردك على الغناء الا يوم ماتت في صدرك النغمات العذاب ! لقد كان ينبغي لي ان لا اوقظ ريبة صدرك فان رجلا مثلي عاش في هذا الصخر الواعر الذي لا تتسرب اليه اشعة الشمس الا من خلال القنن الرفيعة لا يجمل به ان يتحدث عن الهوى وعن القبل ، لأنه لا يعرف الحب ولا يطمئن الى وداعته ولينه

وللمرة الاولى جعل الرجل الذي لم يعرف البكاء في حياته يغسل وجه الحبيبة الغالية بدموعه ، فشعرت سافو بندى هذه الدموع فرعشت نفسها من فرح وانسة وقالت له :

ـــ انك لتحبني وقد اضاء الحب بعض نواحي قلبك ، ولكن سنى المجد وحده هو الذي يضيء حياتك !

ـــ سافو ...

ـــ سيدي البطل ، انظر اليك فلا يفوتني في عينيك أثر الحب ، وانظر الى ما يخفيه ثوبك فارى الى ذلك القبس الذي يطوف بنواحي قلبك ! وقد وددت كثيراً لو انني استطيع البقاء حيالك ، فمنعتني هذه الامنية وتدفقت في فراقك ، ومع هذا كله لم احس نفوراً ولا يزال حي على صفائه ورونقه ، كأنما قد ولد في هذه الليلة التي جئت تسألني فيها اول قبلة ...

ـــ اذن فانت مازلت تحبينني

ـــ احبك ، احبك ، ومـــا يردني عن هذا الحب الذي احسسته ولذذته برد الليلة الغبشاء ولا الرياح الهوج تعصف بنواحي الفضاء ، ولا زئير الرمال في البادية الغلفاء ، وذلك لأن قلبي الضعيف يحمل في حناياه ربيعين اثنين ، ربيع حبك الذي نضر شبابي ، وربيع مجدك الذي لطف عذابي ..

ـــ ان ليالي الشتاء لتوشك ان تغمر حياتنا في سلم . فاذا خلعت ظلها الشاحب على الجبال والحدور والقت ثلجها وقرها على حياط القصر فسوف اعتزل الناس

وافيء الى حجرتك وابادلك حبي الصحيح ثم نتصلى النار معا فلا نشكو ثلجا او قرا افلا يلذك في هذه العزلة الهانئة التي آوى الحب اليها اناقص عليك احاديث القلب!

— والمجد هذا الصديق الذي لا يفارقك طيفه لا في لياليك الصــــائفة ولا في لياليك الشاتية ! ماذا عساك ان تفعل به ؟

— اقاسمك اياه ولا امنعك بعض مناه !

— لقد قبلت قسمتك ، ورضيت بنصيبي من اوجاع الهوى ، ومتاعب العلى

— اذن ناشدتك الله ان تسمعيني لذيذ النغم فلعلني اذا لذذت جرسك العذب افيء الى المجد الذي علقته واحببته فانقل اليه اغاريدك ممزوجة بصفاء روحك ثم اقول لطيفه الجاثم على صدري ويحك الا ترى الى منافسك النبيغ انه لا يسير في موكبك الرائع ، ولا يتفيأ ظل اعلامك ولا ينصت الى غناء فرسانك ولكنه على زهده في هذا الفتون الذي خلعته على حياتك ايهـــا المجد يعيش في موكب مضيء عناصره هذا الليل المديد ، وهذه النجوم الزواهر . وهذا القلب الذي يميـــد ، ثم هاتان العينان الساهدتان ، وهذا الالم اللذيذ الذي احسه ، اسم هذا المنافس النبيغ الحب ! وان بهذا الاسم لرقة لا تعرفها انت الذي ولد في غســـق الملاحم ، وغنى اناشيد الحرب !

غني ياسافو فلقد يسمع المجد غناءك فيمشي اليك مختفيا تاركا روائعه وزخارفه على وصيد الباب !

لقد غنته سافو غناء يحبه فاستجاشه الغناء الى البكاء فقال لها شاجنا كانني في هذه الليلة قد حبوت الى طفولتي ، فترقرقت احلامها العطرات في كل جارحة من جوارحي حتى لتوشك هذه الاحلام التي رفت على نفسي ساعة اسمعتني غناءك ان تنسيني عمراً طويلا حبسته على المجد . فقالت له بلغة عذبة يتفاوح منها حزن نفسها :

في هذه الليلة وهبت لك افراحي ومناعمي وشبـــابي واناشيدي ، ثم احتبس صوتها واشتمل عليها حزن بليغ فاحتملها فروة بين ذراعيه وجاء بها الى سريره فوضعها

على الفراش الناعم وجلس الى جانبها ينظر الى عينيها المغمضتين في كثير من الألم

والمرة الاولى جعل يفكر في مستقبل هذا الحب الذي لم يفكر في حلاوته ونقائه في ايامه المواضي فهمه ان ينشب صراع بين الهوى الساذج الذي لا يزال طفلا وبين المجد الذي لم يألف السذاجة ولم يعرف الطفولة، ثم نازعته نفسه الى الحياة الهادئة. حياة الهوى والقبل والعطر، ولما اشتد به الحنين الى الحياة الرقيقة التي ندت عنه في لياليه السالفة تهافت على سافو في سريرها ففتحت عينيها فسمعته يهمس :

لماذا لا اهب للحب نفسي وعقلي واحساسي وقد وهبت هذا كله للمجد ؛ ولماذا لا اعيش الى نهاية العمر حيال هذه المرأة التي آثرتني على الناس جميعا. انها لي فما ينبغي للمجد ان يسلبنيها ويلقي بها الى النسيان ! ثم نهض على قدميه والتف في ردائه ومشى الى ناحية الشرفة لينظر الى سلع ويقول للفتيان الذين ارادهم على اللياذ بالحصون ان المجد الذي ولد معه في المهد قد اطفأ الحب شعلته فلا يضيء في نفسه بعد هذه الليلة، ولقد هم اكثر من مرة ان يفتح فمه ويتكلم لأن سيلا جارفا من الفاظ مبهمة غامضة قد اجتاح صدره، فكاد يقول لشباب قومه ، لقد طويت سؤددي فما انا بحاجة بعد هذه الليلة الى المجد ولا الى الوطن ولا الى التاريخ الذي يقص علينا آلام هذه الارض التي فيأت الاباء والاجداد ! فحسب هذه الاشباح القاتمة التي صحبتني من مهدي الى ليلتي هذه انها لعبت بي وضحكت علي !

ولكن مقابر سلع كانت تاريخ الوطن في غابره البعيد، وكانت صورة آلامه واحزانه في حاضره الجديد، فلما هم بالحديث عن زهده في المجد حفا البرق على الرواميس المنحوتة في الصخور، فاستبانت الطرق ورأى فروة الى ذلك الراموس الذي لا يزال نديا بعرف ذلك الرسول الشهيد الذي قتله شرحبيل بن عمرو الغساني لأنه حمل رسالة سيد قريش الى غسان، فطافت بنفسه صورة الدم الطليل وغبت عليه الحمى فابأس ثم عبرت عينه واستحيا من اوهامه فصاح صيحة مادت لها نفس سافو

— كلا ، كلا لا تصدق ايها المجد ، فاني ما زلت ذلك الرفيق النجي الذي اخترته لاسفارك ورحلاتك !

ثم تمثل يثرب ، وتمثل النبي الذي باركه فاخذ سافو بين ذراعيه وقال لها وهو يهدهد احزانها واوجاعها

— ساجمع بين وجدي ومجدي ايتها الغالية

وفي تلك الفينة تعالى صوت البوق في برج سلع فمسح عبرته وانثنى هامساً :

— هذا هو صوتك ايها المجد ، فياله صوتا طوى في ندائه العاصف كل اغاني الحب ..

الفصل العاشر

في الطريق الى ايلياء

نفتالي ، ومن لا يعرف قصة الرجل التعس الذي ارادهقيصر وارادته البطريرك على ان يقضي حياته في المنفى الراعب على جدة البحر العبوس المكفهر في وطن السادوميين والعموريين

في بكور يوم بهي من ايام شهر حزيران سنة ثمان وعشرين وستمائة لميلاد السيد المسيح خرج نفتالي من منفاه الاغبر الى اريحا فاستقبلته ارضها اللفاء قبل بزوغ الشمس واظلته ادواحها الرخية ، ونازعته نفسه التعبة الى الوقوف على باب المدينة ليستريح من طوافه الناصب ورحلته الجاهدة ثم يستأنف سيره الى المدينة ويرقى جبل الاربعين ويصلي في البيعة المتواضعة التي بناها احبار النصرانية في القرن الرابع تخليداً لذكرى اربعين يوما سلخها الناصري الرحيم في تأملاته وسبحه

واخذت عيناه ساعة جلسَ الى المقعد على باب المدينـــة تنظران الى الارض الكابية التي خلفهـــا وراءه ، وفي هذه الارض التي لا تعرف الحب والحب منزله الوادع وابنته الغالية وامانيه الجسام ، فلما عرضت له تلك الطرق التي تدفع الى مثواه رعش وتمايد وجاشت نفسه بشعور الرحمة فذكر ذلك المنزل المتهدم الذي احتواه واحتوى ابنته ، وراح يذكر تلك الفتاة العانية التي شاطرته آلامه وتباريحه وقد تركها نائمة في فراشها ولم يشأ ابتعاثها على الخروج معه الى اريحا فاشجاه الذكر فحنى رأسه وتخافت بصوته « لاصلين من اجلك في البيعة المتواضعة صلاة الاب المروع وافيء اليك بالشذا الذكي الذي تحتاجين اليه ثم شحب وجهه فسكت واخذ ينظر الى اريحا من خلال الشجر الباسق فبدت له طرقها ومساربها وجناتها وترامت لعينيه الهامدتين الخامدتين طلولها وقصورها وبيعها ، فاحتبى بردائه وارتفق عصاه

وتدفق الى المدينة ورأى في طريقه اعراب البوادي يرعون الابل في المراعي الخصبة الظليلة فعزف عنهم ولم يسألهم عن موردهم ومصدرهم وذلك لأنه جعل غايه غاياته في العمر الذي حبسه على الالم الا يعرف الناس من امره ما لا يحب ان يعرفه من امورهم وهكذا تظل حياته وديعة نفسه ، حتى يجيء الموت فيواريه في سدفته من غير ان يعرف الناس شيئاً من ماضي الرجل الذي حمله قيصر الرومـــان جريمة العبث بتصاوير الاولياء والصالحين

وكان نفتالي يجد في حياة اريحا جهمة تماثل جهمة حيـــاته ، فاحبها زلفى لهذا التساوق وجعل يختلف اليها بين حين وآخر ليرى الى طلولها الدوارس ويقارن بين شحوبها وشحوب نفسه ، فلقد كانت اريحا في عصر من عصور الوثنية معاذ الاشراف والنبلاء في فصل الشتاء فاترعوها بالقصور والصروح والهياكل ثم لم تلبث هـذه المدينة التي فجر ادريان قيصر في بطحائها الماء واساله في الاقنية والصهاريج انعفت وبادت وتداعت اسوارها وهياكلها على صليل الابواق المقدسة التي نفخ فيها الرسل ثم استأنفت حياتها وولد فيها ايليا النبي فكانت مهد الانبياء والرسل ، ولما تعاقب القياصرة عليها لم يمتنع انطونيوس قائد الرومان من اهدائها الى خليلته كليوباطرة ، فباعتها هذه لهرودس ملك اليهودية ، فانشأ فيها القصور والصروح وزين حياطها بالزخارف . فظل امرها فتنة الى اليوم الذي اجتاح فيه فاسبين بلاد الشام فقوض مبانيها وطمس آثارها ، وفي القرن السادس جددت بزنطية رواءها وجعلتها داراً لاسقف ولكن المدينة التي ضم ترابها عظام النبيين والرسل لم تسترجع مجدها الماضي

كان نفتالي يقول لابنته كلما تحدث اليها عن الرومان « لم احبب اريحا هذا الحب الذي احسه الا لأنها صورة حياتي التعسة ، فكانت تسأله ان يمضي بها اليها لعلها تقاسمه بعض احساسه فلا يجيبها الى سؤلها وذلك لأنه كان يخاف عليها من هراقليوس الذي خرج الى ايلياء باحراسه وجنده

لم يلبث نفتالي في اريحا طويلا فعافهـا وارتقى ذرى جبل الاربعين ودخل الى

البيعة الصغيرة فقضى فيها صلاته وسأل الله الذي جعل من اريحا جنة عدن بجوار الصحراء الغلفاء ان يغسل جراحاته ويلطف آلامه ، ثم فارق البيعة من غير ان يفطن الناس الى حزنه البادي او يسألوا عن امره من الذين تنادوا الى الصلاة في هذا البكور البهي

وكان لا معدى له عن الرجوع الى وكره ليلحق بابنته بنيامينا وقد خلفها على شاطىء البحر الميت في منزل مهدم تحت سماء تمور بدفء شديد . فلما اوغل في سيره وبلغ الهضبة الشماء بجوار اريحا اخذ ينظر الى الافق البعيد كأنما هو يريد ان يرى الى ايلياء التي رق لها منذ اوفى بنذره في البيعة القائمة على ذرى جبل الاربعين ولكن المدينة المقدسة لم تبن للمنفي الطريد فلقد وارتها قنن جبل الزيتون الرفيعة ، وحجبتها سحبه وغيومه . فغمه الا يراها واتجاه الا ينظر الى قيصر في موكبه ليلعنه عن بعد ويثأر بجراحه منه

ثم جعل يتدفق في سيره حتى اشرف على صخرة منعزلة يتفجر الماء من شقوقها فركع على قدميه واهوى برأسه وهو الرجل الحائم الى الماء السائل فشرب منه ولم يرعه ان يحول الماء حيولا شديداً وبعد قليل جمع نفسه واخذ عصاه واستأنف سيره في حقول تطفح بالزروع والافياء فما استوقفه الظل المديد في الارض العارشة ولا ثنته عن منازعه طوائف النبات والزهر ، فلقد كان من احب امانيه ان يستريح الى مثواه ويجتمع الى ابنته فيتحدث اليها وتتحدث اليه ثم يخرج معها الى شواطىء البحر الميت ويلتقط القار والصرفان من سائله اللاهب

وكانت مأساة حياته قد صقلت رجولته وهذبت احساسه ولطفت سلائقه وحببت اليه مقارعة المتاعب ، فما يبالي ان يجتاز هذه الاماكن التي تفصل بين اريحا وبين الارض الواطئة التي عليها البحر الميت ونهر الاردن ، فمر بمغاور متشابكة واودية مبعثرة وفي نفسه التي اماتها الالم الشديد العنيف صورة ابنته الغالية وعلى شفتيه المشوهتين اثر من صلاته ودعائه

وجعل نفتالي ينحدر فما يبالي ان يدأب في انحداره حتى اوفى على ارض غبراء شديدة الانخفاض فاحتوته بين ذراعيها فاوغل في سيره واخذته اعالي جبال مواب ما وراء البحر الميت فخالها جد دانية منه فتطامن الى وهمه فاسرع اليها فنأت عنه وامعنت في فرارها منه كأنما هي لمع سراب في المكان النزيح البعيد ، وكانت السحب الربداء قد تجمعت على القلل العالية واخذت الشمس تريق اشعتها البيض على السحب السود فما فرق نفتالي من هذه الجهة فاجتاز بعض الطريق وبدت له خيام الاعراب ورأى الى الابل تسرح في الفضـــاء الفسيح ، فترفق في مشيته وحسر عن صدره وتنشق الهواء حاراً ، ثم واصل طوافه متنحيا ناحية ذلك البحر الراعب الذي وارت بعضه هوات غائرة شديدة التعتيم

وظلت الجبال تتضاءل امامه وتزاوق الى الارض الواطئة التي ينام عليها ذلك البحر الراعب حتى اخذته من بعيد اضواء حمراء بلون الدهان فخفق قلبه لمشهدها ورق لها فخف اليها وهو يهمس :

ــ لقد دعوت الله لك ولنفسي ، ثم لذلك الفتى كريستيا الذي علقته وخلفته في سلع ، ولما استفاض اسم كريستيا على شفتيه المصوحتين الذابلتين طافت بنفسه ذكر الماضي فتمثل الليلة المخوفة التي امضاها على شاطيء طبريا المورق وطرقته خيالة النار التي اجتاحت الحياط والجدر في قصر بنيامينا فاومض بيده الى الطرق المؤدية الى ايلياء ولعن قيصر لعناً شديداً !

ولم تذهله هذه الذكريات البعيدة التي اورقت في نفسه واورق الألم معها عن هذا العالم الراعب الذي وطيء ارضه فكانت خيالات الجبال الراعبة لا تفارقه انى ذهب وكيف تلفت ، ولو ان رجلا غيره طاف بهذه الاماكن ورأى الى ما رأى لمادت نفسه من ذعر ويأس ولكن نفتالي قد اعتاد السياحة في هذه الاطراف فهو لا يجفوها في مسائه الا ليفيء اليها في صباحه وقد يحدث ان يرقى نفتالي مكانا عاليا ويجيل نظره في الافق فتتراءى له الارض الواطئة في عريها الرهيب وتفتح امامه هواتها

المطالة وشقوقها الملتوية فاذا لذعه الحر الشديد ، وانحدر الى شواطيء البحر الميت لم يقته خطف الشمس على الصخور الكلسية الشاحبة حيث تجد الصلال والثعابين معاذا تستريح اليه

وكان ينبغي له ان يسلخ بعض نهاره في الطواف قبل بلوغه منزله فلما حسرت عنه التعاريج الملتوية التي اوغل فيها عند انحداره من اريحا اطلت عليه جبال مواب نزلة اخرى فما جنب عينيه النظر اليها فاذا هي اكثر ارتفاعا ، واشد اظلاما واذا الغيوم قد تكاثرت على جنباتها فدأب في سيره في ارض غصت اطرافها بهضاب بيضاء فما راعه فوحان الحر على رءوسها بل جعل يركض حتى احتوته الارض الواطئة وتراءى له في ناحية الجنوب على مسافة بعيدة ذلك الطائف الازرق الذي يبتديء ثم يضيع في الافق البعيد ولا تقع العين على نهايته ، وذلكم هو البحر الميت الذي اظلت اكنافه العابسة مملكة السادوميين والعموريين !

اي بحر هذا الذي ينظر اليه نفتالي التعس في صبحه ومسائه؟واي شاطيء شاطئه؟

ينظر المسافر الى هذا البحر من قنة مرتفعة في ايلياء او من هضبة شامخة في جبل الاربعين فيروعه افقه الغاتم ، ويخيل اليه ان الموت قد جثم بطيوفه الراعبة على مائه الراكد ، فاذا قلب نظراته في نواحيه ابصر شاطئيه العاريين بين سلسلتين متقابلتين من جبال دائمة الترديد والتسجيع

تعرف الجبال الشرقية بجبال جزيرة العرب ، فهي اكثر جبال مواب ارتفاعا ويراها الرائي على مسافة ثمانية او عشرة فراسخ فتأخذه الوانها الزرقاء ولا يستطيع ان يرى قنتها الشماء . ولكنه يرى في الافق الذي ضربت فيه خطا رماديا خفيفا كأن يد مصور بارع قد رسمته على حواشي السماء ، وتعرف الجبال الغربية بجبال يهوذا ، ولكنها اقل ارتفاعا ، واخفض شأنا من جبال الشرق . بل ان طبيعة هذه الجبال لا تماثل طبيعة الجبال الاولى ، فهي جيرية رملية قد ارسخت قواعدها في سهل منبسط ، بينما جبال جزيرة العرب تتراءى للمسافر غاتمة اللون ، وبينما تلقي على

مسافات بعيدة ظلها الشاحب الى مياه البحر الميت ، فما يجد طائر السماء في صخورها السمراء عشبا يأكله ولا ماء يشربه ، وهذه المشاهد العابسة التي لا تطمئن اليها نفس تنبي المسافر عن الوطن المرزوء الذي حمل الى ساكنيه مآسي حياة ممزوجة بالتهاويل الجسام !

وبين هاتين السلسلتين المتقابلتين واد غائر يحسبه الرائي اعماق بحر انكمش وتقاصر فما يرى على جنباته غير الملح وغير رمال تثور كلما هاجتها الرياح وفي حضيض هذا الوادي الذي عزفت الحياة عنه اطلال دارسة وخربات عافية ، وفي قلبه نهر حال ماؤه وشحب ، ثم يجري ويستمر في جريه ودفقه حتى يصب سيوله في البحيرة الموبوءة التي تبتلعه ، ولا يستطيع احد ان يرى الى مسيله في الرمال الا اذا تراءت له بواسق الصفصاف والبردي حانية على ضفافه

هذه هي الاماكن التي باركتها السماء ولعنتها في امد واحد ، فاما النهر الذي تلاقى الرسل على ضفافه الكاسية العاشبة ، فانه الاردن ، واما البحر الذي لعنته السماء وضم الى احشائه السامة ركام المدن الملعونة ، فانه البحر الميت !

لم تخرق ماء هذا البحر اللعين السفن لا في قديم ولا حديث ، ولم يزهر على شواطئه شجر ولا عشب ولم يحلق في افقه طائر ، ولم تستطع الرياح ان تحرك ماءه الثقيل ، على شاطيء هذا البحر يعيش نفتالي وابنته بنيامينا عيشة مضنية شاحبة تشبه رماله المضنية الشاحبة

* * *

لما اوشك نفتالي ان يطل على مثواه في البرج الروماني المتهدم على جدة البحر اخذ ينادي ابنته بصوت عاصف ، وكان الركض على الحصى والجنادل في الارض التي ترا لم على حواشيها الملح قد ادمى رجليه فشعر بالألم الشديد ، وبالغ في صياحه فما سمع نداءه احد وضاع صوته في فضاء شديد الأنتلاق لا يعرف له مدى فغمه ان لا يخرق صوته هذه الجدر التي تحتوي ابنته ، ولكنه على شديد خوفه لم يحس يأسا

وفيم الياس وبنيامينا في ظله وكنفه . وقد صلى من اجلها في هذا الصباح على جبل الاربعين واسمع دعاءه الشجي تلك الربا التي اصغت في الماضي البعيد لصوت الناصري ولما صاقب البرج وبدت له ابوابه وقناطره ، خفق بيديه ثلاث مرات وابتعث من قلبه ثلاث صيحات ، واجرى على فمه في كل صيحة ذلك الاسم العذب الذي رقق منفاه ، ولطف جواه ، فما اجداه امعانه في التصفيق وتراكضت صيحاته الثلاث الى ذلك البحر الراعب فضاعت في ساحله الافيح

لقد همس التعس في نفسه همسة مؤلمة :

— اين هي فتاتي ، وما بالها لا تجيب سائلا !

لما خرج نفتالي من منزله في هذا الصباح ليصلي صلاته في جبل الاربعين عرض له في الطريق بين البحر الميت وضاحية اريحا رجل مدرع من حرس الرومان فحاد عن الطريق خشية ان تقع عينه على صورته ، ودأب الكمي في طوافه حتى وارته الظلال الخضلة في الضاحية ، فاستروح نفتالي الى ابتعاده ، فهل انقلب الرجل الى ساحل البحر وجاس خلال البرج وتعرف الى مكان بنيامينا فيه فبهره جمالها فابى الا ان ترافقه الى مسالح الجند !

لقد رفض نفتالي ان يستخذي لوهمه فوطيء البرج وتدفق الى الحجرة التي ترك فيها ابنته وتفحص اطرافها فما وقعت عينه على خيال الابنة الغالية فشجي والتاع وزرف جرحه القديم . وعلقت بروحه صورة حياته الكدرة ، فما يدري كيف يزجي هذه الصورة ولكنه لم يقنط فقد كان مؤمنا فابى عليه ايمانه ان يصدق وقوع كارثة جديدة وهو الرجل الذي سأل الله في الصباح الماتع ان يغسل جراحه ويضع حداً لالآم عمره !

ثم الجأته مخاوفه الى الطواف بانحاء البرج ووقر في ذهنه المكدود ان ابنته ملت حياتها في حجرة تغص بذكريات ابيها ففزعت الى حجرة لم تخالطها اناته الشجية . ولكن الطيف العذب الذي ترقرقت اغاني نفتالي في صوته . وانسجمت

امانيه في احلام نفسه لم يعرض له في طوافه . فتوقع الخطب الكريه وحرك الألم اوجاعه فهاجها ونماها فزجل زجلا مؤثراً استفاضت لحونه على حواشي الماء في ذلك البحر الذاهل الساكن

وما كان بالامر العسير على نفتالي ان يستجيش اوتار قلبه فيحركهـا ويطلق انغامها وهو الرجل الذي اخصب الالم نواحي نفسه بفنون الرثاء وانواع البـكاء وكان الغناء وحده حافزه الى الشعور بالعزاء فلما تغنى رق واسترقه وهمس بتلك الصلاة الشجية التي اخرجها من صدره على ذرى جبل الاربعين . فابتعثته صلاته على الامل وانسته بعض تباريحه فاستأنف الصياح :

بنيامينا اين انت . ولماذا تمنعين اباك التعس صوتك اللذ !

فلم يجبه احد فبرح مكانه الى اعالي البرج ، وقلب نظره في الارجاء البعيدة فحاق به وهمه في الافق المضيء اللاهب . فرأى الى البحر المديد وقد تريق سائله المخوف ولمع . فضوأ سواحله . ثم تطاول الى الارض الغائرة وما بها زرعة يطمئن اليهـا ، فشهد من بعيد ذلك الطائف الاخضر الذي استهوى الرسل في القفرة العانية فخفق قلبه وتخافت بصوته :

ـــ لعلها خرجت الى النهر لتبحث عن الفرح والامل في شاطئه الوارف !

صحت احلام نفتالي . فزجر نفسه عن الخوف . وبرح مكانه في اعالي البرج ونهد الى الارض الغائرة فاوغل في هواتها تظله سحب قائظة في سماء شديدة السطوع ثم مشى على الرمل الابيض ، وصدف عن الطريق التي تدفع الى مصب النهر فجنب نفسه مشاق السير في ارض محصبة تطل عليهـا جبال جزيرة العرب . ثم مضى في جريه غير حافل بوطئه الملح الجاثم على الرمل وبغتة تراءت له عن بعد افياء الشجر المتشابكة فطفرت نفسه الوادعة اليها ورفت احلامه المصحية عليها . فلج في ركضه حتى بدت له فروع طويلة من بواسق الحور والصفصاف وزخر صدره بشذا النعناع والخزامى فادرك انه جد قريب من الغابة الفيحاء التي استمعت الى دعاء الرسل فخف

اليها فاحتوته بين ذراعيها ورأى الى النهر المقدس وقد راق ماؤه الشاحب على البطحاء، وسرت غلائله الصفر في حواشيها فندتها ورققتها .

ولم يكن همه وقد رأى النهر المقدس ان يرجع بخواطره الى تاريخ هذه الارض القديمة التي تلاقى عليها العالم الماضي ، وما كان البحث عن معنى الكلمات العالية التي القى بها الرسل الى ضفاف النهر ليعنيه او يبتعثه على التأمل في ماض رائع مجيد ، وانما كان همه ان يتعرف الى المكان الذي آوت اليه بنيامينا

وانه ليفكر في ابنته اذ رفعت له على مسافة قريبة من مجرى النهر خميلة ذات افياء فصبا اليها صبواً شديداً ودلته اعرافها على انها الارض التي عبر منها بنو اسرائيل الى النهر فشربوا من مائه وتساقط عليهم المن والسلوى ، فما فاته وقد التى الى افيائها اوهام نفسه واحلامها جلال غابرها الماضي . في هذه الارض اجتمع المسيح بن مريم الى الرجل الذي برح به الجذام فرد شبابه اليه ، وفي هذه الارض ارق يوحنا المعمدان ماء الاردن على جسد عيسى ثم استجاشه الى العمل الرائع

مضى نفتالي الى الخميلة فاوغل فيها ، وطفق يبحث عن فتاته بين الزروع والافياء وجعل يناديها بصوت هامس ، ثم رفع صوته صائحاً :

— بنيامينا ! بنيامينا !

واخذ يصغي الى ترجيع الماء ، والى حفيف الشجر ، ثم الى اغاني الطير ولكن ذلك الصوت الذي امل في اسماعه لم يتسرب الى صدره الجافل فاستأنف طوافه بالحرجة الفيحاء وارهف حسه وشعوره واذنيه للسمع وفتح عينيه على جميع المشاهد وكانت الرياح تزخر في الفضاء فاهتزت الادواح المتهدلة على جبينه المصوح وشم الاعراف الذكية ، فصاح صيحة شديدة مادت لها جوانب الحرجة الغناء

— بنيامينا ، بنيامينا !

وفي تلك الاثناء مرت بجواره عصائب الطير ، فالقى نظره اليها فاذا هي جافلة مذعورة ، ثم انتشرت على حواشي الافق كأن انسانا وطيء اوكارها فاخافها فانفلتت

منه . تخيل اليه ساعة رأى الى اجفالها ان ابنته التي روعه امرها قد مرت بحفائر هذه الطيور السائحة . فحملت اليها الذعر والخوف؛ فعدا الى الجانب الآخر من الخميلة حتى عرض له شاطيء الاردن وجعل يصيح :

بنيامينا . بنيامينا ! فاذا صوت يناديه من بعيد :

— ابي ! ابي ، اين انت !

ولما سمع صوت ابنته واستعذى نبراته الصافية طافت بنفسه صلاته الهادئة على ذرى جبل الاربعين فشجي واستدمع ورددها في خفوت وهمس ثم انبرى قائلا

— ماخاب رجل علق برحمتك ايها الآله الذي نضر هذه الصحراء بالرسل !

ثم انحنى ناحية الصوت ، فاذا بنيامينا على شاطيء الاردن تحت بواسق الشجر وقد حملت في يدها بعض الرياحين ، والتفت في غلالتها البيضاء ، واخذت عيناها الذاهلتان السادرتان تنظران الى اشياء بعيدة لم يلحظها نفتالي ولم ير اليها

وكان لقاء . ثم كان بكاء !

قال نفتالي بعد ان ردت اليه عافيته وسكينته لقد خفت عليك ذئاب الرومان . فاي حافز حفزك الى الخروج من حجرتك وقد خلفتك نائمة بين ذراعي حلمك القرير

فضحكت ضحكة فرح وانسة وقالت له وعيناها الذاهلتان تنظران الى تلك الاشياء البعيدة التي تراءت لها من خلال الشجر

— الا ترى الى ما ارى يا ابي ! انظر الى هذا الغاب وقل لي ماذا ترى بين صفصافه وعراره وكان الفرح قد طغا على نفسها فلم تسأل اباها عن منبع هذه الوساوس التي ابتعثته على اللحاق بها الى شاطيء الاردن ، فجعل ذلك الوالد الشفيق ينظر الى الغابة ولكنه لم ير شيئا يسترعي تأملاته فقال لابنته :

— هل ضحكك الى هذه الاماكن رفيق فواريته في كثيف الشجر ، فضحكت وقالت لهواي رفيق هذا الذي تتحدث عنه ؟ انظر مليا وقل لي ماذا رأيت ؟

فنظر نفتالي الى الشجر الباسق فلم ير خيالا فقال : ولكني لا ارى هذا الذي

ترين ؟ فقالت : اقترب واحرص على الا يفوتك ما رأيت ! فاقترب من الغابة ، ونظر الى رؤوس الشجر ، ثم نظر الى الارض العارشة وقلب نظراته في نواحي النهر فلم ير شيئاً في جميع هذه المشاهد فقال لبنيامينا :

— اكنت تحلمين يابنية ؟ قالت لا لم اكن احلم ، وما ينبغي لاحد ان يحلم في شباب النهار ! ولكني رأيت الرجل السماوي ، وسمعت صوته ، فسألني ان الحق به ففعلت فوهب لي بركته ، ولم يجنبني صنحه وقال لي بلغته الرقيقة المعسولة لقد تألمت كثيراً . وتحملت كثيراً ، اولكن الله قد غسل ذنوبك فستردين جديدة غضة

خيل الى نفتالي ان ابنته التي احب تهذي او انها جنت فطفق يتفرس في وجهها لعله يرى عليه صورة ذلك الجنون الذي اخافه وروعه فاذا ذلك الوجه قد زهر زهورة رائعة ، فما يبين عليه شبح الجنون المخيف . واذا عيناها في مثل صفاء الافق واذا كلماتها التي استمع اليها لا اثر فيها لهذيان الجنون فقال لها :

— من الرجل الذي تتحدثين عنه ؛ واين هو ! لعله قسيس الضواحي المجاورة فقالت له :

— الا تعرفه يا ابي! انه يوحنا المعمدان ! لقد كان هنا منذ هنيهة فلحقته ونظرت اليه في غلالته البيضاء فراقني منظره وسحرني فتونه ونازعتني نفسي الى مخاطبته فزرفت الى ناحيته ، فاذا هو تحت افياء الشجر في لباسه الابيض كحمامة البيضاء

— ولكنك تهذين يابنية

فضحكت وانثنت قائلة :

نمت ليلتي وما اذكر انني امضيت في ليالي الغوابر السوالف ليلة هادئة صافية مثل هذه الليلة التي غبرت في منزلنا المنفرد على شاطيء البحر الميت ! فلقد رأيت كريستيا في بحبوحة من الحياة . واستمعت الى اغانيه واسمعته اغاني . ولما اوشك الليل ان يدبر ويطوي حلمي الشهي في دجناته ابيت ان افتح عيني على ضوء النهار واني لسابحة في الرؤى اللذيذة اذا خيال ابيض قد عرس في فراشي

فنظرت اليه وقد روعني اطلاله على ساعة اخذت انظر الى كريستيا البعيد النائي فقال لي بصوت يفيض رقة وعذوبة انظري الي مليا فاني انا يوحنا المعمدان الذي اراق الماء المقدس على جسد الناصري فعدت الى التحديق في جبينه فاذا على هذا الجبين صورة ذلك الجمال البارع الذي هاج الحسد والغيرة في نفس سالومه ابنة هيروديا فمادت نفسي من الذعر ونظرت كرة اخرى الى الخيال المقدس لعلني ارى الى جراح في جسده فاذهلني ان لا ارى جراحه بل لقد اذهلني ان ارى اليه سليما معافى ، فكأن رأسه لم يقطع وكأن جسده لم يهشم ، فلم تفته حيرتي فأومأ بيده الى الارض فنظرت فاذا عليها اناء مضرج بدم واذا الرأس الذي فتشت عنه ولم اره في ذلك الأناء فاخذتني رعدة . وما استطيع وصفا الرعب الذي ران على نفسي ففتحت فمي وهممت بالصياح فارادني على الصمت ثم ارادني على التحديق في الاناء ففعلت فاذا الاناء خلي من دمه ورأسه فهممت بالصياح كرة اخرى فقال لي بلغته الرقيقة العذبة حذار ان تصيحي ، ثم هدهد آلامي ، فثلجت حشاشتي ، وفارقتني رعدة الخرف ، فقال لي هلمي واتبعيني الى الاردن فاغسل بمائه المقدس حظوظك العواثر وارد الى ابيك التعس شبابه الهاوي !

لقد سحرتني احلامي وانبعثت اماني النائمة ففتحت عيني على بروق الصباح وفي نفسي التي صوحها الالم زهرات شديدة العطر ، ثم تسدرت ردائي واخذت افتش عنك لاقص عليك حلمي الرائع فلم ارك وفطنت الى ذهابك للصلاة في اريحا فلم اخف ثم صعدت البرج فرأيت البحر الميت وقد حجزته الجبال الشم والقت ظلالها الشاحبة الى مائه الراكد فما وجدت على شاطئه الجديب احلامي المورقات العطرات ، فلذني التحديق في الجانب الآخر من الافق وطوفت عيني بالظلال الخضر ورأيت من مكاني البعيد كأنني في خمائل بيت صيدا ، فذكرت حلمي وذلك الخيال المقدس الذي طاف بحسي وقلبي فعفت مكاني على البرج وجئت الاردن فاوغلت في جناته تحت الشجر الباسق الذي رف عليه ندى

الصباح فرققه واستجاشه ، وكان احب اماني ان يطالعني ذلك الخيـــال فاستمع له ويستمع لي واسأله ان لا يمنع كريستيا الطريد الشريد مناعم العمر وملذاته ، وكان الافق يمور بضياء شديد الفتون ، واقسم لك يا ابي انني لم ار مثل هذا الصباح في متوعه واشراقه . فلقد كانت الارض التي احرقها البحر الميت بزفراته اللاهبة تغص بالظلال والافياء وكان الماء يجري في الاردن سائغا عذبا فلا شحوب في غلائله ولا كدورة في سوائله ، فجلست على العشب النامي في الحرجة الغبيـاء ، واسكرني شذا الزهر وهاج احساسي تغريد الطير وتصفيق الاجنحة في الفضاء الجذل الناعم فنمت ورأيت فيما يرى النائم ذلك الخيال الابيض وقد بسط جناحيه على حواشي الغابة فاستظلا واظلا النهر والشجر وانفلت منهما عطر شديد

واني لنائمة اذا اشعة الشمس الرقيقة الخفيفة تهدهد جبيني ففتحت نفسي في الحلم فاذا ذلك الخيال الذي نشر جناحيه في الفضاء يزدلف الي فاستعذبت مشهده وودت لو ان ذلك الفرح الاخرس الذي غشيني لايفارقني ابد الدهر ، بل وددت لو ان حلمي اللذيذ لا تليه استفاقة تكدره ولكن ذلك الخيال المقدس الذي ترقرق في عيني لم يلبث ان تذرى بالشجر الوارف وجعل ينظر الي من بعيد نظرة خوف فـــادت نفسي ، وحق لنفسي ان تميد ، فصحت بذلك الطيف الابيض :

— لماذا تحاذر ان تقرب مني ؟ فهل رأيت على وجهي ما يخيف ؟

ولكنه حرص على الصمت ! فلم اسمع قليلا من همسه ، ولم اتعرف الى حسه ، ثم نظرت الى يديه فاذا هو قد جعلهما وراء ظهره وانبرى يحدق الى تحديق الرجل الذي طاف الرعب بصدره فاذهله ومضى به الى عالم بعيد

قلت لذلك الطيف « اسمعني صوتك فانه الصوت الذي عصف بالبوادي الفيح ففرقت منه الاسبع الضارية ونفرت لوقعه كواسر الطير في الربا العاريه ، بل اسمعني صوتك فانه الصوت الذي لا يمـــائله في عصفه وقصفه خفق الرياح البوارح في الحزون والنجود ، ولا لمع السراب وخطفه على حواشي النهـــار القائظ ولا هذه

الليالي الطوامس تنشر احلامها الموجعات في مضاجع النيام ، ياله صوتا لا ينيم جرسه البرد الهامر ولا يطفيء نوره البرق الغامر ، تكلم قل لي كلمة واحدة ، ولا تفرق من طيني فاني قد عرفتك في طفولتي فاسترحت الى الاقاصيص البارعة تروى عنك . فلما كبرت ونموت تمثلتك في اطهارك البالية تطوف بالعيون الجارية وبدك على عصاك تهش بها على غنمك وصوتك يعصف بالفضاء فكأنه في حماسته وشدته صوت البوق يعصف بصفوف الجنود ، ثم لم يلبث هذا الصوت ان استفاض على حواشي الافق من سهول مواب الى جبال فلسطين ، ومن الصخر الواعر الى السهل الحادر

تكلم ايها النبي ، تكلم وارق على ثرى حيـــاتي رحيق نفسك فيورق ويزهر ناشدتك الله ان تقص علي حديث آلامك الهادمة ، فلقد روعني ان ارى اليك في صورة الرجل الضارع !

لقد الانت عبراتي قلبه ، فبرح مكانه وزلف الي واسمعني نبرات صوته الشجي وقال لي :

ــ من انت أيتها المرأة ؛ لعلك من صواحب سالومه !

فخيل الي ساعة اورف ظله على حياتي انني لمست شكوكه فقلت له :

ــ لست من صواحب سالومه ، وانما انا ايها النبي امرأة تعسة ، حفل عمرهـا المديد بليل من الصرير والزفير ! ثم تخايل علي طيفك في ليلتي الفائتة عند ذلك الشاطيء العبوس المكفهر في مواب ! اما رثيت لامري وسألتني لحاقابك الى ضفة هذا النهر لقد ارقت مـــاء الاردن على جسد الناصري ، فارق سائلك علي ، واغسل جراحي واجعلني اعيش في الهواء الناعم الذي تشمه

ثم قصصت عليه حياتي وآلامي في ليل احلامي وكذلك قصصت عليه حياتك فمسح دموعي بيده ولم يجنبني الصفح واسمعني صوته العاصف ، فقبلت يده ، فلم يلبث ان توارى وراء الظلال الخضر ، ثم استفقت على عصف صوتك ففرت احلامي الناعمة وانملس من صدري ذلك الهناء الذي تذوقت جنيه

في هذه الارض المباركة رفت احلام الرسل يا ابي فليس بالامر الغريب ان ترف هذه الاحلام على حياتك اليابسة فتخصب وتورق !

لقد اثار حلم بنيامينا خواطر نفتالي فطوق ابنته بذراعيه وقال لها :

— ان حلمك لصادق ، ثم لألأت عينـــاه واحس في البكاء مسلاة روحه فقال لابنته :

— أهذه كل احاديثك عن ذلك الطيف المقدس !

— ابي وددت لو ان حلمي الذي رأيت ظل على صفائه فلم يكدره اطلالك علي فاجتذبها نفتالي الى صدره نزلة اخرى وقال لها ،

— تكلمي يابنية . تكلمي ، فقالت :

املتك السحب المكفهرة على جدة البحر الميت فصبوت الى الاردن لتقضي حياتك في جناته وخمائله وتنسيك ارضه الزاهية ارض مواب العارية ! افلا يسرك ان نعيش هنا في هذا الاديم العطر بالقرب من أحلام الرسل ! قل لي يا ابي لماذا جعلت مقامك بجوار السحب القائظة والموت الكريه المقيت ، وهـذه الارض الضاحكة ليست بعيدة عنك؟

فخفض نفتالي رأسه واطرق يفكر في احلام ابنته ، ثم قال لبنيامينا :

— خفت ان يلحق بي بغض قيصر الى النهر المقدس فلا استطيع دفعه فقالت له

— لن نبرح هذا الغاب يا ابي بعد هذا اليوم ، فان على شـــاطئه الوارف متسعا لحياتك ! افلا تشاركني في اماني ! الا ترى اننـــا لا نكون هنا وحدنا فان هذه الطرق التي تبين لنا في كل ناحية تدفع الى جبال سلع حيث يعيش كريستيـــا وسافو ومارسيليوس فاذا فكر كريستيـــا في ذات عشية في العزوف عن عيشته واستعذى مقاسمتنا آلامنا وافراحنا لم تفته هذه الطرق ولا يمنعه عدو ان يغشى هذه الارض التي تخضع لفروة بن عمرو ولا تخضع للفيلارك سرجيوس عامل قيصر في غزه ! ... ابي ماذا تقول الا يزال طيف ذلك البحر الرهيب يجتذبك اليه ؟ حدثني

اسمعني صوتك . قل لي انك لن تفارق هذه الاماكن التي تضحك فيها احلام النبيين!
لقد قال لي طيف يوحنا ان شبابك سيرد اليك وان كارثة حياتك ستنتهي !

— اقال لك ذلك يا بنية ؟

— نعم يا ابي ! ... ناشدتك الله الا تفارق هذه الاماكن !

فحنى رأسه احناءة اليمة وطفق يفكر ولكن تفكيره لم يطل فلقد غص الفضاء في تلك الفينة باصوات لم يألف نفتالي سماعها في منفاه الاغبر فرفع رأسه الى ابنته وقال لها :

— الا تسمعين ! فقالت ان النهر ليجري جريه الشديد العنيف والريح في هذه الغابة شديدة العصف ! فصاح الرجل التعس انك لواهمة يابنية فالسماء مصحية والنهر ساكن وادع ! اسمعي

شعرت بنيامينا بخوف شديد ساعة رأت الى جبين ابيها المكفهر فاخذت تنظر الى الارجاء البعيدة فاذا الفضاء يمور بالصياح فقالت لنفتالي :

— انها لاصوات شديدة يا ابي فقال لها ويده في يدها وعيناه تنظران الى الطرق نعم انها لاصوات شديدة ، على انني تركت هذه الاطراف في هذا الصباح وادعة ساكنة فاي حادث رائع حرك حياتها الراكدة ؟ ...

وكان الخوف الذي نجم في صدره قد استفاض على سائره فتندت قروح وجهه واطل الالم من عينيه المشوهتين وعاد في خفة البرق ذلك الرجل اليئوس الذي استعار شحوب حياته من شحوب البحر الميت فقال لابنته :

— الى شواطيء البحر اللعين يابنية ! الى شواطيء البحر اللعين ايتها المسكينة التي غمست حياتها في ليل حياتي الصارد زلفى لآلامي الهادمة !

ولكن ذلك الحلم البهي الذي تراءى لبنيامينا وهي نائمة على حضيض الغابة لم يلبث ان صقل احساسها فخلع عليها نعمة الصبر والجلد فقالت لابيها الدميع مكانك يا ابي ولا يخيفنك ما سمعت . فلقد يكون اصحاب هذه الاصوات من

الاعراب الذين الفوا الانتداء الى البحر الميت لجمع القار من سائله ؛ اما كان هؤلاء يمرون بنا في ظلام العشي فنسألهم الخبز فلا يأبونه علينا ؟ ان لهؤلاء الاعراب سلائق كريمة يا ابي لا نجد مثلها عند الرومان اصحاب قيصر !

نفس حديث بنيامينا من كرب الرجل المني ولطف شجونه فقال لها صدقت فما بهؤلاء الاعراب الذين قست حياتهم كبر هؤلاء الرومان ! الا ينبغي لنا ان نذهب الى اصحاب هذه الاصوات فنسألهم ما يريدون حتى اذا كانوا ضلوا الطريق دللناهم عليها فقالت لا انك لن تحمل نفسك مشاق الذهاب اليهم فحسبك طوافك الناصب في نهارك !

وكان نفتالي قد اشرف على الضفة الثانية من النهر فجعل ينظر الى طرق سلع فرأى الى الغبار وقد غشي الافق ثم التى بسمعه فاذا الاصوات التي خرقت اذنيه من قبل قد استحالت الى اهازيج فيها الشيء الكثير من صفاء البادية وكبرها فاطمأنت اساريره واشرق وجهه وقال لابنته :

— انها لاناشيد حماسية يغنيها بعض القادمين من سلع !

فخفق قلبها لذكر سلع وبرق وجهها بضياء الفرح فقالت لابيها العميد :

— ماذا تقول يا ابي ؟

فلم يفته هذا السرور الذي غشي روحها فقال لها :

— بلى ان هؤلاء الذين حسرت عنهم طرق سلع في هذا النهار ليسوا من الرومان الذين تخافينهم ولما صحا الافق وانقشع الغبار وتلألأت ذكاء على افياء الشجر ابصر نفتالي على مسافة قريبة بعض الفرسان وقد انحوا ناحية النهر واخذ النسيم الرقيق يداعب ارديتهم فتلفت الى ابنته واومض بيده الى الفرسان وقال لها :

— الا ترين الى زعيمهم ، انه يتقدم الموكب على فرس غاتم ! يالمشهده الرائع فاني لم ار في حياتي الى رجل يماثله في طول قامته وفي زهوه وخيلائه ، فاي رجل هذا الذي حسرت عنه جبال سلع في هذا النهار ، لعله احد رجال فروة بن عمرو !

وكانت عينا بنيامينا تنظران الى الفارس الذي جعل يقترب من النهر فلما عرض لها اعجبها منظره واستهواها زخرف لباسه فقالت لابيها لعله كما زعمت احد رجال فروة ، لأسألنه عن كريستيا ، فقد يعلم من امره مالا نعلمه في هذا المنفى البعيد

وفي تلك الاثناء احاط عشرة من الفرسان بضفاف النهر ، وبينهم ذلك الرجل المديد فسرحوا خيولهم في الارض العارشة وانطلقوا الى حافة النهر فغسلوا وجوههم بمائه السائل ثم جلس بعضهم الى بعض وطفقوا يهزجون ويغنون وكانت اغانيهم حلوة رقيقة فلم يفت نفتالي الذي امضى بعض حياته بين خليج ايلة والشام ماتنطوي عليه هذه الاغاني من معاني الرجولة ، وصور الاريحية والتغني بمجد الوطن الناشيء والاستعلاء بالآباء والجدود فخف اليهم واقترب من زعيمهم وبنيامينا تنظر اليه من خلال الشجر فما ريع الفرسان من منظره ولم يفكروا في سؤاله عن مصـــدره بل اطأنوا اليه والى تحيته ثم سأله الزعيم الغطريف عن امره فقص عليهم بلغة الرجل المحروب قصة نفتالي المروع المغلوب ؛ ثم سأل الفارس الكمي عن اسمه فاجابه :
« اسمي عمرو بن معدي كرب فارس العراق واليمن »

ولم يكن نفتالي قد سمع بهـــذا الاسم في ايامه الغوابر ، ولكنه الى ذلك قد استروح الى صاحبه ورأى على وجهه من مظاهر الاريحية والمروءة مالم ير مثله على وجه روماني . فقال له : لعلك قد ضللت الطريق . قال لا فقال فاي بلد تبتغي الوصول اليه . فقال : ايلياء ! فانتفض نفتالي انتفاضة الذعر ، وظهرت على وجهه المصوح صورة البغض الشديد العنيف ، ففطن عمرو الى رعدته فقال له : ما الذي ارعدك ايها الرجل . وكيف تعيش في هذه الحرجة الغبياء في غير رفاق ولا اصدقاء

وكانت اطمار نفتالي البالية وخلقته المشوهة ، وصور الرعب المـائلة في جبينه وهذا الخوف الشديد الذي تحيفه ، واعتزاله العالم في المكان النابي ، وجفاؤه الاحبة والرفاق ، كل ذلك كان من شأنه ان يوقظ ريبة الفارس الكمي ، فالتفت الى رجاله وقال لهم :

— ارأيتم الى رجل مثل هذا الذي ترون ، اذ كر له ايلياء المقدسة فتميد نفسه من الذعر ! وفي تلك الاثناء جعل نفتالي ينادي ابنته « بنيامينا ، بنيامينا ! » تعالي واسمعي ما يقوله الرجل ؟ انه سيذهب الى ايلياء هذه المدينة التي يغطيها شبح الظالم

وفي خفة البرق طفرت بنيامينا من خلال الشجر الى الشاطيء فابصرها عمرو وشهد جمالها الخالب فاذهله نزولها في هذه الاماكن الموحشة ، فالتفت الى نفتالي وقال له :

— من تكون هذه الانسانة ، لعلها زوجك

— انها ابنتي ياسيدي

— قل لي لماذا فرقت من ذكر ايلياء !

فهز نفتالي رأسه هزة الألم واردف هامساً مخافة ان يسمعه احد :

— في ايلياء المقدسة رجل لا احبه ولا تحبه انت ؟

— من ادراك انني لا احب الرجل الذي تكرهه ؟

— دلتني رجولتك على انك الرجل الذي يكره الظلم

— هل ظلمك احد في ايلياء .

فحسر نفتالي عن صدره فبدت قروحه وجراحه وقال لعمرو :

— انظر وقل لى ماذا رأيت على هذا الصدر !

ايبست الايام قروح نفتالي فما عادت تنضح الدم والصديد، ولكن آثار هذه القروح ما زالت ماثلة كأن الايام والاعوام عجزت عن طمسها . فلما ابصرها عمرو خيل اليه انه حيال رجل طفحت حياته بآلام هادمة وشجون قاسية فلطف لهجته وسأله قائلا ،

— من فعل بك هذا ؟

فالوى التعس برأسه الواء شديداً وراح يشد يدي عمرو ؛

— انظر الى عيني وقل لي ماذا رأيت ؟

ولما حدق عمرو في عيني نفتالي وابصر ركودهما رعش رعشـــة الثمة وقال لوالد بنيامينا :

— ما اسم الرجل الذي ابتعث جراحاتك وملأ جسدك بالقروح !

— اسمه هراقليوس ياسيدي !

— ولكنه اسم قيصر الرومان

— نعم ، نعم ان هراقليوس اسم رجل لقبه في الناس قيصر

— ماذا فعلت حتى احاطك قيصر بليل شديد التعتيم

— ان قصة حياتي ايها النبيل طويلة كآلامي ، فما استطيع ان اسمعك اياها وكل ما استطيع قوله هو ان قيصر والبطريرك تحالفا علي وقذفا بي الى شواطيء البحر الميت فلست استطيع عزوفا عن حياتي الجاهمة في هذه الشواطيء مخافة ان يغضب قيصر فيساوقه البطريرك في غضبه ! وقد تتالت علي الليالي والنهارات في قلب هذا العدم الموحش ، افكر في الموت واستسيغه فيجفوني شبحه وتنأى عني احـــلامه العابسة وتطول حياتي وتنمو ، فتطول آلامي وتنمو ، ثم احس يأساً من بقائي هنا بجوار الجلامد الناصلة فترق جوارحي لذكرى ايلياء وتنازعني هواجسي اليها فاخرج الى الطرق لعلني اواصل مطافي فابلغ ارضها المقدسة والثم ترابها المعطر فيردني عن هواجسي هذه شبح مخوف نشره قيصر في سمائها ثم اعود الى منفاي وامضي في شكاتي وبثي واسكب دمعي نديا خضلا فتتلقاه رمـال هذه القفرة النابية فيجف ويجمد ، ويستمع البحر اللعين الى صيـــاحي فيدأب في تهداره حتى يضيع كلامي على ساحله ! ...

— قلت لي ان نفسك قد نازعتك الى ايلياء وانك لا تجرؤ على المضي اليهـــا مخافة ان يقتلك قيصر ؟

— نعم نعم لقد قلت لك ذلك ياسيدي

— وماذا تريد ان تفعل في ايلياء !

ـــ لقد نذرت لاصلين في ايلياء في بيعة السيد المسيح صلاةاودعها متاعب عمري الاول . فلعل الله يثأر بجراحي من عدوي البغيض اللعين ! ..

ـــ اتذهب معي ؟ فقال نفتالي الى اين ايها المولى فقال الى ايلياء.

ففتح نفتالي عينيه وبرقت أسرة وجهه وانثنى قائلا :

ـــ ربي ، ماذا سمعت اذني ؟ هل كنت احلم ؟ أانت تقول ذلك ياسيدي

ـــ ارابك امري حتى فرقت نفسك ؟

فهز نفتالي رأسه في كثير من الألم وقال صفحا ايها المولى فاني ما شعرت بريبة ولكنني رجل فدحه الخطب الكريه فما يضيء له قبس من رجاء حتى يخاله جحيما ، سألتني الذهاب معك الى ايلياء وفي المدينة قيصر وكتائب الرومان

فصاح عمرو صيحة مادت لها جوارح نفتالي :

ـــ ويلك ! ولكنني فارس العراق واليمن هذا وهو لقي وقد منحنيه قومي

ـــ أجذامي انت ؟

ـــ كلا بل انا من زبيد ، وزبيد في العراق !

ـــ اتعرف سيد سلع فروة بن عمرو ؟

ـــ كنت في ضيافته وقد حباني شيئاً كثيراً من كرمه

ولما ذكر عمرو اسم فروة ، وتحدث عن سلع ، دلفت بنيامينا اليه وقالت له بلغة حلوة ساذجة :

ـــ ارأيت ياسيدي البطل وانت في سلع رجلا اسمه كريستيا ! هل سمعت صوته واصغيت الى احاديثه ، تكلم ، ناشدتك الله ان تقص علي نبأ طيباً عن هذا الرجل الذي اراده فروة بن عمرو عامل قيصر على نحت تمثال لجده القديم !

ـــ نعم رأيت هذا الرجل الذي تسأليني عنه فلم اتعرف اليه ، ولم استمع لصوته ولكنني سمعت الناس يقولون عنه ، انه المصور البارع ، فهل كان هذا الرجل الذي شغلك امره من ذويك ؟

فسكتت وغشيت جبينها المضيء كدرة النية ، فلم يفطن عمرو الى حزنها بل لقد عناه كثيراً امر نفتالي فقال له :

— قل لي ، الا تزال خائفاً من الذهاب معي !

— لقد ارادني قيصر على قضاء العمر كله في هذه الارض العـارية ، ولكنه لم يمنعني صلاتي في بيعة اريحا فاذا صدفت عن منفاي ونزلت المدينة التي منعني من وطئها خشيت ان يعلم الفيلارك عامل قيصر على اريحا بامري فلا يتردد في قتلي ! ..

— ولكنني قادر على حمايتك ؛ ارأيت الى رجالي ، ان واحداً منهم بمقام الف من بني الاصفر ، وكانت بنيامينا لا تزال تنظر الى عمرو فاثارتها رجولته واستهواها شممه فقالت لابيها انطلق معه يا ابي وصلِ صلاتك في بيعة السيد المسيح

— وانت ؟

— ارجع الى البرج وانتظر معادك على شرفاته ؟

فقال عمرو : بل تذهبين معه وتقاسمينه صلاته ، ثم ترجعان معا الى الاردن

فقالت لقد قبلنا حمايتك ايها السيد !

وكان المساء قد خلع ظله الوردي على وادي الاردن ، فاغفى الريحان في خمائله وطحا القمر في سمائه ، فقال عمرو وهو يضحك :

— لن نحس سأما من هذه السياحة لأن القمر البهي سيرافقنا الى الارض المقدسة

وكان الفرسان في تلك الفينة قد فرغوا من غسل خيولهم فامتطوا ظهورهـا ، واردف احدهم نفتالي وراءه ، وتخلى فارس عن فرسه لبنيامينا فعلت غاربه ، ولحق صاحب الفرس برفيق له . وسار هذا الموكب في طريق يدفع الى اريحا تحت ظلال العشية الرخية !

ولما اجتاز الفرسان مدينة اريحا وخلفوها وراء ظهورهم ، واوغلوا في المسارب الضيقة ، وقف عمرو على فارعة احد الجبال وحدق ببصره في الارض الواطئة التي عزف عنها فطرقته خيالة البحر الميت ، ورأى الى مائه الراكد وقد ضوأه القمر ودغدغته اشعة النجوم ، فاسترعى تأملاته ذلك البرج الجاثم على ساحله فاومأ بيده

اليه وقال لنفتالي الذي جعل يسير الى جانبه :

— اهذا هو مسكنك . فهز نفتالي رأسه في كثير من الالم والرعب وقال :

— ولكنه مسكن الشياطين ايها السيد ، فاذا اغدف الغسق القت جبال مواب بظلالها السود الى اعماقه العابسة ، فانتشرت على مائه طيوف مقنعة ، وامتلأ الافق بهمس وجيع ، فاذا نصف الليـــل امتدت هذه الطيوف الى البرج ، فرقصت في حواشيه رقصها الرهيب ، في هذا القبر يعيش رجل اسمه نفتالي ، بجوار ابنته العانية !

وجعل نفتالي يبكي ، فساوقته ابنته في بكائه ، فصاح عمرو !

— انك لن تطأ ارضه بعد هذه الليلة !

— ماذا تقول ياسيدي

— اقول ان عمراً فارس العراق سيمسح دموعك ويلطف تعاستك فلا تعود الى هذا البرج اللعين الذي لا ندحة لي عن تقويض صروحه

— افي وسعك ان تقوضه ؟

— نعم وما يردني عن هذا الامر هراقليوس في خميسه العرمرم !

وطفق عمرو يغني شعراً كان قد هيأه ليقوله عند ذهابه الى يثرب امام يتيم قريش سيد العالم فردد الفرسان غناءه باصوات زخر الافق بعصفها الشديد ، وكان البحر الميت لا يزال يبين لعمرو من بعيد ، ثم انكمش وتوارى خلف السحب الطاغية على روائس الجبال وافراط الاودية ، واخذ الهواء البارد يرتمي على وجوه الفرسان فما يبالون بقرسه ولذعه ، فلقد كانت اغانيهم الحماسية تفجر نفوسهم بدفء شديد

وجعل عمرو بعد ان حبس نفسه عن الغناء يفكر في المأساة التي شهد فصولها الدامية في سلع ، فخيل اليه ان صورة ذلك القتيل الشهيد الذي وارته بطـــاح سلع مازالت تزحم صدره فحاول كثيراً ان ينزع هذه الصورة فما استطاع الى ذلك سبيلا ثم طافت بخواطره ميادين سلع ، وقد ازدحمت بالجند ، والهب حماستهـــا مصرع الرجل الذي لقي حتفه زلفى لفكرة الوطن المقدسة ، ثم ذكر قسمه لفروة بن عمرو ومبايعته له على الموت ، او يثأر بدم القتيل من قاتله ، وما كان عمرو وقد عرضت

له هذه المآسي ، واثارت شجونه واحزانه ، لينشي ذلك الوطن الذي انبثق جديد من غار حراء ؛ فرق لذكره وحن الى رؤية اليتيم الذي خرج من مكة الى يثرب ليبعث برسله وسفرائه الى ملوك الارض وكان على شجاعته وقسوته رقيق الحس رضي النفس حلو الشمائل ، فلما ذكر اليتيم تمثل قيصر في موكبه تحت اللواء وتمثل خروجه الى كنيسة القبر المقدس على عزيف الابواق ، وخفق الطبول واناشيد الناس فازمع ان يخترق الموكب القيصري ليقول لملوك الشام الذين تفيأوا رايات هراقليوس ولم يسمعوا نداء الوطن بعد انه لا يليق بهم ان يمشوا في حاشية العدو المقيت فينبغي لهمان ينطلقوا الى يثرب ليمشوا في حاشية لرجل المقدس الذي اصطفاه الله للخروج بامة العرب من ليل العبودية الى صباح الحرية

وكان السكون الرهيب قد غشي الافق فسكت الفرسان عن الغناء ، واخذت الينابيع السائلة على القنن الرفيعة . تشق طريقها الى الاودية فاستفاض هديرها على حواشي الافق الساكن . فانمي في روعة هذه الليلة المضيئة . ولكن هدير الينابيع لم يقطع تأملات عمرو ولم يمنعه ساعة ارتقى الجبال الشم ان ينظر الى شحوب البحر الميت . والى الظلال السدفاء التي خلعتها جبال جزيرة العرب على مائه الراكد ووراء هذه الجبال التي تبتديء في ارض مواب لتستريح في ارض اليمن ارضوطيء عمرو ترابها المقدس في الطفولة الساذجة المتواضعة ، فلما كبر ونما فغم نفسه عرفها الطيب وتغايت طيورها على رأسه وتعرف فيها الى الشعراء الفرسان الذين خلقوا لغة الوطن واراقوا عليها الجيل البارع من حصاد الذكاء العبقري فنافسهم في العمل الخالد . وساوقهم في الدفاع عن الحرية وهي الغرس الذكي الذي غرسه في ارض الوطن جيل من النابهين لو قدر له ان يخلد الى اليوم الذي ظهر فيه يتيم قريش لكان في ميسوره ان يسمع صليل سلاحه هذه الارض التي تميزت من ظلم الفرس والرومان

توارت الارض العارشة فما عادت ظلالها تترقرق في عيون الفرسان ، واطلت الجبال الكابية فوطئتها الخيول غير حافلة بالتعب ، ثم تتالت الاودية الرمادية اللون تحت ضياء القمر فاوغل الفرسان في ممراتها الهاوية واظلتهم بواسق الزيتون ثم

اوعرت بهم وارتفعت فعبروها بنفوس جذلة حتى مروا ببعض القرى ولاحت لهم خيالات المناسك والصوامع فاطمأنوا الى الانوار الشاحبة تنبعث من الشرفات والنوافذ ، ومضوا في طوافهم غير حافلين ولا مروعين

ولما صافحت عيونهم الاودية الظليلة ورأوا الى شجر الزيتون صاح نفتالي لقد اوشكنا أن نقرب المدينة المقدسة ، وكان صياحه شجياً مؤثراً فلمس عمرو في جرسه حنين المنفي الى الارض التي احبها فاراد فرسانه على الغناء فغنوا شعره في النبي . وللمرة الاولى طاف اسم اليتيم القرشي في سماء المدينة التي ضم ترابها العطر عظام النبيين والرسل ، وكان ينبغي للفرسان ان ينزلوا قرية صغيرة متواضعـة ، يسكنها بعض الاعراب ممن الفوا الانتداء الى بيت المقدس فجاسوا خلالها واستفاق ناسها النيام على اهازيجهم فطفروا من اماكنهم الى النوافذ ، وقد خيل اليهم ان جنود قيصر يطوفون بارضهم فلما خرقت آذانهم اناشيد الصحراء شجيت نفوسهم وتلظت حميتهم ففكروا في الخروج اليهم ليدلوهم على الطريق او ينزلوهم ارضهم فما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، فلقد جاء الفرسان القرية وتسللوا الى طريق يدفع الى ايلياء ، وخلفوا وراءهم المشاهد الجاهمة واستقبلوا المشاهد الضاحكة ورفت النسمات العذاب على وجوههم فندتها ثم فيأتهم اشجار الطريق فصاح نفتالي الذي كان ينظر الى هذا الجمال البارع : اورشليم اورشليم ...

وفي تلك الفينة تطاول عمرو فاذا المدينة المقدسة جاثمة عـلى الربا الفيح وقد ضوأ القمر قباب البيع والكنائس والقصور ، بتريث في سيره وجعل ينظر تحت ظلال الليل الساجي الى المحاريب الماثلة كأنما هو يبحث بينها عن محراب ذلك النبي الذي ولدته جزيرة العرب وكان رجاله في خلال ذلك يغنون اغانيهم الشجية بينما نفتالي التعس ينظر الى عمرو فارس العراق في كثير من الخوف والرعب !

لقد قال نفتالي لابنته وهو ينظر الى عمرو :

ــ الا ترين اليه وهو يحدق الى ايلياء ؟ فقالت له بنيامينا في همس وخفوت :

ــ صه ولا ترفع صوتك ، فانه الرجل الذي يحمل في صوته نذر السماء ! ...

الفصل الحادي عشر

ملوك الشام والعراق

كان القرن الرابع للميلاد منبع الكوارث التي نزلت بالامبراطورية الرومانية في بلاد الشام فقد صدف العرب عن موالاتهم ومصانعتهم ، ونفروا من مداراة قيصر وابوا تبجيله وازوروا عن مصافاة عماله وقواده . فرأى الرومان ان لاجدى من الايغال في ابتعاث العرب على استساغة الثقافة الرومانيه ، والرضا بالسياسة القديمة التي كانت توجب على العرب ان يكونوا عبيداً لعمال قيصر ، فجنحوا الى سياسة جديدة وتلك هي سياسة التحالف . وكانوا قد مارسوها في القرن الاول قبل ميلاد السيد المسيح ودأبوا في ممارستها الى القرن الاول بعد الميلاد

وقد آثر الرومان على الرغم من مصانعتهم اذينة ملك تدمر ونزوعهم الى المساواة بين حقوق قيصر وحقوقه ان يمارسوا اسلوبا جديداً في التحالف ، وذلك هو اسلوب الفيلاركية الذي لا يعرفه العرب ، ويقول يوسف مؤرخ اليهودية ان الفيلاركية كانت شائعة في زمن موسى النبي ، وكان لقب فيلارك وقفا على زعيم القبيلة وشيخ البلد فلما شرع الرومان في الجري على اصول التحالف خلعوا لقب فيلارك على شيوخ القبائل وزعماء الاحزاب في البلاد القائمة على حدود الشام والعراق ، ودعوا هؤلاء الى توثيق السلم في القبائل والذب عن حياض الامبراطورية الرومانية باسم قيصر الرومان ، ولكن العرب لم يأنسوا الى طاعة الفيلارك زعيم القبيلة فقد حدث في سنة ثمانين وستمائة ان تنكرت ماوية الغسانية لقيصر فغزت فلسطين وسواحل فينيقيه وحاربت جيوش الرومان وكانت من قبل تحارب في صفوفهم ' اما السبب الذي ابتعث ملكة غسان على التنكر لقيصر فناشيء عن كرهها الصلاة بلغة الروم ، وقد سألت ماوية انستاس قيصر ان يستبدل اسقف بلادها الاغريقي

باسقف عربي فابىفرحفت بجيش لجب الى فلسطين وفينيقيه ومصر فاتسق لها النصر واذعن قيصر لارادتها (١)

وقد كان ربح الرومان من جريهم على سياسة التحالف عظيما ، فان الذين استهواهم لقب « فيلارك » قد زهدوا في وثنيتهم زلفى لقيصر فتنصر في اواخر القرن الخامس حجر امير كندة واخوه معدي كرب وابن اخيه الحارث بن حجر (٢) ويروي تيوفان المؤرخ الروماني عن حجر قصة غريبة وبيانها ان حجراً كان امير الفرات وكان يؤدي الجزية لكسرى فلحق في سنة سبع وتسعين واربعمائة ببلاد الشام ونشر سلطانه على اراض كثيرة فاحفظ عمله جنود قيصر فنهدوا الى محاربته فصمد لهم وقاتلهم قتالا شديداً ، وشرع يغير على البلاد الخاضعة لهم ويضع يده على كنوزها ثم ينقلب الى ارضه وجيوش قيصر لا تجرؤ على مطاردته وفي سنة اثنتين وخمسمائة توادع قيصر وحجر ونعم امير كندة بلقب فيلارك ثم استطال امر هؤلاء الزعماء الذين حالفهم القياصرة ، وامتد سلطانهم الى البلاد حتى اذا كان الثلث الاول من القرن السادس وهو عصر الامبراطور جوستنيان المعروف عند العرب بيوستنانيوس قيصر اصبح قسم عظيم من البلاد العربية يخضع الزعماء والشيوخ ممن حباهم قيصر لقب فيلارك (٣)

ومنذ ذلك العهد تخلى البيزنطيون عن الامر في مدن كثيرة ، ماخلا بصرى عاصمة حوران التي قامت فيها دولة غسانية حليفة لقيصر ، وجعلوا مدينة دمشق تحت حماية الغساسنة ولكنهم منعوا اعراب البادية وقوافل قريش التي كانت ترتاد الشام للتجارة من دخول دمشق والمدن الكبيرة (٤)

وقد استثار ضعف الامبراطورية الرومانية حمية العرب واهتاج في نفوسهم احساساً وطنياً عنيفاً ، فطمئوا الى الفتح في المدن الكبيرة واخذ الزعماء الذين حباهم قيصر لقب فيلارك ينصبون الاسوار على الحدود تحفزاً للوثوب على المدن التي

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) كامرر في كتابه البتراء ودولة الانباط

قصر الرومان في الدفاع عنها ، وقد قص نونوزو المؤرخ السوري وهو سليل أسرة نبغ فيها رجال كانوا سفراء لقيصر فيجزيرة العرب ، اقاصيص كثيرة عن نزوع الزعماء الى الاستيلاء على الاقاليم (١) ولعب نونوزو نفسه دوراً جسيما وجليلا في سياسةزعماء بلاده ، وبعثه يوستينانيوس « جوستينيان » في سنة عشرين وخمسمائة في سفارة الى قيس بن الحارث فيلارك كندة ومعد وامير فلسطين الجنوبية وناط به السمي الى تسريح بعض كبار قواد الجيش البيزنطي الذين اسرهم امير كندة فياحدى المعارك وفي سنة اربعين وخمسمائة بعث به الامبراطور يوستينيانوس الى بلاد الحبشة ليستميل النجاشي الى الرومان الذين كانوا يقاتلون الفرس ومنذ ذلك اليوم طارت شهرة نونوزو السوري في الآفاق ، فتبوأ جده منزلة رفيعة في قصور ملوك كندة واصبح ابوه ابراهيم عاملا للمنذر اللخمي ملك العراق على بعض الاقاليم وسافر نونوزو الى القسطنطينية ومعه امرؤ القيس بن حجر الملك الضليل فعرفهالى يوستينانوس فاستأنس قيصر الى رجولته وامره على فلسطين (٢) جميعها

ولم يكن نونوزو السوري الوحيد الذي لعب هذا الدور الضخمفي تاريخالعرب وصلاتهم بالرومان ، بل كان هنالك سوريون كثيرون اخلصوا للرومان وحملهم قيصر على الخروج الى الحيرة والى جزيرة العرب ليبشروا بالنصرانية (٣) فاثمر سعيهمواستساغ شيوخالعرب وزعماؤهمالديانة الارثوذكسية وهي ديانةالامبراطور ولكن النصرانيةلم تزهدهم في الفتح ولم تمنعهم ان ينافسوا قيصر في مجده ثم جرأهم على المضي في تحقيق اغراضهم ضعف الامبراطورية الرومانية وتغاضي القياصرةعن اطماعهم ، وانصرافهم الى مراحهم ولهوهم ، فنجم عن ذلك كله ان اصبح الزعماء اصحاب الامر في بلاد كثيرة كانت تخضع لقيصر .

وليس ادل على ضعف الامبراطورية الرومانية من هذا الحادث الذي يرويه مؤرخ روماني عاصر الامبراطور يوحنا فقد حدث في سنةثلاث وسبعين واربعمائة

(١) و(٢) و(٣) كامر في كتابه البتراء ودولة الانباط

ان زحف عربي اسمه امرؤ القيس من العراق الى الشام فاستولى على ايلة والبلاد التي تجاورها وطرد الرومانيين الذين كانوا يجبون الاموال من المدن ، فعلم الامبراطور يوحنا بامره فجنبه عقابه واحسن اليه بان جعله اميراً على البتراء . فحفظ بذلك تجارة الامبراطورية البيزنطية مع الهند !

وقد جنى الرومان من اعترافهم بسلطان الزعماء على الاراضي التي دوخوهـا ما عجزوا عن جنيه في الماضي ، فنشرت الامبراطورية الرومانية ظلهـا على بلاد ما كانت تفكر في الاستيلاء عليهـا واصبح لقيصر عمال يعملون برأيه في البلاد المجاورة ليثرب ، وكان حصاد العرب من مرانهم على الفتح والتدويخ حصاداً شهياً فلقد صقل النصر خيالهم القومي وانمى مطامعهم في توسيع هذا الخيال فما عادوا يقصرون اعمالهم على الفتح في بلاد صغيرة ومغمورة ، بل اصبح شغلهم الشاغل ان يرثوا قيصر في ملكه الاشم ، وفي عرشه الضخم ، وفي مجده الأتم

وما زال النضال في هذا السبيل على عنفوانه وزهوه واشراقه حتى خلط العرب انفسهم بين الفرس الساسانيين ، وبين الرومان البيزنطيين ، وحتى تنازع على مودتهم كسرى وقيصر ، فعاد هذا النزاع على العرب بخير عميم فدأبوا في نضـالهم زلفى لقضية حريتهم

وقد دلت الحروب العديدة التي قامت بين فارس وبزنطية عـلى خطورة بلاد الشام لحرص الفرس على تدويخها واذلالها بمثل حرص الرومان على ان تظل تحت فيئهم ولم يفت العرب هذا التنافس فاستغلوه واسسوا دولتهم المستقلة في الحيرة الى جنوب بابل فلم تلبث هذه الدولة الفتية التي تعاقب عليها الملوك اللخميون ان لعبت دوراً جسيماً يماثل الدور الجسيم الذي لعبته دولة الغساسنة في بصرى وجعل العرب يرتادون اراضي هذه الدولة لموقعها الوسط بين الاسواق التجارية الكبيرة واخذ الشعراء يقصدون اليها من كل اوب ولكن هؤلاء ظلوا يراعون جانب الرومان احلاف الغساسنة وعلى هذه الصورة قدروا على الجمع بين صداقة الغسانيين وصداقة

اللخميين ، وكانت اولى الغايات التي سايرتها دولة المناذرة ان تجعل من الشام والعراق امبراطورية واحدة فنزع ملوكها الى القضاء على ملك الزباء في تدمر ، وحرصوا في امد واحد على موالاة الفرس والرومان (١) واشـد ملوك هذه الدولة امرؤ القيس بن عمرو المقصور وهو اول عربي طمح الى إنشاء دولة عربية تجمع اليها جزيرة العرب والشام والعراق ، وقد كان على شديد نزوعه الى حياة الحروب رجلا حازما توفرت فيه كل سلائق السياسي البارع ، وقد وصفه تيوفان وصفا صادقا فقال : « ما كان يستطيع رجل غير امريء القيس بن عمرو ان يجعـل كفتي الميزان متعادلتين بين جاريه القويين ، عظيم الفرس ، وقيصر الروم ، فكان يقول لكسرى عن نفسه إنه الحليف القوي وانه الى ذلك الرجل الذي اختـاره الله للانتصار على جيوش الروم واذلال الامبراطورية البيزنطية ، ثم كان يقول مثل هذا القول لقيصر ويزيد على ذلك انه حريص على نشر السـلام في حدود بلاده ولكنه ما كان ينام عن الفتح ولا عن الايغال في غزواته ، فجعلت جيوشه وكتائبه تجتاح المدن والاقاليم الممتدة من شواطيء الفرات الى ابواب دمشق ، وكثيراً ما ابتعث جيوشه على الزحف الى جنوبي جزيرة العرب .

وليس من شك ان امرأ القيس قضى نحبه في غزوة بعيدة باهرة اراد من المضي فيها ان يبسط سلطانه على جزيرة العرب ، وقد خدع بعض المؤرخين فظنوه غسانيا ويقول بعض هؤلاء ان تحالف اللخميين والرومان حمل ملوك العراق على ابتزاع ارض الشام بكثير من القصور والصروح والحصون ولا تزال بادية الشام تغص بآثارهم ، وقد توهمها كثير من الباحثين من عمل الغساسنة ، ثم ردوها الى اصلها العراقي ، فاذا قدر لسائح ان يجتاز المواضع التي نزل بها اللخميون في صميم البادية الشامية ما وراء درب الحج القديم اخذته ذهلة شديدة وتساءل في نفسه . كيف قدر لملوك العراق ان يحققوا معجزاتهم في الارض الفضاء .

---

(١) كامرير في كتابه البتراء ودولة الانباط .

لاينبغي لاحد ان يشعر بالحيرة فان الاحساس الوطني الذي تدافع في صدور العراقيين كان مصدر عظمتهم في القرن الخامس والقرن السادس

ولقد تعاقب على العراق ملوك من طراز امرىء القيس بن عمرو ولكنهم كانوا جميعهم من صنائع الفرس ، وفي سنة ست وخمسمائة توادع الفرس والرومان ثم لم يلبث يوستنيانيوس الاول ان رفض في سنة تسع وعشرين وخمسمائة اموراً في المعاهدة كان يخالها مزرية بشأنه . فهاجم المنذر الثالث ملك العراق واسمه عند الرومان « الماندروس » بلاد الشام فذعر الفرس من مطامحه وروعهم جريه في الفتح على اساليب امرىء القيس بن عمرو ، فازمعوا القضاء على ملكه ، وكان لا معدى لهم لبلوغ امانيهم في قهره عن الركون الى حليف جديد ، فاقاموا دولة جديدة بين الفرات وتدمر وولوا امرها زعيما من زعماء جنوبي جزيرة العرب اسمه الحارث الكندي ، وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة لمع نجم الحارث الغساني ملك الشام

على ان سياسة المداراة والتقلب التي نزع اليها احلاف الامبراطورية الرومانية الشرقية ماكانت لترضي الرومان . ولقد شعر هؤلاء بان اللخميين ملوك العراق قد افرطوا في خداعهم وليس في ميسورهم ان يصلوا اليهم لبعد المسافة ، وفت في عضدهم ان يتناصر يهود الفرات الذين روعتهم روما وبزنطية مع العرب وان يحرض الاولون الآخرين على اجتياح الاراضي الرومانية ليثأروا بدمائهم من قيصر وقد وجد اليهود في الارض العربية حمى وملاذاً فغرسوا فيهـا بذور الحقد والبغض فزهت وجاءت بثمر شهي (١) ولم يفت الفرس بأس هؤلاء ومراسهم على مغالبة الرومان وقدرتهم على اصطناع الروابط الجنسية التي تربطهم بالعرب ابناء عمومتهم فتغاضوا عنهم فلما استأنف كسرى القتال في اراضي الرومان سنة ثلاثين وخمسمائة لم يتردد اليهود في استثارة حمية اللخميين فتبارى هؤلاء في محاربة الرومان

مل يوستنيانيوس في النهاية من الاعيب اليهود ، واحفظه تشيعهم للفرس فاخذ

(١) كامرر في كتابه البتراء ودولة الانباط

يفتش عن حليف قوي يطمئن الى صداقته ومودته . وكان ينبغي له ان يبحث كثيراً عن « البطل » فعثر عليه في بادية الشام ورأى فيه الرجل القادر على مناخفة الفرس والهود وعرب العراق معاً ، وقد هيء هذا العمل الرائع وانتدب قيصر لتحقيقه زعيم اسرة عربية نزحت الى الشام من اقصى جنوب بلاد العرب ، ثم لم يلبث ان جعل الزعيم على رأس دولة سورية عربية رومانية ودعاه الى الصمود لملوك العراق الذين كانوا يهاجمون الاراضي الرومانية

وهذه الاسرة الجديدة التي حالفها قيصر هي الاسرة الغسانية ذات الاصل المظلم ومهما يكن من امر هذا الغموض الذي يكتنف منبع هذه الاسرة التي ولدت الملوك والامراء فان اسم غسان قد جاء ذكره في الكتابات اللحيانية التي اكتشفت في العلا ولا تزال البواعث التي حملت غسان على الهجرة من جنوب جزيرة العرب الى الشمال من الامور التي عجز العلماء عن ادراك خفاياها وكل ما يعلمه التاريخ عنها انها ارسخت اقدامها في اراضي الشام في اواخر القرن الرابع وقد حذق ملوكها الثقافة الرومانية وجاروا الرومان في مظاهر البذخ والترف ، وجد هذه الاسرة الاعلى عمرو مزيقياء ، وابنه جفنة بن عمرو الذي ثار على الرومان في فلسطين سنة عشر وخمسمائة وهو رأس الاسرة الغسانية ومؤسس دولة آل جفنه (١)

بلغت الدولة الغسانية السورية العربية غاياتها من المجد والتوسع في عهد ابي شمر فلقب امراؤها بملوك الشام واخذوا ينافسون ملوك العراق ، واشهر ملوك هذه الدولة الحارث بن جبلة الذي امتد ملكه من سنة تسع وعشرين وخمسمائة الى سنة تسع وستين وخمسمائة ، ويروي يوحنا مليلا ان الحارث الغساني هزم جيوش الفرات شر هزيمة في شهر نيسان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، ويقول تيوفان ان المنذر الثالث ملك العراق نزع بعد ان تمت له الغلبة على قبائل العرب في تدمر الى القيام بعمل حربي في الشام فبلغ في زحفه المديد مدينة انطاكية . فلحقت به كتائب

(١) كامرر في كتابه البتراء ودولة الانباط

الرومان ، فانسحب بجيشه واخذ معه بعض الاسرى وبينهم قائد بيزنطي . فلما يئس الرومان من اللحـــاق به هدموا بعض المدن في شواطيء الفرات ، ويقول مؤرخو الرومان ان بليزاريوس وهو اشجع قواد قيصر لم يستطع ثباتا امام جيوش العراق فهزم شر هزيمة في معركة الرقة (١٩ نيسان سنة ٥٣١) وانهزمت معه جيوش الحارث بن جبله الغساني برغم انتصاراته الاولى

ولكن هذه الرجعة الخائبة لم تمنع يوستنيانوس في نفس العام ان يهب للحارث الذي دأب في حروبه مع المنذر لقب فيلارك ، ثم اقطعه جميع الولايات الشامية الشرقية ورفعه الى مصاف كبار قواد الجيش الروماني ، ومنحه الى ذلك كله لقب دوق ولم يمنعه ان يجري في حياته على اساليب القياصرة فلبس الارجوان ووضع على رأسه تاجا ثمينا باركه بطاريك الكنيسة الارثوذكسية (١)

وفي سنة اربعين وخمسمائة ابلى الحــــارث بن جبلة احسن بلاء في الحرب التي اثيرت بين قيصر الرومان وعظيم الفرس ، فلقبه يوستنيانوس ببطريق الجيوش وجعله ملكا على دمشق والشام

ولكن الحظوظ اللامعة ما كانت لترافق الملك الحارث الى خاتمة المطاف فلقد وقع ابنه في حروب سنة اربع واربعين وخمسمائة اسيراً في يدي المنذر اللخمي فالقى به ملك العراق الى النار فاحنق عمله الحارث فدأب في حروبه حتى اتسق له النصر على خصمه في معركة قنسرين ، وفي هذه المعركة التي اريق فيها الدم العراقي الى جانب الدم الشامي هلك المنذر وانطلق الحارث بعد هذا النصر الباهر الذي جنى قطوفه الدانية الى القسطنطينية فاستقبله قيصر والبطاريك في كنيسة اياصوفيا والبساه تاج الملوك وكان ذلك في سنة ست وستين وخمسمائة (٢)

ولم تصلح المكانة السامية التي وصلت اليها الاسرة الغسانية شيئاً من امور الرومان ، بل ان عظمة الدولة الغسانية كانت عاملا كبيراً في تعاسة سورية فاستأنف

---

(١)و(٢) كامرر في كتابه البتراء ودولة الانباط

ملوك العراق حروبهم في الارض الشامية ، ولم يكن في ميسور الغساسنة الذين عرتهم متارف الرومان من سلائقهم الكريمة ان يصمدوا لمنافسيهم ويقول بركوب. وهو احد المؤرخين الذين عاصروا الحارث بن جبله ان ملك العراق المنذر الثالث ما كان يجد مانعا يمنعه من التوغل في اراضي قيصر (١)

ومع هذا كله لم تعدل بزنطية عن ولائها للغساسنة فخالفت اباكرب المنذر الغساني (سنة ٥٦٩ — الى سنة ٥٨٧ — وهو ابن الحارث بن جبلة الذي توفي في سنة ٥٦٩) فاستقل باعباء الملك بعد موت سميه المنذر الثالث ملك العراق بعشر سنوات ولعل تشابه الاسماء بين ملوك الشام والعراق كان المنبع الاول لخليط المؤرخين وتخبطهم

ولي الامر في العراق بعد موت الملك المنذر الثالث « سنة ٥٧٠ » ابو قابوس النعمان بن المنذر فغلبه المنذر الغساني على امره(٢) وناشد القسطنطينية ان تجيبه الى سؤله فقد كان يطمع في توسيع ملكه فابت ان تقره على ذلك فثار على الامبراطور جوستين الثاني ، ولم يفت الفارس اغراض هـذه الثورة ، فقاتلوا الرومان في خلال ثلاث سنوات فادرك الامبراطور جوستين خطـأه فجنح الى مداراة حليفه الغساني وقد جرى الصلح بين الرومان وملك غسان في حفلة رائعة بعد موت جوستين بقليل حيال ضريح احد القديسين ، ثم رأى المنذر ان يسابق اباه الحارث في سياسته فزار القسطنطينية (٣) مع ولديه فاستقبله الامبراطور طيباريوس الثاني خلف الامبراطور جوستين الثاني ومنحه لقب فيلارك الامبراطورية الرومانية ووضع على رأسه تاجا ثمينا كان لاحد القياصرة والبسه قباء محلى بالذهب واليواقيت ولما رجع المنذر الغساني الى الشام احمسه افراط قيصر في تكريمه وتبجيله

---

(١) كامرر في كتابه البتراء ودولة الانباط
(٢) راجع رواية سيد قريش للمؤلف
(٣) كامرر في كتابه البتراء ودولة الانباط

فاغار على الحيرة واضرم النار في قصورها (١)

وكانت احلام المنذر الغساني عظيمة ، فنازعته نفسه الى منافسة الفرس والرومان معاً ، فطفق يعمل على الحاق العراق بالشام ، فاتهمه الرومان بالتواطؤ مع الفرس وكثيراً ما وجه الرومان مثل هذه التهمة الى حلفائهم العرب للتخلص منهم ، وفي ذات صباح بينما كان الرومان والعرب يقضون نذورهم في كنيسة جديدة احدقت كتائب قيطر بالمنذر الغساني في مكان بين دمشق وتدمر (سنة ٥٨٢) فاسرته ورمت به سجيناً الى حصن على البحر في مدينة صقلية فلم يلبث ان قضى نحبه بعيداً عن وطنه

ولما علم بنوه بمصرعه في صقلية البلد النازح ، صارحوا قيصر بالعداء وجنحوا الى الثورة فاتخذوا حامية بصرى في ثورتهم ، ونادت بالنعمان بن المنذر الغساني ملكا على الشام ولكن الرومان لم يلبثوا ان اخمدوا هذه الثورة ، واسروا النعمان وبعثوا به الى القسطنطينية في سنة اربع وثمانين وخمسمائة ، ثم طوى الرومان دولة الغساسنة ولما تنجح في الاستيلاء على الشام ولم يقدر لها ان تنتصر على جيوش كسرى فطوي بانقراضها ذلك الحلف العربي الذي تألف بجوار حدود الامبراطورية ثم تجزأ الرومان اراضي الدولة الغسانية ووزعوها على خمسة عشر اميراً اختارهم قيصر من بين الذين عرفوا باخلاصهم للنصرانية ومنح كل واحد من هؤلاء لقب فيلارك وكان اقوى هؤلاء الأمراء الذين تخيرهم قيصر ملوكاً للشام من اسرة جذامية تعاقب رجال منها على الملك في العراق ، وقد خرج من هذه الاسرة فروة بن عمرو الجذامي امير البلاد القائمة الى جنوب معان ثم يليه في منعة الجانب امير بصرى الحارث بن ابي شمر الغساني وقد كانت دمشق في حيازة الغساسنة فانتزعت منهم وولي الامر فيها سنة سبع وعشرين وستمائة رجل سوري اسمه منصور بن سرجون وهكذا انتهى امر الدولة الغسانية على يدي الرومان الذين خلقوها واصبحت البلاد خاضعة لقيصر ولعماله ولم تعد الدولة الغسانية تجب الملوك الصيد ، فزهد ابناؤها

---

(١) كامرر في كتابه البتراء ودولة الانباط

في مجد ابائهم وعلقوا بالارثوذكسية وهي ديانة قيصر ، واطرحوا كبرياء الوطن واهملوا آدابه وفنونه وآثروا لغة الرومان على لغة العرب فحذقوها واجروها على السنتهم وعلموها صغارهم ، فنشأ هؤلاء الصغار على حب الرومان وكرهوا وطنهم الاصيـــل

على ان الدولة العربية التي قامت في العراق ؛ لم تعمر طويلا بعد هلاك عدوتها الدولة الغســـانية فلقد حدث ان حارب النعمان بن المنذر وهو آخر ملوك الدولة العراقية الرومان على شواطيء الخابور ثم تراجع فاتهمه عظيم فارس بالخيانة فخلعه ورمى به الى اعماق السجون فمات مغموما في خانقين وعلى هذه الصورة قضى كسرى على دولة المناذرة فانهارت اركانها وعفا رسمها بعد تضعضع الدولة الغســانية واضمحلالها بثلاثين سنة

وقد شعر الشاميون والعراقيون بعد ان بادت ممالكهم في دمشق والحيرة بحاجتهم الى رجل واحد يجمع امرهم ويهيب بهم الى قتال الفرس والرومان معا فلما انبثق نور يتيم قريش من غار حراء رقت بطاح الشام وارجاء العراق لبعثه واخذ الزعماء الذين اشجاهم ايغال العدو الاجنبي في تمزيق وحدة الوطن يتجسسون اخبار جزيرة العرب وطنهم الاول فاستثار زهوهم امر هذا النبي الذي جمع اليه في امد واحـــد رسالة السماء ورسالة الحرية فظمئوا الى الانضواء تحت رايته

ولم يفت الرومان هذا الحصاد الذي حصدوه من سيــاسة قائمة على التقلب والرياء فادركوا ان اكثارهم من الزعماء والامراء لا يجديهم في يســير او كثير واسوثقوا من عجز الفيلارك الذي ارادوه على قتال الفرس عن القتـال في جزيرة العرب ، وليس من شك ان نجاح الفرس في القضاء على سياسة الرومان في الشام كان من اكبر العوامل التي اودت بكيان الامبراطورية الرومانية في الشرق ومهدت طريق الفتح امام رجال النبي وقد كان للمال اثر كبير في تضعضع الدولة الرومـانية وانكسارها امام عصائب من العرب وذلك لأن قيصر كان قد اجرى رزقا على بعض

الشيوخ الذين يحرسون التخوم في اراضي مواب ، فلم يلبث ان حبس هذا الرزق عن الشيوخ ولما سأل هؤلآء عمال قيصر ان يعطوهم مالا شتمهم اخوه تيودور ، وقال لهم

— ان الامبراطور لن يستطيع بعد هذا اليوم ان يهب شيئاً من خيراته لكلاب البادية ، وكلمته هذه مشهورة ، وقد رددها كثير من مؤرخي الروم . فلما سمعها العرب اداروا ظهورهم لقيصر ، ثم لم يلبثوا ان لحقوا باخوانهم عرب الجزيرة حينما اطل هؤلآء على شواطيء البحر الميت

ودارت الارض دورتها فاذا معركة اليرموك تقرر مصير سورية في سنة اربع وثلاثين وستمائة .

* * *

في اواخر حزيران دخل هراقليوس الى ايلياء في موكب رائع ، تألف من ملوك الشام وبطاريق الجيش ، وبطاريك الكنيسة . فكان هذا الموكب الذي اظلته حراب الرومان صورة صحيحة لمصرع الحرية في بلاد الشام . وفي اليوم نفسه خرجت من جزيرة العرب سرية من الفرسان بقيادة جعفر بن ابي طالب ، فشقت الصحراء في طريقها الى الشام لتثأر بدم عمير بن الحارث الازدي رسول يتيم قريش الذي قتله عامل قيصر في معان !



الفصل الثاني عشر

مدينة الرســـل

قالت بنيامينا لابيها وقد تشاجى ساعة صافحت عيناه خيال المدينة المقدسة من بعيد

— ما الذي اشجاك يا ابي ، فهل رأيت في هذه المشاهد التي تنظر اليهـــا ما لا يروق !كنت منذ هنيهة تهمس في اذني همسك اللذ وتقول لي واحنيناه الى الارض المقدسة بل واشواقاه الى قضاء ليلة واحدة على سفوح جبل الزيتون ثم لا ابالي بعد ذلك ان ينفرط عمري ؛ فما دعاك الى الشجن ؟

ولكن نفتالي لم يستمع لابنته ، فلقد طافت به اوهامه واحلامه بايلياء فجعل يتعرف الى الاماكن الكريمة التي وسعت عالماً كبيراً من الرسل، وطفق ينظر الى باب داود على سفوح جبل الزيتون فاشجاه ان لا يرى اثراً للصوامع والمحاريب التي طاف بها قبل خمس وعشرين سنة ، ثم ارتد ينظر الى المكان الذي تراءى فيه السيد المسيح للمريمات الثلاث . مريم المجدلية ، ومريم والدة يعقوب ، ومريم سالومه ، بين القصر وباب جبل الزيتون ، فرآه خراباً بلقعاً فتطاول برأسه الى منزل سمعان الفريسي حيث اعترفت مريم المجدلية امام السيد المسيح بخطاياها فاذا رسومه قد عفت فبحث عن ذلك المثوى الذي آوت اليه العذراء وعن الارض التي كانت سجناً للصالح بطرس ، ثم استحالت الى معبد فما رأى شيئاً ممـــا امل ان يراه ، فقد تداعى منزل العذراء ، وتوارى المعبد الذي كان في الماضي سجناً لبطرس . ولما تطلع الى جبل الآلام ليرى الى كنيسة القبر المقدس التي احتوت رفات السيد المسيح اذهله ان لا يرى القبب البواذخ فشد على يد ابنته وقال لها :

— لقد سألتني عن منبع شجوني فاذا نظرت الى هذه الطلول العافية فلا يفوتك ما بنفسي من صور لا تروق !...

وكان القمر لا يزال يطوف بنواحي السماء ، فبددت انواره السحب ، وظهرت قصور المدينة المقدسة ومعابدها في ابشع صورة . فرأت بنيامينا الى الحياط والقبب المتداعية والى السقوف المهدمة ، ثم الى المصاطب الزائلة فروعها هذا الذي رأت فقالت لابيها :

— من تظن الفاعل يا ابي ؟ فقال لها في كثير من المرارة والالتياع :

— كسرى ! ...

— يا للرجل العاثر الجد !

— في مثل هذه الليلة يابنية يجمل بك بي انا التعس ان نردد ما قاله ارميا في رثاء المدينة المقدسة « اسرفت اورشليم في طغيانها فاذلها الله وجعلها رجسة فعزف عن تكريمها اولئك الذين رأوا عورتها فيئست وزفرت وارتدت الى الوراء تسحب اذيالها وقد سال عليها الرجس والصديد »

— ولكن ما تقوله كثير يا ابي

— قلت الحقيقة يابنية

وفي تلك الاثناء اضاء في جوانب الافق لهب احمر فجعل الفرسان العشرة الذين وقفوا ينظرون الى المدينة من عليا الجبل يتهامسون ويتسارون ، وقد اذهلهم هذا الوهج الوردي فالتفت عمرو بن معدي كرب الى نفتالي وقال له :

— الا ترى ! فقال نعم رأيت ، فقال فما هذا القبس ؟

— لعله وميض برق

— ولكن السماء مصحية والقمر يضيء والليلة صائفة . فمن اين تتوافى البروق والسحب ، ويل ابيك ، الا تسمع ! . . انه لصليل مخيف

فذهب نفتالي بحسه وسمعه وبصره الى الناحية التي صدر عنها ذلك الصليل المخيف ثم امتقع وجهه ونظر الى عمرو نظرة صامتة فيها الشيء الكثير من آلام نفسه فقال له فارس العراق :

— ماذا سمعت ؟ واي صوت هذا الذي يقصف كقصف الرعد ؟

فقال نفتالي «صوت النار ايها المولى، انه ليخرج من بين الانقاض ثم يتعالى الى الفضاء وينشر في رقيع السماء الوانه الكامدة فكأنه السحب الجونا في الليلة الغبراء

— المدينة تحترق ! ..

فهز نفتالي رأسه واردف « بلى ياسيدي ان المدينة تحـترق ! .. انظر الى القنن الرفيعة فماذا ترى عليها تحت ضياء القمر ؟ فحدق عمرو الى الافق البعيد ، ورأى الى اشباح تطفو على رءوس الجبال فقال :

— عاف الناس بيوتهم فراراً من اللهب فعاذوا بالجبال ، انهم يصيحون صياح اليأس والألم، الا ترى اليهم ، انهم ينظرون من الربا التي اظلتهم الى بيوتهم بعيون يطل منها الروع والجنون

وكانت بنيامينا تنظر الى النار الحاصدة من مكانها في الجبل فلما سمعت حديث ابيها تلون وجهها وقالت :

كأن كسرى لم يبرح المدينة المقدسة ، فسمعها ابوها فزلف اليها وقال :

— ذهب كسرى يابنية وذهبت كتائبه ! ..

— اذن فهذه النار التي تولول ولولة الرعب على سطوح المنازل المتداعية ..

— هذه النار يابنية من عمل هراقليوس ! ..

— ابي ! في مثل هذه الليلة يحلو الرجوع الى المكان الواعر على شواطيء البحر الميت

— لقد رجوتك الا تصدقي احلامك فابيت

فقال عمرو ! قتلك فزعك وجبنك حتى توهمت قيصر صاحب هذه الفعلة ثم التفت الى رجاله العشرة وصاح :

— الى جيادكم فانه لا ينبغي لنا ان نترك النار تحصد حصادها في الناس !

فقال نفتالي ، او منطلق انت الى المدينة ؟ قال نعم فاني مانزلت ارضهـــا الا لنصرة مظلوم

— وقيصر ؟

— ثكلته امه ! ..

— ولكنه ايها المولى سيد هذه الدنيا عرضا وطولا !

— ما نكرت ان يكون قيصر سيد هذه الدنيا في عرض وطول ولكني الرجل الذي نذر لقومه ليشتمن هراقليوس تحت اللواء ! ...

— انك مخيف يا سيدي !

ثم رسم نفتالي علامة الصليب على صدره وغمغم قائلا :

— اي شيطان رمت به رمال الصحارى الى ايلياء !

وكانت سحب الدخان الحمراء قد تراكضت الى حواشي الافق فاظلت وادي « يوشافاط » المعروف قديما بوادي الملك ، ووادي جهنم ، فرأى نفتالي على ضوء الحريق من مكانه على جبل الزيتون الى الشرق من اورشليم طوائف من الناس اشخصها الذعر الى الوادي الراعب فجحظت عيناه وثلجت يداه فصاح بابنته :

ويلك ! الا ترين الى ما ارى ؟ فقالت :

— ماذا رأيت يا ابي ، فومض بيده الى وادي يوشافاط واردف :

— لقد عاذ الاموات الاحياء بوادي الموت يابنية فراراً من الحريق ..

لا يماثل جبل الزيتون جبال مواب في شموخها وارتفاعها . ولكنه يطل على المدينة المقدسة من جميع النواحي ، فاذا ضوأت انوار القمر رباعه وشعافه وتلوله ومنحدراته خيل للناظرين اليه من سطوح البيوت وشرفات المنازل انه الجبل المتطاول الى السموات الفيح ، فاذا سجا الليل ونامت المدينة المقدسة في ظل محاريبها البيضاء وقصورها الشماء وانتشر الصمت في الحزون والنجود . وصعد المسافر الى الجبل المقدس الذى صلى الناصري على جلامده تراءت له مقاصير الطرق ورأى الى وادي يوشافاط الجديب الماحل فلم يستطع ان يجنب نفسه الذعر ، فاذا نازعته نفسه اليه سقط على الحضيض الغائر ، ولم ير في اطرافه الفيح شجراً ناسياً ،

ولا عشباً زاهياً ولا ماء جاريا ، في هذا المكان الذي جفته الحيـــاة يقع طرف المسافر على ارض غبراء ذات حجارة حمراء غصت اطرافها الغربية بروامس يغشاء اختلط بعضها ببعض ولم تنقش على اطرافها اسماء الذين اخرسهم الموت واغرقهم في ليله ولم يرتفع على غواربها صليب او نصب

قالت بنيامينا لابيها ساعة لاح لها ذلك الوادي المكفهر

— ان مشهد هذه القبور العارية لمؤلم يا ابي فشد نفتالي يدها وقال لها :

— مالك ولمضاجع النيام يابنية ! فان هؤلاء الاحياء الذين رمت بهم النار الى خارج البيوت يمثلون صورة الصراع الذي لا ينتهي بين الغـــالب والمغلوب ! واني لاجد هؤلاء الذين توافوا الى الوادي من كل النواحي على صليل اللهب احق بالرثاء من كل هؤلاء الذين غيبتهم القبور ، فلقد استراح الموتى من متاعب الحياة على حين لا يزال هؤلاء الذين فارقوا مساكنهم في هذه الليلة ينشدون الموادعة لأن متاعبهم جديدة ! ...

ولم يستطع نفتالي ان يمضي في حديثه . فلقد اخرسه انيغص الوادي على وعورته بالناس ، ولم يعد في ميسوره ان يرى الى القبور لكثرة الوافدين على الوادي وبعد قليل تلفت الى ابنته وقال لها :

— تعالي يابنية فقالت له الى اين ؟ قال الى بيت لحم حيث نصلي في كنيسة المهد ثم نعود الى شواطيء البحر الميت ! ..

— الا تخشى ان يعرفك احد ؟

— لقد بدل الألم والمنفى ملامحي فما يستطيع رومـــاني ان يتعرف امري ، ثم رفع صوته وانثنى قائلا :

— سأقول لذلك الطفل المقدس في مهده « الا انظر الى جراحي واستمع لصلاتي وابسط يدك الي ودلني على طريق لا اجد فيها خوفا واعناتا ! » .

— ابي ! ابي

— وسأسأله ان يهب لي نعمة الصبر فانسى ايامي النواحس واقص عليه مآسي الرجل الذيهو خليفته في الارض واقول له ان البطريركسرجيوس قد غمس يدهفي دمي لأنني حرصت على ان اظل نصرانيا في منازعي ولأن البطريرك حرص على ان يظل وثنيا في منازعه

— ابي !

— وسأرفع صوتي ليسمعه الناس جميعا

— ولكنك لن تجد من يستمع لك فان النـــاس قد فتنهم ان ينتصر قيصر والبطريرك على عدو النصرانية كسرى، فاذا سمعوا صوتكوعرفوا امرك استطالوا عليك زلفى لقيصر سيد الدولة، ورعاية للبطريرك سيد الكنيسة !

ولم يشأ ان يتكلم، فلقد برح به الحزن واضواه الالم. واشجته ذكر الماضي وابتعث جراحه مشهد الحريق، وانمت همومه وغمومه سحب عيشته الجافة عـــلى سواحل البحر اللعين. ثم تطاشت زفراته فاخذ ينشج فطفق النشيج من كآبته فقال لابنته:

— لنذهب الى بيت لحم قبل ادبار الليل فقالت له:

— ناشدتك الله ان تتجنب الطرق التي يسير فيها حرس قيصر فقال لها سافعل ولكنني لا استطيع عزوفا عن صلاتي، ثم شخص الى ناحية عمرو بن معدي كرب وقال له ويده في يد ابنته:

— وداعا ايها المولى فقال له عمرو: الى اين ايها الرجل؟

فقال الى كنيسة المهد في بيت لحم فقال عمرو الا تحب ان امضي معك فلعلني امنعك اذا عرض لك امر لا تحبه فتبسم نفتالي وقال:

— لقد حملت نفسك متاعب طريق طويلة ايها المولىحتى انتهيت بيالى الارض التي احبها فما اراني في حاجة الى انماء متاعبك! قال:

— فاذا هاجمك عدو فماذا تفعل؟

— ولكن الناس لا يعرفون شيئاً من امري في اورشليم

— اذهب الى حيث تشاء ولكن حذار ان تنسى اسمي فانك ان دعوتني وجدتني قريباً منك ، فتأبط ذراع ابنته وقال لعمرو :

— سأذهب ايها المولى ولكني ساذكرك في مهد السيد المسيح وسادعو الله لك ثم انحنى على يدي عمرو ولثمهما في كثير من الحب وانطلق بابنته في طريق يدفع الى بيت لحم ولما حجبته ظلال الليل قال عمرو لرجاله وهو ينظر الى قباب المدينة المقدسة :

— انكم ستنزلون ارضا فيها قيصر وكتائبه فضعوا ايديكم على سيوفكم ولا تنسوا اغاني جزيرة العرب وطنكم فلما سمع العشرة صوت الزعيم برقت عيونهم تحت غسق الليل فلبس عمرو في هذا البريق الخاطف كبرياء الوطن الاول فامتشق سيفه ولوح به الى ناحية المحاريب والبيع وقال لرجاله العشرة :

— في هذه الارض المباركة متسع لمحراب يتيم قريش ! وفي خطفة البرق غنى الفرسان العشرة شعراً لفارس العراق في سيد العالم فتعالت اصواتهم الى الفضاء ممزوجة بصدى حوافر جيادهم .



الفصل الثالث عشر

المغارة المقدسة

عزف نفتالي عن الجبل الاشم تحت ذوائب الليل ، وشق طريقه الى المدينة النائمة وبنيامينا تتأبط ذراعه . فلا يفوتها وهو يوغل في سيره ما بنفسه الشاجنة من حنين الى اورشليم هذه المدينة التي باركها الرسل ولعنوها في امد واحد ، ثم جعل يخفق الارض بعصاه فانفلت منها صوت ما كان في ميسور الابنة العانية ان تسمع إلاه في هذه الليلة القمراء وذلك لأن نفسها جعلت تسبح في الرؤى المائعة ، فرأت في وهمها خيالة المدينة المقدسة قبل ان تُرى اليها في الحقيقة المـــاثلة ، ولم تعد تذكر احاديث عمرو عن سؤدده ولا نبراته الحمـــاسية حينما رأته يزري بقيصر ، بل ان نفتالي نفسه على شديد اعجابه بعمرو وافتتانه بحماسته وعنفوانه مـا عاد ينظر الى ورائه ليلقي آخر نظرة على الفارس العربي الذي تولى حماية الطريق ، فلقد انسته اضواء المدينة امامه الغوابر .وساعاته المواضي فتفجرت في نفسه تلك الاغاني البارعة التي وضعها الرسل في عزلاتهم ووصفوا فيها جمال المدينة المقدسة ، فرددها في خفوت وهمس ، ولم يجد في اغانيه القديمة التي غناها على شواطيء البحر الميت ، واودعها شوقه الى الحمى الاول، وصب في معانيها الوان نفسه، واراق عليها آلام حيـاته تلك المعاني التي تعبر عن حبه للارض المقدسة. وحنينه اليها فارتد الى حياة الرسل فانتزع من ايام حبسوها على العزلة اغانيهم الشجية فاجراها على لسانه. وقديما تحبب الرسل وتحبب الملوك الى اورشليم فحيوها احسن تحية ، وتحدثوا اليها باجى بيان ، واسمعوها الفاظ الاطراء وحرصوا على انـ تجيء نخمـــة وعالية ، لأن اورشليم تحب الاطراء وتستسيغ الكلم البارع ، وتلذ البيانـ الرائق ، ولقد بدت له رائعـــة وفتانة ، فبهره زخرفها الخالب ، واخذته انوارها الغـــامرة ، ثم رأى اليها عظيمة

وغنية ، عظيمة بماضيها البعيد ، وغنية بقصورها البواذخ ومحاريبها البواسق ، فلوح بعصاه الى افقها المضيء وحياها تحية المغترب النـــازح ، ثم تواضع وركع وصلى صلاته الهامسة ، وسالت مذارف عينيه فندت الارض ورققتها

معنى كلمة اوشليم طيف السلام ، فهي مدينة المسالمة والموادعة ، ثم هي الى ذلك ابنة صهيون وملكة الجبال ، ومدينة داود ، وحرم سليمان ، ثم هي وطن الفكر في حياته الاولى ، وصورة النعيم في دنيا الناس ، والبلد الذي تواضعت النصرانية على اكباره واجلاله لأنه ملتقى احلام الناصري في بدايته ، ومثوى راحته ودعته في نهايته ، ثم هي مرتاد العرب الاقدس في الجاهلية ، ومهوى آمال الغطاريف المساعير من ملوك الشام والعراق ، ثم هي ارض الموعد عند الناس جميعا . اكبرتها اليهودية في ماضيها لأنها الدار التي تتلاقى فيها الحظوظ اللوامع . وآثرتها النصرانية لأنهـــا الجنة الزاهرة التي رفت عليهـــا احلامها البواكر ، وغالى العرب في ايثارها لأنها الارض التي وسعت امالهم وامانيهم في الجاهلية ، ثم لأنها الارض التي قال عنها كهان من العرب في سوق عكاظ قبل مولد النبي ومبعثه ، ليكونن على اديمها المقدس حرم عربي يماثل في روعته وبهائه حرم مكة في روعته وبهائه ،

خربها طيطس قيصر الرومان في مستهل امره ، ودرس هيكلها العجيب فظلت فتنة الناس ، ثم تعاورهـــا الاغريق فما فارقها سناؤها ، وحرق الفرس محاريبها فما جفاها بهاؤها ، ونزل هراقليوس بسوحها فما زايلها رواؤها . وجاس نفتالي في هذه الليلة خلالها فاذا هي المدينة التي ابتسمت الرسل ثم تنكرت لهم

لقد قال المنفي الطريد لابنته وقد فرغ من صلاته وجاز بعض الطريق ولاحت له عن بعد طلول هيكل سليمان ، وقباب كنيسة القبر المقدس

ليتني كنت قادراً على التحليق في الافق ، فانظر من عليا الضباب الى ذلك المكان المقدس الذي استراح اليه السيد ! فقالت وقد اخذتها خيالات المناسك والمعابد ، واستثار كبرها وزهوها اطلالها على الوطن الذي لم تر اليه من زمن الطفولة

— اذا شئت انطلقت بك الى كنيسة القبر المقدس فقال لها :

— رويدك يابنية فاني فاعل ذلك في غدي ، ولكنني نذرت ســاعة احتوتني كنيسة الاربعين في اريحا لادعون على قيصر في كنيسة المهد ، عند حدور بيت لحم ! واشواقي الى ذلك اليوم الذي ارفع فيه صوتي بدعاء قلبي المحطم فيسمعه الطفل المقدس في المهد فيرق ويتشاجى ويسأل الله الذي رفعه اليه حداً لهذه الالآم التي تعاورت نفسي في الليالي الغوابر ! ...

واخذ يغني وقد نسي صورة الحريق الطامي ، ونسي مشهد وادي يوشافاط ! وقد يكون من حقه ان ينزع الصور الكامدة من صدره ، والا يفكر في السحب السود فان انبعاثه في الارض التي قام عليها الرسل والتي وسعت الماضي كله والحاضر كله والتي ستسع المستقبل كله ، كانت ترجيه في حياته المائلة الى الذهول عن المشاهد العابسة فشعر بشيء جديد لم يكن يشعر به قبل يومــه وذلك هو شعوره بانتهاء آلامه وبقدرته على استئناف حياة جديدة لم يعلق بها شيء من كدورة حياته القديمة ، ولكنه الى جانب هذا الاحساس الذي احسه لم ينس قيصر فقد كان لزاما عليه ان يستبقي ذكره وان يردد اسمه حتى يفتح صدره للطفل الناصري بجوار مهده المقــدس .

وقد كانت هواجسه عظيمة وعالية ،فظل ينظر الى بيت لحم من بعيد حتى لألأ السحر واخذ الناس يروحون ويجيئون في شوارع المدينــة فلم يفطن اليهم وكذلك كان شأن ابنته ، فانها قد نظرت الى ما يجيش في صدرها ولم تنظر الى وجوه الغادين والرائحين ولو قدر لها ان تلتفت او قدر لا بيها ان يبصر لشهدا في وجوه الناس صوراً يغاير بعضها بعضا ، ثم جعل الاب وابنته يشقان الطرق المؤدية الى بيت لحم واخذت الشوارع تغص بانماط غريبة من الناس ، وبين هؤلاء الذين توافوا من نواحي بلاد الشام بيزنطيون باثوابهم المذهبة البراقة . ويهود بوجوههم المصفرة وشعورهم المرسلة وعيونهم الخائفة ، وسوريون بقسماتهم المضيئة وجباههم

العريضة وملابسهم الملونة ، وعرب بوجوههم السمراء وعيونهم السوداء وارديتهم الفضاضة ،وسريان يحملون الصلبان والمجامر والشموع ، يتخلل هـــذه المواكب رجال من حرس قيصر ورجال من حرس الملك الغساني ، ثم رجال من احراس الملوك والامراء الذين ابتعثهم هراقليوس على موافاته الى ايلياء ، وبين هؤلآء جميعا اسراب من نساء الشام ونساء البادية ، فاما نساء الشام فقد حاكين في ملابسهن مريم العذراء في ملابسها ، وحملن اطفالهن على مناكبهن ، واما البدويات فقد حرصن على شيم البادية فلبسن اللباس البسيط المتواضع واردفن اطفـالهن وراء ظهورهن واخفين شعورهن فلم يبصرها احد من كل هؤلآء الذين حفلت بهم طرق بيت المقدس ، ثم سار بعض الناس في طريق يدفع الى كنيسة المهد ، وتهافت بعضهم على قراءة رسالة قيصر الى الناس وقد ترائت على الجدر والحياط في الشوارع ، وافلت فريق من هؤلآء فلم يلحق بكنيسة القبر المقدس ، ولم تستوقفه رسالة قيصر بل انحى ناحية جبل الزيتون ليشترك في مباهج هذه الليلة التي حبسها الرومان على تكريم قيصر لانتصاره اللامع على الفرس ، وانتزاعه الصليب الكبير من ايديهم ، ثم لبـلائه في اليهود ليلة دخوله الى ايلياء

وقد كان التناقض يبين على وجوه الجميع ، فان اليهود الذين نجوا من القتل كانوا يطلون على الناس بوجوه صوحهـــا الذعر واذبلها الرعب ، بينما القلق يغشى نفوس السوريين الذين لم يكونوا يحبون الرومان على الرغم من انتصار هؤلآء على عدو النصرانية ، وبينما كان الفرح والامل يطبعان وجوه العرب السمراء بطابع كبر عجيب ، فلقد كان هؤلآء الذين احتضنتهم ارض ايلياء يحملون في نفوسهم ذكريات النبي اليتيم ،وكانوا يعلمون اخباره ، ولا يفوتهم من رسالته يسير او كثير ، ثم كانوا الى جانب ذلك يتطلعون بلهفة وحب الى امتداد امره ،ويرجون ان يكون له في الارض التي روعها الرومان والفرس حرم ومصلى بجوار هذه المحاريب التي وثقتها النصرانية واليهودية ،وكان الرومان من ناحية يسيرون مرحا وينظرون الى هـــذه

الشعوب كلها نظرة زراية وعبث لأنهم اصحاب هذه الدنيـــا في بر وبحر ولأنهم في حاشية قيصر، ثم لأنهم ردوا الى النصرانية وقارها بعد ضيـــاع ، وما كان اليهود والسوريون والنصارى من اي شعب آخر ليجتمعوا على امر من الامور ، اويتحدوا على غاية من الغايات ، وانما كانوا طوائف من الناس تغايرت احساساتهم ومشاعرهم حيال الوطن المشترك الذي يعيشون في فيئه برغم اجماعهم على النفور من الرومان ولكن العربي وحده هو الذي استطاع ان يساير الوطن الاول في اقدس غاياته فنشأ على كره الرومان وعلى احتقار الشعوب الاخرى التي تخضع لقيصر . وقد حمله كرهه الرومان واحتقاره الشعوب الاخرى على مجاراة وطنه في حماسته لمبعث النبي اليتيم ، تحت هذا الشعور النبيل نمت مطامع ابن الصحراء فصار يفكر في الاستيلاء على دنيا الرومان ودنيا الفرس معا من غير ان يفطن الى اهل المدن الذين لا يشاطرونه عيشته وتفكيره !

دخل قيصر الى ايلياء قبل اسابيع في مهرجان رائع وصفـــه مؤرخو عصره ، ولكن هذا المهرجان الرائع الذي حشدت له الامبراطورية البيزنطية مفاتن روما والقسطنطينية والشرق لم يكد يبدأ بدايته الخالبة حتى انتهى الى شر الخواتيم ، ذلك ان قيصر بعد ان استراح في القصر الذي اعد له ولحاشيته اجتمع الى مودستوس بطريرك بيت المقدس ،ومع هذا الاخير جيش من الرهبان، يحملون الاناجيل والشموع والمجامر ، ومن ورائهم جموع كثيرة لخيالهم وخرج بهم الى المدينة في محفة من اللؤلؤ والياقوت ، فلما بلغ الباب الذهبي الى الجانب الشرقي من ايلياء خف الى لقائه زكريا بطريرك بيت المقدس الذي كان اسيراً عند الفرس فبالغ في تحيته وتكريمه ولكنه عنفه على ايغاله في الترف، وما ينبغي لقيصران يستترف وقدأوته تلك الارض التي لا تطيق الكبر.والتي كثرت في ارجائها الاماكن الطـــاهرة فزهد هراقليوس في لباس القياصرة مساوقة للبطريرك واقبل الى البيعة المقدسة في لباس الحاج المنيب،وكان انى ذهب وحيثما تلفت يرى الى مناكر الفرس بادية في البيع

والصوامع والمحاريب ثم في القصور الشواهق ، فشكر مودستوس على مرونته وعلى ما بذل لتجديد بناء كنيسة القبر المقدس ، ثم قضى صلاته على حضيض البيعة في قبائه البسيط المتواضع ، ثم خرج الى القصر وهـــو يشعر بانه الزعيم الغطريف الذي ازال شبح الفرس من ضفاف البوسفور الى شواطىء نهر الرس الى الاردن الى النيل ، وقد كان خليقا بهذا الاحساس الذي احسه لأنه الرجل الذي سمت به عبقريته الى مقام الذائدين المنافحين عن حياض النصرانية !

ثم اخذ هذا النجم الذي لمع واضاء يظلم ويخبو ، وذلك ان قيصر ماكاد يستريح في القصر الشامخ حتى وفد عليه شيوخ النصارى ، فحسروا عن صدورهم فاذا عليها بعض الجراح ، فروعه ان يرى الى هذا المشهد ، وسألهم ماخطبهم واي حافز حفزهم اليه فتبارى الشيوخ في الوشاية باليهود وساوقهم في هذه المباراة رهبان الاديرة والمناسك والصوامع ، وقال هؤلاء جميعـــا ان اليهود حالفوا الفرس على ايذاء النصرانية وابتعثوهم على احراق البيع وتدمير المناسك ، ثم وصفوا له هذه المآسي وصفا ما كان ليستطيع رجل الملاحم ان يصبر على سماعه ، واذكرته احاديث قومه ما كان سمعه في طبريا عن تنكيل اليهود بالضعاف فسوغ اجـــلاء اليهود عن بيت المقدس (١) ولكن هذا النفي ما كان ليرضي شيوخ قومه فسألوه امعانا في التنكيد فلم ينبس فكان سكوته حافزاً لهم على تذبيح اليهود واحراق بيوتهم ، وقد جرى هذا كله بعد نزول قيصر بايلياء ، فروعه الدم الطليل ، واحزنه مشهد الحريق ، فكثرت وساوسه وتطاغت هواجسه ، وعلم البطاريك بهذا الذي ارتاعت منه نفس سيد الدنيا ، فاجمعوا على مداراته وملاينته ، وكتبوا الى المدن يريدون الناس فيها على الصيـــام خلال اسبوع ، ثم لم يلبث هذا الصوم الذي صامه الناس ان خالط سنن الرومان ومن

---

(١) بتلر في كتابه فتح العرب لمصر

وناصرهم الى اخر الدهر (١)

وقد كان مودستوس وذكريا شريكين في اثارة هذه المذبحة ولكن قيصر ماكان يستطيع ان يقصيهما عن امور الدولة وامور الناس، فتغاضى عن اعمالهما مخافة ان يفضي تنكره الى زوال ملكه

وفي اليوم التالي جرى اجلاء شيوخ اليهودية عن بيت المقدس وشهد البطريرك مودستوس والبطريرك زكريا فصول الجلاء المحزنة، وباركها الذين غمسوا ايديهم في الدماء المراقة، وفي مساء اليوم نفسه قرأ غالياس قائد الرومان في بيت المقدس رسالة قيصر الى الشعوب الخاضعة للامبراطورية فذكر فيها اسم سرجيوس بطريرك القسطنطينية السوري المولد الى جانب اسم هراقليوس، وقد جاء في هذه الرسالة ان قيصر والبطريرك تواضعا على ان يمتنع النـــاس من الخوض في خلق السيد المسيح وصفته فلا ينبغي لواحـــد منهم ان يتقول الاقاويل عنه ومـــا ينبغي ان تكون له عندهم صفة او صفتان، ولكن عليهم ان يشهدوا ان للمسيح ارادة واحدة وقضاء واحداً (٢) وقد اراد قيصر والبطريرك سرجيوس من هذه النذر ان يرجع النساطرة واصحاب البدع الى الارثوذكسية وهي ديانة الدولة وشعارها الباقي

وبينما كان هراقليوس يسير في موكبه من الباب الذهبي في طرق ملتوية تدفع الى البيعة القائمة على ذرى جبل الزيتون ليعيد اليها ذلك الصليب الكبير الذي انتزعه كسرى في ايامه السوالف، بينما كان الناس الذين اضلتهم الحمية الدينية يمعنون في

---

(١) وما زالت تلك السنة باقية الى هذا اليوم، ويسمى اسبوع الصوم الاول عند القبط صوم هراقليوس ويثبت المؤرخون ان القبط اشتركوا الى اقصى حد في تذبيح اليهود لأن هؤلاء شاركوا الفرس في ايذائهم عند سقوط اسكندرية في يدي كسرى «بتلر»

(١)

التذبيح والتحريق اخذت سرية مؤلفة من ثلاثة آلاف فارس عربي تشق الصحراء في طريقها الى البلقاء رجاة الثأر بدم الرسول الذي كان محمد يتيم قريش بعث به الى شرحبيل بن عمرو الغساني ليستميله الى دعوته ، ثم حدث في ذلك اليوم الذي حبسه قيصر على زيارة الكنيسة المقدسة ان جاز المدينة فرسان من العرب يلبسون الاردية المذهبة فعرسوا في الحي العربي بجوار باب دمشق وعلم غالياس قائد الرومان بامرهم فبعث اليهم صاحب شرطته فسألهم عن موردهم وعن زعيمهم فقالوا انهم جاءوا من مدينة في جزيرة العرب يقال لها مكة وان زعيمهم سيد قومه وصاحب رايتهم ثم هو الى ذلك صديق لبني الاصفر الرومان واسمه ابو سفيان ابن حرب فانقلب صاحب الشرطة الى القائد غالياس وحدثه بشأنهم فلم يعرض لهم بسوء وفي المساء تحدث الى هراقليوس عنهم فاذكره الحديث ذلك الرجل العربي الذي اخترق موكبه يوم كان في بصرى ليودعه كتابا بعث به اليه يتيم من قريش اسمه محمد وكان من امتع امانيه ان يستمع الى احاديث هؤلاء الواردين عن ذلك النبي اليتيم ولكن هراقليوس آثر ان يجتمع اليهم بعد انقضاء صومه ثم لم يلبث قيصر ان نسي امر هؤلاء فما عاد يذكر مقامهم بالمدينة المقدسة

وبعد ايام اخترق اسواق ايلياء عشرة من فرسان العرب ومعهم عمرو بن معدي كرب فارس العراق واليمن فحجبتهم الليلة الجاهمة عن عيون الناس ، ولم يتعرف غالياس الى امرهم فاوغلوا في المدينة وخالطوا اهلها المروعين الجافلين

حدث هذا كله بينما كان نفتالي يشق الطريق الى بيت لحم ومعه بنيامينا العانية المرزوءة وبينما كان قيصر يصلي صلاة التائب في محراب قصره المنيف على ذرى جبل الزيتون .

الفصل الرابع عشر

مهد الطفل النبي

كان ينبغي لنفتالي التعس ان يخرج من باب دمشق تاركا وراءه ايليـــاء . ثم ينقلب الى ناحية الشمال ، وينسل الى الاودية المنتشرة على سفوح جبل صهيون . ثم يتذرى ربا جبل واعر وينحدر الى نجود غبراء ، ويدأب في تسياره خلال ساعة فلما تدفق في مشيته والتحب الطريق ، اخذ الغيم يدبر ، وخلا رقيع السماء من السحب ولألأت اضواء الفجر ، وتوارت المدينة التي احبها ذلك المنفي العائد الى وطنه على غير موعد وراء الظلال في نواحي الشمال . فاصبح في ميسوره ان يرى الى جبال اليهودية في نواحي الغرب ، حتى اذا تلفت الى الشرق تراءت له جبال مواب ماوراء البحر الميت ، وكان كلما اوغل في تسياره وتطوافه لا يمنع عينيه النظر الى الاماكن التي مر بها في عمره الماضي ، فاثارت شجوه اشجار الزيتون والهبت احساسه وشعوره سرحة غبياء ، عرضت له في الطريق التي استراح اليها ايليا النبي يوم آلى على نفسه ليمضين الى بيت المقدس ، ثم طوى الحقول والمروج ولاح له قبر راحيل فلم يقرب اليه ، بل مضى في طوافه ومضت بنيامينا في طوافها حتى اخذته عن بعد منائر بيت لحم فعرف المدينة الطاهرة من قبب الصوامع فترفق في سيره مخافة ان يفوته رواء الطريق ، ثم الح الحنين على نفسه فرق وتشاجي ووضع يده في رفق ودعة على كتف بنيامينا ، وقال لها وصلنا ، فخنت المرأة العانية رأسها في خشوع ولين وتخافتت بصوتها وقالت

سندخل المدينة قبل طلوع الشمس فقال لها ويده تدغدغ شعورها المرسلة على كتفيها — نعم ثم نعود الى كنيسة القبر المقدس فنصلي صلاة المساء

وكان صليل النواقيس في محارم بيت لحم يعصف عصفا شديدا وقد افلت

الناس من مضاجعهم وخرجوا الى المدينة للصلاة في كنيسة المهد تحت سماء اراقت عليها انوار الطفل الوان الذهب والعقيق، ثم استفاضت هذه الالوان على ذرى جبل حبرون وتسربت الى الاودية الهاوية ورقصت على الحيطان والاسوار والابراج، وفي تلك الفينة ابصر المنني المتاع الناس وهم يخرجون من بيوتهم الى كنيسة المهد فاختلط بهم لجارته بنيامينا في فعلته. ولم يفطن احد من جميع هؤلاء الذين فزعوا الى الصلاة الى حقيقة الرجل الذي لفظته شواطيء البحر الميت ليسمع صوته اله الناس في ارضه المقدسة

تتمتع بيت لحم بشهرة طائرة ترجع في اصلها الاصيل الى ابراهيم جد النبيين والرسل فهو الذي خلع عليها هذا الاسم، ومعناه في لغة العبرانيين الاول بيت الخبز ثم عرفتها الحقب الخالية باسم افراطا وذلك اسم قديم كان لامرأة ذات تقى وورع ومعناه المباركة ثم حملت اسم النبي داود، فهي مهده الاول ومعاذه في الطفولة الضاحكة ايام كان يرعى مواشي اهله بجوار المروج الزاهرة والحدور الساحرة، ثم اضاءت هذه المدينة وطالت على المدن في ليلة من ليالي شهر كانون الاول في هذه الليلة الصاردة وضعت العذراء طفلها في مراتع الحيوانات الاليفة تحت سما. تحترق لفرط الضياء فكان مولد هذا النبي مطلع بهائها، ومسفر روائها، ثم توافى الناس من جميع الارجاء الى المهد المقدس لتحية النبي الوليد فرأوه يرعش من البرد وهو بلباس الطفولة الابيض، وفي اليوم التالي تحرك الطفل في مهده وبسط ذراعيه الضعيفتين الى السماء، فاختلجت الرحمة في صدر امه وانستها نضرة جبينه آلام المخاض ومناكر البؤس والفقر. ثم غنته اغانيها الصافية فاكتمل بهذه الامومة الطاهرة حظ بيت لحم وضوأ نجمها ظلمات الحقب، فما يذكر اسمها حتى ترق القلوب رقة شجية وحتى يتطلع الناس الى ذلك المهد الذي استمع الى صوت اكرم الرسل

هذه هي المدينة التي احب نفتالي ان يبدأ فيها اولى صلواته بعد خروجه من منفاه العاري، وقد كان التعس يعرف تاريخها الماضي، وكانت له صلة باهلها،

ولكنها صلة قديمة يرجع عهدها الى ذلك اليوم البعيد الذيكان تجار من هذه المدينة يخرجون فيه بسلعهم وبضائعهم الى اسواق الشام ، والى اسواق العالم فيتلقاهم نفتالي ويشتري منهم الاصداف واللؤلؤ ، والملابس المطرزة والدمى التي كانت في اصلها الاصيل حجارة كابية فجاء بها اهل بيت لحم من شواطيء البحر الميت ، ثم دأبوا في صقلها وتحسينها حتى صارت رموزا للنصرانية ، وكان نفتالي يبيع هذه الدمى في اسواق بيزنطية ومقدونية وايطاليا فيقبل عليها الناس زلفى لاحساس النفوس وارضاء لميول الصدور

ولما اختلط المنفي بجماعات المصلين ، ابصر على صدور النساء بعض الدمى التي مرن على بيعها في ايامه الماضية ، فاستثاره مشهدها ، ووضع يده على صدره القريح فالفاه عاطلا فطأطأ رأسه ومشى الى جانب ابنته في هوادة ورفق ، حتى بلغ كنيسة المهد من طريق ضيق ولمح ديرها العظيم ، فخفق قلبه وراح يشد على يد ابنته شدة مؤلمة لم يفت معناها بنيامينا التعسة

وكانت الكنيسة مبنية على الطراز الاغريقي القديم ، بناها اصحابها الاول على شكل صليب فاخترق نفتالي بابها الكبير مع المصلين ، ويده في يد ابنته ، ثم هو اذا عد قليل يفتح صدره لاعراف البخور الزكية ، ثم أخذت عيناه تطوفان انحاء البيعة حتى استقرت نظراته الراعشة على مكان قصي ففزع اليه وجلس على مقعد خشبي تحت صورة تمثل السيدة العذراء وجلست ابنته على كثب منه وراح المصلون يملئون المقاعد الاخرى وشرعوا جميعاً في صلاة هامسة

ولكن نفتالي لم يساوقهم في الصلاة بل راح يتأمل في الجدر التي افاضت عليها العبقرية اليونانية مفاتن الفن الاغريقي وروائعه ، ولم تكن غايته من التحديق في هذه الروائع الباقية ان يكرم ذكرى المصورين والمثالين الذين كتبوا قصة حياة المسيح على الحجارة والمرمر والبرفير ، فذلك امر ما كان لنفتالي ان يفكر فيه ، وهو الرجل الذي حملته آلامه على الزهد في محصول العبقرية الجني ، وانما كانت غاية

نفتالي من التحديق في هذه الروائع ، ان يتعرف الى الامـــاكن الطاهرة التي وضعت فيها مريم ذلك الطفل النبي . وكان لا ندحة له ليتعرف الى هذه الاماكن عن الرجوع الى الماضي في ابعد مراحله ومسافاته ، فاستعرض انبعاث مريم من مدينة الناصرة في شهر كانون الاول ، ومعها يوسف النجار من سلالة داود النبي . وكان ينبغي لها ان تقصد الى بيت المقدس فسلخت في الطريق خمسة ايام تعاورها في غضونها تعب مرهق ، ثم استقرت بها النوى في بيت لحم في مساء اليوم الرابع والعشرين من شهر كانون الاول والسماء يومئذ عصافة بالبرد والثلج ، ومريم لا تستطيع امعانا في السياحة ، ولا يقدر ربيعها الخامس عشر على الصمود لبرد الليلة وقرها ، فسألت يوسف ان ينزل بها في موضع اعتاد المسافرون ان يفيئوا اليه ، ففعل فلما اشتملت عليها حجرتها في ذلك المكان المتواضع وضعت طفلها المقدس على فراش من القش بين سرب من الحيوانات الاليفة ، ثم فتح الطفل عينيه فانفلت منهما نور ضـــوأ نواحي العالم

كان من اعذب اماني نفتالي ساعة اخذ يحدق الى الحياط والجدر ان يتعرف الى المنبع الاول لذلك النور ، فينزع اليه ويجثو على اديمه ويصلي صلاته الرقيقة ويفتح صدره امام ذلك المهد الزكي ، ويردد اسم قيصر ، ثم يفيء الى كنيسة القبر المقدس ليرى هراقليوس في موكبه الرائع فيلعنه عن بعد ويخرج بابنته الى ذلك المنفى الذي غادره مستخفيا

وانه ليتأمل في الجدر والحياط والاقواس والعمد التي جاء بهـا مثالو الاغريق القدماء من كورنثيه ليزينوا بها مهد المسيح عيسى بن مريم اذا عيناه تصافحان بعض كتابات اغريقية قديمة منقوشة على جدار قريب فتهافت على تلاوتها في خفوت وهمس فاذا هي بعض تلك القصص الشجية التي كتبها اصحاب النصرانية في قرون مختلفة عن حياة المسيح . فصقلت هذه السور المجيدة احساسه وهذبت سريرته ورجح لديه ان الالم الشديد العنيف لا يزال ذلك الرفيق الحادب للنفوس

العظيمة ، ولكن هذا السكون الذي احسه لم يغسل احزان قلبه ، فلبث على شجوه وجواه تحت وقر هذه الفسيفساء التي صاغ المثالون من الوانها حياة مملوءة بمجد النبوة وآلامها ، ولو قدر لاحد هؤلاء المصلين الذين توافدوا الى البيعة في هذا الصباح لقضاء نذورهم ان يرى الى جبين نفتالي تحت ضياء الشموع وبريق الفسيفساء للمس شحوبه ورأى الى ذبوله ولخاله احدى هذه الصور المعلقة على الجدر وقد يخاله تمثال احد الرسل الذين كانوا من شهود قصة حياة ابن العذراء الطاهرة !

وما كانت بنيامينا وقد جلست حيال ابيها واخذت تنظر الى آلامه الهادمة لتشعر بغير شعوره ، فلقد طافت بنفسها موجة حزن عاتية ، ولألأ على جبينها المصفر ضياء الشموع وبريق الفسيفساء ، ولكن صلاتها الخافتة كانت مزيجا غريبا من احساسات عنيفة تغايرت في نفسها ، فوهبت بعض صلاتها للرجل التعس نفتالي ، ووهبت بعض هذه الصلاة لذلك الشاعر النبيغ الذي احبته في مغاني طبريا ثم توارى عن عينيها ليعيش في اصلاد سلع

بنيت كنيسة القبر المقدس على صورة صليب ذي اربع شعب ، ويفصل صحنها المستطيل الذي يؤلف اسفل الصليب ، عن شعبه الثلاث جدار يجعل بناء الكنيسة غير منسجم ، فاذا جاز المرء هذا الجدار استقبل في اعلى الصليب ممرا صغيرا رفعه بناته على ثلاث درجات فوق صحن الكنيسة تكريما لذكرى ملوك المجوس الذين شهدوا في ليلة مولد المسيح كوكبا يضيء ويلمع في السماء ، فدلهم لمعانه واشراقه على المعجزة التي استكملت رواءها في تلك الليلة المباركة العظيمة ! ويرى في اسفل المحراب صورة كوكب من المرمر ارادته النصرانية دليلا على الناحية التي لمع فيها ذلك الكوكب الذي سار ملوك المجوس على ضوئه الى بيت لحم ليركعوا امام الطفل النبي في مهده .

اخذت عينا نفتالي تنظران الى هذا المحراب في رأفة وحب وفي تلك الاثناء ورهبان البيعة يصلون ويرتلون تراءى لطريد هراقليوس بين المصلين شبح امرأة

تلبس السواد فاستثاره مشهدها فنظر اليها فاذا هي قد جفت مكانها وشقت طريقها بين الصفوف الى ناحية المحراب ومعها فتاة في السادسة عشرة من عمرها . ثم جعلت تسأل الناس في رقة وحب ان لا يطيلوا وقوفها وهي المرأة العمياء فتساقط صوتها الرقيق في جوف البيعة ، واصدى في قلوب سامعيه . فاستثارها واستجاشها ونفتالي من هؤلاء الذين استثارهم جرس المرأة التي حباها الله جمالا رائعا

وظلت العمياء تخترق صفوف المصلين حتى صعدت المحراب في اعلى الصليب تسحب خطواتها اليه تلك الفتاة التي ترافقهـــا ، وبعد قليل انقلبت الى الكنيسة واخذت مكانها بجوار المقعد الذي جلس اليه نفتالي وابنته ، فأخذتها عيون الناس كرة اخرى وتساءل بعضهم عن معنى هذا الحزن الذي يساورها ، ولكن واحداً من هؤلاء الذين احزنهم مشهدهـــا لم يسأل عن الحافز الذي حفزها الى الاسراع في زيارة المحراب الصغير . وذلك لأن الناس كانوا يكثرون من زيارة المحراب ويتبركون به مجاراة لسنن اتبعوها من قديم ، ومع هذا كله فقد كان نفتالي وحده الذي اهتم لامر العمياء فشغل عن صلاته ودعائه بالنظر اليها والى الصبية التي ماثلتها في الصورة وفي النظرات والاشارات ، وكانت بنيامينا تشارك اباها التعس في اهتمامه بالمرأة ذات اللباس الاسود ، ولعلها رجعت الى نفسها في تلك اللحظة فسألتها عن معنى هذا الحزن الذي بدا على جبين العمياء ولمـــا عجزت عن تفسيره جنحت الى التأمل في صورة الصبية ، كأنها تريد ان تقارن بين ملامحهـــا وملامح المرأة العانية ، وبعد ثوان سالخها الرهبان في الصلاة شخص المصلون جميعا الا نفتالي وابنته والعمياء وفتاتها الى المغارة المتواضعة التي ولد فيهـــا السيد المسيح فزاروها وتبركوا بادیمها ثم انقلبوا الى بيوتهم . فخلت البيعة بذهابهم ولكنها استبقت قسوسها ورهبانها وشموعها وتصاويرها

قال نفتـــالي لابنته : اقفر المعبد من زائريه فهلا نزلت معي الى مغارة المهد فاني لا احب ان يسمع دعائي غير قلبك وغـــير المسيح الطفل ؛ ولكن صوت

بنيامينا لم يخرق سمعه كما كان يحب ويهوى ، بل خرق سمع الرجل المحزان صوت آخر هو صوت المرأة العمياء التي قالت لفتاتها بعد خلاء المعبد من المصلين :

— انه لم يأت ولو جاء البيعة مصليا لسألتك عن صفته ، وما كان لباسه واين كان موضع جلوسه ، ثم اذهب اليه واقول له مالا تلتقي به أشفتان ! واعود الى المنزل وقد ادبته بما فرط منه ! فقالت الصبية — نعم انه لم يأت يا اماه ولكني نبئت انه سيصلي صلاة المساء في كنيسة القبر المقدس ! ناشدتك الله ان تدعيه وشأنه فانه الرجل الذي افسد امره العجب والكبر حتى لم يبق عنده للصنيعة موضع وحتى فارقه الحلم !...

فتنفست العمياء في مرارة والم واردفت قائلة : ازرى بنفسه من استشعر الطمع واستولت عليه الاماني ، كان من تيهه انه اذا اخطأ يمر على خطيئه تكبرا عن الرجوع ، على انني ساشكوه الى من لا تضيع عنده شكوى ، فانطلقي يابنية الى المغارة المقدسة ، فستسمعين بثي وشكاتي وتعرفين اي رجل هذا الذي يسميه الناس قيصر الرومان !...

لمس صوت العمياء جراح نفتالي فتلفت الى ابنته ومسك بيدها هامسا : اتسمعين ما تقوله هذه المنكودة ؟ فقالت وهي لا تستطيع التحديق في صورة العمياء بل سمعت فقال فاي امرأة هذه ؟ وما شأن قيصر معها ؟ وما بالها قد جرت فمها باللعن الشديد العنيف !...

لم تكن المرأة المتشحة بالسواد لتبصر ولكن عينها كانتا مفتوحتين وكانتا جميلتين حتى ليخيل الى الناظر اليهما انهما تنظران الى الاشياء وتتعرفان الى الالوان فلما مرت بجوار بنيامينا جعلت هذه تنظر الى عينيها المفتوحتين في ذهلة وحيرة ثم ارتدت الى ابيها وانثنت قائلة :

« لكأنها تنظر الى الناس يا ابي فلا تفوتها وجوههم !.. انها لجميلة جدا . وان في وجهها لشيئا كثيراً من الكبر وقد صقل الحزن والالم جمالها فزها ! فقال نفتالي

لعلها احدى حظيات هراقليوس ! فاني اعرف امر هذا الرجل الذي امضى شطراً من العمر على صدور الخليلات والصواحب ثم تزوج ابنة اخيه بعد موت امرأته الاولى غير حافل بشعائر دينه التي لا تسيغ مثل هذا الزواج المحرم ، فقالت بنيامينا اوفعل قيصر هذه الفعلة ؟ فنكس نفتالي رأسه في مرارة وحزن وقال هامسا نعم ، ثم جعل ينظر الى ملامح المرأة العمياء كأنما هو يريد ان يتعرف الى امرها فما اجداه امعانه في النظر الى صورتها ، فيئس وحزن وقال لابنته في خفوت وهمس :

— لا ادري اين رأيت هذه المرأة ، فلقد انتزع المنفى والالم من صدرى صور الناس الذين تعرفت اليهم في ايامي الغوابر !

وفي تلك الاثناء انحت المرأة ناحية مغارة المهد ومعها ابنتها فلحق بها نفتـــالي وابنته ، وشخص الجميع الى منحدر خفيض من الارض وهم يحملون الشموع مساوقة لسنن النصرانية وكان لا معدى لهؤلاء الاربعة الذين تشابهت حظوظهم وتماثلت مصايرهم عن الانسلال الى تلك الرقعة الضيقة من الارض على سلالم يتألف بعضها من خمس عشرة درجة تنفتح على جانبي محراب الكنيسة الخارجي ثم تنحدر الى المغارة الماثلة تحت المحراب

وكانت المغارة تسبح في الظلمة فضوأتها الشموع التي يحملها الزائرون ولم تفطن الصبية التي ترافق العمياء الى امر نفتالي وابنته ، وذلك لأنها كانت في عمرها الاول الوادع فابتعثها طفولتها على اهمالهما فلم تتحدث الى امها عنهما ، ثم قالت للعمياء « لقد وصلنا ياماه الى مغارة المهد فاشرعي في صلاتك اذا شئت » فجثت العمياء جثواً رهيباً وتخافتت بصوتها فلم يسمع نفتالي الذي انتبذ في المغارة ناحية قصية دعاءها وصلاتها ولكنه اخذ يصلي فشاركته ابنته في صلاته

ما كانت المغارة التي وضعت فيها مريم الطاهرة طفلها النبي لتزيد في طولها على سبع وثلاثين قدما وكان عرضها يتراوح بين احدى عشرة قدما ونصف قدم بينما ارتفاعها ما كان يزيد على تسع اقدام . ولكنها كانت ذات منظر عجيب فلقد نقرت

في الصخور ، وازينت النصرانية جوانبها واطرافها بزخرف بديع ،وغطت ارضهـا بمرمر ثمين ، وقد قيل ان هيلانة الرومانية صاحبة هذه الزينة ، ارادت بها تكريم المهد الاول للنبي الوليد ، ولا ينفذ النور الى هذه المغارة من الخارج ، ولكنها تضاء بأثنين وثلاثين مصباحا اهداها ملوك النصرانية وامراؤها الى المسيح الطفل ، في اقصى المغارة من ناحية الشرق ذلك المثوى المتواضع الذي شعرت فيه العذراء مريم بآلام المخاض وقد دلت عليه قطعة من المرمر الابيض النقي ، احيطت بدائرة من الفضة عليها صورة الشمس ، وفوق هذا المثوى المتواضع مذبح صغير من المرمر يستند الى الصخرة تنيره ثلاث شموع جيء بها من بيعة اياصوفيا في القسطنطينية ، وعلى مسافة سبع اذرع من ناحية الجنوب بعد ان يتجاوز المرء احدى السلالم التي تؤدي الى اعالي الكنيسة تبين تلك المغارة الصغيرة التي وسعت العالم

بعد ان صلى الاربعة صلواتهم الهامسة في فناء المغارة التفتت العمياء الى ابنتها وقالت لها : قربيني يابنية من المكان المقدس حيث وضعت العذراء حملها الطاهر فاني احب ان اسمعه حديثي ، وكان الورع الشديد قد استحوذ على نفتالي فسأل بنيامينا ان تدله على موضع الولادة ، ففعلت ، وركع نفتالي حيال العمياء وجارته ابنته في ركوعه ، واقبلت الصغيرة التي صحبت امها الى البيعة تصلي في ذلك الصخر الذي استمع قبل سبعة قرون الى صوت مريم وهي تغني ابنها الطفل اغانيها الرقيقة الشجية باعذب بيان لينام على صوتها الناعم ، وانبعثت صلوات الجميع من نفوس تعاورها الألم والجوى والورع الشديد العنيف ، فلم يستمع لها قسوس البيعة الذين كانوا يرتلون الصلاة ترتيلا بديعا في المحاريب والصوامع

كانت العمياء تصلي وتدعو وكانت تقول لابنتها الجاثية عن كثب منها « انك لا تصلين من اجله فانه الرجل الذي لا يستحق صلاتك انت البريئة الطاهرة ولكن دعيني اتحدث الى الطفل المقدس ، ثم الى امه الماجدة ، فقالت الفتاة : لقد بدأت حياتي القاتمة في هذا اليوم يا اماه ! فقالت اسمعي فاني ليخيل الي ان مريم لا تزال

في هذه المغارة تسأل الله ان يلطف عنها اوجاع المخاض ، بل اني ليخيل الي ان طفلها ما زال ينظر الى السماء بعينيه الرحيمتين الصافيتين ؛ ثم نظرت العمياء بعينين لا نور فيهما الى عليا المغارة وطفقت تتحدث الى المسيح بلغة عذبة رقيقة :

« كانت الليلة قرة ، والثلج يرتمي على النوافذ والحياط ، وكان منزل ابي في قلب حرجة غبياء بجوار نيكومديا (١) على ساحل البحر الازرق ، وكنت لذلك العهد انعم بشباب وصحة وجمال ، فلا يراني احد الا زرف الي وتأمل في ملامحي وحسني وحياني تحية ود وصفاء ، وسألني ان اتحدث اليه ولو حديثاً قصيراً فلا ارفض حديثا ، وذلك هو شأني مع الناس جميعا

في تلك الليلة القرة العابسة وقفت على الشرفة انتظر رجعة ابي الذي خرج الى خيام الجند الذين يقاتلون كسرى ، ليخطبهم ويشعل حماستهم ، وكان ابي احب القواد الى هراقليوس ، واقربهم الى قلبه وروحه ، وذلك لامعانه في قتال العدو وابتعاثه كتائبه في معارك كثيرة على الارتداد عن القسطنطينية التي اغلاظ كسرى في التضييق على ناسها ، فلما تباطأ في رجعته تهيبت وقوفي على الشرفة تحت رقيع السماء وخفت ان يقرسني البرد ، في الليلة الظلماء فعذت بحجرتي ، وارتميت على فراشي اتسرق غفوة لذيذة فما اغنى لي جفن ، وظلت عيناي تنظران الى النافذة المفتوحة فلا يمنعني النظر اليها سدف الليلة وثوران الرياح ودفق المطر وارتماء الثلج على الحيطاط والاطناف ، ثم برق الافق وترعد وثارت امواج الشواطيء ، وغص الفضاء باصوات رهيبة يرسلها البحر الثائر المهتاج من اعماق لججه السوداء فاخذتني ذهلة شديدة ونمت مخاوفي فحاولت ابتعاث من في القصر على النهوض فما فعلت لأن الحجرة التي آويت اليها في تلك الليلة الوطفاء كانت بعيدة عن منازل الخدم فرجعت نزلة اخرى الى فراشي ولم اجرؤ على اغلاق النافذة وذلك لأنني كنت احب ان اتسرق همس ابي واستمع الى خفق جواده على ارض الغابة ، وكنت اظنه لا يبطيء

(١) خليج ازميت اليوم في بحر مرمرة

في رجعته اكثر مما ابطأ . وهو الذي قال لي قبل لحاقه بخيام الجند انه لن يتريث في العودة الي قبـــل المساء ، ثم نهضت من فراشي وجئت النافذة فاطللت منها فاذا الغابة في عبوسة وجهمة . فنظرت الى البحر فاذا هو قـــد اغدف ونفض لجيه والقى امواجه ، ثم نظرت الى السماء . فاذا هي قد حاكت البحر في ظلمته وثورته وفي تلك الفينة رمتني الليلة بالصقيع والثلج فجمدت في مكاني ولم استطع عزوفا عنه واخذت عيناي تنتقلان من الغابة الى البحر ، الى السماء ، ثم الى نفسي فصرخت صراخا عنيفا . ثم حفا البرق واومض فبانت لي الشواطىء والطرق ورأيت على سنى الوميض بعض الفرسان وقد انحوا ناحية الغابة ، في طريق يدفع الى القصر فتطاولت من الشرفة لاتعرف اليهم وقد خفت ان يكون هؤلاء من جنود كسرى الذي نصب خيامه على الشواطيء المجاورة للقسطنطينية ، ثم حفا البرق ولمع فرأيت على ضوئه الشديد ملابس الوافدين ، فاذا هم جنود هراقليوس فقلت في نفســـي لعل ابي في صفوفهم او لعلهم رسله الي وبعد قليل غابت عني صورهم ووجوههم فلقد وارتهم اشجار الغابة . وساروا الى ناحية القصر فتركت مكاني على الشرفة واسرعت الى لقائهم على باب الخيلة غير مكترثة لبرد الليلة ، ولا حافلة بهذا الغسق المديد الذي تنشره على الارض ، وكنت ادفع نفسي الى اجتياز سلالم القصر المرمرية ، فيتلقاني المطر الهامر بين ذراعيه حـــتى لقد ابتلت ثيابي ، وحتى قرس البرد جبيني وتسرب الى جسمي فمامنعني سيل السماء طوافي ، ثم بلغت باب القصر ففتحته بيدي قبل ان يصل الفرسان اليه ، وفكرت في الذهاب الى نصف الطريق لعلني ارى الى الجند واتحدث اليهم فلا يفوتني النبأ السار عن ابي الذي مضى الى تحقيق نذره في قتـــال العدو ، ولكنني لم افعل فلقد كان البرد الشديد مانعي من المضي الى لقـــاء الجند فوقفت على وصيد الباب انظر حينا الى البحر العبوس المكفهر واحيانا الى الغابة الفيحاء ، ولما طال انتظـــاري ناديت ابي باسمـــه الرقيق العذب اين انت يا ابي ؟ اين انت ايها الشجاع تيوفان ! ... ولكن ابي لم يستمع لهذا النداء الرقيق

فايأسني ان لا يستمع اصوتي الشجي، وغمني كثيراً وقوفي على وصيد الباب في الليلة السدفاء وفكرت في الرجوع الى منازل الخدم في القصر ، فقد يستطيع هؤلآء النيام اذا استنفرتهم الي ان يلطفوا كربي. وقد يكون في حديثي اليهم بعض هذا العزاء الذي تنزع نفسي اليه ، ولكنني لم افعل فلقد اقتحم القصر في تلك الساعة رجال الرومان فنظرت اليهم فاذا هم يحملون على المناكب رجلا لا تزال عليه ملابس الحرب فاخافني جزع ماثل في وجوههم فقلت لهم « ابن ابي ؟ واي رجل هـــذا الذي تنوء بحمله مناكب الجند ؟ فلم ينبس احد من هؤلآء الذين عرفوا امري ، بل اخذوا يشقون الطريق حتى اوغلوا في القصر ، وحتى دخلوا فناءه الواسع وهنالك على مصطبة عالية اعتاد ابي ان يجلس اليها في اكثر لياليه ، وضع الجند ذلك الجسد المغطى بلباس الحرب ، فرأيت على ضوء الشموع ذلك الصليب الذي لم يفارق ابي ، فرعش قلبي وفطنت الى الكارثة العظيمة فبكيت وشاركني الجميع في البكاء ثم تقدم روماني من الجسد الهامد فازاح الستار عنه فاذا هو ابي في لباسه الزاهي وفي جبينـــه المضيء وصورته الضاحكة حتى لا قسم ان الموت الذي عاجله في المعركة لم يبدل شيئا في قسمات وجهه فظل يضحك على الرغم من جمود الحياة على فمه المقرور !... فصحت ابي ابي ! ثم القيت بنفسي على الجسد ناشجة شاجنة ، واخذ الجند يبكون لبكائي !

وقد قص علي جندي روماني قصة مصرع ابي وهو يناضل عن وطنه فقـال لي ان آخر كلمات الشهيد الذي اخترق صدره سهم من سهام الفرس هتـــافه باسمي ثم اطبق عينيه ليحلم بدنيا البسلاء ! . . .

مات ابي هذه الموتة العظيمة بينما كان البطريرك سرجيوس والامبراطور هراقليوس ونبلاء الرومان يخرجون من بيعة اياصوفيا الى الشوارع بتصاوير الرسل والانبياء والصالحين لاستنفار الناس الذين ضعفوا عن المقـــارعة ، وبينما صلوات العجائز اللواتي غادرن بيوتهن تصعد الى السماء التماسا للنصر على العدو الذي دنس ارض الوطن في الشام ومصر وارمينية والقسطنطينية ! . .

وغيب ابي في صباح اليوم التالي في ارض الغابة وصلى عليه الجند ، ثم رجعت بعد دفنه الى القصر لا عيش بين ذكريات الماضي ، وذكريات الحاضر ، وما بهذا القصر ام ابثها حزني ، ولا اخت تقاسمني المي

ثم تتالت الايام والشهور ، وانتصرهراقليوس وجلا الفرس عن نيكوميديا وعن المدن المجاورة للقسطنطينية وتناسى الناس حتى الاصدقاء الذين احبهم ابي في حياته الفارطة ما ينبغي لهم ان يعملوه حيالي وفي ذات عشية من عشيات الصيف رسا حيال شاطيء القصر زورق كبير يحمل بعض الرجال وكنت في تلك الامسية الصافية اجمع بعض ازهار الغابة لا نثرها على قبر ابي القتيل فلم انتبه الى رسو الزورق امام شاطيء القصر ولم ار الى رجاله ولم اكن قادرة على التعرف الى ما يحيط بالقصر ، لاني كنت ماضية في صلاتي على القبر واعذب اماني ان يتندى ترابه بدموعي فتترق عظام ابي وتستفيق الحياة في صدره ويشعر بالرحمة التي تتدفق في صدري فلا تفوتني بركته ولا يصدف عني رضاؤه حتى اذا رجعت الى فراشي في حجرتي التي زينتها بتصاوير ابي واترعتها بذكريات طفولته وشبابه وجدتني قد ارضيت منازعي في ارضاء رفاته والاحسان الى ذكره !.. ولكنني لم اكد افارق القبر عند جنته الغارقة في الرياحين حتى وجدتني بين رجال متزملين باردية طويلة وملثمين فلا تبين وجوههم فاخافني امرهم وكان اثر من صلاة رددتها حيال قبر ابي لا يزال يرعش على شفتي لجفوته واطرحته ووقفت في مكاني انظر الى اصحاب الوجوه المقنعة فلا اتبينها ، وما كان واحد من هؤلاء ليجرؤ على فتح فمه فاتعرف الى صوته فلبثوا جميعا غرقى صمت وصرعى سكوت فقلت لهم : اي الرجال انتم وكأن صوتي الراجف قد احمسهم ، فتدافعوا ومسكوا بي ووضع احدهم يده على في ليمنعني الصياح ، ثم حملني هؤلاء الى الزورق فخر بهم العباب تحت ذوائب المساء . اما انا فلقدغشيني الرعب فما عدت استطيع صياحا ثم شعرت برنخ شديد ، ومادت بي الارض فنمت نوما طوى في دجناته وغياهبه جميع الصور التي كنت

انظر اليها ساعة اخذت يدي تعري الخميلة من الازهار لانثرها على قبر ابي النعس

ولما نصف الليل استفقت استفاقة مؤلمة ، فنظرت الى المكان الذي انا فيه ، فعرفته من تصاوير تمثل القياصرة على الحياط والجدر فاذا انا في قصر الشالسيه وفي حجرة هراقليوس !

لم اشعر بيأس وما كان للحزن ان يتسرب الى صـــدري وقد الفيتني في قصر الرجل الذي ذب عن حياض النصرانية واوفى لمسيحه احسن وفاء ، بل ما كنت اری في الرجل الذي لبس لباس القياصرة غير البطل العبقري الذي احسن الله الى بطولته فجعله سيد الكتائب وامير الجحافل ! ثم خيل الي ان قيصر ما اراد رجاله على حملي من قصر ابي الرابض على شاطيء نيكومديا الا لامر يريد من قضــائه ان يوليني احسان الرجل الوفي فلقد ناضل ابي اشرف نضال عن نصرانيته وعن ملكه ثم قتل وقيصر لا يفكر في تكريمه وتبجيله فاولى لسيد الكتائب ان يحاسن ابنته فان في المحاسنة احسن عزاء !

وكنت ساعة دخل قيصر الى الحجرة اتلهى بالنظر الى صورة تمثل طفولتك البارعة ايها الطفل النبي فلحظني قيصر فقال لي : ما الذي شغلك عن النظر الى فقلت هذه الصورة الذي تمثل ملك الملوك وهو في مهده فتضاحك حتى اخافني تضاحكه فرميت باب الحجرة بنظرة لم يفت الرجل معناها فقال لي : مكانك فمــا يستطيع حظك العاثر ان ينال من الرجل المجدود ! وجعل يتدفق في سيره الى ناحيتي باسطا ذراعيه الي ، فتولاني ذعر شديد ، وردت الى احلامي الموجعات واحس جسدي رعدة ما احسست مثلها قبل ليلتي هذه ؛ ثم تراجعت وانا افكر في هراقليوس النابغ في البطل الذي اتاح له انتصاره على فوكاس الظالم ان يخرج من قصر الشالسيه في محفة من الذهب ترعاها حاشية من البطاريك والجند ، فمازال موكبه يخترق شوارع القسطنطينية حتى دخل كنيسة القديس توماس وحتى البسه البطريك تاج القياصرة تحت قبة من الفسيفساء تنيرها مصابيح من الذهب . والي جانبه عروسه الحسناء

فابيا التي اسماها البطريرك ايدوكسيا منذ وضعت على جبينها تاج تيودورا وكان ابي في ذلك اليوم السعيد امير القصر وسيد الجيش وزعيم هذا المهرجان .

ذكرت هذا كله فتلفت الى البطل ورجوته الا يعبث بي وناشدته النصر الذي اوتيه على الوثنية ، ان لا يغرس في تربة فضائله وشيمه غرس الرذيلة ، ثم اذكرته مآتي ابي وقصصت عليه شيئا من حب الاب الشفيق لابنته لعل اقاصيصي تستثير رجولته وعبقريته فلا ينزع الى تلطيخ الغار الذي يزين جبينه بعار لا يرتضيه خلق الرجل الزعيم ، ثم بكيت واسرفت في البكا. ونظرت الى الصورة البارعة التي تمثل طفولتك الطاهرة ايها المسيح الطفل وقلت للجندي الذي حارب العالم باسمك : انك لن تفعل مالا يقرك الناصري على فعله ، فما الآنه الزفير ولا اماله الصرير ، بل طفر الي واخذني بين ذراعيه وادناني من صدره فشممت رائحة الرجل العربيد لاعرف الرجل المجيد ، ثم فتحت عيني بعد قليل فاذا ثوبي قد تمزق واذا ذلك العفاف الذي حرص ابي عليه حرصه على حصاده من النصر قد خسر رواءه وبهاءه واذا الحجرة خلاء من هراقليوس فكأن الرجل النذل قد اخافه ان يراق دمي في حجرة على حائطها المرمري صورة النبي الطفل فانفلت يعدو في خفة الوميض !

طغت على نفسي احلام وهواجس ما عرفتها في ماضي ، فالقيت بنفسي على فراش البطل الذي لم ترضه انتصاراته على الجيوش والكتائب فاضاف اليها انتصاره على المرأة العاثرة الجد ! وكان ينبغي لي بعد ذلك العراك الطويل ان اغمض عيني فنمت على السرير القيصري في حجرة تزين حياطها تصاوير الصالحين والفاتحين وفي صباح اليوم التالي استفقت فاذا انا في حجرتي في قصر ابي على شاطيء البحر وحول سريري بعض رجال قيصر

لم تفتني الحقيقة المخجلة فلما فتحت في لالعن هراقليوس ارادني قائد الحرس بونوسيوس على الصمت وطلب مني ان ابرح نيكوميديا الى انطاكية او الى اي مدينة من مدن الشام وقال لي ان هراقليوس لا يرضيه بقائي في الضـــاحية فبكيت

ورجوته ان يمهلني الى الغد فازور عن سماع بثي ، وفي المساء اخرجني بونوسيوس من نيكومديا واصحبني ببعض رجاله الى الشام ولكنه سوغ لي ان اصطحب الى منفاي كنوز ابي وبعض مخلفاته الثمينة

وكان مقامي في الشام في قرية عين كارم بجوار بيت لحم ، في منزل قديم من منازل هذه القرية المتواضعة التي ولد فيها يوحنا المعمدان وضعت طفلتي ايها السيد المسيح ، ثم غشيتني سحب الآلام فضاعت حياتي بين ذكريات ماضي وذكريات حاضري وشهدت من المآسي مـــالا تطيقه امرأة حتى رق جسمي ، وحتى ذبلت ازهار عمري ، وفي ذات مساء جلست الى مهد طفلتي اهدهدها لتنام وتغفو واخلع عليها ظلي الرقيق الحادب ، واسمعها مالم يقدر لها سماعه من ابيها التعس . وما للدنيا لولا هذه الصغيرة معنى في حياة امرأة زحمتها الخطوب البوارح ، وكانت امسيتي شجية لكثرة ما غنيت وانشدت ، وهذه الطفلة التي اورثتها هراقليوس تستمع الى غنائي ولا تدرك له معنى ، وما كانت حياتي هذه حياة الناس ، وانما كانت طوائف من صور غائمة لا تكاد تبين لعيني حتى تثب الى صدري ولا تخرج من صدري حتى يتلقاها شعوري في جيشانه وثورانه ! وكانت الليلة التي فرطت من عمري قاسية ومخيفة ، وقد انمى في قسوتها ومخاوفها ان يصدر طفلتي همـــوما هي بعض هموم صدري فما كان غنائي ليضحكها او يبتعثها على مثل ذلك المرح الذي تفجره اغاني الامهات الرقيقات في نفوس صغارهن ثم تحيفني التعب فاغفيت حيال السرير بعد بكاء لم ينضب معينه وفي الصباح استفقت وياها من استفاقة راعبة فلقد فتحت عيني لأرى الى الصورة الجميلة التي بجواري في السرير فاذا ظلمة فاحمة قد غشيت ناظري فصرخت صراخ الالم ووضعت يدي على عيني لا قصي عنهما ظلامهما الشديد ! ثم حاولت ان افتح عيني لأرى الى الطفلة النائمة وانظر الى خطف اشعة الشمس في الصباح الباكر على المهد الصغير ! واضحك لازهار الصيف العابقة في خمائل عين كارم . فما بلغت سؤلي من المتاع واللذة والمرح ، وغابت عني صورة الطفلة الغالية

ولم ار الى اشعة الشمس، ولم اضحك للزهر الندي الطري، وادركت ان لا نهاية لهذا الليل المديد الذي اظلني، لأن الألم والحزن، واليأس والبكاء والبعد عن الوطن الاول وذكريات تلك الليلة التي حملت الى نفسي سموم الرجل البغيض اللعين وعيشتي المضنية في عين كارم وهذه الطفلة التي منعها انه ان تزهو بالاب السري النبيغ كل ذلك كان من شأنه ان يطفىء نور عيني

لقد اصبحت عمياء ايها المسيح الطفل منذ ذلك اليوم البعيد، وما زلت عمياء، ولا يزال هذا الليل المديد يمنعني حتى الصورة المقدسة التي رأيتها على الحائط المرمري في قصر هراقليوس !

وقد كبرت ابنتي وكبر معها هذا الليل الذي امتربه، ونمت زهرتي ونمت الى جانبها اشواك حياتي، ثم اختلف نهار وليل، وانفرطت سنوات العمر، ولكن احزاني لم تنفرط ولا يزال ذكرها يتعاورني، ثم جاء الرجل الذي لطخ فراشه الملكي بدم عفافي الى ايلياء ووطىء ارضك الكريمة وعليه لباس الصالح المنيب، وفي روحه طمح العبقري السري، وعلى رأسه تاج الملوك الذين القوا باسمك العظيم الى دنيا الناس فابتعثني مروره بالارض التي احببت على الخروج من عزلتي في عين كارم، ومعي الطفلة التي انبثقت من دمه وجئت مهدك لاقص عليك قصة حياتي واسألك ما ينبغي للمرأة التعسة ان تقوله وقد القاها حظها العاثر مرة اخرى في طريق الرجل الظافر، بل جئت اسألك وفاء بالعهد الذي اعطيته البائسين والماحلين، ألم تقل للناس يوم اطللت عليهم من عليا جبل البركات عند شواطيء طبريا انك الرجل الذي اراده الله على تخفيف احزان الضعفاء وتلطيف اوجاع التعساء ! ... الست القائل على ذرى جبل تابور في الناصرة ان صوت الله الماثل في صوتك يسمع في منازل المكدودين، اكثر مما يسمع في قصور المجدودين ! ..

كانت العمياء تتكلم بلغة صافية وادعة، وكان نفتالي وابنته يصغيان اصغاء شديداً، وكانت الصغيرة التي رافقت العمياء الى بيعة بيت لحم تصلي صلاتها الرقيقة

الهامسة وتنظر الى الجدر الطافحة بذكريات حياة ماجدة . ولما فرغت المرأة العمياء من بثها غمست يدها في صدرها ورسمت على ذلك الخافق الملتاع اشارة الصليب ثم غرقت في تأملاتها وسبحها !

لم يفت نفتالي يسير او كثير من قصةهذه المرأة ، ولم تذهله تفاصيلها الشجية ومنشأ ذلك ان حياة نفتالي تغص بالحافز المثير من الآلام ، وانهراقليوس الذي عبث بشرف الفتاة الطاهرة ، كان صورة صحيحة لهراقليوس الذي عذبه والقى به الى شواطىء البحر الميت . ثم لا يزال هراقليوس في نظره زعيم العصبة الطاغية التي عبث رجالها بشرف ابنته . وقد جاء نفتالي من منفاه في القفرة العافية الى بيت لحم ليصلي في مغارة المهد . ويسمع صوته المسيح الطفل ، ويقص عليه احاديثعمره الماضي ، فهو من هذه الناحية كهذه المرأة العمياءالتي ازجتها خطوب ايامها ومآسي عمرها الى جفاء مغناها في عين كارم لتلحق بمهد الطفل النبي في المغارة المتواضعة ، وتسمعه صوتها وتقص عليه احاديث قلبها الشجي ، ومع ان نفتالي قد لمس انسجاما بارعا في حياته وفي حياة المرأة العاثرة الجد ، فان هذا التساوق لم يمنعه ان يذرف دمعة صافية على المرأة العانية فرق لها رقة عجيبة وتخافت بصوته مصليا وداعيا ان يثأرالله بجراحاته وجراحاتهامن ذلك الرجل الذي يحمل بين جانحتيه احساسين متنافرين ، احساس القائد العبقري الذي ذب عن النصرانية واحساس الرجل الزري الذي اوغل في تنكيد الضعفاء والابرياء ثم رفع نفتالي صوته وجهر بالشكوى وقص قصة حياته الطويلة فاستمعت لها مغارة المهد واستفاضت صورها الشاحبةعلى الحياط والجدر ، فسمعتها العمياء ولم يفت امرها الصبية الحسناء ! وكان صوت المنفي مضطربا ولكنه كان عذبا كاللحن البارع ولما خرج اسم هراقليوس على شفتيه ، وتمادى في سبه ولعنه تهافت على دمية صغيرةتمثل المسيح الطفل فقبض عليها بيديه واردف صائحا : اسمع وقل ماذا ينبغي للضارعين الماحلين ان يعملوا اذا مر بهم موكب الظالم ، ثم تولته غشيةمؤلمة فجثا على الارض

جثوا اثماً فرأته ابنته فقالت له ابي ابي لقد خفت عليك ان تموت بينما لا يزال الرجل الذي استثار بغضك يعيش في الناس !

ثم اقبلت تهدهد آلامه واضواء الشموع في الهيكل المرمري تخلع على المغارة الصغيرة مثل هذا الشحوب الذي خلعه الالم على حياة نفتالي وعلى حياة ابنته . ثم على حياة العمياء ! وبعد سكوت طويل تلفتت المرأة العمياء الى ناحية نفتالي وقالت له :

— سيدي لقد سمعت صلاتي وسمعت صلاتك فاي رجل انت فقال لهـا في رفق ودعة ، ان آلامي لكثيرة ولكن هذه المغارة التي وسعت آلام العالم كله لن تضيق بها اما من هذا الرجل الذي استمعت لدعائه فما احسبك تلذين اسم نفتالي وهو اسمه قالت فماذا تريد ان تصنع قال نذرت لاصلين صلاتين اثنتين . صلاة في المهد المعطر واخرى في كنيسة القبر المقدس ، ثم ارى الى قيصر واسمعه صوتي واعود في غدي الى منفاي على الشاطىء الاغبر مع هذه النعسة التي هي ابنتي ، وكانت بنيامينـا لا تزال جاثية فلما خرق سمعها حديثابها قالت المرأة البائسة : ان احزاننا متشابهة ياسيدتي ثم اخذت يدي العمياء في يديها وانثنت قائلة : ان قصة حياتي طويلة فما اراك في حاجة الى سماعها ولكنك ستلمسين آلامها اذا ما لمست آلام نفسك فصـاحت العمياء ما اسمك قالت بنيامينا فقالت اسمي بليترا ياسيدتي واسم ابنتي هذه مارية ...

ولما نهضت بليترا وحاولت الخروج من المغارة مع ابنتها قالت لنفتالي ستتلاقى عند قبر المسيح في مساء الغد ولكنك لن تبصر هذه الصغيرة الى جانبي لأني نذرت الا اخرج بها الى ايلياء مخافة ان يبصرها رجال الطاغية فتمتد ايديهم الى كنزي الثمين . الى ابنتي التي لم احسر عن اسم ابيها الا في هذا الصباح ، لقد سألتني الطفلة البريئة ان اقف بها على قارعة الطريق لترى الى هراقليرس في حاشيته العظيمة فمنعتها هذه الامنية رجاة ان لا يروعها مشهد الرجل الطاغية !.. ثم رققت صوتها واردفت قائلة ان قرية عين كارم غير بعيدة من بيت لحم فاذا كان التعب قد تعاورك فان في ميسورك قضاء هذا اليوم في منزلي فقال نفتالي لا ياسيدتي لا يستطيع نفتالي ان يطيل مكثه في ايلياء اذ لا معدى له عن الرجوع الى منفاه على شاطىء البحر الميت ! فقـالت

بليترا : ناشدتك الله ايها الرجل ان لا تنسني في صلاتك فقد تغسل صلاة الرجل المرزوء اوجاعا حملتها نفسي ! فقال لها هامساً الى الغد ياسيدتي عند رمس النبي الذي رأينا الى مهده

خرج الاربعة من مغارة المهد والشمس لا تزال خفيفة الوهج ، فلما احتوتهم الارض الفضاء ودع بعضهم بعضا في موقف مؤثر شجي ، وكان لزاما على نفتالي ان يعرج على بيت المقدس ليصلي في كنيسة القبر المقدس مع ابنته بنيامينا ثم ينقلب الى الاردن ، وكان ينبغي لبليترا العمياء ان ترجع الى منزلها في القرية الصغيرة عند سرة الوادي البهي بجوار القرويين الذين احبوهـــا فوق كل حب وبالغوا في ايثارها من غير ان يفطنوا الى قصة حياتها وكان حنينها الى القرية عظيما ولكن الصغيرة مارية ما كانت تشاطر امها بعض هـــذا الحنين وذلك لأن تلك الصلاة الشجية التي استمعت اليها في مغارة المهد قد انمت في نفسهـا بذور الرأفة والرحمة فودت لو انها كانت قادرة على الايغال في احياء ايلياء فتصل الى كنيسة القبر المقدس وترى الى الرجل الذي هو ابوها فتناديه وتسأله ان يكفر عن مآتيه في الاماكن الطاهرة ، وما كان هذا الاحساس الذي تحسه الصبية الحسناء ليفوت المرأة العمياء فجعلت تتحدث اليها عن امور كثيرة رجاة ان تبعثها على اطراح هواجسهـا ثم عرضت لحياة نفتالي الزاخرة بالآلام فجعلتها موضع احاديثها بينما الرجل التعس وابنته يوغلان في الطرق المؤدية الى البيعة العظيمة !

ولما عسعس الليل ونامت القرية فزعت بليترا العمياء الى فراشهـــا وطفقت تستعرض في خواطرها الثائرة صورة هراقليوس في لباسه القيصري ، وقد طاف الجند بموكبه وفيأته اعلامه وراياته واوغل فرسانه في الطريق المؤدية الى الكنيسة الكبرى . تصورت بليترا هذا كله وخيل اليها انها تستمع لدعاء الناس فادت نفسها من ألم وغم وفتحت فمها فلعنت قيصر ولعنت ما دعاه ، ثم اشتد بها الحزن فالقت بنفسها الى السرير وطفقت تبكي ، بينما الصبية مارية تجهر بالدعاء لابيهـــا في غرفة صغيرة تغص حياطها بصور الاولياء والصالحين

الفصل الخامس عشر

القبر المقدس

اطفلت الشمس في صباح اليوم التالي واذرت اشعتها الرقيقة على روائس الجبال فرعش الزهر النائم على سفوح الاودية وتضوع . ورق النعناع في الحدور الزاهية فانفلت منه اريج ملأ الافق ، ثم استفاض النهار ولألأ وانفرط ذلك الغيم المديد الذي غشي الحزون والنجود قبل مسفر ذكاء . وتفتحت الطرق والمسارب فانبعث منها رعاة المعز ، ثم مضى بعض هؤلاء الى الجبال ففيأتهم جلامدها العارية وتراءت لهم وهم على الربا الشم خطوط جبال مواب الزرقاء على الشاطئ الآخر من البحر الميت ، ثم تفرق بعض هــؤلاء في الاودية وسرحوا اسرابهم في ارض لم تنضب في بطحائها عيون الماء منذ وطئها الرسل في الحقب الاول ، وقد كانت الطبيعة في هذا الصباح البهي تزخر بالالوان فما براها احد حتى يعود به الخاطر الى الطبيعة التي عاش الرسل في احضانها قبل اربعة الآف سنة . فيستعرض في وهمه وتصوراته حياة هؤلاء الكبار الذين رعوا المعز في هذه الامــاكن فاذا امتدت هواجسه وتفاوحت تصوراته وصب تأملاته في ذلك الماضي الداثر ادرك ان هذه الارض لاتزال تجيش بالذكر الرفيعة السنية ؛ ورأى الى احلام العباقرة ترف على قنن الجبال وحدور الاودية ، واجمل هذه المشاهد مشهد الرعاة وطوافهم بالجبال ، ثم مشهد القرويين والقرويات حين انبعاثهم من جناتهم وحقولهم ، فلقد زخرت بهؤلاء طرق ايلياء وانحى جميعهم ناحية القبر المقدس ليمزجوا ادعيتهم وصلواتهم بدعاء قيصر وصلاته وابهى من هذا كله ان يكون ثمة تساوق بين وجوه النساء اللواتي تركن منازلهن في هذا الصباح وبين وجوه النساء اللواتي صحبن العذراء قبل ستمائة سنة الى هذه المراتع المقدسة وطئت مريم الطاهرة هذه الارض الغلفاء وابنها الوليد على ذراعيها الراعشتين

ومن حولها صواحبها الفتيات . فما ان جازت سيدة النساء بعض الطريق حتى تحيفها تعب مرهق ، وغشيتها سحابة من ألم فترفقت في السير وتفيأت ظلال الزيتون وعيناها الساجيتان تنظران الى الارض وعلى وجهها الصبيح الرائق صفاء النفس العالية · وهدوء الخلق الصحيح ، ثم تضاحكت لصواحبها فتضاحكن لها . وجلسن عن كثب منها وجعلن يتحدثن اليها ويدغدغن طفلها وينشدنه ارق اناشيدهن رجاة ان يغفو على ذراعيها فتستفيق في صدره احلام الطفولة الهانئة ، وقد كن يلبسن الابراد الزرقاء والحمراء فتأنس مريم الى لباسهن وتستسيغ زرقته وحمرته ولا تأنف من مجاراتهن في لبسه ، وكن اذا ابصرنها عانية ومحزونة يزرفن اليها في رفق وحب ويسقينها الماء العذب ممزوجا بعطور النارنج والليمون ثم يأخذن طفلها النبي فتتلقاه احضانهن وهو يضحك لضحكهن ويغني لغنائهن .

لم تتغير هذه الصور البارعة سنة ثمان وعشرين وسثمائة . فان النساء اللواتي تركن منازلهن مع ازواجهن كن يلبسن الابراد الزرقاء والحمراء . وكن يحملن صغارهن على ايديهن وكن يضحكن ويغنين ، ثم كن الى جانب ذلك كله ينقلن الماء السائغ الممزوج بعطور النارنج والليمون في قوارير من الخزف الملون ثم يجزن الطريق تحت بواسق الزيتون .

وما زالت الطرق تغص بهذه المواكب حتى تراءت المدينة المقدسة فاذا هي رابضة على قنن الجبال العارية واذا منازلها وقصورها ومحاريبها قد تناثرت على الربا والحدور ، ثم اتسع الفضاء امام هذه المواكب وبدت نواحي الجبال الشمالية عاطلة من كل زينة عارية من كل طلاء . ثم اطلت المدينة من ناحية اليمين فاذا هي بيت المقدس تحدق بها سورها المنيع وتحجب قصورها وبيعها سماء جونا‌ء !

لقد كان الناس الذين روعتهم مآسي الليالي الماضية يتهامسون ويتسارون وكانوا يقولون : ان صوم قيصر لم ينته بعد . ولكن سيد الكتائب سيصلي في المساء على حضيض البيعة المقدسة !

وقالت نساء من حبرون : برح الهم بقيصر تبريحا انساه انتصاره على العدو الفارسي ؛ وقالت امرأة من الناصرة : يالي من غبية فاني جزت الفراسخ على قدمي لانظر الى موكب الرجل الذي هو خليفة المسيح في الارض ، فلما رأيته كرهت النظر اليه ، حقا ان صورته لمفزعة ، وقالت امرأة من جنين : ما رأيت على وجهه زهو الرجل المنتصر ، فاين ضيع هراقليوس رواء الملاحم ! وقالت عجوز من عين كارم : ان في القرية امرأة مسكينة تعتزل الناس في منزل منفرد مع ابنتها وقد رأيتها تكثر من الصلاة وسمعتها تدعو على قيصر ! ثم تخافتت عجوز عين كارم بصوتها قائلة: وقد رأيتها عند عودتها الى القرية مع ابنتها الصبية فاقتربت منها وحدقت اليها فاذا هي لا تبصر فتوجعت لها ثم مضيت اسأل نفسي معنى هذا اليأس البليغ الذي يحفزها الى لعن قيصر ! فقالت لها امرأة في الاربعين من عمرها : لعلها من نساء اليهود الذين سوغ قيصر اجلاءهم عن المدينة فصاحت عجوز عين كارم لا ، لا انها نصرانية ولا يفارق الصليب عنقها الناصع البياض ...

وجعلت عجوز عين كارم تنظر ذات اليمين وذات الشمال مخافة ان يسترق همسها احد رجال قيصر فلحظت في الجماهير امرأة تلبس السواد ومعها فتاة صغيرة تسحب خطاها في رفق وتؤدة فصاحت الا ترون الى ما ارى ، هذه هي عمياء عين كارم ! وارحمتاه لها انها لتشق صفوف الناس في عناء وجهد ، كأنما تريد ان تبلغ الكنيسة قبل الجميع

ولما سكتت العجوز شخص الناس الى المرأة العميـــاء ، فاذا هي قد سدرت شعرها واخذت تدفع الناس ويدها في يد ابنتها الصغيرة ، فاخذتهم الحيرة من امرها وطفقوا يتهامسون عن معنى هذه الاحزان التي تتنازعها فتسرب همسهم الى المرأة العاثرة الجد فقالت للفتاة التي ترافقها لقد فطن الناس الى امري يابنية فما يزدهم شيء في تنميق الاحاديث وذلك امر لا احبه ولا اطمئن اليه فمن الخير لي ولك يامارية ان نبلغ الكنيسة قبل مو قيت الصلاة ، فقالت الفتـــاة : ألم اقل لك ان الناس

لا يفوتهم حزنك وانهم يتساءلون عن امرك ، ويوغلون في ظنونهم بك قالت لقد نذرت لله نذراً فلا ينبغي لي ان افرط فيه ! ثم سكتت واستأنف الموكب سيره في طريق بيت المقدس

ولم يكن في موكب النساء القرويات من يحملهن على الصمت او يردعهن عن الايغال في الحديث عن هراقليوس فمضين في العبث والثرثرة حتى عرضن لحياته في قصره وحتى قالت احداهن :

« لماذا تعجبن من هـــذا الحزن الذي يغشي جبين هراقليوس ، الا تدرين انه الرجل الذي وطيء الشرائع منذ حمل ابنة اخيه مارتينا (١) على الرضا به زوجا ، ان هذه الجريمة وحدها زعيمة باتراع نفسه بالحزن والالم واليأس وهل يستطيع الانتصار ان يخلع بهاءه على جبين يمور صدر صاحبه بشعور الندم والتوبة !» قالت المرأة ذلك وهي ترسم علامة الصليب على صدرها فصاحت النساء صيحة الذعر : اوفعل ذلك ؟ فقالت المرأة نعم ، ولم يرده عن فعلته مقامه السني فلعنت النساء في خفوت وهمس قيصر الرومان ولم يذكرن اسمه ، ثم مضين يعرضن العنب والتين والليمون في اسواق المدينة كشأنهن في كل يوم

وقد حدث في هذا الصباح نفسه مثل هذا اللغط في صفوف الرجال فجعل هؤلاء الذين شهدوا قبل ايام تنكيل الرومان باليهود يتكلمون عن صوم هراقليوس وعن بأسه ، ولكنهم لم يعرضوا لحادثة زواجه المحرم ، وانما بهر هؤلاء الذين توافوا من كل ناحية الى ايلياء في هذا البكور الهيي ما حمله الرعاة ورجال القوافل من اخبار بادية العرب وفي هذه الاخبار جميعها مالا يستريح قيصر ورجاله اليه ، واشجى ما قصه الرعاة ، ورددہ عمال قيصر في البادية ، حديث طويل عن خروج كتيبة

(١) تزوج هراقليوس ابنة اخيه مارتينا . فخيل اليه بعد خروجه من سورية اثر دخول العرب الى دمشق ان انكساره امام كتائب العرب انما كان لسخط الله عليه . التاريخ العام لارنست لافيس والفريد رامبو ج١ ص ١٩٨

من الصحراء الى الشام للثار بدم رسول بعث به نبي عربي ولد في مكة الى البلقـــاء وحديث مستفيض عن ثورة الفيلارك فروة بن عمرو الجذامي عامل قيصر على سيناء وارض مواب وقد قال احد هؤلآء الذين غصت بهم طرق ايلياء : ان قيصر ليعيش في القصر السامق على ذرى جبل الزيتون عيشة مملوءة بالاحلام والهواجس حتى لقد جفـــاه النوم وازور عن نفسه الهدوء واحزنه ان يثور عليه احب القواد اليه، وقال رجل من معان : ان النبي الذي ظهر في روابي مكة قد بارك الامير الجذامي فلحقت به القبائل ، وانضوت الى رايته ! وقال تاجر من غزة : ان صحراء العرب قد القت بفرسانها الى المدن فلحق الناس بهم وبهرتهم دعوة الرجل الذي اقسم ليرثن ملك كسرى وقيصر !

واخذ الذين جفوا منازلهم في هذا الصباح يتحدثون عن فروة بن عمرو ؛ وعن النبي بينما نواقيس البيع تخفق في الفضاء ايذانا للناس بانقضاء صوم هراقليوس وبينما رجال من حرس قيصر يتولون حماية الطرق المؤدية الى كنيسة القبر المقدس وبينما بعض اليهود الذين لم يقدروا على الخروج من ايلياء ينحدرون من القنن الرفيعه ليحشروا في المسارب الملتوية في طريقهم الى مغارة ارميا بعد ان خلف هؤلآء التعساء وراءهم وادي يوشافاط الرهيب وتركوا المدينة المقدسة في ثوران لا يماثله في روعته ذلك الثوران الذي تعاورها سنة اربع عشرة وستمائة يوم وطئت ارضها جيوش كسرى وكتائبه .

على مسافة يسيرة من باب دمشق ميدان فسيح اجتمع اليه بناءون ومثالون من الاغريق لاصلاح كنيسة خربها الفرس بعد فتكهم بالقديس اتيان ، وقد احتشد الناس في هذا الميدان ليقرأوا على الجدر رسالة الامبراطورة ايدوكيا زوج هراقليوس التي دعت الناس الى تعظيم الصالح القتيل في الارض التي شهدت مصرعه

وكانت سقوف الكنيسة المرصعة بالفسيفساء لا تزال على الاديم وعلى مقربة منها اعمدة من المرمر عليها تصاوير القديسيين والقياصرة . في هذا الميدان الافيح

وفي ذلك اليوم العظيم الذي حبسه هراقليوس على تخليد ذكرى ظفره بارجاعه الصليب الكبير الى كنيسة القبر المقدس طفق النـــاس يتحدثون عن فروة بن عمرو وعن خروج سرية من صحراء العرب الى الشام لقتال الغساسنة والرومان .

وقد كان البغض والكره والاحتقـــار والحذر والشك والهمس يسود جميع الناس ، فما يتكلم احدهم على قيصر الا علت وجهه قترة من غم ويأس وبغض وما يتكلم آخر على فروة بن عمرو الا برقت اساريره من الفرح ، ثم تكلف ان يخفي هذا البريق مخافة ان يلحظه حرس قيصر ، وما يهمس واحد باسم ذلك النبي الا تلفت ذات اليمين وذات اليسار ، فاذا لم ير رومانيا الى جانبه تهافت على صديق قريب وسأله عمـــا يعلمه من امر جزيرة العرب حتى اذا كان الحديث طيبا تضاحك في سره وامل لهذه الصحراء التي اعتادت ان تحشد النبيين والرسل والفاتحين والمنشئين ان تردد نشيدها السائغ في ايلياء

كان هذا شأن الناس جميعا في سنة ثمـــان وعشرين وستمائة ؛ ظلمهم الفرس الوثنيون فرجوا لكتائب هراقليوس النصر عليهم ، ثم ظلمهم الرومان المسيحيون فتناسوا انتصاراتهم ودعوا عليهم ورجوا للبادية الغلفاء اروع نصر

هنالك على جبل صهيون حيث بعض ذرى هذا الجبل لاتطل على ايلياء تتلاقى ذكر الماضي وذكر الحاضر ، وتجتمع مصائب الاسلاف الى مصائب الاخلاف ويخرج الذين اخافهم قيصر ، كما اخافهم كسرى من بيوتهم الى الجبل الذي تغنى سليمان بذكره في اناشيده ، وبكى الرسل على سفوحه وحدوره ، فيطوفون باصلاده العارية الشاحبة ويتبركون بالاطلال الباقية من قصر داود ، ثم يفيئون الى القنن الرفيعة ، وتبدو لهم في الجنوب تلك الخاضر الضاحكة في وادي ابن حنون وتبين لهم على اطرافه وجنباته قبور القضاة ولا يفوتهم امتداد الصحراء من حبرون الى ابواب بيت لحم بينما ذلك السور المنيع الماثل في النواحي الشمالية لا يزال يمنع الناس من رؤية ايلياء الهاوية الى وادي يوشافاط .

امضى الناس صلاة النهار في البيع ، وفي المساء خرج هراقليوس الى كنيسة القبر المقدس في حاشية رائعة من ملوك الشام ، واحبار النصرانية ، فمرت كتائب فرسانه وعليها صاحب شرطته غاليـــاس بطريق ضيقة ملتوية بين جدر قديمة يغشاها دخان الحريق تحت سماء بطيئة الكواكب ، وامـــام الموكب القيصري سرب من الرهبان بملابس الكنيسة ومعهم فتيان من الرومان يحملون الصلبان والصور ووراء هذا الموكب الجامع طوائف من القرويين والقرويات وقد نهدوا من ايلياء من كل النواحي ورافقوا هراقليوس من القصر الى البيعة وهم ينشدون ويهزجون وينثرون الزهر الندي على رءوس الجنود الذين اجلوا الفرس عن بيت المقدس

وقد ظلت اجراس الكنائس المجاورة توالي الخفق حتى نزل هراقليوس من المحفة وحتى سار الى الكنيسة يتقدمه اليها البطريرك زكريا والاسقف مودستوس واحبار الارثوذكسية بارديتهم الفضفاضة المذهبة وتيجـــانهم البراقة وعصيهم المرصعة باليواقيت ، ثم دخل الى الكنيسة جميع هؤلاء الناس الذين صحبوا قيصر ودخل معهم نفتالي الشريد الطريد وابنته بنيامينا العانية ولحق بهؤلاء جميعا موكب القرويات اللواتي آلين على نفوسهن الا يتركن الكنيسة قبل ان يستمعن الى البطريرك زكريا ذلك الشيخ الوقور الذي امضى بعض عمره اسيراً عند الفرس . وبين النسوة بليتزا العمياء ، وابنتها مارية .

وقد كان المشهد مؤثراً وشجيا حينما تواضع هراقليوس وركع والقى جبينه الى الحجر الذي وضع عليه رفات السيد يوم تهافت اصحابه على تضريجه بالزعفران والآس قبل ان يغيب جسده الطاهر وكانت صلاة قاهر الفرس على الحجر طويلة وعميقة حتى لقد خيل الى النـــــاس الذين وقفوا ينظرون اليه ان الرجل الذي اوغل في قتال عدوه وارتد ظافراً فاضت روحه على الحجر الذي غطاه الحجاج والزائرون بمرمر نقي .

ولما عاف هراقليوس مكانه على الصخر وتراءى للناس لم يفت هؤلاء الذين

همسوا بموته يسير او كثير من شجونه وهمومه . فرقت نفوسهم له وغضوا ابصارهم حتى لا يجتريء احد منهم ان يملأ بصره منه ، ولا يشير بطرفه الا مسارقة اليه

تشتمل كنيسة القبر المقدس على جبل الجلجلة او جبل الصليب ثم على محاريب كثيرة بنت اكثرها القديسة هيلانة لتغطي القبر ، وليس في بنـــاء البيعة الكبرى ثمة تساوق وانسجام ، وانما بنيت على شاكلة صليب ، وطولها مائة وعشرون قدما وعرضها سبعون قدما . تعلوها ثلاث قبب احداها تظل قبر المسيح عليه السلام ثم تغطي هذه القبة صحن الكنيسة كله ، وينهض رفرف الكنيسة على روافد من ارز لبنان اما قبر المسيح فقائم على مسافة ثلاثين ذراعا من تلك الصخرة التي وضع عليها رفاته وضرج بالطيب وقد بناه بناته تحت القبة التي تظل الصحن في حجرة نقرت على الجلامد ولها باب ينظر الى ناحية الشرق . ارتفاعه خمس اذرع وعرضه ذراعان فاذا اراد زائر ان يغشى القبر كان لزاما عليه ان يطأطيء رأسه . فاذا احتواه القبر الفى نفسه في بناء مربع لا يزيد على ست اذرع طولا والفى عرضه اقل من ست اذرع فاذا نظر الى افق القبر لم يفته ارتفاعه الى ذراعين ونصف ذراع

وقف هراقليوس حاسر الرأس امام باب القبر فما يتقدم او يتأخر ووقف البطريرك زكريا الى يمينه ووقف الصالح مودستوس الى شماله ، والناس في صحن البيعة قد ساورتهم روعة النصرانية وروعة القيصرية ، فلا يهمس احد بهمس ولا يتطاول الا نفتـــالي الشريد الطريد الذي انتبذ في البيعة مكانا قصياً وجعل ينظر الى صورة قيصر لا الى هذه التصاوير التي راحت تملأ الحيـــاط والجدر ، كأنه قد لذ هذا الالم البادي على جبين سيد الدنيـــا فتمادى في التحديق اليه وطرب من بثه وضراعته ، وغامت عيناه بدموع الفرح ورأى في هذا الحزن الشديد الذي تعاور هراقليوس خاتمة مجد الرجل الذي لم يمنعه بره بنصرانيته من اراقة الدم الذكي في ارض الله ووطن انبيائه

وكان من احب اماني المنفي الطريد وقد رأى الى ذلة عدوه واستمع لشكاته ان يفتح فمه ويسمع الناس قصته الشجية عن كثب من المراقد المقدسة ويحسر لهم عن امر قيصر ثم يتوارى بين العمد والاروقة فلا يجرؤ احد على اللحاق به رعاية للقبر المقدس، ولكنه آثر الصمت وفضل ان يصلي في سريرته تلك الصلاة التي مرن على ترديدها بجوار شواطيء البحر العبوس المكفهر!

ربما خيل الى نفتالي ساعة وقف هراقليوس امام باب القبر ومن حوله زعيما الكنيسة انه بلغ امنيته في الثأر بجراحه . فلقد بكى قيصر عندما اهوى بجبينه الى الصخرة التي وضع عليها رفات المسيح وسأل الله ان يغسل ذنوبه ، ولا يزال قاهر الاكاسرة ماضيا في بكائه ، وعند هذه الدموع التي يريقها قيصر تنتهي ثارات نفتالي!

وكانت مظاهر العبادة قد اثرت في نفس بنيامينا فنظرت الى ابيهـا نظرة ألم وارتماض فلم يفته ما بنفسها فتخافت بصوته وقال لها: كيف رأيته فقالت هامسة « يكاد من فرط الجزع ان يميد!..» فقال لها ستصلين معي عند خروج الناس من البيعة فقالت ولكني ماعدت استطيع البقاء هنا . فان احزان الرجل لامست نفسي وهزت شعورها الراكد!

ولم يستطع نفتالي ان يمضي في احاديثه . فلقد جعل الناس في تلك الفينة يصغون الى صلاة البطريرك زكريا عند باب الضريح ثم اخذتهم روعة المكان المقدس فطفقوا يرددون صلاته البارعة في خفوت وهمس وكان لزاما على نفتالي ان يساوق هذه الجموع الحاشدة في الدعاء. ففعل فانساه ورعه نزوات النفس الثائرة وذهبت بنيامينا الى مساوقته في ترديد صلاة البطريرك

وما كان نفتالي ليحب ان يشارك البطريرك زكريا في دعائه لقيصر، وهو الذي جفا صخور ذلك المنفى العاري ليدعو عليه ولكنه كان نصرانيا في منازعه وسلائقه، فلم يلبث ان اطرح البغض مساوقة لاحساساته ومجاراة لميوله وانه ليصلي بجوار ابنته ، اذا بليتزا العميـاء تشق الصفوف حتى بلغت

ناحية قريبة من باب القبر وهي تقول لابنتهـــا « لقد سمعت صوته ولم يقتفي اثر من شجونه فكيف رأيته يابنية فقالت الصغيرة وعيناها تنظران الى هراقليوس الدميع : انه لجميل جدا يا اماه . ولكن احزانه لاتنتهي قالت « فماذا يلبس هـــذا الرجل الذي هو ابوك بامارية فقالت : ملابس الحرب ؟ فهزت بليتزا رأسها وانثنت قائلة : لا يفارقه زهوه وكبره حتى في الاماكن الطاهرة ! فياله عاتيا ! . . قالت انك تبالغين في الطعن عليه يا اماه . وقد انساك حزن برح بك انه ابي ! . . . فقالت نعم هو ابوك ولكنه الى ذلك الرجل الذي عبث بطهارتي والتي بي الى اليأس وددت لو انني كنت قريبة منه فاسمعه صوتي واطل عليه بآلامي الحافزة فيراني ويشعر وقد فيأته الاماكن الطاهرة بهذا الذي على شفتي من اثر اللعن ! . . فقالت الفتاة ولكني اخاف عليك الحرس فان هؤلآء ليلتفون به فلا يفارقه احدهم ! . . .

وفي تلك الفينة رفع نفتالي رأسه فلحظ بليتزا ورأى الى شحوب وجهها فرعش وزرف اليها هامسا : سيدتي لقد اتفقنا على اللقاء في المعبد ، فعرفت العمياء نفتالي من صوته فقالت له ألم تلعنه ياسيدي ، قال : نعم ولكن لعنتي ظلت في اعماق نفسي فلم يسمعها الناس ، قالت فاين ابنتك ، قال انهـــا معي فلا تفارقني ، فقالت بليتزا ناشدتك الله الا تفارق مكانك بعد خروج الناس من الكنيسة ، فاني احب ان اجمع آلامي الى آلامك فتجتمع بذلك آلام ابنتك الى آلام ابنتي ثم نصلي جميعا صلاة واحدة ويسمعنا اله واحد ! لأن ظالمنا واحد ! . . .

وحينما طأطأ هراقليوس رأسه ليجتاز باب القبر الى داخله ارتفعت اصوات الناس بالصلاة ولحق زعيما الارثوذكسية زكريا ومودستوس بقيصر الى القبر ومعهما قطع الصليب الكبير في صندوق من الذهب ، وبعد طوفة قصيرة خرج هراقليوس مسفوعا عانيا ، وخرج في اثره زكريا ومودستوس الصالحان ثم تهافت قيصر على زيارة الاماكن المقدسة فطاف بالناحية التي تراءى فيها السيد المسيح بعد موته لوالدته العذراء ، وجاس خـــلال غرف كثيرة ثم مضى في طوافه حتى

احتوته بيعة صغيرة سجن فيها المسيح وطول هذه البيعة سبع اذرع وعرضها ست اذرع فطفق البطريرك زكريا يقص على هراقليوس قصة آلام السيد حتى استثار شجوه ، ثم خرج هراقليوس الى بيعة اخرى طولها خمس اذرع وعرضها ثلاث اذرع ، في هذه الرقعة الصغيرة من جبل الآلام عري المسيح من ملابسه قبل صلبه كما جاء في قصص النصرانية وتوزع الجند اثوابه ، وكان الليل قد اسدف والقى سجبه السود على المدينة . فسأل قيصر زكريا وموديستوس ان يتركاه في البيعة ليقضي نذره ثم يعود الى القصر عند منتصف الليلة فجاراه الراهبان في الذي اراده وانقلبا الى ناحية القبر المقدس ، واخذ الناس يعودون الى بيوتهم ماخلا نفتالي وابنته والعمياء وابنتها فلقد وارت العمد المتكاثفة هؤلاء عن عيون الجماهير فاوغلوا في دهاليز البيعة من غير ان يفطن القسوس الى امرهم !

وكان هراقليوس لا يزال جاثيا على حضيض البيعة الصغيرة بملابسه القيصرية ساعة انحدر نفتالي وابنته والعمياء وابنتها الى حرم القديسة هيلانة في جوف الارض



الفصل السادس عشر

البطـــل

سرب هراقليوس في انحاء الكنيسة بين العمد والاقواس والحنايا والقناطر والتصاوير والشموع فكأنه في سروبه طائف القت به دنيا الاموات الى دنيا الناس وما كان قاهر الفرس وسيد الكتائب الظافرة في افريقيه واروبه ليستطيع ان يكافح شجونا علقت بنفسه وملكت عليه احساسه وشعوره، وتلك هي شجون لم يحسر عنها امام خلصائه واصفيائه استبقا. لزهوه وكبره. وحرصا على ذلك المجد الذي بلغ نواحيه في عمره الطويل، ولكنه احب ان يلقي بحزنه وشجوه الى هذا الليل الغاسق الذي بسط جناحيه على غابة تمور بالصور والدمى والمرمر والبرفير واللآلي. واليواقيت، وقد يكون من الخير لنفسه ان تطفو روحه على هذه الاشياء والمشاهد، فكان كلما مر برواق من هـــذه الاروقة المعتمة هتف الجرح بقلبه وحسه فتزسل في مشيته، واقبل الى العمد المرمرية الماثلة فترفق على جذوعها وجعل ينظر الى اضواء الشموع، ثم الى هذه الصور التي قبست شحوبها من نفوس عمرت بالألم والتقى والورع، فاذا صدف عن العمد المرمرية ونازعته نفسه الى الطواف بالاماكن المقدسة. تفاوح امامه فضاء الكنيسة واتسع، وخيل اليه ان الحيطان والجدر تفر منه وتنأى عنه. فما يستطيع لحاقا بها ولا تستطيع ان تسايره في منازعه فتسكن وتستريح، وكان في بعض الاحايين لا يجد معدى عن الوقوف امام هذه الصور الملونة رجاة ان يتعرف الى اصحابها فيفتح عينيه ويمد يده الى مذبح صغير ازينت اطرافه وجنباته بالذهب فيقبض على شمعة من هذه الشموع التي تضيء المذبح، ويأتي الى الصور ويقرأ اسماء الرسل على الضوء. ثم لا تعجبه هذه الاسمـــاء فيرتد عنهـــا في مثل خفة الوميض، ويطرح الشمعة الى حضيض البيعة فيخبو

نورها ، ثم لا يغمه ولا يحزنه ان يستأنف طوافه في ليلين راعبين ، ليل نفسه ، وهذا الليل الذي يغشى المعبد !

وربما كان من احب امانيه ان لا يقول شيئاً لاصحاب التصاوير ، وقد يكون من ارضى هذه الاماني ان يلق بدخيلة نفسه الى المسيح وحده وذريعته في الحرص على صمته حتى يخلو الى صورة السيد المسيح انه ناضل ونافح في سبيله فاولى للنبي الذي نصره على الوثنية وبارك سلاحه في سوح الوغى ان يستمع له ويرضى عنه وليس يضير هراقليوس العبقري ان يفزع الى الرسول العبقري ، وانما يضيره ان يقص قصة حياته على صور ما كان اصحابها من طرازه وعنصره !

ولقد وقف هراقليوس بعد افلاته من القبر المقدس بجوار صخرة قيل ان ملكا من السماء وقف عليها ليتحدث الى العذراء مريم ، فتهافت عليها وتمسح بهـــا ، ثم دخل الى بيعة صغيرة اسماها نصارى القرون العافية « معبد الملائكة » ثم لم يلبث ان ازور عنها وجاء الى بيعة محاذية في رحبتها قطعة كبيرة من المرمر الرمادي قيل ان السيد المسيح صعد عليها وتراءى لمريم المجدلية وعليه لباس جنان يحمل الورد وكانت البيعة الصغيرة تسبح في ظلام شديد فثنته الجهمة الراعبة عن شعور الرجل التقي فجثم مصليا على المرمر وحدق الى سماء المحراب كأنه يريد ان يتعرف المكان الذي خرج المسيح منه بعد دفنه ؛ ولم يطل مكثه في المحراب فعافه وغشي المعبد الذي ظهر فيه السيد للعذراء بعد بعثه فطاف بودائعه طوفة الحـــاج المنيب وكانت المصابيح المذهبة الملونة تضيء جوانب المعبد فرأى هراقليوس على وميضها صورة تمثل المسيح ووالدته ، فرق للصورة وابتسم ولـكن ذلك العزاء الذي امله لم يخـــالط نفسه فجمع ذيول ردائه وخرج من المعبد ليدأب في طوافه فاستقبلته العمد المرمرية الرفيعة ، كأنها خيالات الموتى ، فاخافه ما عليها من سعف النخيل وورق الغار ، وانمى مخاوفه احتراق البخور في كل ناحية من نواحي البيعة الكبرى واطلال الصور على الحياط والجدر ، وكان يخيل اليه ان حجه قد انتهى ،

فينبغي له وقد بلغ غايته من زيارة الاماكن الطاهرة ان ينقلب الى احراسه الذين ابوا مفارقة ابواب الكنيسة قبل فراغه من حجه فلمـــا هم ان يخرج لم يستطع ان يتعرف الابواب فقد امتد صحن الكنيسة وفاح حتى ماثل الحرجة الغبياء فالقى بنفسه الى تيه راعب وبلغ به المطاف محراب القديسة هيلانة الماثل الى يساره فشخص اليه وقرأ اسم هيلانة منقوشا على المرمر بحروف اغريقية . وهو لا يجهل امر هذه المرأة التي لبست التـاج في كنيسة الرسل و بعثها شغفها العنيف بقصة حياة المسيح على فراق القصر فجاءت الى بيت القدس لتبحث عن خشبة الصليب ، فلما عثرت عليها بالغت في تكريمهـا ، ثم رفعت هذه الكنيسة تخليداً لذكريات تلك الحياة الماجدة !

لألأ الفرح على جبين هراقليوس ، فتشاجى ورق وجعل يستعرض تاريخ تلك المرأة التقية التي ازعجاها الورع الشديد العنيف الى الايغال في منافحة الوثنية فاكبر حياتها ، ثم قارن بين هذه الحيـاة وحياته فراقه تساوق عجيب في الحياتين ولذه ان تبدأ المرأة العاقلة امرها في البحث عن الصليب حتى حصلت عليه ، وان يبدأ هراقليوس امره في ارجاع الصليب الى مكانه الاصيل بعد انتصاره على جيوش ملك الملوك كسرى !

وكانت هذه المقارنة التي ذهب اليها ساعة وقف الى جانب المحراب مثـــاراً لذكريات نبيلة في نفسه فاطمأن البطل المقارع الى خاتمة حياته ووثق بقدرته على اجتناء النصر حتى يغيب في رمسه ! وما عاد يخيفه هذا البغض الذي يشعر به الناس في الشام وفلسطين ومصر ، بل ماعاد هراقليوس يخـــاف امر هذه الصحراء التي اخرجت الابطال والمساعير الى مشارف الشام للثأر بدم الرسول الذي قتله امير من غسان ! ومن اين لهذه الصحراء الغارقة في الرمال والتي لا يسمع لهـا نشيد في البلاد الوارفة الظل حظ هراقليوس اللامع ؟ وجده الساطع ، وهذا الملك الطويل العريض الذي استعبد الشعوب واذل الملوك ، بل من اين لهذه الصحراء الغطشاء

السادرة في حر الهاجرة ، هذه الانهار الجارية وهذه البحار الطاغية وهذه الشطآن التي لاحد لها ولا انتهاء ! قد تغري الحماسة فرسان الصحراء بالوثوب على القرى والمسالح ، ولكن دون وصول هؤلاء الفرسان الى المدن الضاحكة على ضفاف الانهر وشواطيء البحــار ، حمية هؤلاء الملوك الذين مشوا في ركاب قيصر لقتال كسرى في مدائنه ؛ وبسالة الجيش الذي ظفر باسلاب العدو في جبال الالب وفي سهول مقدونية وعلى شواطيء البحر اليوناني !

وماذا يستطيع فروة بن عمرو الذي ثار على سيده ومولاه ان يفعل وفي جيش هراقليوس قواد ما تزال صدورهم تخفق بتلك الاناشيد التي سمعها العراق وسمعتها فارس ولا يزال صليلها الراعب يرعد في سمع هذه الدنيا التي لا يرتفع لهــا علم بجوار علم قيصر ! ...

لقد همس هراقليوس باسم فروة وهو منحدر الى الهاوية العميقة التي نقرت على جلامدها كنيسة القديسة هيلانة ، همس الساخر العابث ، ولما جاز السلاليم الى ذلك المنحدر الاوهد رفع يده الى الفضاء كأنه يتوعد الفيلارك فروة بن عمرو الجذامي ، ثم تضاحك حتى لقد رن ضحكه في جوف الهاوية واردف صائحا « ما انا بحاجة الى قتالك ايها الفتى الذي ابتعثته اماني الشباب على الزراية بسيد الجيوش وامير الجحافل ! فمثلك لا يقاتله رجل الا من طرازه ونوعه وقد وفقت في العثور على الرجل فاليكه فانه الحارث الغساني امير دمشق وسيأتيك من حيث لم تحذر ويقاتلك من مأمنك

جاز قيصر السلاليم في رفق وهوادة ، فاستقبلته الظلمة الفــاحمة وارتمت على جبينه الرطوبة وسرت الى نفسه عفونة ما كان يستطيع عليها صبرا ، ومع هذا كله مضى هراقليوس لما شاء . ودأب في انحداره حتى انتهى الى الهــاوية فاذ عليهــا سحب من ليل صارد واذا الرطوبة التي استقبلته على وصيد الباب تستقبله عند كل خطوة ، واذا هو لا يبصر غير بريق الفسيفساء على الحيطان

والجدر والحنايا فانكمش وتقاصر وردت اليه هواجسه ، وثابت الى قلبه وساوسه وامتلأ رأسه بالتهاويل والتصاوير . فاطرح عبقرية الرجل الاريب واخذته جنة الرجل السروب ، وفكر في الرجوع على عقبيه فـــا جرؤ على رجعة وشيكة فقد سالت نفسه على الحياط والجدر وانمى مخاوفه بصيص من ضياء يتسرب الى حضيض البيعة من ثقوب في قبتها السامقة وقد تسايل على الجدر والحياط فضوأها فنظر هراقليوس اليها فاذا عليها تصاوير غائمة شاحبة تمثل اشخاصـــا ذوي وجوه كامدة ، وقد قعد هؤلاء القرفصاء . وحسروا عن صدورهم فاذا هي قد أكلتهـــا القروح واثخنتها الجروح فسال صديدها على اطمار بالية عافية وبين هؤلاء المناحيس المشائيم فقراء ومتسولون يغشى وجوههم الناصلة اثر غير يسير من بوءس وبأس ومن حولهم فتى رائع الجمال ضاحك الاسارير ، قد سدر شعوره الشقر على منكبيه حتى ماثل المسيح في ملامحه البارعة ، ولكنه ضرير لا يبصر ما حوله

خيل الى هراقليوس وهو ينظر الى هذه التهاويل انه في مكان يسوده العذاب فتلطفت نفسه ورجفت اسنانه ووضع يده على عينيه كأنما هو يحـاول ان لا يرى الى هذه الاشياء الجـــاهمة ، ثم فكر في الرجوع الى المعبد ، ليلحق برجاله الذين ينتظرون معاده على الابواب فما استطاع الى ذلك سبيلا . فلقد امالته مخاوفه الى الايغال في الطواف فمشى بين صفين متقابلين من اشبـــاح وصور ، ثم لم يعد في ميسوره ان يدأب في طوافه فوقف تحت قنطرة المعبد وجعل يستمع لفحام مؤلم ينبعث من صدره !

ليس بين هذه المحاريب التي غصت بها انحاء كنيسة القبر المقدس مـــا يماثل محراب القديسة هيلانة في ظلمته وروعته وفي ذكرياته الحافزة المثيرة ، فلقد يستطيع الانسان ان يمر بالمعابد جميعا وينسل الى الاروقة جميعا ويتجسس العمد والتصاوير جميعا فلا يحس خوفا فاذا القت به حظوظه العاثرة الى معبد القديسة هيلانة بدت له نواحيه واطرافه صامتة ذاهلة فاذا تدفق في سيره الفاه خاليا عاطلا الا من هـــذه

الاشباح والاطياف الجاثمة على سلالمه ودرجاته وعند مداخله والا من هذه التصاوير التي لا تفارق جدره وحياطه فاذا طاف بهياكله ومنـــابره لم تتبدل في عينيه هذه الصور التي ابصرها على عمده وحناياه واقواسه ، ثم لا يلبث ان يفر من هذا المكان الراعب الذي يماثل في تهاويله وتصاويره معابد الوثنية

لم يجد هراقليوس معدى عن الصلاة فتخـــافت بصوته لعل صلاته تنسيه هذا الضجر الاحمق الذي علق بنفسه ، او لعل هذه الصلاة التي همس بهـا في الراموس الراعب ترجع به الى حزمه ومضائه فينقلب على احلامه وهواجسه ويجفو هذه العزلة الجاهدة ، ويفيء الى سربه صحيح العقل موفور الذكاء ، ولكن الرجل الذي اوفى لنصرانيته وبر بمسيحه ما كان يجد في هذه الصلاة التي رددهـــا امام التصاوير ذلك الصفاء الذي يشتاقه وذلك لأن ماضيه مثل له في الراموس النابي ، فزحمته طيوفه واشباحه وخرجت على فمه اسماء معاركه وملاحمه وانفلتت من صدره ذكريات مخازيه ومساويه ، فقارن بين انتصاره على الوثنية وبين ايغاله في تنكيد ابناء الشيع النصرانية . فرجحت كفة رذائله على كفة فضائله فتشـــاجى ورق وهام على وجهه في فضاء المعبد حتى بلغ هيكلا رمريا فوقف حياله كأنما هو يريد ان يعترف بذنبه او كأنما هو ينزع الى القاء جرائمه في هذا المكان المخوف فذكر امام الهيكل اسم مارتينا زوجه وقد نهاه البطريرك سرجيوس عن مخالطتها فابى ذلك مسايرة لميول قلبه ، ثم تزوجها والبسها لباس القياصره ومشى بها الى كنيسة اياصوفيا من غير ان يفطن الى عظيم ذنبه عند ربه

وكان كلما طافت به هذه الذكر الشجية لا يمنع عينيه البكاء حتى لقد استفاض انينه في انحاء المعبد فا تمعت لها التصاوير وعتمـــا السدفة ثم غشيته ذهلة قاتلة فجعل يهذي هذيانا بليغا . وانكفأ يخلط ماضيه بحاضره ، وقذف فمه اسماء ضحاياه وبين هذه الاسماء التي لا تحصى اسم فتاة وطىء قيصر عفافها في ليلة عاصفة بالبروق والرعود وارادها على فراق وطنها فخرجت منه الى ربوع الشام وفي نفسها

المحطمة من الذكر الراعبة ما ليس في كتاب

وكان هذا الخوف الذي تولاه ساعة نظر الى صورة الاعمى مبعث حيرته ومصدر وساوسه فسأل نفسه عن هذا الجزع الذي غشيها وهو الزعيم الكمي الذي جاز بفرسانه شواهق انطاكية وسهولهـــا ليلحق بجيوش كسرى عند تدمر فتنة الصحارى فلما فرت جيوش كسرى امام كتائبه ثارت حميته واستأنف زحفه في ارض محصبة واعرة حتى لقي كسرى عند دجلة فنهد الى مقـــارعته وحمله عار الانكسار ولحق به الى المدائن واقسره على ارجاع الصليب الذي حمله ملك الملوك من بيت القدس

وليس هذا كل ما فكر فيه ، بل لقد ذهب في تفكيره الى ابعد مدى فتمثـــل دخوله الى هياكل الوثنية في موكب ضاحك عليه الشيء الكثير من بهاء النصرانية ورواء القيصرية ولم ينس تلك الحماسة البالغة التي لقيها في معابد جوبيتير ومنيرفافقارن بينها وبين هذا الفتور الذي استقبلته به معابد النصرانية ! وعيناه لا تزالان تنظران الى صورة الفتى الاشقر الذي لا يبصر !

كان معبد القديسة هيلانة غارقا في الصمت ، فليس في نواحيه اثر من صلاة ولا تنير محارمه ومنـــاسكه هذه الشموع الكثيرة التي تنير اروقة كنيسة القبر المقدس وقد جفاه المرتلون والعازفون فما يسمع هراقليوس في عزلته صوتا يحرك في نفسه شعور التقى والورع . بل ليس في هذا الرمس الذي انحدر اليه قسيس يطمئن الى لباسه او يستريح الى ارشاده ونصحه ولو كان هنالك تقي لخف اليه وسأله ان يترع نفسه بالعزاء الذي يحبه ويشتاقه

ثم عاف هراقليوس الهيكل واقبل على الجدر يتجسسها ويتفحصهـــا ويستند اليها وهو يحاول الخروج من المعبد وانه ليمشي في لين ورفق حذر السقوط اذ صافحت عيناه نزلة اخرى صورة ذلك الفتى الاعمى فوقف ينظر اليها على ذلك النور الضعيف الذي يرسله القمر من صدوع في القبة الفيحاء فلمـــا حدق اليه ارتد به

الخاطر في خفة الوميض الى حيــاة موريس التعس الذي سوغ الظــالم فوكاس قتله مع بنيه في ليلة من ليالي الخريف الحافزة . وقد كان موريس قيصر الرومان وسيد هذه الدنيا طولا وعرضا ، فالب فوكاس عليه الغوغاء وهاجمه وهو نائم في قصره ففر الى جزيرة انتيغون على الساحل الهــادىء في بحر مرمرا ولحق به بنوه وصحبه فما تريث الطاغية فوكاس في اللحاق به حتى ادركه وقتله شر قتلة بعد انغمس يده في دماء بنيه الخمسة ولم يفلت من هذا الموت الكريه غير فتى صغير اسمه كريستيا وغير فتاة صغيرة اسمها سافو ومعهما تلك الامبراطورة التعسة تيوفانو . ثم ثار الشعب على فوكاس الذي لبس التاج وكان هراقليوس زعيم هذه الثورة وبطلها وكان شعاره وشعار الثائرين الذين صحبوه الى قصر الطاغية اسم الصغير كريستيـا ، وكان ينبغي لهراقليوس بعد ظفره بالقاتل السفاح ان يضع على رأس الفتى تاج ابيه فما فعل ارضاء لمطامعه ونزواته ، ثم كان من امر كريستيــا ان توارى عن الناس خشية ان يفتك به انصار هراقليوس ، وطويت الاحاديث عنه وما عاد رفاق ابيه يذكرون من امره وامر اخته وامه شيئاً !

لقد كانت خيالة الفتى الاعمى في الصورة المــاثلة تشبه خيالة كريستيا فهتف هراقليوس وهو ينظر اليها « كريستيا . كريستيا ! » ، ثم وضع يده على عينيه كأنما هو يحاذر ان لا ينظر الى الصورة نزلة اخرى ولكن الذكريات المؤلمة التي تعاورت نفسه في المعبد المقدس ظلت على عنفوانها وعنفها فما كان يستطيع ان يفلت منها ثم زحمته هذه الذكر الطــاغية وانقلبت به الى تلك الليلة الصاردة التي ابتعث فيها بعض رجاله على الذهاب الى نيكوميديا تحت الودق المنهمر ، فذهبوا وبعد قليل عادوا ومعهم فتاة حسناء احبها قيصر حتى شغفه حبه ، ثم جاءوا بضحيتهم الى القصر والقوا بها الى سرير في غرفة ينام فيها هراقليوس وعلى حياطها صور الصالحين والرسل !

لقد ناشدته تلك الفتاة انتصاراته لعله يستبقي عفافها فلا يدنسه ، فلما لم تنجح في استمالته اومضت بيدها الى صور الصالحين والرسل وسألته بحق هؤلاء ان لا يعبث

بطهارة فتاة يتيمة كان ابوها من احسن المنافحين الذائدين عن حياض النصرانية فما امالته ذكريات انتصاراته عن اهوائه ، ولا ثنته صور الصالحين والرسل عن منازعه فراح يحتبس الفتاة العانية بين ذراعيه المشبوبتين غير ذاكر فضل ابيها النبيغ البطل في تأثيل انتصاراته وتوثيق غاراته !

اسم هذه الفتاة بليترا ، واسم ابيها الغطريف تيوفان ، ذكر هراقليوس هذا كله فيئس وابتأس وترجف ورعد ، ورأى الى كوارث حياته كأنها جاءت تجتمع في حضيض البيعة الصغيرة ، فادرك وهو الذكي الالمعي لمـــاذا لم تستقبله الاماكن الطاهرة بمثل تلك الحماسة البالغة التي لقيها في معابد الوثنية فصاح صيحةاليمة وخرج على شفتيه اسم بليترا ، فردد هذا الاسم فضاء المعبد الساكن ! وراح الرجل الذي دخل بيت القدس في حاشيه من بطاريق الجيش وبطاريك الكنيسة يغمس يده في صدره ، فيمزق ثوبه القيصري ويرمي بدرره وذهبه الى حضيض المعبد ، وشفتاه تتحركان بذلك الاسم الذي ما كان يفكر فيه قبل هذه الليلة

بليترا ، بليترا !

كان هذا الاسم اول لحون هراقليوس في الاماكن الطـــاهرة ، ولكن هذا اللحن الشجي لم يلبث ان استحال الى نواح مذيب ، فجعل الرجل المنتصر على الوثنية ينشج ويده تتجسس العمد الرخامية ثم جلس على الارض ووارى عينيه حتى لا يرى الى هذه الصور !

ولما فتح عينيه وردد نظراته في الجدار القائم الى يساره اخذته صورة جديدة لم ينظر اليها من قبل فخرق فيها على زهده في الصور وابتعثته هواجسه الثائرة على الوقوف حيالها وفمه لا يزال نديا بذلك الاسم الذي القى به الى جوف الكنيسة الكبرى ثم ترعد وترجف وانفلت من صدره صياح اليم وارتد القهقرى مسفوعا عانيا ، واخذت الصورة التي ابصرها قائمة الى يساره تتحرك وتهتز ثم جفت الجدار ومشى ناسها في صف واحد الى ناحية هراقليوس فكان كلما تراجع امام اشباحها اخذته

هذه الاشباح اخذ عزيز مقتدر ومنعته ان يشق طريقه !

فاي صورة هذه ؟ وكيف قدر لاشباحها ان تترك مكانها على الحائط لتمشي في حضيض المعبد كما يمشي الناس . وتنظر بعيون فيها من وميض الحياة واشراقها مافي عيون الاحياء من وميض واشراق !

ولما اوشكت هذه الطيوف الخرساء ان تزحمه حدق فيها عن كثب فاذا هي اربعة اشباح احدها مشوه الخلقة ، محمر الصدر تضطرب في وجهه عينان غائرتان والى جانب هذا الشبح ثلاث نساء ، فيهن امرأة عمياء على وجهها الصبيح شيء كثير من النعماء وكانت العمياء تلبس السواد ، وقد سدرت شعرها الاشقر على كتفيها وراحت تستند الى ذراعي فتاة ماتزال حديثة عهد بالحياة ، فما قدر هراقليوس ان يتعرف الى خيـــال المرأة الثالثة ، فصدف عنه وتهافت على العميـــاء ينظر اليها في خوف واشفاق ، واخذ فمه يردد اسم بليتزا . بينما ضياء القمر لا يزال يتسرب من صدوع في القبة الى الحياط والجدر ، وبينما ملابس الاشباح قد حاكت في حمرتها وصفرتها وزرقتها الوان الفسيفساء التي اخذت تخطف على العمد والاقواس والقناطر ، ولقد خيل الى هراقليوس ان الصورة التي خرجت من الحائط الشمالي ماعادت تمعن في اللحاق به فسخر من هذا الجنون الذي تولاه . وتضاحك حتى لقد سرى ضحكه الى انحاء المعبد وادرك ان قيصر الرومان قد افرط في مخاوفه ، وما ينبغي له ان يفرق من صورة تراءت له على الرخام ولما اطمأنت نفسه جعل ينظر الى يده فاذا عليها ذلك الدم الذي تسايل من جبينه ، وللمرة الاولى اخذته عزة الزعيم الغطريف ، فازرى بالشعور الذي رافقه في مطافه ، وهو شعور يشعر به الدهماء ولا يشعر به الزعيم تحت اللواء

وفيم هذا الخوف ؟ ولماذا تميد نفسه لذكريات الماضي ، وليس في هذه الذكريات ماتنكره السلائق والشيم ، نعم . لقد احب في مواضي ايامه امرأة اسمهـــا بليتزا ، واحب القياصرة من قبل نساء من الشعب ، ثم مـــاتوا ولم تقرض نفوسهم

المخاوف وحيث قد احب هراقليوس فتاة من بنات الشعب فاولى له ان يطمئن الى هذا الحب ثم اولى له ان يطمئن الى غده ، لان بليتزا التي احب صارت في الغابرين ،

ولما رفع رأسه شامخا مستكبرا ، وانحى ناحية الباب يريد الافلات من هذه الهوة الراعبة ، لحق به الاشباح في صف واحد ، فما حفل بهذ المشهد . وخيل اليه ان اهتزاز الصورة ماكان غير وليد تصوراته وسبحه ، ولكن المرأة العمياء ادركته عند الباب وهتفت باسمه « هراقليوس !

وفي هذه الفينة لم تفته الحقيقة الراعبة فعضض يده من جزع واشفاق وسرى جرس المرأة العمياء الى نفسه كالصليل فتلفت فاذا التي تصورها خيالا تقبض على يده فتناديه هراقليوس ! هراقليوس ! انظر الى وجهي مليا وقل لي ماذا رأيت عليه ؟

واخذت بليتزا تجذبه الى ناحيتها فشعر بحرارة انفاسها ، ووقف ينظر اليها مبهوتا حائرا ثم اطبق عينيه كأنما هو يريد ان لايرى الى صورتها الشجية وظلت بليتزا تستجيشه وتحركه وتذكر له الماضي حتى افاق وفتح عينيه على الصورة الجاهمة صائحا

— بليتزا ! بليتزا . قالت

— نعم بليتزا ، تلك الفتاة التي جئت بها من حجرتها في نيكوميديا الى حجرتك في القصر ورحت بها الى سريرك ، فتوسلت اليك ان لاتعبث بعفافها عن كثب من صور الصالحين والقديسين والرسل ! نعم انا بليتزا ، ولست خيالا كما توهمت ، فاذا كنت لاتزال في ريب من امري ، فهاك يدي لجسها ، ودونك صدري فاستمع لوجيبه ، وقل بعد ذلك اذا كنت لاتزال تحلم ام انك تؤمن بهذا الذي ترى !

لقد كان البرد الشديد ، وهذا الخوف الذي تولاه ، وذكريات الماضي التي تجددت في نفسه ، وانبعاث بليتزا في المكان النابي المليء باوجاع النصرانية

والآمها ، وهذه الاشباح التي رافقته في مطافه . كان هذا كله مثار احزان جديدة في نفسه ، فما عاد يستطيع ان يجنب عينيه النظر الى رفاق بليتزا ؛ فرأى الى نفتالي ثم الى بنيامينـــا ثم الى ماريه ! وفتح فمه ليتكلم ، فما خرج لســـانه على شفتيه ، فاومض بيده كانه يريد ان يسأل المرأة العامدة عن رفاقها ففطنت الى امره وقالت له

— هذه الصغيرة التي ترى هي ابنتي وقد اسميتها ماريه تحببا الى مريم والدة السيد المسيح ولقد تسألني عن ابيها . الافاعلم يامولاي ان اباها هو هذا الرجل الذي سالت نفسه على حياط الكنيسة فيهذه الليلة القمراء ! واسمه هراقليوس ومكانه في قصر الشالسيه عند شاطئ البحر الازرق في القسطنطينية !

فانطلق لسانه ساعة رن اسم ماريه في سمعه واثنى صائحا

— ابنتي ! ابنتي ! فقالت العمياء

ابنتك وابنتي معا ! . . .

فقال — وهذا ؟ فصاحت العمياء ، تقدم ايها السيد نفتالي وقل له اي رجل انت ، واحسر له عن امر هذه الفتاة التي هي ابنتك فتقدم ذو القروح من قيصر وكشفعن صدره صائحا

لعلك ايها المولى الذي تفيأ اعلام الحرب ، واستمع لاناشيد النصر من شواطئ افريقية ، الىشواطئ البحر الزاخر في بزنطية . لم تنسَ ذلك الرجل السري الذي كان يجوب شطآن البحر الاحمر باسمك ، ثم يفيء الى دار ملكك وقد ملأ سفنه بطيوب الهند ونفائس عدن

كان الناس يعيدون ذكرى ليلة الميلاد ، وكنت في جملة الذين اماهم التقى والورع الىالصلاة ، وكان الناس يرون في نفتالي ، وذلكم هو اسمي البغيض الكريه سيد بلاد الجليل في ثرائه وترفه ، فحسدني الجميع ، واخذتهم الغـــيرة من ذيوع امري ، فلما صليت مع المصلين راحت عيناي تنظران الى صورة للسيدالناصري

فالقيت اليها بنجوى القلب ، وسألت الرجل الذي طربت جبال الجليل لصوته ان يباركني ثم رجعت الى منزلي لامضي ليلة العيد حيال طفلتي وامرأتي ، وفي الصباح احاط الجند بمنزلي وتبـــارى الناس في سبي ولعني ، ثم خرج بي الجند الى الميادين ، وقرأ قائدهم علي امر قيصر باحراقي ، لانني نظرت في صلاتي الى صورة السيد ، ولانـــ هذه الصورة وجدت مطروحة على اديم المعبد ، ثم استبـدل قيصر التحريق بالتغريب ، والقى بي رجاله في القفرة النائية بجوار البحر الميت وماتت امرأتي من الوغم ، وعاشت ابنتي عيشة لاتشرف حياتها !.. هذا هو كل امري فما اظنك نسيت نفتالي . ولا اراك نسيت بنيامينا ابنته التعسة

لقد جئت هذا المكان الطاهر من مكاني السحيق البعيد ، لارى اليك واسمعك دعاء وعيته وحفظته ، ثم علمته ابنتي لتجهر به امـــام السيد الذي رد الى المحزونين والمـــاحلين ماهم في حاجة اليه من شباب وعافية وطلاقة ومرح انظر يامولاي الى ابنتي ! لقد كانت في عفافها ونقائها كهذه الصورة التي تمثل السيد في طفولته فعبث بها رجالك ، هؤلاء الذين جابوا العالم كله باسم النصرانية ، فلما رجعوا الى مهدها رجعت اليهم ســـلائق الوثنية فقتلوا البريء ، واضطهدوا البريئات !

ولما سكت نفتالي ، قالت بليتزا « لقد حرمني الالم والنفي والسهد ضياء عيني فما نعمت بالنظر الى محيا الطفلة التي انبثقت من دمي ، وعشت في عين كارم عيشة راعبة لاتليق بمن كانت ابنة لتيوفان البطل ! وكانت آلامي تنمو بجانب نمو ابنتي حتى كرهت الحياة ومللت مقامي بين الاحياء . ولكن صوت الطفلة التي احببت جنبني موتا ماكنت اجد في غيره راحة لنفسي ، ثم نذرت لامضين الى المسيح في مهده فاسمعه بثي ، فاذا لم يسمع انطلقت الى لحده وايقظت رفاته

وكنت عالمة بوصولك الوشيك الى الشام فرجعت اسأل الناس عنك فاذا قيل لي انك بلغت في زحفك شواطيء الفرات ، حلق وهمي في فضاء النهر الزاخر ،

. طغت هواجسي ، فلعنتك واسرفت في اللعن ، واذا قيـــل لي ان قيصر وطيء البوادي سرب خيــــالي على الرمال وقذف في البغض والحقد واني لاقسم لك ان بغضي في احتدامه وثورته مقتبس من سموم الرياح الهوج ساعة ترتمي على الرمل فتذروه في كل فضاء ! فاذا قيل لي انك نزلت في منازل عدوك عند المدن الوارفة الظل نزل بي شعوري حيث انت ورفعت صوتي لامنعك من غناء جندك الظافر ، وهكذا كنت اتبع ظلك واترسم خطوك وانا في القرية المتواضعة فالحق بك الى الانهار والرمال والى المدن حتى اطل شبحك على المدينة المقدسة وسمعت عزيف ابواقك ولم يفتني صليل سلاحك فخفوت مكاني في عين كارم وجئت بيت لحم فدعوت عليك ورافقت موكبك الى كنيسة القبر المقدس ، وما زلت ارقب خطوك حتى خلت الكنيسة من المصلين والزائرين وحتى رأيتك تنحدر الى محراب القديسة هيلانة فسبقتك اليه ووقفت مع رفاقي في الالم والعذاب انظر بعيني قلبي الى نفسك السائلة على الحياط والجدر ! . هراقليوس ! هراقليوس ، كيف انت ؟ كأننا لم نفترق وكأن الايام لم تفصل بيني وبينك وكأن تلك الحجرة التي ازدانت بتصاوير الصالحين والرسل ، مازالت تحتوينا معا ؛ ولكن مصاير الناس تعاورها الحذف والتبديل فقد كنت لسنين خلت ذلك الرجل المزهو بانتصاراته وكانت بليترا المرأة العانية الشاكية فاذا انت في يومك الماثل ذلك الرجل الذي ضيع عبقرية النصر واذا بليترا التي فزعت الى الناصري في الليلة الليلاء تنظر في كثير من الزهو الى مصرع ذكائك ! .. هراقليوس ناشدتك الله ان تقول لي كيف انت ؟

لم يكن في ميسور هراقليوس ان يرفع عينيه الى هذه الاطياف فلقد برح الرعب به تبريحا اليما ، وانمى يأسه وشجونه خيال بليترا وخيال ابنتهــــا واستجاش جواء ذلك الصدر القريح الذي حسر نفثاتي عنه ، فتقاصر وتصاغر وراح جاثيا على قدمي العمياء مستغفرا تائبا فسمعت مارية ابنته صلاته الهامسة ، فزرفت اليه وقالت ابي ابي ! فما سمع نداءها الرقيق الشجي ، بل ظل يتخافت بصوته ، بينما كان نفثـــاتي

وبنيامينا يصليان في زاوية المعبد صلاة لم يخالطها كثير او يسير من البغض وبينما مارية الصغيرة تنظر الى ابيها الدميع بعينين رحيمتين بريئتين

وكان ضياء القمر لايزال يتسرب من صدوع في القبة الى ارض المحراب فينير الصور التي على الحياط والجدر ثم ينثر اشعته الخفيفة على وجوه الاربعة الذين اتموا نذورهم في الليلة الرهيبة التي ارادها هراقليوس خاتمة صومه وحجه !

رزح قيصر تحت وقر هذه الصور القاتمة ، فاغفى على الحجارة ، وسبحت نفسه في عالم قصي بعيد ، فلما استوثق نفتالي من غفوته تلفت الى بليتزا وقال لها « لنذهب ياسيدتي قبل ان يستفيق ، فلقد قضينا نذورنا ولم يبق لنا مانعمله في الاماكن الطاهرة ! فقالت بليتزا — اترجع الى البحر الميت ايها السيد نفتالي قال نعم سأرجع الى منفاي مع ابنتي ، قالت فاذا ابصرك الحرس فماذا تقول ؟ فقال لن يبصرنا الحرس ياسيدتي ، لاننا سنخرج من باب خفي وما اكثر الابواب الخفية في هذه المحاريب ؟ فقالت افعل ماتريد فعله حماك الله ورعاك ! ثم نظرت الى هراقليوس النائم نظرة راثية والقت بنفسها بين ذراعي ابنتها هامسة : « لقد عفوت فبرقت اسارير الصغيرة من الفرح وقالت :

— ان الله قد عفا ياماماه !

ولم يشأ نفتالي ان يكون في معزل عن هذه الرحمة التي خالجت قلبي الام والبنت فاخذ بذراع ابنته وقال لبليتزا

— اقد عفوت ياسيدتي وعفت ابنتي !

وفي خفة البرق صعد الاربعة سلم المحراب فاستقبلتهم جميعا سدفة فاحمة تغشى الكنيسة الكبرى

الفصل السابع عشر

صخرة يعقوب

عاذ بعض اليهود الذين نجوا من الذبح بوادي يوشافاط فنصبوا خيـــامهم على سفوحه في ارض لا تعرف الحب والماء . وارتد بعضهم الى قرية سليمة موطن داود وسليمان ، وانسل ناس من هؤلآء الذين عذبهم هراقليوس لايغالهم في ترويع النصارى الى صحارى البحر الميت وغزه وسيناء وذهب بعض الشيوخ الذين ارادهم قيصر على البقاء في ايلياء الى اطلال هيكل سليمان ليغسلوا على جداره المائل بدموع العيون آلام النفوس وليتخافتوا بصلاة ما كان يقدر واحد منهم ان يبتعثهــا من صدره في صعيد قائم

لم يبق من هذا الطلل القديم الذي حشد فيه سليمان روائع الشرق ومفاتنه غير حائط ضخم . اذا نزع انسان الى التحديق في اعلاه ارتد طرفه حسيرا واذا تأمل في اصلاده وجلامده مضى الى اكبار ذلك العصر العبقري الذي ما كان ينقص ناسه بعد انتصارهم اللامع على الجبال والاودية والبحار غير ان ينتصروا على المدن وانه لحادث رائع ان يلين الحجر الصلد لهؤلاء الذين غيبتهم المقابر وان ينقلب في الغد الى معبد عظيم تتلاقى تحت سقوفه وفي اروقته وعلى منابره ديانة وحضارة وآمال جسام!

لقد طاف بهذا الهيكل الانبياء والملوك وانسجمت في محاريبه صلوات الرسل واغاني القياصرة وتلاقت على عتباته وسلالمه اهواء الخاصة واهواء العامة وعشعش في دهاليزه وسراديبه الدين في اجمل صوره ، والكفر في ابشع صوره وسمع ناسه وعظ المتقين الوادعين الى جانب خطب المتمردين الثائرين ورأت العصور الماضية في سوحه وميادينه فصول الحياة الجاهمة ممزوجة بفصول الحياة الباسمة واستمعت

لاناشيد البغض مقرونة باناشيد الحب ثم رأت الى سليمان في رونقه الباهر والى النبيين في روائهم الطاهر ، فصفقت لذلك العبقري ، تصفيقها للنبي السري وكان العصر الذي ولد فيه المسيح اعظم هذه العصور في روائه وسنائه فلقد قدر له ان يرى الناصري تحت قباب هذا الهيكل يخطب النـــاس ويتحدث اليهم ويقول للذين افرطوا في تعنيفه وتأنيبه لنزوعه الى الرفق بهم ان في ميسوره ان يدمر هذا البناء المشمخر ثم يعيده سيرته الاولى في ثلاثة ايام ولم يكن المسيح كاذبا وحاشى النبي الرسول من الكذب فلقد تداعى الهيكل وانهـــار على قوائمه ودعائمه ولبسته لعنة الاولين والاخرين فلن يرتفع بناؤه ولن يعود بهاؤه !

على جدار هذا الهيكل الذي تعرف الى موسى النبي والى سليمان النبي استطال بكاء الشيوخ الذين روعهم هراقليوس فما ينضب لهم دمع حتى ترتفع اصواتهم بالمراثي التي خلفها اباؤهم فتروح عيونهم الى الحجارة فلا تفارقها بينما اطفال النصرانية وصبيانها ينظرون الى فصول هذه المأساة في كثير من الحقد وفي كثير من الشماتة وبينما لا يستطيع واحد من شيوخ اليهودية ان ينظر الى الهازئين الساخرين

حدث في ذلك المساء الذي حبسه هراقليوس على الصلاة في كنيسة القبر المقدس ان تهافت على الحائط شيوخ اليهودية ، فجعلوا يصلون ويبكون ومن حولهم جماعات من الساخرين الهازئين ، وانهم لكذلك اذا اصوات عظيمة ترتفع ماوراء حائط المعبد الدارس فدب الرعب في نفوس الباكين وخيل اليهم ان الرومان قد لحقوا بهم فرموا بكتب الصلاة التي في ايديهم الى الارض واجموا على الافلات من هذا المكان الذي فزعوا اليه فلم تفت حركتهم اولئك الذين جاءوا للزراية بهم من فتيان الرومان وفتيان المدينة فاحدقوا بهم يريدون ان يحولوا بينهم وبين الطرق وفي تلك الفينة تطاغى الصياح ما وراء المعبد الدارس وصاح صائح في الجماهير :

— انها لاصوات غريبة لم نألف سماعها قبل هذا المساء

وبعد ثوان اقبل بعض سكان المدينة ومعهم جند من الرومـــان الى الحائط

ورأوا صور الذعر والخوف مرتسمة على الوجوه فقالوا لا يخرج احد من هذا المكان لأن قيصر لم يفرغ بعد من صلاته ، ولا يزال سيد الدنيا في الكنيسة الكبرى متهافتا على قضاء نذره ، وكان بين هؤلاء الذين توافوا الى حائط المبكى قائد روماني في حرس قيصر فلما شهد هذه الحيرة التي غمرت وجوه المصلين قال لهم مايحملكم على الخوف وقد امنكم قيصر على نفوسكم واموالكم وبيوتكم ؟ فاطمأنت خواطرهم وزالت وساوسهم

ثم تدافع الصياح حتى شابه هزيم الرعد في ليالي الشتاء ، وانفلت الناس الى الطرق الضيقة وانسل بعضهم الى ما وراء الحائط فاذا هم في ذلك الميدان الافيح الذي وسع في الماضي قصور سليمان وهياكله وعن كثب من اطلال ذلك الحصن المنيف الذي بناه هيرودس الملك ، حيال انقاض قصر بونس بيلاطس ، وشد ما كانت دهشة هؤلاء حينما ابصروا عشرة من فرسان العرب يتفيأون بواسق الزيتون تحت ظلال العمد المرمرية التي خلفها الماضي في هذه المواضع العجيبة التي منع قياصرة الرومان اهل اليهودية من ارتيادها !

ما كان نزول العشرة بهذا المكان المهجور حادثا غريبا فلقد الف الناس من قديم ان يروا فرسانا من العرب في طرق بيت المقدس وفي ميدان هذا المعبد وانما كان الغريب ان يصلي زعيم العشرة على الارض صلاة لم يألفوها من قبل هذا اليوم ، فيردد فرسانه صلاته وهم على غوارب افراسهم ، وايديهم لا تزال تشد على سيوفهم وعيونهم تحسر عن ضوء غريب . ووجوههم التي ضربتها شمس الصحارى في مثل بهرة الشفق

ولم يلبث هؤلاء الذين تدفقوا على الطلل العافي من كل ناحية ان تساءلوا عن معنى هذه الصلاة وبعضهم ينظر الى بعض في كثير من الحيرة وفي كثير من الخوف وكان في هؤلاء جماعة من نصارى طي وقضاعة وسليم فسألهم الرومان عن امر هؤلاء الفرسان . فقص عليهم المتنصرة ما سمعوه وحفظوه ، فاذا هذه الصلاة التي

ارتفعت تحت فضاء المعبد الدارس ترديد لصلاة النـــاس في جزيرة العرب فهز الرومان اكتافهم كأن امر هذه الجزيرة العربية لا يعنيهم في كثير او يسير ، وكأن قصارى همهم ان يطمئنوا الى وفاء الناس لقيصر في هذه الارض التي ارتد اليها سيد الكتائب بالصليب الكبير !

ولما فرغ زعيم العشرة من صلاته على الحجر الصلد تفرق الروسان من جند هراقليوس في طرق المدينة وانثنى اهل ايليـــاء ينظرون الى ما عسى ان يحمله الزعيم الغطريف ، وقد انسئم زينته ورجولته ما عاق بنفوس اليهود من ذعر شديد واخذوا يتساءلون عن الباعث الذي ابتعثه على النزول بهذه الدوارس التي جفاها الناس من زمن بعيد ، وفي تلك الفينة اومض الزعيم الى رجاله ايماضة دلتهم على ما يريد فزرفوا الى ناحيته فاذا هو قد امعن في خطوه حتى وطيء الصخرة العظيمة التي تحدث الله عليها الى يعقوب النبي ، ثم نظر الى رجاله وارادهم على الصلاة نزلة اخرى بجوار ذلك الصخر العاري فقضوا لبانته وارتفعت اصواتهم بالدعاء لسيد قريش وللوطن الذي ابتسم لارق امانيه في صخرة غار حراء !

لقد قال عمرو بن معدي كرب فارس العراق وزعيم العشرة :

هنا على غوارب هذا الصخر ينبغي لوطن العرب ان يقيم مسجدا للنبي ولم يقل عمرو هذا القول لأنه يعرف تاريخ هذه الصخرة العارية ، وانما اوحت اليه المعابد القائمة والصوامع الماثلة ان يتمنى لسيد قريش مثلها في المعبد المقدس !

وثق سليمان بنيان هيكله وبالغ في تزيينه وتجميله ، ثم حدث قبل مولد المسيح بستة قرون ان تساقطت شرفاته وحياطه ، ثم اعيد بناؤه واشترك في رفع حياطه واسواره وتجميل سقوفه واروقته ومنابره عشرون الفا من خيرة البنائين والنحاتين ما كان لينقطع ادمانهم على نحت الحجارة وصقلها في تسع سنين ، فاذا الهيكل بعد اتراعه بالتحاسين يطل من جميع نواحيه على وادي يوشافاط ولما بلغ السيد المسيح ربيعه الثاني عشر اقبل الى المعبد ليسمع الناس ما تعلمه في كتاب السماء ، فطرد

المرابـــين والدجالين وجهر بالدعوة الى توثيق الاسرة والاحسان الى الطفولة ، والبر بالوالدين والصفح عن المسيء فافتتن الناس بشبابه الرائع يضيء ويلمع تحت بوا.ق الزيتون ولكنهم لم يستعذبوا نصحه ولم يلذوا هديه فتنبأ لهم بسقوط الهيكل ومضى في رسالته

وفي السنة الثانية من ملك الامبراطور فسبيان طغى تيطس على ايلياء فدمر الهيكل تدميرا ، ومنع الناس ان يصلوا في سوحه وميادينه فصدعوا بامره وازوروا عن الهيكل لا يقربون منه وما زال الناس يتحامونه حتى وطيء ارضه في شباب القرن السابع للميلاد عمرو بن معدي كرب فصلى على اديمه بجوار الصخر الواعر الذي تعاقب الرسل عليه ، فارضى ميوله وطمحاته غير عالم بما اعده الغد لهذه الامة العظيمه التي انبعثت من صميم الصحراء لتبني بعد ربع قرن على الصخر المقدس محرابا يردد الناس تحت سقوفه الملونة اسم سيد قريش !

كان عمرو بن معدي كرب احد ابطال الحرية العربية في ذي قار فقاتل في صفوف بكر بن وائل جيوش كسرى وحرص على نصيبه الرائع من الفوز ومن الكبر ، وقد حمل فارس العرب الى ايلياء بعض الاغاني التي غناها العراق في ذي قار فرددها بجوار هيكل سليمان ، كأنما هو قد اراد من ترديدها ان يسمع هذا الطلل العـــافي صوت الصحراء فلما قضى وطره وازمع فراق الطلل رفع له من بعيد شبح نفتـالي وشبح ابنته وقد سارت بينهما امرأتان فاذهله ان يرى الى نفتالي في المعبد الدارس في مثل هذه الامسية الغابشة واستثاره حزن مرمض تغشى ظلاله الفاحمة جبين الرجل الذي كان من احب امانيه ان يهبط المدينة المقدسة ليقضي نذوره ، ثم يعود الى منفاه الاكدر عند جدة ذلك البحر الراعب فاي نازلة جديدة عصفت بحياة الرجل الذي استجار بعمرو فاجاره وفيم احزان نفسه لا تزال تطل من عينيه السادرتين واي امرأة هذه العمياء التي تسحب خطواتها في كثير من الحذر بين فتاتين عرف عمرو في احداهما بنيامينا ابنة نفتالي ولم يعرف الثانية

وقد كان نفتالي ساعة اطل على المعبد يتدفق في سيره غير حافل بهذه الجماهير التي كانت تنظر الى زعيم العشرة والى رجاله وكان قد اوشك ان يبلغ في زحفه قصر بيلاطس ، فلم ينتبه النـــاس الى الخوف الذي يعتصر نفسه ولم يهتموا لامر النساء اللواتي كن يسرن من خلفه مروعات جافلات بل راحوا يطيلون النظر الى الفارس الذي اخافهم ان يصلي صلاته الغامضة في الطلل البالي ، وبعد قليل صدفت الجماهير عن المعبد ؛ وشقت طريقهـــا الى المدينة تحت صليل الاجراس في قباب الصوامع والمحاريب . ولحق عمرو بنفتالي فادركه عند العمد المرمرية الرومانية بجوار الخرائب وناداه نداء عنيفـا ، فتلفت الرجل السروب الجفول ، فاذا هو امام ذلك الفارس الذي اظله بحمايته لحدق فيه فاغرا فمه ، وجعل ينظر الى النسوة اللواتي صحبنه نظرة خوف والم وارتماض

لقد قال عمرو « ما الذي روعك ؟ واي الرياح حملتك على متونهـا الى هذه الاماكن ؟ فتلفت نفتالي الى جوانب المعبد تلفت الرجل الذي يخاف امرا . فلما استوثق من ابتعاد الجماهير قال لعمرو هامسا : نعم اني الجزع ! ثم رسم علامـــة الصليب على صدره وبسط يده الى ناحيـــة جبل صهيون ودل عمرا على هضباته وربواته وقال له انظر وقل لي بعد ذلك ماذا رأيت ؟ فتطالع عمرو الى القنن الرفيعة فاذا عليها اطلال ورسوم فقال لرجل البحر الميت : اكنت في هـــذه الصروح المتداعية ، فطأطأ نفتالي رأسه من حزن والم وقال لا . ولـكنني كنت مسوقا الى الطواف بهذه الاطلال ! انها بقية من عزة داود واثر من روعة سليمان ايها المولى ! فاذا نظرت الى السفح بذالك المكان الذي انبعثت منه فنظر عمرو الى السفح فاذا عليه كنيسة القبر المقدس تضيء وتلمع تحت ذوائب الغسق فقـال عمرو : لمن هذا الاطم ؟ قال ماهو باطم ولا حصن وانما هذا الذي ترى معبد رفعت بنيانه امرأة اسمها هيلانة اكبارا لذكرى السيد المسيح ، تحت سقوف هذا المعبد في حجرة صغيرة لا تعدو ذراعين اثنتين قبر هذا النبي ! فتضـــاحك عمرو واردف قائلا :

يالك رجلا ضيع حجاه في حياة التأمل ! قل لي مـاذا فعلت ، وهل قضيت نذرك
فقال نفتالي وهو لا يزال ينظر الى الطرق التي خلفها وراءه ! نعم ثم صليت كثيرا
ودعوت كثيرا ولعنت كثيرا ورأيت الرجـــل الذي اخافني وروعني ورمى بي الى
منفاي السحيق ، فما اخافني بجده ولا روعني كبره بل اقبلت عليه واسمعته كلمي !
انها لأمسية حافلة بالنذر !

وجعل ينظر الى الطريق التي خرج منها بعينين رعش فيهما الذعر ، فضحك
عمرو من مشهده وخيل اليه ان به جنة فتلفت الى بنياميــــا فاذا هي تنتفض
تحت وقر تلك المأساة التي شهدت فصولها تحت القباب الغائمة في مصلى هيلانة
فقال لها هل رأى ابوك مااخافه وروعه حتى اضطرب عقله فزفرت بنياميا زفرة
وجيعة وقالت لعمرو ما بابي هذا الذي ظننت وانمــــا هو رجل قد اشتاق منفاه
حتى رقت نفسه وسالت مذارف دمعه ! قال انك لتخفين امورا فسكتت فشد
عمرو على يدي نفتالي وقال له تكلم واحسر عن الملك فقص عليه نفتـــالي قصة
هراقليوس وقصة بليترا وابنتها مارية فاغرب فارس العراق في الضحك وانثنى قائلا
وددت لو انني كنت مصاحبك فارى الى جنة قيصر واسخر منه فاين تركته الساعة
قال تركته غاشيا على عتبة المحراب ! واني لاخاف ان يلحق بي فيقتلني ويقتل هاته
النسرة . قال لاتخف فاني موليك حمايتي ! فقال نفتالي ان حظوظي العاثرة لا تبرح
تنتظرني عند ساحل البحر اللعين ايها المولى ، فاذا جنبتني حمايتك هذه الليلة بلغت
سؤلي وارضيت منازعي وعسر على قيصر ان يلحق بي !

— وهذه المرأة التي معك ؟

— ستعود الى منزلها في عين كارم

— الا تخاف هذه المرأة ان يلحق بها هراقليوس ! فسكت نفتالي وتلفت عمرو
الى بليترا وقال لها الا يسرك ان اصحبك الى القرية فانني مـــا خفت كسرى
ولا جزعت من قيصر فحنت العمياء رأسها وقالت له بلغة عذبة رقيقة ان على

احاديثك عبق الرجل النبيغ ايها السيد ولكني لا احسبك تستطيع حمايتي وحماية ابنتي من سيد الجيوش الظافرة . فضحك عمرو ووضع يده على سيفه وقال لها ان صمصامتي لا تفارقني ياسيدتي ، ولهذه الصمصامة حديث عجيب وقد قلت فيها ارق اشعاري ! ورددتها الى صدور الفرس في ذي قار ، فذاع امرهـــا في العرب واحب ان اردها الى صدر قيصر فقد ينتشر خبرها في الرومان فيجتمع لي بذلك شرف الانتصار على الاكاسرة وشرف الانتصار على القيـــاصرة ! فقالت المرأة العانية : المس في رنة صوتك لغة الرجل الموفق ، قال نعم فلقد دعا يتيم من قريش لقومي بالنصر فانتصروا في امسهم وسينتصرون في غدهم ، نعم انه يتيم ولـكن هذه الدنيا التي ترين قد اصبحت اسرته

— ما اسم هذا الرجل ؟

— اسمه محمد ، اني لم اره مرة في حياتي ولـكن وطني العراق يتحدث اليوم عنه في كثير من الزهو ! ثم التفت الى نفتالي وقال له : لم احدثك عن اليتيم عند شواطيء الاردن ولا حيال سواحل ذلك البحر العبوس المكفهر ومع هذا كله لا احب ان يفوتك ماعملته فاني ذكرت اسمه في صلاتي عند هذه الصخرة الكابية ونذرت لاقيمن عليها مسجده الجامع ! فصاح نفتالي وهو ينظر الى يد عمرو وقد امتد بها الى ناحية الصخر

— على هذا الصخر تحدث يعقوب النبي الى الله ! وفي هذه الاماكن رفع سليمان هيكله ! فطغت حماسة عمرو على سائره وانثنى قائلا :

— ساذ لق الى قومي في جزيرة العرب وادلهم على هذه الاماكن فانهم ذوو جلد على نقل الحجارة من صخور الوطن وهم كذلك ذوو جلد على البناء !

ثم تلفت الى بليترا وقال لها بلهجة الرفيق الحادب !

— لا يخيفنك حديث قصصته على نفتالي فاني من قوم لا يخيفون النســـاء ! اتريدين حمايتي فصاحت بليترا :

— احمني ايها المولى ، احمني وقالت لابنتها في ميسورك يابنية ان تدليه عـــلى

الطرق التي لا يمر بها حرس قيصر ! .، ينبغي لي ياسيدي البطل وقد اوليتني شرف حمايتك ان اجنبك المآسي فان الرومان لا يخافون ان يقتلوا الانبياء والرسل ارضاء لشهواتهم واهوائهم فتبسم عمرو وانبرى قائلا :

— ولكني افضل ان ينظر الناس جميعا الى موكبي وما انا باللص الذي يخاف العيون ! ورفع صوته قائلا :

— قل لي ايها السيد نفتالي امنطلق انت الى مواب ! فقال نعم واني لارجو ان اراك يوم ترجع الى جزيرة العرب . قال ستراني عند جدة ذلك البحر بعد ثلاث ليال ، هذا اذا استبقى القدر حياتي ولم يقتلني ذلك الرجل الذي يخيفك ذكره ! الى لقاء قريب ايها التعس نفتالي ! الى لقاء قريب ايتها الحسناء بنيامينا !

وجعل جواده يضرب ارض المعبد بحافريه كأنما هذا الحيوان قد ادرك شرف صاحبه فزها واستعلى ، فدنا نفتالي من عمرو وصافحه ورمته بنيامينا بنظرات حلوة اعترافا بفضله وفي تلك الفينة اومأ عمرو الى العشرة نطفروا من خلال الشجر الوارف لحذثهم بحديث بليتزا وابنتها مارية وارادهم على موافاة هاتين المخلوقتين البائستين الى حدور عين كارم فلانت نفوسهم لاحاديثه وتهافتوا على العمياء يهدهدون آلامها واحزانها فلا تمنعهم احساسها الرقيق وشعورها الشفيق

ولما ابتعد نفتالي وابنته عن المعبد وواراتهما العمد المتكاثفة قال عمرو لرجاله الى عين كارم ايها الصحاب !

وكان المشهد شجيا حينما وطأ احد الفرسان كتفيه ليساعد بليتزا على ركوب فرسه وابى فارس آخر الا ان يساوق رفيقه في الاريحية فاردف مارية الصغيرة وراءه وانطلق هذا الموكب في طريق يدفع الى بيت لحم وهي آخر مرحلة تبتدىء عندها جنات عين كارم .

الفصل الثامن عشر

تحت القبـــة

كان البطريرك زكريا ذلك الشيخ الوقور ، الذي امضى ايامـــه في المنفى والاغتراب يصلي صلاته المتواضعة حيال القبر المقدس وعن كثب منه مودستوس الرجل الصالح التقي يقرأ في الانجيل كتاب الله بصوت ناعم عذب النبرات كانه اللحن البارع ، وكان زكريا يستمع له متشاجيا باكيـــا فلا يفوت مودستوس اثر غنائه في احساس هذا الشيخ ، فيترفق في القراءة ويترســـل ، ثم يتكلف الهمس ويستمري الصمت ، فلا يروق زكريا صمته فيستجيشه الى الايغال في الترتيل فيستأنف العابد التقي الغناء ، حتى اذا راح زكريا غافيا على جرسه العذب رد بعض صحف الكتاب الى بعض وسحب خطواته كأنما هو ينزع الى الطواف بانحاء الكنيسة الكبرى باحثا عن هراقليوس وما كان في ميسوره ان يجفو زكريا وقد اوفى نهار حياته على المساء ، ولكن احساسا عنيفا طغى على نفسه كان يقول له في تلك الفينة : لقد اسرفت في الغناء فاحبس لحونك الى الغد وانطلق للبحث عن هراقليوس !

وكانت اضواء الشموع تضيء تحت سقف المقبرة الصغيرة التي وسعت قبر النبي المرسل . ثم تتوامض بروقها على التصاوير والدمى وتتسرب الى جبين البطريرك فتمسح شحوبه بلون ازرق غاتم فلا يلبث مودستـــوس وقد رأى الى اضطراب الاشعة على وجه الراهب المريض ان يرتد شاحبـــا مسفوعا ويعدل عن طوافه باروقة البيعة ومحاريبها ويلبث ساهدا ارقا بجوار زكريا الفاني ! ولكن عينيه تظلان ناظرتين الى الاروقة والى الدياميس الغارقة في الظلمة كأنهما تبحثـان عن صورة هراقليوس بين تصاوير الاولياء والصالحين !

وانه لكذلك اذا قبس احمر يضيء في اقصى المعبد ، فتلفت اليه ووقر في ذهنه ان قيصر قد آب من طوفته على ضوء مصباح . وشد ما كانت ذهلته حينما انبثق من ذلك الضياء الاحمر طيف ابيض يعثر في مشيته على اديم المعبد المرمري . فحدق اليه فاذا هو قد تأبط صليبا ضخما من الخشب ومضى ينظر بعينين جاحظتين الى الحياط والجدر كأن تصاوير الصالحين والرسل كانت منبع هذا الرعب الذي اخذ يطل من عينيه ، ثم تجون جبينه واكفهر وشعث شعره وانتفض فحملق في صورة من الصور وصاح صيحة الالم ثم عرضت له صورة اخرى في جدار فرق لها وابتسم ولوح بذلك الصليب الخشبي الى فضاء المعبد كأنما هو يريد ان يبارك عالما تمثله في وهمه وسبحه !

وما كان في ميسور مودستوس ان يتهرب منه ، فلقد عرف في هذا الطيف خيال قيصر فروعه ان يصدر سيد الجيوش وامير الكتائب عاصفة من حزن ، وان نظراته الراعشة لا تنبئ بصفاء النفس ومرح القلب ولكن مودستوس كان ذلك الرجل الصليب الشديد ، وكان الى صلابته وشدته ذلك الصالح الذي هذبت ديانة المسيح سريرته وصقلت حسه ولطفت منازعه ، ثم كان وطنيا رومانيا من الطراز الاول . فما كان يليق به وقد جمع بين منازعه النصرانية ومنازعه الرومانية ان ينظر الى كارثة البطل الذي اوفى لمسيحه ولوطنه في غير اكتراث ، فازمع ان يخرجه من هذه الظلمات التي لبست حياته وآلى على نفسه الا يرجع الى زكريا قبل ان يطمئن الى امر المنتصر على الوثنية

ولما تقدم منه وصاقبه ونظر الى جبينه والى لباسه رأى مشهدا اثاره وروعه فلقد كانت على ذلك الجبين الناصع البياض جراحات تقطر دمـــا ، وكان اللباس الملكي قد تعاوره التمزيق في اكثر نواحيه ؛ حتى لقد بدا منكب قيصر عاريا وحتى انكشف صدره وانفرط ذلك الصليب الذهبي الذي كان يحمله في عنقه

قال مودستوس في رقة ولين : سيدي ومولاي ، فما سمع قيصر هذا النداء الرقيق اللطيف فاستأنف الراهب صيحته : هراقليوس ! هراقليوس ! مولاي اي

كارثة نزلت بك في هذا المعبد المبجل ؟ وفيم لا يستثيرك خلق البطل الصنديد وقد كنته في جميع الملاحم !

ولكن قاهر الاكاسرة ووريث القياصرة ما نبس بكلمة بل اخذت عيناه تنظران الى مودستوس ، ثم تضاحك كثيراً وتباكى كثيراً ، وانفلت يعدو في انحاء المعبد لا يفكر في ماضيه ولا يذكر شيئاً من حاضره ولكنه كان شديد الغيرة على الصليب الخشبي الذي تراءى له على حائط من حياط الكنيسة فانتزعه وطاف به هذه الطوفة الشجية وحرص على الا يفارقه

وكان البطريرك زكريا في تلك الفينة يسبح في عالم من الرؤى فلم ير الى هذا المشهد الحافز ، ولم يسمع صياح قيصر وقد يكون من نعماء الله على هذا الشيخ المدنف ان يغمض عينيه فلا يعرف شيئاً من كارثة الرجل الذي كان له الفضل الاكمل في تطهير الارض المقدسة من رجس العدو الوثني ثم لحق هراقليوس بحجرة القبر المقدس ، فعرس حيال بابها المرمري واظلته قبة من الفسيفساء فراح متكئاً على عمود من البرفير واطرق الى الارض اطراقة الالم فتدلى رأسه على صدره الممزق وارخى يديه فانفرط الصليب وتساقط ، ثم اغمض عينيه ولكنه لم ينم وما كان ليستطيع ان يغفو ويأنس الى الدعة بعد تلك المعركة التي خاض رحاها في مصلى القديسة هيلانة تحت عيون الاشباح والارواح !

قال مودستوس بصوته الرقيق العذب : انك يامولاي حيال القبر المقدس فما ينبغي لك وقد تفيأت ظله ان تظل صريع هذا الغرق !

وكان البخور يحترق في مجامر من الذهب والياقوت في داخـــل حجرة القبر المقدس فيتسرب عرفه الذكي الى نفس هراقليوس فيميده ويهزه ويتلالأ على جبينه الكدر نور الحياة الذي انملس من صدره قبل ساعات ومودستوس الذكي النابه ينظر الى هذا التحول في فرحة وانسة ولا يلبث ان يغلو في مـــلاينة هراقليوس وملاطفته ويتحدث اليه عن الماضي ويذكر له قصة ذلك الصليب الذي خرج به

كسرى من بيت المقدس ، ثم استرده هراقليوس في ابهى ملاحم النصرانية واروعها ثم رأى ان يسمعه شيئا من الآيات البينات ، فدخل الى القبر المقدس وجلس غير بعيد من مقعد البطريرك وشرع في الانشاد ، فاستفاق زكريا على صوته الناعم ، واستفاقت ذكريات الماضي في صدر قيصر وصاح زكريا مطوفا عينيه بانحاء الرمس الا تزال ساجدا يا مودستوس ! وصاح هراقليوس انها لاستفاقة هائئة فلقد تعاورتني احلامي المضنيات المروعات وطغت على هذه التصاوير وهذه التهاويل ! فقال مودستوس : اكنت تحلم يامولاي ؟

وكان أثر الرحمة يبين في عيني مودستوس فتساقط صوته على صدر هراقليوس تساقط الندى على الارض الغطشاء فعــاف مكانه واتى الحجرة فاذا البطريرك ومودستوس يتأملان في صورته وفي لباسه وقد حاول زكريا ان يسأل هراقليوس عن هذه الدماء التي تغسل لباسه الممزق وعن جراحات تبين على جبينــه ، فنظر مودستوس اليه نظرة راجية لم يفت معناها البطريرك الصــالح فسكت وانثنى مودستوس قائلا :

— لقد كان يحلم !

— نعم كنت احلم وكانت احلامي مفزعة ، فما ان سمعت غناءك حتى فرت احلامي فرار السحب ! ...

ثم انتبه الى نزوله بالحجرة المقدسة فركع واستطال ركوعه وغابت نفسه في صلاة هادئة كانت تجري على شفتي مودستوس فيرددها البطريرك زكريا في كثير من التقى والورع ! حتى اذا اوغل في صلاته تقاصرت تلك السحب السود عن وجهه وغمرته بروق من الرجاء والسكينة والفرح واهوى بفمه على قبر النبي يقبل اطرافه ويلثم جنباته ويلقي اليه بالدمعة التي تمناها في ذلك المحراب الجاهم فجمدت في عينيه وفي اقل من القليل ردت الى الرجل الجفول عبقرية الرجل الاصيل وابتعث مشهد الصليب الذي كان يضيء ويلمع على القبر رجولته وعنفوانه واذكره حسن

بلائه في الفرس اعداء دينه ، فنهض ونهض معه زكريا ومودستوس ، ونظر الثلاثة الى الصليب (١) ثم تهافتوا على تقبيله ؛

رأى هراقليوس انه افرط كثيرا في جزعه ، وانه تمادى في سبحه وغرقه ، وما ينبغي له ان يفرق من التصاوير والتماثيل والدمى وهو الزعيم الغطريف الذي قهر الكتائب في بر وبحر ، ولما نظر الى لباسه الممزق والى الدماء التي تغسل جبينه سخر من شبح هراقليوس الرعديد ، ذلك الشبح الذي ماكان يستطيع صبرا على التأمل في فصول حياته الماضية ، فذل للاشباح وللصور واستخذى للاوهام والاحلام

---

(١) عثرت الامبراطورة هيلانة ام الامبراطور قسطنطين على الصليب في شهر ايار من سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة فوضعت قطعة منه في صندوق من فضة واهدته الى مدينة بيت المقدس وفي تاريخ الكنائس التي بناها قسطنطين في بيت المقدس ان في بيعة قسطنطين مذبحاً صنع من الذهب والفضة واقيم على تسعة اعمدة من البرفير الملون وقد وضع الصليب فيه مزينا بالذهب والجواهر وفي سنة خمس عشرة وستمائة اوغل الفرس في فتح الشام ومصر واستولوا على الصليب وبعثوا به الى كسرى في مدائنه فاهداه الى زوجه مارية ابنة الامبراطور موريس الروماني الذي قتله فوكاس وفي سنة ثمان وعشرين وستمائة وقيل سنة سبع وعشرين وستمائة فتح هراقليوس مدائن كسرى ففر عظيم الفرس بعد احراق قصره واكلت النار تحفه وكنوزه ، وسرح هراقليوس المنتصر اسرى الشام والعراق وفيهم زكريا بطريرك بيت القدس واعيد الصليب الى هراقليوس وهكذا اختتمت هذه الحرب الكبرى بنصر عجيب في يوم عيد العنصرة من سنة ثمان وعشرين وستمائة وفي مستهل سنة تسع وعشرين وستمائة ، وفي اول الربيع حج هراقليوس الى بيت المقدس ومعه الصليب في صندوق من الذهب ، وفي سنة ست وثلاثين وستمائة بعث صفورنيوس بطريرك بيت المقدس بالصليب الى الامبراطور هراقليوس مخافة ان يأخذه العرب الذين استولوا على فلسطين والشام

« جورج بتلر في كتابه فتح العرب لمصر »

وصاغ منها جميعا عالما لا يحبه ، عالما بشعا من ناسه بليتزا ونفتالي وماريه وبنيامينا وجميع الذين فتك بهم في طريقه الى ايلياء

وكان قد اكمل حجه واتم طوافه ، فاحب ان يتحدث الى زكريا ومودستوس امام القبر المقدس عن امر كثيرا ماهاج وساوسه واستثار حميته ورنق حيـــاته وذلكم هو توحيد المذاهب في الدولة ومحاربة البدع واستصفاء النصرانية مما علق بها من اوهام واساطير ، حتى اذا حقق امنيته في هذا التساوق وجد في النصرانية المؤتلفة الموثقة قوة لا تطالها قوى اعداء الدولة والصليب (١)

وقد قص على زكريا ومودستوس نبأ ازماعه الرحيل الى دمشق وحمص فلا يطول مكثه في هـــاتين المدينتين بل هو يمضي في طوافه حتى يبلغ موطن ابائه في هيرابوليس « منبج اليوم » ويزور مسقط رأسه في اذاسة على شاطيء الفرات واقصى غاياته من نزوله بوطن آبائه وطن الصالح افرام مؤسس الكنيسة السورية ان يجتمع الى انصار المذهب اليعقوبي الذي ينشر ظله على ثلاثمائة دير وثلاثمائة كنيسة في معظم بلاد الشام وارمينية ومصر (٢)

فلقد ينشأ من طوافه بمدن الشام ان يســـايره الناس في هذا الذي اراده ، فتذوب هذه المذاهب الجامحة في الديانة الارثوذكسية ، وهي ديانة قيصر وديانة سرجيوس السوري بطريرك القسطنطينية وصاحب فكرة التوحيد والمنافح عنها (٣)

وما كان في ميسور زكريا بطريرك بيت المقدس ومودستوس ان ينعــاه هذه الامنية اشفاقا على مصاير الدولة وزلفى لاهواء سرجيوس وهما يعلمان ان دون تحقيق هذه الامنية طائفة من الصعاب على الرغم من هذه القهرة الطائرة التي تمتع بها هراقليوس في الملاحم ، وعلى الرغم من بره بنصرانيته ووفائه لكنـــائس الامبراطورية الاربع ثم على الرغم من تهافت ملوك الشرق والغرب على مسايرته وملاينته واكبارهم حماسته في الدفاع عن محارم النصرانية (٤)

---

(١)و(٢)و(٣)و(٤) جورج بتلر في كتابه فتح العرب لمصر

قال هراقليوس للصالح مودستوس :

— انك مصاحبي في هذه الرحلة ! وقد اخترت اثناسيوس (١) بطريركا لانطاكية ، وقيرس بطريركا لاسكندريه فانمن احب اماني ان تلين انطاكية فلا تثور اكثر مما ثارت ، ولا تكفر اكثر مما كفرت . انها قوة الدولة وركنها الركين يامودستوس ، يشهد بذلك زكريا وسرجيوس ! اما مصر فلست لاخافها بعد ان احسنت اليها بان انقذتها من رجس فوكاس ورجس كسرى معـــا ، واني لواثق بفيثاس الذي وليته امرها ، اقرارا بحسن صنيعه ، وجميل وفائه فانه الزعيم القادر على استئصال اي فتنة ! ...

وكان كلما اوغل في الحديث اخذته حماسة الظافر ونشوة القاهر ، حتى نسي انه في المقام الذي لا ينبغي فيه لكبير ان يرفع صوته اكبارا للنبي وايثاراً للنبوة ، وكأن لياذ مودستوس بالصمت ونزوع زكريا الى الصلاة قد دلاه على خطئه فطفر من مكانه طفرة رائعة دلت على رجولته وعنفوانه واتى الضجيع في ضجعته ، فقبل قبره ثم ارتد الى صاحبيه ونظر اليهما تحت بريق الشموع وخطف الفسيفساء فرأيا على وجهه صورة هراقليوس يوم كان في الخامسة والثلاثين من عمره ، في ذلك الزمن الماضي دعته النصرانية الى حمايتها فسمع دعاءها غير باخل ولا جازع وكان متين البناء

---

(١) كان اثناسيوس بطريركا لانطاكية قبل اتفاقه مع هراقليوس وقد زار مصر في سنة خمس عشرة وستمائة فلما فتح الفرس بلاد الشام في سنة اربع عشرة وستمائة جرده كسرى من ولايته ثم اعيد الى انطاكية في زمن هراقليوس على الرغم من تشيعه للمذهب اليعقوبي والثابت ان هراقليوس اتفق معه على مشاركته في سعيه الى توحيد المذاهب فلما رجع الى كرسيه لم يجد معدى عن التنكر للاتفاق فاحنق تنكره هراقليوس ويقول صفورنيوس الذي ولي امر الارثوذكسية في بيت المقدس في مذكراته ان هراقليوس كان على حق حينما اضطهد اليعاقبة وامر بتذبيح جميع انصارها . جورج بتلر في كتابه فتح العرب لمصر

عريض الصدر صحيح القوى مفتول الساعد لا بالقصير ولا بالطويل يزين وجهه الصبيح الجميل عينان زرقاوان ضحوكان وفم بديع وانف يدل على كبر وزهو وكان شعره ذهبي اللون فاذا تأمله متأمل القاه منسدرا على كتفيه كخيوط الشفق ورأى على وجهه صفات الرجل الصليب فهو قوي في جسمه قوي في عقله (١) ولعل المرء اذا نظر اليه مليا لا يفوته ان به صفات الرجل الذي لا يتورع عن الايغال في الاجرام زلفى لرغباته وارضاء لشهواته (٢)

ولم يكن في ميسور زكريا على جلال قدره وسمو منزلته ان يتأمل في جبين قيصر فجاراه في نهوضه والبسه رداء مذهبا اعتاد البطريرك ان يلبسه في اعياد النصرانية الفخمه وحذا مودستوس حذو زكريا ، وخرج الثلاثة من باب البيعة الكبرى ، فتلقاهم الحرس والشعب في كثير من الحماسة وفي كثير من الاعجاب ورأى هراقليوس على الباب الخارجي اسراب الفقراء وقد نهدوا من جميع النواحي طمعا في نواله ، فنثر عليهم الذهب والفضة ، وتصدق ما شاء له الورع ان يتصدق ولم يمتنع من مسايرة باعة الصلبان والصور والدمى ، فاقتنى الشيء الكثير من هذه الودائع ثم مضى طائفا بجبل الآلام وارتد في ساعة متاخرة من الليل الى القصر يرافقه زكريا المدنف العاني ومودستوس الشجاع

ولما آوى الى حجرته في القصر اطل من الشرفة على الجماهير الحاشدة في الطرقات والمنعطفات ، فشهد انماطا غريبة من شعوب الارض وقد طفرت جميعا من اماكنها لتحيي فيه الرجل المنتصر على فوكاس وكسرى ولو كانت لهراقليوس صفات الرسل وقدرتهم على اختراق الحجب لهاله ان بصدور الناس ثورة حقد وبغض منعها الانتصار ان تنفجر فظلت كامنة الى اليوم الوشيك القريب !

ولما استمع لهتاف الجماهير ولوح لهم بيديه مسلما ، آض الى حجرته ومعه

(١) قيدرينوس في مذكراته

(٢) سعيد بن البطريق

البطريرك زكريا والصالح مودستوس

ولم تنازعه نفسه الى إغفاءة تنسيه آلامه وشجوه ، فلبث ساهدا ارقا . واراد زكريا ومودستوس على ان يأرقا مثله وطفق يتحدث اليهما عن الفرسان الذين لحقوا بكتائبه من تدمر ودمشق وبصرى ومعان ليرافقوا موكبه القيصري الى ايلياء ولم يشأ ان يخفي اعجابه بفرسان آل جفنه الغساسنة . فقد كانوا من طراز ابائهم في اخلاصهم لقيصر وفي برهم بالنصرانية . وفي جهادهم الفرس ولما ذكر اسماء الفرسان المغاوير الذين توافوا الى ايلياء من وادي القرى وتيماء وايلة والبلقاء زهر وجهه زهورة رائعة وقال : ان بركوب (١) قد خلد تاريخ يوستينيانوس ونضره ورفع من قدر عصره ، لأنه العصر الذي بنيت فيه اياصوفيا ، ولأنه عصر الحارث ابن جبلة الغساني ولأنه الى ذلك عصر اباء هؤلاء الفرسان ! وسيخلد هونوريوس الشاعر النابه عصري ، ويخلع عليه كثيرا من رواء المعيته وبهاء ذكائه لأنه العصر الذي تفتحت فيه ازهار النصرانية في اديم فارس ولأنه عصر الحارث بن ابي شمر ولكن هذه الاحاديث التي ساقها هراقليوس في كثير من الحماسة كانت تشوبها مزنة من حزن فلقد اشجى سيد الكتائب الظافرة ان يصدف فروة بن عمرو امير ايلة عن بهاء هذا اليوم وان يجنح هذا الفتى الذي ناضل ابرع نضال في ارض فارس الى اللواذ بجباله وذلك امر ما كان هراقليوس يسيغه ويلذه

ولما عرض لذكر فروة حميت سورته واحمرت عيناه وجعل يذرع ارض الحجرة جيئة وذهابا فخشي مودستوس ان تندفق موجة الحقد في صدره فترد اليه تلك الهواجس التي طافت بنفسه عشية احتواه المعبد المقدس ورأى زكريا ان الفرصة مواتية لابتعاث هراقليوس على ان يفيء الى سريره فذلك اجدى من ازجاء الاحاديث عن فروة بن عمرو ، وافضل من جنوحه الى قتاله ولكن قيصر لم يجعل

---

(١) مؤرخ وكاتب بزنطي عاش في عصر جوستنيان وكتب كثيرا عن صلة الرومان بالعرب

لها سبيلا للكلام فقال لها بلغة الرجل المزهو : سيرى الفيلارك ان حظوظه العاثرة لا تنال قيصر السعيد ، ثم صفق بيديه ثلاثا وتمهل في رواحه وذهـــابه واخذ الرجلان الصالحان ينظران اليه في كثير من الالم ، فقد كان يشجيهما كثيرا ان يكون قتال بين زعيم النصرانية الاصيل وبين فارسها الجليل . بعد قليل دخل الحجرة شاب روماني يلبس لباس الجند فنظر اليه هراقليوس مليا وقال له :

— اركاديوس ! اهذا انت ؟ انطلق الى تيودور وقل له ان هراقليوس ينتظر معاده

وكان تيودور عامل قيصر على سوريه وفلسطين معا ، وكان يتمتع بشهرة طائرة لايغاله في تقتيل اليهود وتذبيحهم واسرافه في ايذاء القبائل العربية وترويعها وكان الى ذلك قائد جيوش الرومان في سورية وسفير بزنطية في قصور آل جفنة الغساسنة ملوك الشام ، فلما التى قيصر اسمه الى سمع اركاديوس لم يفت الراهبين ازماعه على امر شديد الخطر فنصحا له ان يبعث الى فروة برجل من رجال الدين فلقد يستطيع ان يبتعثه على الموادعة والمسالمة فيرجع الى النصرانية التي عزف عنها وكان حديثهما صافيا صريحا ؛ وكانا الى ذلك مخلصين في النصح ومع ذلك كله ابى هراقليوس الا مضيا في حماسته فسأل اركاديوس ان يسرع الى لقاء تيودور ويأتي به

فذهب الفتى الروماني في سبيله ، وبعد قليل عاد ومعــــه تيودور فاستقبله هراقليوس صائحا :

— اتعلم شيئا جديدا عن فروة بن عمرو ؟

فرفع تيودور الخيف عينيه الى الراهبين الكبيرين فاذا هما ينظران الى الارض في ذهول وخوف ، فادرك ماذا يريد قيصر من سؤاله فقال بلهجة خشنة !

— لقد انقلب رجالي من سلع في هذا المساء فسألتهم اذا كانوا يعرفون امرآ جديدا عن الفيلارك فقصوا علي مالا استطيع ترديده وترجيعه !

وكان تيودور في لباس الحرب ، وقد تألق على صدره صليب من الذهب عليه

دمية من الزمرد تمثل المسيح مصلوبا ، وكان في الخامسة والثلاثين من عمره تبين على وجهه الناصع البياض قسوة المحارب الذي لا تمله المقارعة ، ولا تضجره المصارعة فقال له هراقليوس :

— وماذا قال لك رجالك ؟ فاردف تيودور قائلا :

— قال لي رجال من غسان ان فروة قد اهوى بتمثال قيصر عن موضعه في وادي سلع ، وانه يجمع الناس للخروج بهم الى القتال فلحق به رجال اولعوا بكره الرومان من سيناء وايلة ومعان ، حتى فيأت راياته خمسة الاف ليس فيهم من يطيع قيصر ، فرجفت اسنان هراقليوس من الغضب وصاح صيحة الرجل الجريح :

— اوجرؤ فروة على تحطيم تمثالي ؟ تعسا له ! لا رمينه بكل ما تستطيع غسان جمعه تحت اللواء ! ثم تلفت الى البطريرك زكريا وقد طغا جنونه وقال :

— ساذهب بنفسي الى اريحا ، فلا ابرحها حتى يرجع ملك غسان باسلاب سلع ! ... فقال زكريا :

— انك لقادر على تدمير سلع اذا شئت ، ولكني اوثر ان يصحب الجند الى سلع رجل لا يمنعه فروة حبه ومودته ، فاذا ذهب هذا الرجل واجتمع الى امير سيناء ومعان وبثه النصح اطمأنت النصرانية الى امرها في هذه البلاد ! فصاح هراقليوس ،

— ولكن فروة حطم تمثالي ، ودعا الناس الى قتالي

ولم يكن في ميسور زكريا ان يروض خلق هراقليوس الجامح فجعل ينظر الى مودستوس كأنما هو قد اراد ان يحفزه الى مشاركته في نصح قيصر ، فتعاون الرجلان على بذل النصح وسألا سيد الكتائب ان يتريث في تأليب الجيوش ريثما يذهب الرسول الى سلع وينقلب منها ، لحرص قيصر على ما اراده ، ولكنه سوغ لزكريا ان يرسل صاحبه الى سلع مع الجند فلم يمنعه البطريرك هذا الذي اراده وذكره بما عليه بلاد الشام من تحفز للمقارعة وبما عليه الكنيسة من تفرق وتصدع وتحدث اليه عن ذيوع البدع في النصرانية ، وانقسام الناس بين اليعقوبية

والارثوذكسية ، واختلافهم على المسيح نفسه ، حتى تســاوق عصر هراقليوس في صروفه واحداثه مع عصر انستاس قيصر في صروفه واحداثه ، وحتى اختلف البطاريك الاربعة الذين يسيطرون على العالم النصراني ، فما تؤلف بينهم وحدة في الهوى ولا تجمعهم وحدة في الغرض

وكان زكريا بارعا في ارسال الاحاديث ، فلانت نفس هراقليوس فقال له :

— ما اسم الرجل الذي وقع عليه اختيارك فقال زكريا :

— اسمه مالك الكندي ، وهو راهب سيناء وقد جاء منذ ايام الى بيت المقدس ونزل بديري . وقد اخترته لمكانته عند فروة بن عمرو ، ولحسن صلته بالاعراب ثم لخبرته في امورهم وارتياحهم الى نصحه فقال هراقليوس :

— ولكني اخشى ان يفعل هذا الراهب فعلة راهب عربي اسمه موسى ، كان يعيش في تدمر بين قبائل قومه فلما ثارت مارية الغسانية على انستاس قيصر واريد هذا الراهب على الذهاب الى بصرى ليستميل مارية الى الموادعة ويسألهــا الرجوع عن مهاجمة فلسطين ومصر لم يحجم عن اللحاق بقومه مناديا بنفســه بطريركا (١) لغسان ! ... فقال زكريا :

— انه لن يفعل ما توهمت ان يفعل !

فاطرق هراقليوس اطراقة اليمة ، وجعل زكريا ينظر الى مودستوس وقد ظهرت عليه اعراض التعب وراح تيودور يلعب بطرف من حمائل سيفه ، ثم رفع قيصر رأسه قائلا :

— لست بمانع رجلك من الذهاب الى سلع ، مادام الحارث بن ابي شمر قادراً على امداد الكتائب وكان التعب قد بلغ منه مبلغا قصيا فالقى بنفسه على مقعد في الحجرة وقال لتيودور :

— انك قائد الجيش وفي قدرتك ان تسمع صليل سلاحك آفاق البـــادية !

---

(١) كامر في كتابه الدولة النبطية

اسامعي انت ! ستراني بعد ايام في اريحا غير بعيد من الاردن ، وسنتحدث معا عن الحرب والسلم !

ولم يشأ ان يزيد على كلماته حرفا فلقد تطاغت شجونه واشتد جنونه ، وصبا الى الراحة ، فودعه تيودور وانطلق في سبيله فلحق به اركاديوس ، ثم ودعه زكريا ومودستوس وتركاه مستلقيا على المقعد

في صبيحة اليوم التالي جاس خلال بيت المقدس رجال من قضاعة وطي وكلب فاختلطوا بالناس وطفقوا يتحدثون عن سرية من عرب الحجاز حطت رحالها بجوار سلع ونزل زعماؤها الغطاريف على فروة بن عمرو . فاثارت احاديثهم ثائرة الناس ، فطفق هؤلاء يرددون ما سمعوه عن نبي من قريش بعث به الله لانقاذ قومه وانقاذ العالم من اباطيل الفرس واوهام الرومان ، فسرت هذه النذر في بيت المقدس سريان النار الحاصدة في الهشيم ، وانثنى الناس الى التبشير بها في كل ناحية حتى بلغ امرها قيصر وهو في مجلسه بين ملوك الشام وغطاريف البوادي فثارت ثائرته وبعث قائد شرطته الى منازل العرب فجمعوهم وبين هؤلاء الاعراب الذين توافوا الى بيت القدس سريان من سراوات الحجاز احدهما ابو سفيان بن حرب زعيم بني اميه ورجل من ذويه

وقد جيء بهذين السريين الى قيصر ، وذهب صاحب الشرطة بالآخرين الى المعسكر

وحدث ان خرجت سرية غسانية من ايلياء الى عين كارم للبحث عن منازل العرب في هذه القرية الخضلة المطارف ، فلما بلغت الطريق بين بيت لحم وعين كارم عرض لها عشرة فرسان من العرب على رأسهم عمرو بن معدي كرب ومعهم امرأة عمياء تلبس السواد ، وترافقها فتاة بارعة القسمات ، فطلب قائد السرية الغسانية الى العشرة ان يلقوا اليه بالسلاح ويسلموا انفسهم باسم الحارث الغساني ، فسخر عمرو منه وتابع سيره فلحق به الغساني واراده على التسليم فابي وشتم ملك غسان ابشع

شمّ ، فاحمس امره القائد الغساني ، فالتفت الى رجاله وقال لهم « حولوا بين هذا الرجل والمرأتين وخذوا سلاحه ، ولما نزع الغساسنة الى تجريد عمرو من سلاحه عطف عليهم رجاله العشرة ، وقاتلوهم قتالا شديدا ، وجعل عمرو لا يقصد لجماعة الا فرقها ، حتى ترك امره في الغساسنة ذهولا عجيبا فتراجعوا فكر عليهم العشرة واخذ عمرو يتغنى بشعر له قديم كان يقوله في الجاهلية . وكان يصيح بهم ويلكم الا تعرفون عمرا صاحب الصمصامة ! الا تعرفون الرجل الذي كان جماله مداراً لاحاديث النساء العربيات في الشام والعراق !

ولم يكن بين هؤلآء الذين توافوا من اما كن الجند للبحث عن منازل العرب من يجهل بسالة عمرو وشجاعته ، فصعقوا على رجولتهم وجبنوا عن ملاحقته وحملوا جرحاهم وانقلبوا الى ايلياء وواصل عمرو سيره الى عين كارم وهو يقول الشعر واصحابه العشرة يرددون اسما عذبا لقنهم اياه وذلكم هو اسم اليتيم القرشي الذي هتف به فارس العراق وهو قريب من صخرة يعقوب النبي في طلول هيكل سليمان!

وفي خفة البرق انتشر امر عمرو في الناس وبلغ قيصر والحارث الغساني الشيء الكثير عن عنفوان الرجل وفروسته ، فبعثا بكتيبة من المتنصرة للحـــاق به عند اطراف عين كارم وقد اوصى هراقليوس الجند الا يقتلوا الفارس البطل .



الفصل التاسع عشر

قرية يوحنا المعمدان

قالت بليترا لعمرو فارس العراق بعد وصولها مع ابنتها مارية الى منزلها الريفي في عين كارم ناشدتك الله ايها المولى ألا تبرح القرية قبل ان تركد نفسي وتستقر فاني اخاف ان ينقلب حرس غسان الى هذه النواحي فلا تردهم نفوسهم الظامئة الى ورد المنايا عن قتلي وانا بعد امرأة ضعيفة لا ناصر لها وانت الزعيم الغطريف الذي لا يخاف اعداءه قلوا ام كثروا . فقال لها عمرو ضاحكا :

ــ لا تجزعي ايتها المرأة من امر ، فلقد اعتزمت ان امضي الى ايليـاء لاقول لقيصر ان الجنود الذين اظلتهم راياته لم يكونوا اكثر من لصوص يقطعون الطريق على الوادعين من الناس

فرعشت بليترا وقالت له ، ماذا تقول ايها المولى ؟ اصحيح انك ستذهب الى قيصر لتقول له ما يخـــاف اشجع الناس ان يقوله . الا تعلم ان دون الوصول الى هراقليوس دنيا تمور بصليل السيوف ، وعزيف الابواق ونشيد الكماة المساعير ، فاغرب عمرو في الضحك واردف قائلا :

ــ هذا هو منزلك ايتها المرأة وقد بلغت مناك في نزولك بارضه وادركت صبابتك في الدعة والهدوء اما انا فما يمنعني من الذهاب الى ايلياء هذا الخميس العرمرم الذي يحرس قيصر

ــ انك لخيف ايها المولى فاي الرجال انت ؟

ــ يخيل الي انك لا تعلمين شيئا عن ابي ثور ؟

ــ كلا . كلا ايها المولى ما علمت يسيرا او كثيرا عن ابي ثور ومن اين لي وانا من علمت ان اعرف رجلك الذي جئت تحدثني عنه ؟ فقال عمرو وهو يقود خطي

العمياء الى حجرتها في منزل الضاحية

— ان ابا ثور رجل مخيف جدا ، دعاه كسرى عظيم الفرس في ذات ليلة الى قصره في المدائن ، ودعا معه بعض فرسان قومه ، انه عربي ومن بلاد اسمها جزيرة العرب ، فلما جلس الى مائدة كسرى بجوار عظماء فارس ، طفق بذكر وطنا خرج منه ، ولم ينس ان يحوطه بالشرف الذي يستحقه فتكلم عنه كثيراً ، وقص على كسرى شيئا كثيرا عن خلق هذا الوطن وعن فضائله ، وسرد اسماء فرسانه وملوكه وحماته وشعرائه فتلون وجه كسرى وشحب . واغاظ لابي ثور في القول وجاز ذلك الى الطعن على العرب والى الزراية بملوكهم وسخر من فقر جزيرتهم فلم يطق ابو ثور سماعا ، فوقف وخطب كسرى وقومه خطبة رائعـه ، حببت العرب الى نفوس الفرس ، وجعلت كسرى يتحدث عنهم في ملاينة ومداراة ، وبعـد ايام تهافتت عصبة كريمة من بكر بن وائل على الفرس وقاتلتهم في سهول ذي قار وانتصرت على جموعهم وفرسانهم وحافزها الى هذا النصر الذي قذف العرب جنبه للمرة الاولى يتيم ولد في مكة ، واسمه محمد وكان ابو ثور اشـد رجال قومه ايغالا في التقتيل والتذبيح ، حتى لقد شاقت كسرى حماسته ومروته فود لو يكون في رجاله فانى هذا الذي اراده كسرى

— اهو من رجالك ايها المولى !

— انه ليتحدث اليك ، انا هو ايتها المرأة ، ارى وجهك قد تلون وتجون فهل انت في شك من امري ، الا فاعلمي ان عمراً ولد في الزمن الرائع وكان رفاقه احسن الرفاق ! انه زمن محمد رسول الله . وانهم فرسان العربية على الدهر . اسمعي فاني لا اضن عليك بذكر اسمائهم وان كانت الارض قد وارت بعضهم ، من هؤلاء الشعراء الفرسان عبدان اسودان وحران ابيضان ، فاما العبدان الاسودان ، فهما عنترة بن شداد شاعر عبس الشريف وفارسها الغطريف ، والسليك بن السلكة واما الحران الابيضان فهما عامر بن الطفيل وملاعب الاسنة . وقد اترع هؤلاء تاريخ

العربية بجمال الالمعية وجمال الفروسية

اعلمت الآن لماذا لا يخاف عمرو قيصر الرومان

وكانت العمياء قد جلست على مقعد في حجرة تطل على مصطبة الدار . فجلست مارية الصغيرة حيالها وهي تنظر الى عيني عمرو المضطربتين المشبوبتين وتتأمل في قبته المطرز ، وتستمع لاحاديثه عن امجاد قومه . وفرسان عمرو يروحون جيئة وذهابا في خميلة المنزل

وبعد فترة قصيرة ، تلفت عمرو الى الضاحية ، وسرح طرفه في مغانيها وفي ظلالها الوارفة فلذه مشهد الماء النمير يجري وادعا سا كنا في بطحاء ربا بعطور القرنفل والورد ، واخذته بواسق الشجر وقد اغصنت وحفلت بالثمر اليانع فقال لبليتزا :

— ان المقام لطيب وسائغ في هذه القرية ، قالت نعم وفي ميسورك ان تمضي في هذا المنزل اياما ثم تنيء الى اهلك . قال لن امنعك هذه الامنية في المستقبل فلقد اعود الى ايلياء واهبط هذه القرية فاسأل عنك والبث بجوارك بضعة ايام

وكان يتكلم في لين ورفق فرجته بليتزا ان يقضي ليله في منزلها فنزل عند رجائها واراد رجاله على حماية الطرق فتفرق بعضهم في الخميلة وذهب بعضهم الى الطريق الذي يشقه الناس عند خروجهم من بيت لحم الى عين كارم ، ثم سأل بليتزا ان تقص عليه قصة حياتها ، ففعلت ولم تنس ان تقص عليه خبر تلك الليلة الراعبة التي لقيت فيها هراقليوس في مصلى هيلانة وكانت كلما ذكرت له شيئا من تهاويل تلك الليلة لا تمنع نفسها ان تميد ، فتسأل عمرا ان يلبث في القرية او يذهب بها الى مكان قصي بعيد قبل ان يتعرف هراقليوس منزلها فيقتلها ويقتل ابنتها مارية فجعل فارس العراق يرفه عنها فما لانت لها نفس وظلت مخاوفها على حدتها وعنفها حتى شغلها عمرو عن شجونها في تهافته على رواية الاحاديث والاقاصيص

تقع قرية عين كارم على مرتفع شاهق ، وتبدو منازلها متناثرة متفرقة على الربا

الشم ، ثم تهوي الى السفوح حيث المخاضر تسبح في بريق الشمس وفتونها ، وحيث تحدق بهذه المنازل الصغيرة الجميلة مروج وبساتين وجنات يتضوع منها اريج فواح وحيث تنظر هذه الجواسق من اماكنها السامقة الى وادي عين كارم الذي يتطاول ويفيح بين الربوات والذروات ليضيع ويمتد الى الابعاد النائية

وحينما يدخل انســـان هذه القرية ويفتح صدره للهواء الندي الرقيق يدرك ما للعيون الجارية في هذه البطحاء الريا من اثر في تلطيف الافق وترقيقه ، فاذا دأب في سيره وقع منه الطرف على مسيل ماء ورأى الى شجرة غبياء تظله وتجاوره فيأنس الى مشهد الماء النمير يتفجر من الحجر الصلد . ويتدفق على الاديم هامساً ثرثارا في سهولة ولين ، فاذا تطاول ابصر نســـاء القرية يتوردن الماء من كل صوب فاذا حدق اليهن اخذته عيونهن السواحر واشجاه انبعيونهن رقةوحـــلاوة ، وان في وجوههن وداعة وطراوة ، وان هاته النســـاء الصغيرات الرشيقات الناعمات قد سدرن شعورهن السود على مناكبهن ورحن ضاحكات في غير رنق وبدون جذلات في غير كدر واطللن على الناس في برد تضرب الوانها بين حمرة وزرقة ، وعقدن على رءوسهن ذوائب سود ، حلينها بدنانير من الذهب الصراح ، هي كل ما يملكن من ثروة ومتاع ، ثم شددن حول هذه الذوائب المذهبة محارم طويلة مطرزة بازهار بيضاء وزرقاء ، فاذا خالطهن ابصرهن يحملن اطفالهن على مناكبهن ، وقد عمرن عيونهن بضياء الفرح ، وانرعن افواههن بالضحك ، وفتحنها عن مثل حمرة الورد في رياضه الزاهية والهواء الى ذلك ناعش ولطيف

تقع عين كارم على مسافة ساعتين من ايلياء والطريق بين القرية وبيت لحم لين سهل ولا يرتاد هذه الجنة الفيحاء الا الذين اولعوا بالسماء المصحية ، وبالسلام الذي تشتاقه النفوس الضارعة ، والا الذين احبوا الماضي في روائعه ومفاتنه ، في اساطيره ودياناته ، في حقائقه واوهامه ، ثم هي الى ذلك كله وطن يوحنا الجبلي المعروف بيوحنا المعمدان بن زكريا النبي ، من امرأته الفتية التقية اليصابات ، ولا يزال بيت

هذا النبي على الربوة السامقة ، ينظر الناس الى حجارته البيض من بعيد فتشتاقها نفوسهم فيسرعون اليه في طريق تكاثف الشجر على اطرافه وجنباته فاذا بلغوه ابصروا غرفه وحياطه لم يتسرب اليها عفاء ولا فناء ، فاذا طافوا باركانه ارتد بهم الخاطر الى طفولة هذا النبي السري « كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، اذ نادى ربه نداء خفيا قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا ، واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ، يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ، قال رب انى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا ، قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا قال رب اجعل لي آية ، قال ايتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ، فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليه ان سبحوا بكرة وعشيا يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا »

وهكذا كان مولد يوحنا المعمدان او يحيى الحصور في عين كارم ، وبعد شهور تتالت على ذلك الميلاد جفت مريم العذراء مغناها على الشواهق الكاسية في بلاد الجليل فنزلت في القرية الفاتنة على اليصابات ابنة خالتها وهي لا تدري انها تحمل في احشائها نبيا سريا ، وانها تتحدث الى والدة نبي سري

تتالت على الروابي الشم في عين كارم عصور وحقب واختلفت نهارات وعشيات وتراخت صلة الناس بالنبوة وما عاد القروي يستمع وهو مطمئن الى حصاده لرسل السماء ، ولكن القرية الناعمة مازالت تمور بالانداء ولا يبرح الماء ينسرب من بطحائها في خفض ولين ليشق طريقه الى الصحارى وما زال الناس يتفيأون الظلال الوارفة فلا يفوتهم وقد تفاوح الزهر وبسق الشجر وتدلت افنانه واغصانه اعراف النبيين والرسل

على مسافة قريبة من بيت زكريا يرى المسافر ذلك المثوى الوديع الذي فزعت بليتزا العمياء اليه بعد خروجها من نيكوميديا ، تلتف بنواحيه جنة فيحــاء كانت العمياء كثيرا ما تخرج اليها لتجلس على المقعد الحجري بجوار ابنتها وكانت نساء القرية يبصرنها سادرة ساهمة فيترسلن ويقفن على الباب ويتأملن في صورتها الشاحبة ، ثم يبعثن اليها بتحية قلوبهن، وينطلقن الى العين فاذا اوطف المساء وانقلبن الى بيوتهن رأينها لم تفارق ذلك المقعد الحجري بعد فيلقين اليها بازهار جمعنها من الطريق ويسمعنها اناشيدهن

ولما عادت بليتزا مع عمرو من ايلياء لم تشأ ان تجفو الجنة الفيحاء فجلست على المقعد الحجري وجلس عمرو الى جانبها واخذت يده تدغدغ شعره المنسدر على كتفيه وانطلق فرسانه الى العين المجاورة في طلب الماء

وكانت العصافير ترسل الى الفضاء المعطر اصواتهـــا الشجية واشعة الشمس تترقرق على ذوائب الشجر ونساء القرية حائمات على الماء وقد تعالى ضحكهن حتى سمعته العمياء وسمعه عمرو الذي كان في تلك الاثناء يتمثل حادث جزيرة العرب الرائع ولما شرعت بليتزا تقص عليه تاريخ هذه الاماكن فتح قلبه وســـأل المرأة العانية ان تمضي في احاديثها البارعة عن يوحنـــا المعمدان ذلك النبي الذي ابى ان يذهب الى ايلياء مؤثرا الحياة الوادعة المتواضعة في الريف والصحارى على الحياة الصاخبة في المدن الكبيرة

وفي تلك الفينة زخر الافق باصوات شديدة واقبلت نساء القرية اللواتي كن على العين جافلات مروعات فوقفن على باب المنزل وقلن لبليتزا ان رجال قيصر قد احاطوا بعين كارم واشتبك بعضهم في معركة حامية مع رجال من العرب كانوا على الماء. فانكمشت بليتزا وضمت ابنتها الى صدرها الخافق الملتاع وقالت لعمرو الذي ساورته جنة البطل الكمي

— انه ليوم شديد ايها المولى. وما احسبك تستطيع دفاعا ! ثم صـــاحت لقد

هلسكنا جميعا فاطرح عمرو المقعد واستل صمصامته صائحا :

— ادخلي الى حجرتك مع هذه الطفلة ولا يخيفنكِ رجال قيصر فاني قد اعددت وسائل النصر !

— ولكنك لاتعرف شيئا من امر قيصر ! انه الرجل الجريء على القتل ! فقال عمرو

— ادخلي حجرتك وقري عينا فلن يبصرك رجال قيصر !

— ولكني اخاف عليك الموت ؟ فضحك ضحكة مرهوبة ولمع بريق الحماسة في عينيه وخطفت على وجهه حمرة زاهية ، ثم استعرض في اقل من لمحة بادية ذي قار وصحراء العرب وجرى على لسانه اسم ذلك اليتيم الذي ردده بكر بن وائل يوم انتصرت على الفرس واردف صائحا :

يا لمحمد ! يا لمحمد ! فنادته بليتزا وهي تسير الى حجرتها :

حذار ياسيدي البطل حذار ياسيدي البطل

ولكن ابا ثور لم يسمع نداء المرأة العانية فلقد اصم اذنيه الا عن ذلك الصياح الذي زخر به الافق ثم امتطى غارب جواده وتدفق الى الشارع ولحق بفرسانه عند ينابيع عين كارم فاذا فرسانه يغنون ذلك الغنـــاء المستحب الذي ردده الاعشى الشاعر (١) في بادية ذي قار فما تريث في ترديده ، فسمعه رجاله فصمدوا لمائة من سيوف الغساسنة وجعل عمرو ينادي فرسانه باسمائهم فلوحوا له بسيوفهم من بعيد كأنهم يريدون ان يقولوا للزعيم البطل ان هذه الشيم البارعة التي قبسوها من خلق الوطن مازالت باقية في نفوسهم ، ولما اطل من بعيد على الجموع وابصرته غسان منحدرا كالآتي عصفت الحمية برؤوس كماتها فردد هؤلاء اسم عمرو فما لبث هذا الاسم المخوف ان استفاض حتى ملأ الصفوف جميعا وحتى دار على الافواه جميعا وما كان بين هؤلاء الذين توافوا الى عين كارم من يجهل امر الفارس الشاعر ، وكيف يجهلون فارس الجاهلية والشاعر الذي خلد مجد ذي قار في الرقيق الخالب

(١) اقرأ الجزء الثالث من رواية سيد قريش المؤلف

من شعره ، ثم اجمعوا رأيا على ترك رجاله وتهيأوا للمقارعة فادرك ما ارادوه فكر عليهم غير باخل بذكر اسمه !

وكانت اشعة الشمس تخطف على الحديد والدروع والخيول . وقد تعـالى الصياح من كل جانب ودارت العيون في وسط المعمعة تبحث عن عمرو الذي جعل يشجع رجاله ويستفزهم الى المجالدة والمنافحة ولكن واحدا من هؤلاء الفرسان الذين جمعتهم غسان لم يجرؤ على الاقتراب من الزعيم البطل فلبث الجميع ينظرون اليه في ذهلة وحيرة ولبث ينظر اليهم ضاحكا ناعما حتى لقد روعهم ضحكه واخافهم مرحه فاخذ بعضهم ينظر الى بعض وادرك زعيمهم ان شهرة عمرو في الجـاهلية كانت المنبع الاول لهذا الفتور الذي طاف بنفوس رجاله فعضض يديه من القهر والغم وقال لهم « حطموا سيوفكم فذلك ايسر من ان تضيء على ملابسكم كما تضيء حلي المرأة على صدرها العاري »

فعصفت الحمية برءوسهم وحملوا على رجال عمرو حملة عنيفة وراحت سيوفهم تخالط سيوف العشرة . وتعالى الصياح في فضاء القرية الوادعة حتى جاز بيوتهـــا المتناثرة على السفوح وحتى خاف ناسهـــا على نفوسهم فانكمشوا في حجراتهم لا يخرجون منها الى الوادي ولا يطلون على حدوده وبليتزا تصلي في حجرتها امام صورة السيد المسيح فتردد مارية الصغيرة صلوات امها المقهورة !

ولقد كان اشد ما يخيف بليتزا في هذه الساعة الروعاء ، ان يجوس قيصر خلال القرية . فيتعرف مكانها ويذكر امرها . ولا يتورع عن قتلها . فبالغت في الدعاء كما بالغت ابنتها في البكاء ، وكان صليل السيوف ، وصهيل الخيول وعزيف الابواق ، وصياح الفرسان . وهدير الماء على الصخور المحاذية ، كان هذا كله يتساقط الى صدر العمياء فينشر في نواحيه الرعب والذهول والجنون . ويبتعثها على الجهر بالدعاء لعمرو ولرجاله القلائل

وفي تلك الفينة كان عمرو يكر على الصفوف فيزيحها عن مستقرها فلا يصبر

على قتاله الا الذين كانوا يخافون معرة الانكسار ، وكان قائد غسان لا يزال يحمسهم ويستفزهم الى التضييق على عمرو حتى يقع اسيرا ويرجع به ايلياء مساوقة لاهواء قيصر وفيما كان فارس العراق يشق الصفوف اذ خرقت سمعه صيحة شديدة فتلفت فاذا رجل من عصابته يقول « حذار فلقد كاد سيف عدوك يلابس جوادك ولم يكن الرجل كاذبا في الذي زعم فان قائد غسان كان قد اراد احد رجاله على قتل جواد الفارس الكمي فجنب عمرو فرسه الموت الذريع في خفة ورشاقة واهوى بصمصامته على الغساني فشطره شطرين ثم تلظت حميته وتساقط على الغساسنة يمزق صفوفهم وهم محدقون به لا يريدون عزوفا عنه وفرسانه يحمون ظهره وما زالت المعركة على احتدامها وعمرو يكر ويتدافع حتى تكاثر الجمع حوله وحتى امتدت الاسنة والسيوف الى صدر جواده فكبا بفارسه الغطريف وتعالى صياح الغساسنة من كل جانب فما انثنت همة عمرو عن المجالدة ولا اذهله قتل جواده عن تعرف الخطر الذي يحدق به فطفر الى فارس غساني كان حياله فاهوى به عن فرسه وامتطى غاربه وكر به على اعدائه كرة شديدة فتراجعوا ولحق بهم وساوقه العشرة في لحاقه وهم يرددون اشعاره ويذكرون انتصاراتهم على الفرس وما زال رجال عمرو يلحقون بفلول الغساسنة حتى استبانت لهم طرق بيت لحم فهموا بالرجوع الى عين كارم لولا ان عرض لهم احراس قيصر الذين كانوا يملئون الطرق والمنافذ فاستيقن عمرو ساعة رأى هذه الجموع الزاخرة ان لا معدى له عن المضي في المقارعة حتى يقتل او يلقي بنفسه الى اعدائه . وكانت احاديث هذه الرجعة قد فشت في الرومان . فزرفوا من كل ناحية الى قتال عمرو ، واستؤنفت المعركة في شدة وعنف تحت عيون الناس الذين اطلوا على الميدان من شرفات المنازل ، ولما ادنفت الشمس وسال لعابها على الربا والحدور كان الجهد قد بلغ بعمرو مبلغا قصيا ، وكان ثلاثة من رجاله قد قتلوا وهم يذكرون اسم اليتيم القرشي ، فيئس الزعيم الغطريف من المقاومة وخيل اليه ان الموت جد قريب منه فنظر الى رجاله الاحياء

نظرة راثية وخطهم خطبه قصيرة ارادهم فيها على الاحتفاظ بشيمهم وسلائقهم فذلك افضل من موت يطمس شهرتهم الى الابد ، ثم كر على الرومان كرة شديدة فثبت له هؤلآء ثبات الجيش الذي مرن على القتال في ايطالية واسبانية ومقدونية . وتكاثر فرسانهم حول عمرو يساجلونه ويناخونه ، ولكنهم كانوا حريصين على ان لا تخالطه رماحهم واسنتهم ، فما اخافه بريق الفضة على خوذهم ولا روعه هذا الذهب الصراح الذي يخطف على دروعهم ، ولم تثنه عن المقارعة اصوات خرجت من صدورهم وسمعها كسرى في ايام نحسه وبؤسه ، فلقد كان في طعنه ونزاله احد اولئك الفرسان الخمسة الذين نضروا الجاهلية العربية وكان البطل الذي اعز الله به العرب في بوادي الشام والعراق

ولما ابتلى الرومان رجولته ، واستوثقوا من حماسته في دفاعه وعرفوا ان لا سبيل الى قهره خطر لقائدهم خاطر جديد ، فاراد رجاله على رمي جواده بسهامهم فقد يهون عليهم بعد ذلك ان يذهبوا بعمرو الى قيصر ، ويقولوا لسيد الدنيا انهم ظفروا بالفارس الشجاع .

وكان رجال عمرو يقاتلون اشرف قتال فلما تعاورت اسنة الرومان فرس الزعيم الغطريف نهدوا الى حمايته فمنعتهم كثرة العدو من امانيهم ، وسقط عمرو وتهافت الرومان عليه من كل جانب ، وصاح به عربي من غسان انه لا ينبغي له ان ان يعصى قيصر ، ثم احاط به ثلاثون من الرومان واركبوه في محفة قائدهم ففجر فمه بالضحك وقال ان مثله لا يفرق من لقاء قيصر

وبعد قليل صحا الافق ، وانقشع الغبار فاذا الارض وردة كالدهان ، واذا الذين قتلوا بسيوف العشرة من الغساسنة والرومان كثرة بالغة ، واذا عمرو ينظر الى هذا المشهد في عنفوان وكبر واذا هو يضحك لرجاله كأنما هو قد اراد من ضحكه لهم ان يذكرهم بشرف العمل الذي عملوه ارضاء لوطنهم الناشيء ، هذا الوطن الذي بدأ امره صغيرا في بادية ذي قار ثم اخذ ينمو ويتسع في الحجاز ليمتد في غده المقبل

الى الشام والعراق، ولما انقلب احراس قيصر بالاسير الكبير الى ايلياء ابى فارس العراق ورجاله الاحياء ان يدخلوا المدينة المقدسة دخول الرهائن فطفقوا يغنون اغاني جزيرة العرب وطن محمد ووطن الذين ارادهم الله سادة هذه الدنيا التي رنق صفوها ظلم كسرى وبغي قيصر

في تلك الامسية الفارطة من سنة تسع وعشرين وستمائة نزل رجال من غسان بقرية عين كارم فجاسوا خلال بيوتها يفتشون عن المرأة العمياء التي آوت عمرا الى منزلها واطعمت رجاله فالفوها جاثية امام صورة السيد المسيح تصلي وتنشج وابنتها الصغيرة تردد صلاتها في خفوت وهمس فانطلقوا بها الى ايلياء مساوقة لموكب هراقليوس وحملوا معهم طفلتها الباكية الشاكية .

الفصل العشرون

فارس العراق عند قيصر

يحسر حصن داود عن ايلياء من الغرب الى الشرق ،كما يحسر جبل الزيتون عنها من الشرق الى الغرب ، وتبدو المشاهد التي تحيط بالمدينة في الصورة الراعبة ، فاذا رأى اليها المسافر اخذته الجبال العارية يزحم بعضها بعضا ، وتفصل بينها هوات غائرة وتتلاقى على اطرافها وجنباتها دمن وبلاقع فاذا طوف عينيه بالحصن الجاثم على الصخر رأى ابوابه ومساربه واسواره وارتد الى نفسه يسألها عمن عمر هذا الطلل وعن بناته

في هذا الحصن الراعب امضى عمرو وصحبه ثلاثة ايام لم يسمعوا في خلالها غير صليل سلاح الجند ، واصوات الذين القت بهم حظوظهم العواثر الى السراديب والدهاليز ، وفي صباح اليوم الرابع عرست حيال الحصن سرية من فرسان الرومان والمتنصرة ، ففتحت لها الابواب وبعد قليل صدحت الابواق في داخل الحصن ، وخرج عمرو وصحبه في محفة يلتف بها رهط من الحرس القيصري ، ثم انطلق هذا الموكب الى قصر هراقليوس فاستقبله في الطرق المؤدية الى القصر اهل المدينة ، وقد حسرت عنهم البيوت والدارات في ذلك الصباح الماتع . فانتشروا على مفارق الطرق ليروا بعيونهم الى الرجل الذي كانت شجاعته مدار الاحاديث في قصر هراقليوس

ولما اطل عمرو على الجماهير الحاشدة لم يستطع اشد الناس وفاء لقيصر ان يخفي اعجابه بالبطل الكمي ، فافترت الثغور وثلجت الصدور وصفق الشيوخ وسرى الهمس ، وقال قائلون « انه ليضحك كأنما هو منطلق الى عرس » وقالت امرأة ما رأينا ملكا في كبرياء هذا العربي وقد كان عمرو رابط الجأش حقا وكان رجاله

الاحياء من نوعه وطرازه

وفي تلك الفينة تقدم رجل من المحنة وحدق في عمرو ، ثم ادار وجهه الى ناحية الجماهير صائحا : انه لا يليق بقيصر ان يغمس يده في دم هذا الفارس فرجع الناس همسه وقالوا : لا ينبغي لقيصر ان يقتله

ولم يشأ قائد الحرس ان يمنع الناس من اللحاق بالموكب عند باب القصر ، ولما نزل عمرو من المحفة وتبعه رجاله تهافت رجال الحرس من كل ناحيــة على فتح الطريق امام الفارس العربي ، وفرقوا الناس من حوله في لطف ومداراة ، ثم دخل عمرو الى القصر فصعد على السلالم مرقاتين مرقاتين ، وكان كلما اوغل في السير ترا ى له الحرس على السلالم فلا يحفل بكثرتهم ولا يخشى ان ينظروا اليه ، حتى دخل حجرة في القصر ، فرأى في بعض مجالسها صورة لفتى رائع وهو يشير باحــدى يديه الى الارض ، فنظر اليها وقال في خلده لامر ما صور هذا الصبي ! وظل يتتبع طوافه حتى افضى الى موضع فيه حوض من رخام فقال له قائد الحرس مكانك حتى افيء اليك

وتوارى القائد وظل عمرو يتلهى بالنظر الى الحوض ، وبعد ثوان عاد الروماني فقال لعمرو ولرجاله اتبعوني . فتبعه عمرو ورجاله وافضى الجميع الى صحن كبير مفروش بالرخام الاخضر ، وفيه عمد باسقة من المرمر الابيض النقي فجعل عمرو يقلب نظراته في الحياط والجدر وينظر في ذهلة عظيمة الى تصاوير لم يألف ان ينظر اليها قبل هذا اليوم ، فادرك من زخرفها الخالب رواء القيصرية الرومانية وبذخ الديانة النصرانية وتوقع ان يرى في مجلس هراقليوس اروع مما رأى في ايوان كسرى . وللمرة الاولى شعر الفارس العربي بشيء غير قليل من الروع ، وفطن الى الكوارث التي تنتظره واستيقن ان لا معاد الى الوطن الذي احبه على بؤسه وفقره وعريه ، ولكن ذلك النشيد الذي غناه في بادية ذي قار في صفوف بكر بن وائل لم يلبث ان اقتحم نفسه فبدد ما علق بنواحيها من غيوم وسحب ، واترعها بذلك

الصفاء الذي احسه يوم رددت شفتاه اسم يتيم قريش فهمس بذلك الاسم العذب فاذا جبينه الذي لبسته كدرة مرهوبة يضيء ويلمع واذا كبرياؤه لا تفارقه واذا هو قد آلى ان يقول لقيصر ما قاله لكسرى , واذا رجاله ينظرون الى اشراق جبينه فتعود نفوسهم ريا بعطور جزيرة العرب

وانه ليطيل النظر الى العمد المرمرية في ذلك الصحن المفروش بالرخام الاخضر اذ عرضت له ارائك من الارجوان مصفحة بالذهب , فنظر اليها فاذا هي قائمة في صفين متقابلين واذا بينهما اريكة من الذهب الصراح تظلها قبة من الفسيفساء تنهض على اربعة من العمد الملونة ويحيط بها فتيان من الرومان يلبسون الافواف المطرزة وفي ايديهم اعلام صورت عليها صورة الصليب فدارت بنفسه ظنون واوهـــام ودلته ظنونه واوهامه على نزوله في منزل قيصر

وفي تلك الاثناء صدحت ابواق القصر وفتح باب في اعلى الصحن فرعش عمرو ورعش صحابه ونظر الجميع الى الباب فاذا على وصيده قائد الحرس القيصري واذا القائد يصيح : « هراقليوس قيصر »

كان المنظر رائعا ، فلقد ظهر قيصر عـــلى وصيد الباب تلتف به حاشية سنية من بطاريك الكنيسة وبطاريق الجيش وملوك الشام , ثم تتالى عزيف البوق ، فاذا ابواب الصحن العليا تفتح جميعا ويخرج منها النبلاء والشيوخ وبينهم عربيان سريان يلبسان البرد المطرزة ، ثم تتابع جميع هؤلاء على الارائك والمقاعد وجلس قيصر تحت القبة ذات العمد المرمرية وجلس الى يمينه زكريا بطريرك بيت المقدس ومودستوس الصالح وجلس الى يساره ملك بصرى الحارث بن ابي شمر وملوك الشام الذين صحبوه الى ايلياء

ولما اريد عمرو على الجلوس ادار عينيه في الجمع فرأى مقعدا خليـــا بجوار السريين العربيين فاستقر فيه ووقف رجاله حياله كأنهم لا يريدون فراقه حتى في هذا المجلس الذي حشد له قيصر ابطال المعامع .

وقد كان هذا اليوم من اعظم ايام هراقليوس وبيان ذلك ان قيصر ما كاد يطمئن الى هزيمة كسرى وجلاء جيوشه عن الشام والقسطنطينية ويسترجع الصليب ويرده الى مواضعه في ايلياء حتى خرج من صحراء العرب يتيم قرشي في بيت ابيه من الرقة والدعة ماليس في بيت احد من الناس ، ثم كان من امر هذا اليتيم الذي طوى نهاراته وعشياته في قرارة الغار ان نهد الى ملوك الارض يريدهم على ان يكونوا في حاشيته وهو بعد لم يضع على رأسه مثل هذا التـــاج الذي يضيء على رأس قيصر ولم يظله الافق المرصع في ايوان كسرى وليست وراء هذا النبي اليتيم هذه الجيوش التي استفاضت اغانيها على حواشي الافق من ضفاف نهر الغنج في الهند الى شطآن البوسفور في المدينة الخالدة التي ترعاها عيون الآلهه وقد فعل هذا اليتيم الذي اطرحه قومه وحاربه اهله ، ما عجز عن مساوقته في فعله اي نبي في قديم وحديث ، بث دعوته فلحق بها الضعاف من الناس ، فلما تفتحت عقولهم على نورها الغامر اذا اضعف هؤلاء يتحدى قيصر في عنفوانه وينافسه في سلطانه واذا دحية بن خليفة الكلبي نذير محمد الى هراقليوس يسقط على بصرى في يوم رائع من ايام القيصرية والنصرانيه فلا يلبث ان يسمع قيصر حديثه عن سيد الرسل في غير محاباة ولا مداراة واذا فروة بن عمرو الجذامي الذي حارب الوثنية في صفوف النصرانية يتنكر لقيصر ولخميسه العرمرم ، واذا عربي من زبيد اسمه عمرو بن معدي كرب لايبالي ان يقـــارع احراس قيصر في ارض ما برحت ندية بدماء الفرس

لقد غشي هذا المجلس الذي دعا هراقليوس اليه كثير من المنازع وكثير من الاهواء ، غشيته القيصرية وكبرياؤها ، وغشيته النصرانية وبهاؤها ، وغشيته حماسة الجنود الذين انتصروا على العالم ، ثم غشيته هذه الروح العربية التي حفزتها في صدر عمرو رسالة النبي صاحب الغار ؛ وكان قيصر قـــد ارتفق سيفه الذهبي وسدل ضفائره حتى استرخت على صليب من الذهب كان يضيء على صدره وانشت عيناه تبحثان

في وجوه الحاضرين عن وجه ذلك الفارس الذي سمع بذكره واعجب ببسالته واحب ان يجعله في موكبه. وقلوب الناس تجيش بالمخاوف فما يستطيع احد ان يتخافت بصوته او يومض بيده اجلالا لهراقليوس وايثاراً لمكانته في النصرانية. وذانك السريان العربيان اللذان جلس عمرو بجوارهما يرعشان من الرعب، وقد لبست وجهيهما جهمة شديدة، فراحا ينظران الى الارض وهما لا يعلمان شيئا من امر هذا المجلس وكل ما يعلمه هذا السريان انهما خرجا من مكة في تجارة لهما فلما نزلا بغزة احاط بهما حرس قيصر وجاءوا بهما الى ايلياء

وبغتة تكلم قيصر بصوت اجش فاستمع له تيودور عامله على الشام وهو راكع وبعد قليل ارتد تيودور الى ناحية السريين العربيين وخاطبهما بالعربية صائحاً:

— ابو سفيان بن حرب . . .

ولم يكد يفرغ من هتافه حتى تلون جبين ابي سفيان وانكمشت نفس صاحبه فرفعا رأسيهما فدعاهما تيودور الى الوقوف حيال هراقليوس. ففعلا. وجعل سيد الكتائب ينظر اليهما متفحصاً فلا يطيقان نظراته

* * *

في ذلك اليوم الشديد الكريه. خرج رجال من الرومان الى برج الامبراطور طيباريوس، فطرقوا بابه وسألوا عن امرأة لم يعرف اسمها بعد. لانها ابت ان تكشف عنه، وقد جيء بهذه المرأة من منزلها في قرية عين كارم قبل ثلاثة ايام فطرحها رجال قيصر في البرج وذهبوا بابنتها الى مكان آخر، وكانت حجة الرومان في تنكيد هذه المرأة وترويعها انها تصنع السحر وانها آوت الى منزلها رجلا نزاعا شديد القوى، فاتخذته خليلا ووليا وابتعثته على مجافاة قيصر وسوغت له مقارعة اجناده واحراسه

ولما فتح باب البرج امام الحرس، الفى هؤلاء بعض رفاقهم وقد احاطوا بامرأة تلبس السواد، فاخذها رجال قيصر، وارادوها على ركوب محفة يجرها

جوادان ، فاستخذت لهم ، وانطلقت المحفة بها في طريق يدفع الى القصر

وكانت بليتزا ساعة خرجت من البرج حريصة على الصمت ، ولكنها كانت تصلي في خفوت وهمس . فلم يسمع هؤلاء الذين اظلوها بحرابهم ورماحهم شيئاً من صلاتها ، ولم يفطنوا الى جزع يساور نفسها ، ولم يروا الى عينيها المطفأتين اللتين كانتا تبحثان في الظلمة الراعبة عن خيال ابنتها المضيء ، ولو ان واحداً من هؤلاء نظر الى عينيها لرأى في ليلهما الدجوجي مابنفسها من شجن وغم ولابصر الصورة التي تحفزه الى ان يرق ويتشاجى !

وما زالت المحفة تتدفق في سيرها على الارض المحصبة ، حتى اوغلت في طريق فيحاء تلتف على جانبيها بواسق النارنج ، فتنشقت بليتزا عرف الزهر ولطف هذا الشذا الرقيق احزان نفسها ، واستفزها الى مخاطبة الجند ، فسألتهم عن ابنتها ، وتوسلت اليهم ان ينطلقوا بها اليها فتراها وتقبلها ولما قال لها زعيم الحرس انه لاينبغي للساحرات ان يشعرن بشعور الأمهات ادركت التعسة مايراد من اتهامها بالسحر ولم يفتها قصاص الساحرات لأنها كانت تعلم ان النصرانية لاتبيح السحر ولا تسيغه وكانت تعلم ان قيصر لا يتساهل ولا يتغاضى ، وان كثيرين ممن تنكروا لقيصر ولم يطيعوه قد اتهموا بالسحر واحرقوا احيـاء في السوح والميادين !

وجعلت تصيح : « لست بساحرة بل انا امرأة تعسة ، ولم تشأ ان تحسر لهم عن اسمها او تكشف لهم حقيقة امرها ، فانها كانت تظن ان لاعاصم لها من الموت لو تحامت الكذب وقصت قصة حياتها الشجية وكان اشد مايخيفها ان يتعرف هراقليوس امرها ويذكر ماقالته له في معبد القديسة هيلانة فلا يتورع عن ايذائها ولا يمنع نفسه من اراقة دم طفلتها !

وكانت طرق المدينة لا تزال تمور بالناس ، فلما شقت المحفة الصفوف الحاشدة توافى الخلق من كل ناحية ، وتبارى الجميع في السؤال عن مورد هـذه المرأة

ومصدرها ، فقيل لهم انها ساحرة تصنع السحر ، وانها الى ذلك ثائرة وفاجرة .
وفي تلك الفينة عرضت نساء من المدينة الموكب ، فرأين الى المحفة وشهدن
عمياء عين كارم وكن يعرفنها فصحن :

— انها بليتزا ابنة السري تيوفان

فرعشت العمياء ، وسرى اسمها مسرى البرق في الناس ، فادرك هؤلاء الذين
لعنوهـا قبل لحظات انه ما كان ينبغي لهم ان يشمتوا بالمرأة العانية ، ثم جعلوا
يرددون هذا الاسم ويحاولون ان يكشفوا امره ، وقد كان اسم تيوفان سائغـا
وجميلا وكان كذلك يدل على نباهة صيت لا على خمول ذكر ، وانهم ليرددونه اذا
امرأة تقول:

« لقد كانت ابر امرأة بضعيف ، وكانت سيدة القرية في احسانها الى ذوي
الفقر ! وقالت امرأة اخرى : كان ابوها احسن قواد قيصر ! انه البطل المقارع
وقد مات موتة تشرف زمنه »

سمعت بليتزا هذا كله فلوحت بيديها الى الناس وقالت لهم : ماتقوله هـذه
المرأة ، وما قالته صاحبة لها امر لا شك فيه ، فما انا بالساحرة التي تصنع السحر
وانما انا امرأة لم تخجل هذا الذي تسمونه قيصر الرومان ان يعبث بعفـافها في
زمن نضره ابي بخلقه وشممه ؛ وكان صوتها قوياً عنيفاً ، وكانت رناته صادقة
وصافية ، فاطمأن الناس الى جرسه ، واستحالت نزواتهم الثـائرة الطاغية الى
احساسات عالية فخمة ، ومرت بخواطرهم مآسي القيصرية ؛ فتناسوا عبقرية مراقليوس
وتغاضوا عن مظافره ومكاسبه ؛ وتجددت في نفوسهم ذكر الماضي : فاذا هم
تحت وقر هذه الذكريات اعداء لقيصر واعداء للرومان ثم تعالت اصواتهم :

— كلا ؛ كلا ؛ انها لن تحرق !

وخيل الى بليتزا وقد تهاوت هذه الاصوات الى سمعها انها نفضت عن
نفسها الروع والخوف ؛ وما كان هذا الذي تخيلته كذبا ؛ فلقد زالت غضون

وجهها ولألأ جبينها ، وامتلأت نفسها بعطر فواح ، وشعرت برجعتها الى ذلك اليوم الذي مجدت فيه انتصارات ابيها ، ولكن رجال قيصر لم يحفلوا بهذه الصيحات ; بل ثابروا على سيرهم حتى بلغوا القصر ، فاوغلوا في ساحته واغلقوا الابواب ، والناس يصيحون وقد تفجرت احقادهم في الصدور ؟



الفصل الحادي والعشرون

ازهار اليتيم

جعل هراقليوس يتفحص ابا سفيان من الرأس الى القدم ، فاستوثق وهو ينظر الى قسامة جبينه ، وحلاوة نظراته ، من زعامته في بلده وقومه ، واذكرته صورته البارعة ، صورة ذلك الرسول الذي فاجأه في بصرى . واسلمه كتاب محمد فتلفت الى الحارث ملك غسان وقال له بلغة الروم سل هذا الرجل ان كان يستطيع ان يحدثنا عن امر ذلك النبي الذي ظهر في بلاده ، وقل له ان لاخوف عليه منا ، وانه في كنفنا ورعايتنا ، فتلفت الملك الحارث الى ابي سفيان ، واعاد على سمعه ماقاله هراقليوس ، فزال بعض خوفه ، ولما اراده قيصر على ان يقرب من اريكته سري عنه ، وبرق جبينه ، وكذلك سري عن صاحبه ، واصبح في ميسور ابي سفيان ان ينظر الى الحاشية الكبيرة ، وان يطوف عينيه برواء القيصرية فقال له هراقليوس : من اين اتيت ، والى اين انت ذاهب ، فاطرق ابو سفيان اطراقة قصيرة ، ثم رفع رأسه وتكلم

نحن ايها الملك العظيم ، قوم تجار ، وكانت الحرب بيننا وبين النبي قد حصرتنا حتى نهكت اموالنا . فلما كانت الهدنة (١) بيننا وبين النبي ، لم نأمن ان لانجد امنا فخرجت في نفر من قريش تجار الى الشام ، وكان وجه متجرنا منها غزة ، فقدمناها ، فقيل لنا ان صاحب الروم قد ظهر على من كان بارضه من فارس واخرجهم منها وانتزع منهم صليبه الأعظم ، وانه خرج من دار ملكه يمشي على قدميه متشكراً لله حين رد عليه مارد ليصلي في بيت المقدس تبسط له البسط وتلق

---

(١) يشير ابو سفيان الى صلح الحديبية ، وحديثه هنا منقول عن الطبري والاغاني

عليهـــا الرياحين ، فازمعنا ان نواصل السير ، حتى نبلغ بيت المقـــدس فوالله انا لبجوار اريحا اذ هجم علينا صاحب شرطة قيصر ، فقال لنا : انتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز فقلنا نعم قال انطلقوا بنا الى الملك ، فانطلقنا معه حتى انتهينا الى هذا المجلس ، قال هراقليوس لعلك من رهط هذا الرجل ! قال ابو سفيان نعم قال فايكم امس به رحما قال انا فقال هراقليوس ادن مني ثم اقعده بين يديه واقعد اصحابه خلفه ثم قال للدلك الحارث اني سأسأله فان كذب فردوا عليه وكان ابو سفيان سيد قومه فتكرم عن الكذب وعرف ان ايسر ما في ذلك ان هو كذبه ان يحفظوا ذلك عليه ثم يحدثوا به عنه ، فرفع رأسه الى قيصر وقـــال له : سلني ما شئت فقال هراقليوس اخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين اظهركم يدعي ما يدعي ، فجعل ابو سفيان يزهد له شأن النبي ويصغر له امره ويقول له ايها الملك ما يهمك من امره ، ان شأنه دون ما يبلغك ، فلم يلتفت قيصر الى ذلك ثم قال انبئني عما اسألك من شأنه فقال سل عما بدا لك قال كيف نسب محمد فيكم ؟ قال محض اوسطنا نسبا قال فاخبرني هل كان احد من اهل بيته يقول مثـــل ما يقول فيتشبه به ، قال لا ، قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ، قال لا ، قال فاخبرني عن اتباعه منكم ، من هم قال الضعفـــاء والمساكين والاحداث من الغلمان والنساء واما ذوو الاسنان والشرف من قومه فلم يتبعه احد ، قال فاخبرني عن من تبعه ايحبه ويلزمه ام يقليه ويفارقه قال ابو سفيان ما تبعه رجل ففارقه قال فاخبرني كيف الحرب بينكم وبينه قال سجال يدال علينا وندال عليه قال فاخبرني هل يغدر ؟ قال لا ونحن منه في هدنة ، قال هراقليوس سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت انه محض من اوسطكم نسبا وكذلك يأخذ الله النبي اذا اخذه لا يأخذه الا من اوسط قومه نسبا وسألتك هل كان احد من اهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به فزعمت ان لا وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت ان لا وسألتك عن اتباعه فزعمت

انهم الضعفاء والمساكين والاحداث والنساء وكذلك اتباع الانبياء في كل زمان وسألتك عن من يتبعه ايحبه ويلزمه ام يقليه ويفارقه فزعمت ان لا يتبعه احد فيفارقه وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلبا فتخرج منه وسألتك هل يغدر فزعمت لا فلئن كنت صدقتني عنه ليغلبني على ما تحت قدمي انطلق لشأنك فما انا في حاجة اليك ثم تلفت هراقليوس الى بطاريك الكنيسة والى بطاريق الجيش وقال لهم بصوت تخالطه رقة وحزن يا معشر الروم اني قد جمعتكم لخير انه قد اتاني وانا في بصرى كتاب هذا الرجل يدعوني الى دينه وانه والله للنبي الذي ننتظره ونجده في كتبنا فهلموا فلنتبعه ونصدقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا (١)

كان زكريا بطريك بيت المقدس مدنفـــا عليلا وكان يستمع لاحاديث ابي سفيان وهراقليوس في جزع واشفاق وكان يعلم ما تنطوي عليه نفس قيصر من تردد وشك وضعف فلم يطق صبرا على ما سمع فنهض متوكئا على عصاه كأنما هو يحاول الخروج من المجلس فلحق به مودستوس وتبعهما كثير من الرومان فشعر هراقليوس بخيبة النية وادرك انه افرط في احاديثه فناشد زكريا ان يرجع وراح يذكر مودستوس بجهاده في سبيل النصرانية فقـــال له زكريا ء انكون تحت يدي العرب ونحن اعظم الناس ملكا واكثرهم رجالا وافضلهم بلدا فقال هراقليوس فهلم فاعطيه الجزية في كل سنة اكسر عني شوكته واستريح من حربه بمـال اعطيه اياه فصاح زكريا لا لا وصاح الرومـان لا لا فقال هراقليوس لقد بلغني عنه انه بعث بالمقاتلة الى الشام وان هؤلآء قد نزلوا على فروة بن عمرو في سلع فمــاذا نصنع ؟ فصاح تيودور عامل قيصر على الشام انا اكفيكه ايها المولى فصاح انك لتستطيع ان تفعل اكثر من ذلك ولكنني اخاف فروة فانه الرجل الذي علمت ثم قال لزكريا ساعمل بنصحك وابعث الى فروة بالجنود فلعل كثرة راياتنا تخيفه فلا يمضي في عمله قلت لي ان لديك راهبا عربيا اسمه مالك وانك مزمع على ارساله الى فروة ليرده الى

(١) الطبري

نصرانيته فاين راهبك فقال زكريا انه في بيت المقدس قال فما يمنعك ان تبعث بهمع تيودور الى سلع من الغد قال سافعل هذا الذي اردتني على فعله

وكان القلق الشديد العنيف قد علق بنفوس الرومان تحت وقع هذا اليوم، فاحب هراقليوس ان ينزع في احاديثه منزعاً جديداً ، فادار لحاظه في الجماهير ، حتى وقعت عيناه على عمرو بن معدي كرب فعرفه من قامته المديدة ، ومن كبر يغشى جبينه ، فقال له ادن مني ، فسحب عمرو خطواته ، حتى صاقب قيصر ، فجعل سيد الكتائب ينظر اليه في كثير من اللهفة ، وقد بهرته ومضات عينيه وسحرته حماسته ، فقال له :

— انت قاتلت جنود الملك ، وضرجت يدك بدماء بعضهم ، فاي باعث ابتعثك على هذا الامر فقال عمرو بلغة صافية مطمئنة — نعم قاتلت جنود الملك وضرجت يدي بدماء بعضهم ، ولكني اقسم لك ايها العظيم الذي انقادت له دنيا الناس في بر وبحر انني ماكنت اريد مثل هذا الأمر لولا اسراف هؤلاء الجنود في مغاضبتي ونزوعهم الى قتلي ، فلقد والله دخلت ايلياء خلي الذهن من مجافاة قيصر ، وكنت احب الرجوع الى وطني وانا خلي الذهن من مجافاته ، فقال هراقليوس

— لعلك من اصحاب هذا الرجل الذي خرج من صحراء العرب فقال عمرو

— لست صاحبه ايها المولى ، ولا علم لي بامره الا من رجال البوادي فشاقتني احاديثهم عنه ، فرجوت ان اراه ، لاستمتع بهديه ، واكون في صحابته ورجاله ، قال :

— من اي بلاد انت ؟

— من العراق ايها المولى

— من العراق ؟ اكنت اذن من رجال كسرى ؟ فقال عمرو لا لست من رجال كسرى وانما انا عربي طوى فارس

فبرقت اسرة هراقليوس وقال له أصادق انت في حديثك ، قال لقد جنبني حياتي

الكذب فصاح هراقليوس : أتعلم ان كسرى عدو لقيصر ' قال أعرف ذلك وأعرف سبقك في مدائنه

قال فهل انت محدثي عما سمعته من أمر هذا النبي ، وهل أنت قادر على الانضاء بشعورك حياله ؟ ان امره ليذهلني كثيراً ، وان من ارضى اماني ان أتعرف مايقوله الناس في شأنه ' قال فهل أنت رادي الى بلدي ؟ قال تعجبني صراحتك وحماستك الا فاعلم انك في حماية قيصر على ابغ لك في تقبيل جنده وفي ميسورك اذا ابيت زعامة حرسي ان تمضي الى اهلك متى اردت فقد كان يوستنيانيوس قيصر لايفضل فرسان الرومان على فرسان العرب ' لما يعرفه من وفاء هؤلاء ، ولما اختبره من شجاعتهم ومروتهم وهذه السلائق الطيبة مازالت حافزتي الى الاعجاب بهم ! تكلم وقل ماتعلمه عن هذا النبي الذي ظهر في بلادكم ؟

فقلب عمرو نظراته في حاشية قيصر ' فاذا في هذه الحاشية البذاخة امراء من لخم وجذام وغطاريف من كندة وقضاعة وطي ' واذا ملوك الشام قد تجاثوا على الركب بجوار قيصر ' فعجب اذ ابصرهم جثياً عنده ' وعاد الى نفسه فالفاها تزخر بذلك الاحساس الذي أحسه في بادية العراق يوم نهد الى قتال الفرس في صفوف بكر بن وائل ، ورأى ان الفرصة مواتية لكلام عن ذلك النبي ، فلعل احاديثه عنه توقظ في هؤلاء الذين لانوا لقيصر حماسة آبائهم فترق نفوسهم وتخضل وتحس احساسه النبيل ' ثم نظر كرة اخرى الى قيصر . فاذا سيد الكتائب قد بهت ينظر اليه نظر المتعجب وقد راحت يده تعبث بلحيته الجثلة ففتح فمه وتكلم فلم ير قيصر أبلّ منه ريقاً ولا أعذب حديثا

لقد قال عمرو

عشنا في جاهلية رعناء ربداء لانعرف من اغاني الحياة غير عزيف السافيات في ربود الجبال وشعافها وغير زئير الضباع الضارية في الجروف والكهوف وغير الابل السارحة في بين الأودية عند الشعاب فؤرز ا-ة وكنا نا

الدنيا التي تمور بدفء الشمس في خفوت وهمس فلا يسمع العالم خفق اقدامنا ولا توقظه نبراتنا ولا يشجيه ويضنيه ان يطوينا ليل الصحارى المديد في سدفته وتحمته وكأن زعيمنا الغطريف اذا تبالغ فيه المرض . عند مجتنح الاصيل او في بهرة الصباح يتضاغى من الالم والعسر ثم لايلبث ان يلصق بالأرض ممعناً في صياحه فيضيع صوته البهيم في هزيم الرعد او في صرير الريح العاتية مثله في هذا الموت مثل الصقر الذي لغبه امعانه في طوافه وطيرانه فجثم في عشه وطأطأ رأسه واخفى مخلبه في جناحيه ثم اشدى وتغلغل في شدوه حتى ضاعت لحونه في رقيع السماء وحتى نكر الناس مصرعه الشجي

لقد صدفت افهامنا عن العبادة الصافية ، فلم نتعرف الى الله لافي الرياح الروامس ولا في الليالى الطوامس ، ولم نفتح عيوننا على بهائه ورونقه لافي الربيع المونق ولا في الصيف الضحوك وذلك لأننا كنا اذا اعوزتنا العبادة الحرة التي يستريح اليهـا القلب ويأنس بها الخيال لا نمنع نفوسنا ان تفيء الى الجلامد فننحت من هذه الحجارة الصم الآلهة والارباب ونعوذ بهذه الاطياف الضاوية والاشباح الخاوية الى المعبد القديم الذي اثله اباؤنا فنجوس خلاله في الليلة السدفاء او في الصباح القائظ حتى اذا نصبنا هذه التماثيل تحت العمد الرفيعة في داخل الكعبة نظرت الينا بعيون لا تحسر عن بريق ونظرنا اليها بعيون تطفح بضرم الشهوة واللذة والموجدة واجرينا اسماءها على الافواه وذبحنا لها الذبائح واسرجنا في محاريبها المصابيح ورحنا نسألها أن تلطف منازعنا الثائرة وتجمع قلوبنا على الملاينة و لموادعة لعلنا اذا اجنى ثمر الورع في نفوسنا نخصب هذه الارض التي نعيش عليها فلا تحرثها الخيل فاذا اصمت هذه الالهة اذانها عن السمع حرجت صدورنا حرجا شديدا فحززنا رءوسها بالسيوف ورحنا نصنع غيرها عسانا ان نبلغ من هذه الاصنام وطرا لم نبلغه في الايام المواضي

وقد بنى اباؤنا هذا المعبد الذي نحجه في بطحاء لا تعرف الحب والحب فجاءت عبادتنا في مثل قسوة الصحراء وولت الدنيا امامنـــا مدبرة لم نتعلق منها بشيء

وانقادت انهارها وبحارها ومدنها ودساكرها للرومان وللفرس

وقد غنى شعراؤنا اغانيهم في الارض الغطشاء فوصفوا الرمال والتلال والرياح والانواء وذكروا الطلول العافية والمدن البالية والليالي والنهارات والصيد والقنص والامل والرجاء والحب والشهوة واليأس والفراق وازدهوا بالدم الطليل وبالغوا في تقتيل البنات وعزفوا عن وصف الحياة الناعمة واطرحوا تحاسينها وزخارفها وما كان عزوفهم عنها لنقص في العبقرية او لجمود في الالمعية وانما كان ذلك لان مفارح الارض ومناعمها ظلت تتراخى عنهم وتتأى حتى اصابها قيصر في الشام وكسرى في العراق ! فاذا نزع شاعر من شعرائنا الى الغنــــاء جاس الى الاطلال العافية فبكى واستبكى من معه من الرفاق ؛ وطفق يتحدث الى الحبيبة العامدة على مستترق من الرمل تحت طنين الرياح السافية، فلا يسمع بثه غير الكوكب الحريد في الليلة الجوناء ؛ على حين لا يبرح الشاعر الاجنبي يغني اغانيه عــلى الشواطيء الهادرة بجوار المعابد الكريمة والقصور المنيفة تحت ظلال المرمر والبرفير ! وان شاعرنا ليطوي حياته سادرا هائما في البادية الغلفاء وقد يجيش في نفسه احساسها المنيف، وقد يغريه هذا الاحســـاس العنيف بالبحث عن العرف الطيب . فاذا اضواه البحث رفع له من بعيد نبت اصفر مما يعاق بجدور الاودية فيلذه ويتنشقه، بينما الشاعر الاجنبي يجد عطوره وطيوبه في الجنات الحاليات بالتفاح والنـــارنج والاعناب

وان شاعرنا ليغني على ربابته عند حائر ندته السحب الرقيقة بالماء على حين لايزال الشاعر البيغ في الشعوب الاجنبية يغني على قيثارته بجوار الانهار والبحيرات فلما تنشقت بطاح مكة ازهار هذا اليتيم واستمعت لصوته الجهير انقلب الناس على قديمهم فتباروا في هدم هذا القديم ورأوا في حاضر النبي جديداً يستوقف امامهم هذه الدنيا التي تراخت عنهم فتصبح دنياهم في بر وبحر وكنا لانبرح نجالد فارس ونقارع كسرى في سهول العراق عند مواطن دجلة والفرات وكان سلاح الفرس

النار والحديد ومن ورائهم جيوش ماطوت راياتها على ادبار وكانت الاناشيد تملأ النجود والحزون . انها لاناشيد سمعها قيصر وعرفها الرومان ! وكانت صدورنا تضطرب باشعار قالها شعراؤنا في الصحاري فلم يسمعها كسرى ولا قيصر وقد ظلت هذه الاشعار حبيسة في صدورنا حتى تأطم سيل العدو ووطئتنــــا خيوله وافياله واخذتنا نيرانه وحرابه فاوشكنا ان ندفع بشيوخنـــا وشبابنا الى دجلة فتطويهم سيوله وتغرقهم امواجه ؛ فذلك احب الينا من الاصغاء الى لحون فارس وذلك افضل من ان نفتح العيون على العدو القاهر وانا لفي غم ويأس اذا نبأ هذا الرسول الذي ظهر في مكة ينزل في سهول ذي قار فيعيه اولئك الذين يئسوا من المجالدة وتردده نفوسهم وقلوبهم ثم يستحيل على افواههم نغما ويحمل هذا النغم الى اليائسين والماحلين امانيهم في النصر فما يفرقون من كسرى ولا يخافون خميسه العرمرم ونستأنف في غدنا الكرة على العدو ، فلا يلين ولا يرق ، ويذكر شيوخنا اسم محمد اليتيم فيستفيض هذا الاسم العذب حتى يملأ السهل والجبل وحتى تضيع ناشيد الفرس في نبرات فرساننا ولا يلبث العدو الضخم ان يحس عجزه عن المناصبة فيلقي بخيوله وافياله الى ماء النهر الدافق الهادر (١) ويرجع كسرى رجعة ماكانت تليق بملك الملوك وسيد الجحافل

ولما طوينا المعركة واحتوتنا بيوتنا في الصباح الندي الرقيق لم يفتنا معنى هذا النصر الخالب فقد ادركنا ان في ميسور هذه الفئة القليلة المنتصرة في ذي قار ان تسود العالم كله وسبيلها الى ذلك هذا النبي الذي ولد يتيما ونشأ يتيما !

. . .

استهوت رجولة عمرو قيصر الرومان وبهره بيانه فقال له ما يمنعك واصحابك الذين قاتلوا كسرى ان تكونوا اصدقاء قيصر فقال عمرو يمنعني ذلك فرط حبي لوطن طبعني بطابعه قال امقاتلي انت اذا عدت الى وطنك فقال اني ارجو الله الا يكون

(١) اقرأ وصف معركة ذي قار في الجزء الثالث من رواية سيد قريش للمؤلف

قتال بين الرومان والعرب ، قال فهل لك ان تقول لقومك اذا نزلت بهم ماسمعته ورأيته عند قيصر ؟ قال سأفعل وسأذكر لهم ماصنعت قال اذهب لما تشاء. ثم التفت الى بطاريقه وقال : لقد كان صـــادقا فنجاه صدقه ، وعطف على ابي سفيان فقال له : انك لزعيم قومك فاذا رجعت اليهم فابذل لهم النصح فانهم لايطيقون حربي !

ولما انحى عمرو ناحية الباب بفرسانه لحق به ابو سفيان واصحـــابه فتبعهم بعض الحرس ودلوهم على الطريق فقـــال زعيم بني اميـــه لفـــارس العراق امنطلق انت الى يثرب ، قال نعم ، فقال انك سترى الرجل الذي انتصرت بكر بن وائل باسمه على كسرى

فابتسم عمرو وقال بلى سأرى الى النبي وسأتحدث اليه عنك عســـاه ان يغفر لك !



الفصل الثاني والعشرون

ساحرة !

نزل الحرس بيليتزا في جنة القصر واغلقوا الابواب مخافة ان يخترق النـاس القصر ، ثم القوا بالمرأة العانية الى سرادق مهجور ، فجلست في داخله على مقعد من الحجارة وارهفت اذنيها لعلها تستوثق من نصرة الجماهير ؛ فلمـــا لم تسمع صوتا يهدهد آلامها مضت في تأملاتها وسبحت في احلامها المضنيات الموجعات ، فتراءى لها في الحلم المريب شبح الطفلة الغالية فتشاجت وبكت وسألت الجند ان يلينوا لخطبها فما لانت لها نفوس هؤلاء الذين مرنوا على التمثيل والتنكيل ، وكانت اذا لاح لها الجند في ارض الخيلة لا تمنع قلبها ان يميد فتمضي في بكائها وتستثير الجند وتناشدهم الا يرموا بها الى الرجل الذي تخافه وتفرق منه ، فيعرض الجند عن بثها وشكاتها ويتحامون الاختلاط بها ، فاذا ابتعد الجند عن السرادق وانقطع الهمس بينهم نهضت على قدميها وتجسست العمد المرمرية واطبقت عينيها المطفأتين واصغت الى همس قلبها ، وانه لهمس مؤلم جعل يدلها في هذا الليل الذي تمتربه على المكان النائي الذي ذهب الجند اليه بطفلتها ولم يكن يفوتها وهي تستعرض خيـالة الطفلة الغالية ؛ ان تنظر بعيني قلبها الى المدينة المقدسة فخيل اليها انها ترى الى الطرق التي جازتها ، وتمثلت القصور والجواسق والبيع والمحاريب تخطف على قبابها لألاء الشمس ، بل لقد خيل اليها في هذا الحلم انها تنظر الى وجوه الناس وقد غشيتها رقة ورحمة فنادتهم في سرها وابتعها هذا الوهم الذي تعاورها على مناداتهم باسمـــاء ما كانت تذكرها قبل هذا اليوم ، وانها لتستعيد هذه الصور في خواطرها اذا قائد الحرس يناديها بصوت عاصف فرعشت واقبلت اليه تسأله ان يرجع بهـا الى عين

كارم او ينطلق بها الى ابنتها ، وكان قائد الحرس رجلا قاسيا لا يعرف المداراة والملاينة ، فصفعها بيده صفعة مؤلمة رجفت لها اسنانها فتراكض الدم من انفها على ثوبها الغاتم فبكت وبسطت ذراعيها الى الافق ودعت في سرها دعاء شجيا فما لان قلبه لدعائها ؛ ولا رق شعوره لبلائها ، وما زالت عيناها تُرف بالدمع حتى جاء الجند واحتملوها الى قيصر في مجلسه فنظر اليها سيد الدنيا مليا فما لبث ان رأى في صورتها الماثلة تلك الصورة التي عرضت له في محراب القديسة هيلانة فرقص فؤاده بين جناحيه من الفزع ، وادرك لساعته انه ما كان يحلم ورجح لديه ان الصورة التي افلتت من الجدار ؛ ما كانت من عمل المصورين الذين نقشوا آلام النصرانية على الحياط والجدر ، وللمرة الاولى استحيا سيد الكتائب من جبنه فكاد يواري عينيه بكفه حتى لا يرى نزلة اخرى الى ضراعته وذلته ، وفي خطفة البرق تمثل ماضيه الذاهب وذكر تلك الليلة الباردة التي خرج فيها من القصر الى نيكوميديا ليظفر بابنة البطريق تيوفان، فاثارته هذه الذكر الراعبة ، وعلقت بنفسه هموم وشجون ما كان في طوقه وهو الزعيم الغطريف ان يستخذي لها فنذر ليمضين في رجولته فذلك افضل من ان يرق وامثل من ان يضحك منه الناس؛ ثم وقر في ذهنه ان يفرغ من امر هذه العمياء التي روعته في مصلاه والتي جاءت تذكره بحياته الماضية فتهافت على البطريرك زكريا وقال له : انها لساحرة وانها لزعيمة بموت حقيق ! وكان يتكلم سادراً فادرك البطريرك انه غير متثبت في كلامه فتلفت الى بليتزا وقال لها أصحيح انك تصنعين السحر ؟ فرفعت بليتزا عينيها الى مصدر الصوت فعرفت صاحبه وقديماً سمعت الناس يتحدثون عن بره وعن احسانه فقالت له :

— ناشدتك الله ايها السيد الا تصدق مايقوله الناس

وكان صوتها الرقيق ينبعث من صدرها كاللحن البارع فجعل بعض رجال هراقليوس ينظر الى بعض وقد غشيتهم ذهلة من امر هذه العانية التي لم

تخلع لباس الحزن والتي كان وجهها الجميل يدل على شرف اصيل ، ونظر قيصر الى الاثر الذي احدثه جمال بليتزا في مجلسه فخشي ان تدرك سؤلهـــا في استمالة بعض فرسانه اليها ، ولكنه على كثرة وساوسه كان ذلك الرجل الذي لايخاف امراً ، فنهض ، واطل بقامته المديدة على الجميع ، فراحت العيون ترمقه في حذر وخوف ، وتوقع رجاله ان يمضي في صلفه وعناده فسكتوا لأنهم كانوا يخافونه ولأنهم كانوا يطيعونه ، ولأنهم ماجرؤوا قبل اليوم على ان يحولوا بينه وبين مايريد !

لقد قال هراقليوس « انها ساحرة وانها الى ذلك قد كفرت بالمسيح وآوت الى منزلها رجالا يصنعون السحر فاخلق بامرأة مثل هذه ان تصلب او تحرق على باب دارها في قريتها ، وكان يقول ذلك وعيناه تنظران الى الذين اشتمل عليهم مجلسه كأنه يريد ان يستوثق من وفائهم له وكأنه ينزع الى تهديد اولئك الذين قـــد تدركهم لها رقة ورحمة ، ثم قبض بيده على ذؤآبة سيفه وقال للبطريرك زكريـا انه لاينبغي لزعيم النصرانية ان يلين ، فلقد ازرت هذه المرأة بحقوق الديانة ، وبالغت في الطعن على الكنيسة وابتعثها حقدها على ان تفتح باب منزلها امام اللصوص والقتلة

ورأت بليتزا ان سكوتها عن الماضي قد يسرع بها الى القبر فاعتزمت ان تقول الحقيقة ولم يمنعها من البوح بهذه الحقيقة هذا الرجل الشرس الذي نشر ظله المقيت على المجلس ولما قالت للبطريرك زكريا انها ابنة البطريق تيوفان الذي عرف بوفائه للكنيسة كانت لهجتها صريحة وبريئة ، ثم قصت قصة ابيها البطل في اسلوب يستدر الدمع ، ويستثير الشجن ، وانثنت تتحدث عن ذلك الوحش الذي وطيء عفافها عن كثب من صور الصالحين والرسل ثم اومضت بيدها الى قيصر وقالت انه الرجل الذي دنس محارم الله ! . .

فراحت العيون تنظر اليها في حنو واشفاق وكان زكريا اشد الناس شعوراً بالألم واكثرهم ايمانا بحديث العمياء ، ولكنه ما كان ليستطيع امراً فلقد نظر قيصر

اليه شزرا فذل على مضض وقبع مودستوس في مجلسه فما ينبث بحرف ولا يومض ايماضة

ثم تلفت هراقليوس الى صاحب شرطته تيودور وقال له بلغة الواثق المطمئن « اصعد بهذه الساحرة شرفا من الارض والق بها الى النار فقد يطهر اللهب نفسها ويمسح جرائمها ! فصاحت بليترا : هراقليوس لقد حسبتك راشدا فوجدتك شاردا ولكنني سافزع في محنتي الى الله وحده فاشكوك اليه وساقول له ان هراقليوس على عظيم بلائه في عدو النصرانيه لم يتورع عن ان يسيء الى امرأة كان ابوها من اخاص الناس للمسيح !

ومرت بخواطر بليترا احاديث عن يتيم قريش وذكرت شيئا عن رسالته فطربت لهذا له وتمثلت خيله وقد اقبلت رعالا حتى جازت الشـــام وعرست في اطرافه وجنباته ثم مضت تقهقه فخيل الى الناس ان بها جنة فادركتهم الشفقة عليها ولكنها لم تحفل بما على وجوههم من سحب الغم بل لقـــد التفتت الى هراقليوس وقالت له :

سيسلبك ما تحت قدميك هذا الرجل النبيغ الذي ظهر في بلاد العرب وسترد الى بلادك رعش اليدين تنظر الى راياتك فلا تراها ترتفع وتبحث عن جندك فلا تبصر غير القطيع الممزق ؛ وتسأل عن احب الناس اليك فتطالعك الارض بجثثهم واشلائهم ، اي رجل انت ياهراقليوس ! لقد رنقت رايتك فوق الرءوس وترقرقت على الربا ، واوغل جندك في فسيح الغبراء ، وفي عرض الدأماء . ثم جاز الجند الآكام في رونق الضحى حتى استصفى باسمك معابد الوثنية ومناسك النصرانية فلما اوشكت الارض ان تغني نشيدك ، ردت اليك سلائقك واخلاقك فاذا البطل الذي اسمعته دنياه ذلك الرنيم العذب لايبالي في الليلة الليلاء ان يضرج فراشه بدم الكاعب العذراء ! بلى ياموﻻي سادعو عليك وسيظل طرفي رانيا اليك ، وسيطالعك خيالي من خلال الضريح . فيطوف بمائدة شرابك ويلحق بك الى مصلاك فيمنعك

صلاتك ، ثم يجوس حجرتك حتى اذا رحت غافيا رنق خيالي على فراشك ترنيق الطائر ، واهوى على نفسك بالحلم الرهيب العجيب!

رد الي ابنتي ! فانها طفلة لم تجترح ذنباً ، رد الى ابنتي ايها البطريرك زكريا فانه لايليق برجل يزعم خلافة المسيح في هذه الدنيا ان يصم اذنيه عن اماني امرأة توشك ان تموت !

ولم يعد في طوق بليتزا ان تمضي في خطابها ، فلقد التف بها الجند من كل ناحية ، واظلتها حرابهم ، واخذتها عيونهم ، وجعل قيصر الذي لم تبهره انتصاراته على الجيوش يترنح من الكبر كأن انتصاره على هذه المرأة أجل وأمثل من جميع ملاحمه ومعاركه ، وكان يقول لصاحب شرطته : « حذار ياتيودور ان تلين لدموعها فاني مارأيت في حياتي أبرع من هذه المرأة في انتزاع قلوب الناس !

وكان هراقليوس يتكلم وعيناه سادرتان راعشتان كأن به ذلك الجنون الذي تخيفه ليلة زحمته التصاوير الملونة في حضيض الحراب ، فجعل مودستوس ينظر الى هذه البروق التي تضيء في عينيه ويلحظ ماعلى وجهه من ذعر وألم حتى لقد خيل الى الرجل الصالح ان الليلة لم تدبر وان صياح هراقليوس لايبرح طاغياً على حواشيها الفاحمة

وكان البطريرك زكريا قد طأطأ رأسه الى الارض حتى لاتبين لعينيه صورة العمياء ، ولكن قلبه ظل يجيش باسم تيوفان ، وكاد هذا الاسم يخرج على شفتيه أكثر من مرة لخرص الا يهتف به خشية ان يسمعه هراقليوس فيتمادى في طغيانه

ولما فتحت ابواب القصر وصعدت بليتزا الى المحفة يحيط بها الحرس تراكض الناس من كل ناحية ، وطفقوا يصيحون حتى لقد استفاضت صيحاتهم في الافق وسمعها هراقليوس فطغت كبرياؤه واحفظه ان يتحداه هذا الشعب المغيظ المحنق

فاراد قواده على تفريق الجموع ، فانهال الرومان على الناس ضربا بالسياط ووطئتهم خيولهم فما عاد هؤلاء الذين رقوا لبليتزا يقدرون على المنافحة فولوا وجوههم شطر بيوتهم يلعنون قيصر في خفوت وهمس

ولما غابت المحفة في طريق بيت لحم قال سيد الكتائب للحارث بن ابي شمر الغساني

— سنتلاقى معا عند سلع ايها الملك ، فامض الى ذويك واستنفرهم وقل لهم ان قيصر قد اعتزم ان يدخل الى حصن فروة بن عمرو فيدمره على رأسه ، ثم يعود الى بيت المقدس ليصلي حيال قبر المسيح صلاة النصر ! الست مشاركي في منازعي ايها البطريرك !

ولم يفت زكريا ما اراده قيصر في ذهابه الى سلع على رأس المتنصرة فتاقت عيناه بالدمع ورق لفروة بن عمرو وملأ قلبه غما ويأسا ان قيصر اراد بهذه الغزوة ان يعزف الناس عن التفكير في مصير المرأة العانية ، وتلك هي شيم قيصر ، فقد كان يصطنع الغيرة على النصرانية ارضاء لا هوائه ومسايرة لميوله

وكان هراقليوس يعلم شيئا كثيرا عن ولع البطريرك بفروة فلم يفجر حزنه بل آثر ان يستميله اليه فقال له : وسيذهب مالك راهب سيناء مع الجيش المحارب حتى اذا نزلنا بارض فروة انطلق الراهب اليه ليثنيه عن منازعه ، ثم تلفت الى الملك الحارث وقال له : وسيصحبنا في هذه الرحلة تيودور واركاديوس وجميع الذين حاربوا كسرى تحت لواء قيصر

وبينما كان موكب هراقليوس يخترق شوارع المدينة المقدسة في طريقه الى القصر كان تيودور الطاغيه يقود عصابته الى عين كارم بغية احراق بليتزا على باب منزلها ارضاء للرجل الذي جمع الى اخلاقه اهواء عصره

الفصل الثالث والعشرون

شهيدة

جاس الجند خلال منزل بليتزا في عين كارم وباتوا ليلتهم في افنائه ، وفي صباح اليوم التالي توافى نساء القرية الى العين فوردن المـــاء جريا على عادتهن وطفقن يتحدثن عن بليتزا وقد أحزنهن أمرها فلحق بعض رجال تيودور بهن وارادوهن على الرجوع الى بيوتهن ومنعهن ان يذكرن المرأة العاثرة الحظ فاطعن ورحن يصلين في حجراتهن الى الله ويسألن شفيع القرية يوحنا المعمدان ان لايمنع العمياء حبه وعطفه وفي تلك الاثناء وصلت الى القرية كتيبة من فرسان الروم فعرست حيال سور الحديقة ووضع اربعة من رجالها على الارض تابوتين من الخشب ، وكان احد التابوتين مكشوفا فتولى حراسته اولئك الأربعة وربض تيودور الطاغية عن كثب من التابوت المغلق ، وذهب بعض الجند الى مصطبـــة الدار ، فنصبوا بين عموديها الساعور وسعروا النار فذكت وانفلت منهـــا صليـــل مخوف ، ثم تصاهلت خيول الفرسان على باب المنزل ، فتتـــابع الصليل والصهيل في الافق كما يتتـــابع الرعد في الليلة الجونا، وبعد قليل فتح فارس روماني باب المنزل فاذا بليتزا موثقة اليدين بين عشرة من المتنصرة فلما سمعت زمزمة النار انكشف ثغرها عن ابتسامة حلوة كأنهـــا ومضة برق واستبسلت للموت ولألأ الفرح والكبر على وجهها كأن هذا الصليل الراعب الذي غشي الافق نغمة حلوة لقيت بها مأنسا وكانت بليتزا هيفاء فرعاء فبسقت على الجند وطاولتهم حتى رآها الجميع وجعل تيودور ينظر اليها فروعه وهو الرجل الباسر الباسل ان بعينيها المطفأتين زهوا وكبرا وان بنظراتها السادرة دعةوسكونا وان بها الى هذا كله اطمئنان الشهيد الى انه شهيد !

وقد أثلج حشا المرأة الشمية انها ستموت في القرية التي احبتها ، وان رفاتها سيغيب في الأرض التي طافت بها خيالة يوحنا المعمدان ، هذا النبي الذي لاتزال صورته تتراءى للناس في السحابة الراعدة ، عند شعفة الجبل المضب المكفهر ، وفي السيل الهادر عند حدور الوادي ، فتمالت في مشيتهـــا حتى أرادها تيودور على الوقوف ؛ فوقفت عـــلى مسافة قريبة من ذلك الساعور المضطرم واستمعت الى صليل اللهب

وكان تيودور قد ابتعث سكان القرى المجاورة على المجيء الى عين كارم فتوافدوا اليهـــا من كل ناحية ليروا الى المرأة التي نكرت المسيح واصطنعت السحر وآوت الى بيتها اناساً ماتزال في ايمانهم بالنصرانية ريبة وسوء ظن ، وقد جعل هؤلاء ســـاعة تراءت لهم بليترا على وصيد الباب تحت حراسة الجند يصيحون : موتا للساحرة ! موتا للساحرة

وكانت صيحاتهم كهدير السيل فما حفلت بليترا بهذا الارعاد الذي اثاره بغض قيصر ، فقد كانت تعلم ان هراقليوس لابطيء عندمـــا يركد في نفسه شعورها النبيل في اجتراح المناكر فهو يثأب الناس ويثلم اعراضهم ولا يتعفف عن اهانة الشهداء في قبورهم ، واخذت النار تصيح وتولول ، فاستقبلت بليترا صياح النار بالصلاة وسألت احد الرومان ان يدلها على راهب القرية وان يدني من شفتيها خشبة الصليب ، فقيل لها ان البطريرك لم يشأ لها موت الفتيات المؤمنات اولئك اللواتي كان من حقهن ان يذهبن من هذا العالم في يوم حافل بشعائر التقى والصفح والبركة ، اما كانت تصنع السحر وتسيغه وتبعث الناس على استمرائه ، اذن فما ينبغي لها ان تموت ميتة الزاهدات القانتات وما ينبغي لكاهن ان يصلي عليها ولا للصليب ان يظل نعشها

ومع هذا كله لم تحفل بليترا بما قيل لها ولم تجد ثقلة في جسدهـــا ووهناً في عظامها فتعرت الامر الكريه وراحت تستعيض عن صلاة الكاهن بصلاة قديمة

قبستها من امها فاجرتها على شفتيها ، ومدت ذراعيها فاذا هما تؤلفان معجسدهـا المديد صليبا فيه من احساس التقى والورع ماليس في الصليب الخشبي

ثم نادت تيودور وسألته عن ابنتها فلم يجب ، فاستأنفت السؤال في ضراعة وبث وقد تقاصرت نفسها للمرة الاولى ، واستثخن منها الجهد والحزن ، ولما أرادها الجند على جفاء الزاوية التي وقفت فيها تدفقت في سيرها كأنها تود فراق هذا العالم الذي لاتحبه حتى بلغ بها الجند ناحية التابوت المكشوف ، فقال لها تيودور بلغته المرهوبة « لقد سألت عن ابنتك ، قالت نعم ، فاين هي ، فقال لها « انها غير بعيدة منك ، فاذا ركعت والقيت يدك الى هذا السرير بدت لك نائمة حالمة !

ولم يكن تيودور كاذبا ، فقد كانت مارية الصغيرة نائمة في ذلك التابوت الذي ماثل السرير وكانت عيناها غارقتين في لذاذة حلم ابدي ، فجثت بليترا ومدت يدها الراعشة الى التابوت وجست اطرافه وجنباته حتى سقطت يدها على وجه الطفلة الندي فدغدغته في رقة ورأفة وانثنت هامسة « انها نائمة كما قلت لي ياسيدي ، ولـكن أي سرير هذا الذي تحدثت عنه ، وما بالني اراه وطيئاً خفيضاً في غير قوائم

واكبت على التابوت وبرقت عينيها اترى الى وجه الطفلة الغالية وهي تقول بلسانها الندي الرقيق انت اذن لم تشعري بحر دموعي ولم تحسي شجوني ولا حرج في ذلك ولا اثم ، فان للطفولة قلبا لايشعر ولا يعي ، اواه ما اسعدني ، ان اراك وقد نفضت عن عينيك احلامها البريئة تنظرين الي وقد خرجت في صباح هذا اليوم الى حفلة عرسي ، يلتف بي الجند ويحف بموكبي القادة ، وتسطع الانوار حولي وينتشر عطر الخزامى في حديقتي ، وتضحك النباتات العارشة على طرف حجرتي ، انها لا تجيب سائلا يا تيودور ، واني لا حس في جسمها اثراً للصقيع ،كانما قد اخرس هذه القيثارة عاصف لا استطيع له ذكراً ، قل لي اكانت ابنتي مريضة ، حتى

دفع بها مرضها الثاقل الى مثل هذا الصمت القاتل !

فقال تيودور « انها مائتة يا سيدتي ! فسقطت على التابوت غاشية ذاهلة واردف تيودور صائحا لقد اصطنعت السحر وآمنت بالشياطين فاورثها الله هذا الذي نرى .

ولما استفاقت من غشيتها رفعت عينها الى السماء وصاحت « الا تبدل هذه الارض يا رباه فلقد طغا الذين عليها طغياناً اليما » ثم رعشت نظراتها في الافق فما تهوي بها الى الارض كأن خيالا تراءى لها في السحب فراحت تنظر اليه وفي تلك الفينة اومض تيودور الى الساعور ، فتهافت الجند على العمياء والقوا بها الى جحيمه فتلقتها النار الحاصدة بين ذراعيها والناس ينظرون الى فصول هـذه المأساة فلا تلين قلوبهـــم .

ولما اظلت اسداف الليل قرية عين كارم ووضع الجند رفات بليتزا في التابوت وغيبوه في ارض الخميلة بجوار تابوت مارية ، آض تيودور الرهيب الى بيت المقدس ومعه رجال حربه واحراسه ، فنفس الله بذهابه كرب القرية فانسل ناسها في صباح اليوم الثاني الى منزل بليتزا وطافوا به ورو‌عهم ان يروا الى ذلك المقعد الحجري خالياً وقد الفت العمياء ان تجلس اليه في الصباح الباكر او في العشية الرخية ، واشجاهم ان يطوي ثرى الخميلة طائرين جميلين كان انشادهما الساحر نشيد القرية جميعاً ولقدصلى القرويون في ذلك البيت المتواضع الذي امضى يوحنا المعمدان طفولته في جنته ولما قفلوا الى بيوتهم عند المساء فتحوا اذانهم على صليل الاجراس في بيعة عـين كارم ، فخيل اليهم ان قسيس القرية قد امـــاله حزنه على العمياء الى اقامة الصلاة ففضل ان يدعو اهل القرية على صليل الجرس الى مشاركته في صلاته ، فارتحلوا الى البيعة فاذا القسيس على وصيد الباب وقد راح ينظر الى الطريق فنهدوا اليه وقال قائل « انك لتحسن صنعاً في ارادتك الناس على تكريم المرأة القتيل »

قال لهم باكيا ويده ممدودة الى الطرق ، اسمعوا فارهفوا اذانهم فاذا اجراس البيع والكـنائس تخفق في بيت لحم وفي ايليـــاء واذا الصليل رقيق وشجي فوجموا

ومضت عيونهم تنظر الى قسيس القرية وهم لايقدرون على سؤاله فقال لهم « مات البطريرك زكريا في صباح هذا اليوم فنادى قيصر بالصالح مودستوس بطريركا على بيت المقدس .

وكان فلاحو عين كارم يعرفون اي رجل هذا الذي قضى نحبه ، فنكسوا رؤوسهم وراحوا جثيا عند باب المعبد !

تتالت اسابيع على هذا الحادث التاريخي حتى اذا كان اليوم العاشر من شهر آب سنة تسع وعشرين وستمائة بعث هراقليوس قيصر الرومان بكتب الى متنصرة الشام يستنفرهم فيها الى قتال فروة بن عمرو وفي اليوم نفسه ولى هراقليتس يوحنا بن روبه السوري امرايلة ، واستعمل اكيدر الكندي امير دومة الجندل على جميع البلاد الممتدة من واحة تبوك الى معان .



الفصل الرابع والعشرون

حج اليتيم

آب رسول الله من خيبر، بعد ظفره باليهودية الى مدينة يثرب دار هجرته ومثوى امنه ودعته، فتمكث فيها بضع شهور يبعث فيما بين ذلك اصحابه وحواريه الى القبائل (١) وقصارى همه بعد جلاء اليهودية عن آطامها وحصونها في فدك وخيبر ان يفئ الناس الى رسالته ويلينوا لتعاليمه وما زال كذلك شأنه حتى توافى اليوم الثالث من شهر آذار سنة تسع وعشرين وستمائة، فازمع رسول الله مضيا الى مكة مع رهط من اصحابه، ونذر ليحجن البيت ويطوفن حوله، ثم يمضي بعد ذلك الى مآلف الطفولة ومراتع الحداثة فيتعرف بيت ابويه، ويغشى منزل خديجة زوجه، وينزل في الاماكن التي استمعت جرسه وهو طفل يحبو، لايمنعه امانيه هذه امعان قريش في مجافاته ومعاداته ولا يردهعن سبيله الحاف صناديدها في منافسته ومنافرته، وقد كان صلح الحديبية مع قريش يسوغ حجه ويبرره فاحب النبي اليتيم ان يفرغ على هذا الحج بهاء انتصاراته على اليهودية في خيبر، فجمع اليه اصحابه ولحق به جميع الذين شهدوا صلح الحديبية. وآوى اليهم نفر من المؤمنين حتى كثروا كثرة بالغة، وحتى اصطحبوا اسلحتهم وخيولهم وثمانين جملا ولم يتخلف من اصحاب رسول الله الا رجال استشهدوا او ماتوا بين عمرة الحديبية وعمرة القضاء. وقال قائل شهد هذا الموكب الرائع: ماكنا زاد وليس في مكـــة من يطعمنا فامر الرسول ان يتباروا في البذل والانفاق وان يتصدقوا لئلا يهلكوا (٢) فقالوا يارسول الله انتصدق واحدنا لايجد شيئاً فقال، تصدقوا ولو بشق تمر، وخرج اليتيم ومعه الفان غير النساء والصبيان واستخلف على المدينة اباذر

---

(١) و (٢) الطبري

الغفاري ، وكانت قريش قد علمت بانتصاره على اليهودية في معاقلها الحصينة ومنازلها المنيعة فهالها ان يرجع الى مكــة رجعة الظافر وقد منع منها في صلح الحديبية ، وحيل بينه وبين الطواف حول البيت ، فما ثناه عن عزيمته ان بقريش خوفا فمضى لشأنه وقدم الخيل امامه ، وعليها محمد بن مسلمة الانصاري ، وقدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد الانصاري ، ورفع صوته ليسمعه الناس جميعا وقال لبيك لبيك ، فلبى اصحابه معه ، ولصق بالمكان لا يبدأ لا يريم ، فلما سمع به اهل مكة غشيتهم ذهلة البهة من امره وراحوا يتساءلون ، ماذا عسى ان يحدث ، وفيم جاء محمد الى مكة ، وقريش لم تحدث حدثا في صلح الحديبية . ولم تلبث قريش ان نذرت الا تعرض له في طريقه ، وعظاؤها يقولون ، انا على كتابنا فغيم يغزونا محمد واصحابه ؟

وكان موكب الرسول قد اوفى على مكان يقال له بطن يأجج على ثمانية اميال من مكة فلاحت له بواسق النخيل في الطرق والفجاج ، ورأى الابل سادرة هائمة ، وقد عرس بعضها حيال حائر لقريش فأمالته هذه الصور البارعة وفجرت في صدره منابع الرحمة والحب ففاضت عيناه ثم تتابعت هذه الصور الحسان على جوانحه وفي خواطره وتتالت على عينيه وصدره حتى غمرت مواضع شعوره وحسه فذكر نزوله قبل عامين بهذه الارض يريد ان يتعرف مراتع الطفولة ويتقصى اخبارها فمنعته قريش من صبابته في تلك السنة فتولى عن مكة متشاجياً مترفقاً وفي صدره بقية من عطر تلك الام الحادبة التي تولت عنه قبل ان يتعرف صورتها وقبل ان يتنشق عرفها ، وقد كان من امتع امانيه في حج هذا العام ان ينزل في موضع مهده ، فيقف على وصيد الباب او يجوس بيت ابويه فيتجسس الجدر والحياط ويمر بحجرته ويرى اليها اذا كانت لاتزال ندية باعراف طفولته ويفتح عينيه ليرى في جوانب هذه الحجرة التي سمعت جرسه أثراً من حنان الام العامدة ، وانها لرجعة حافزة ؟ اذ يفيء اليتيم المغترب بعد سنوات امضاها مروعا جافلا

الى منازل عبد المطلب واذ يبصر في حدائق النخيل خيالة الماضي الذي لم يتعرفه واذ يتلاقى في روحه صوت ابيه ' وصوت امه ' ويذكر مجلسه عند جده ' وقدكان يدخل الى هذا المجلس في ربيعه السابع فيقلب عينيه في الفناء الواسع ليرى مكانه فيه ' ثم يروح طافراً الى ركبتي الشيخ فيتلقاه عبد المطلب في ذراعيه ' ويضمه الى صدره ويقول للناس الذين اخذوا مقاعدهم بجواره ان ابني هذا ليملك ، وما يملك محمد ملكا ولا يفتح فتحا وانما هذه النبوة التي خلصت اليه وهو في مهده قد واثبته طفلا فارته مكان النبي السري فنزل فيه . واستقر في نواحيه .

ولم ينس وقد ضحكت لعودته منازل اسرته واصبح على مسافة ثمانية اميال من الوطن الذي احبه صلة هذه الاماكن القديمة بارض الشام فقد كان يافعا وكان يخرج الى الشام وهي جنة قلبه وملتقى حسه الباكر فيمضي في تجارته ثم يفيء كاسبا فلا يهمه بعد ذلك الا ان يزور مآلف الطفولة والا ان يجتمع الى شيوخ قومه في جناح ذلك العم الرقيق الشفيق فيرف به صناديد دار الندوة ويلذهم ان باحاديثه سحراً . وان بصدره عطراً وان به وفاء وصدقا وان في خلقه كفاء وغناء وما زال كذلك شأنه في عمره الطري الجني . يفيء الى الشام في صحبة عمه فتتلقاه خمائلها الزواهر ويرجع الى مــكة فتبسم له جبالها البواذخ ثم يخــرج الى الشــام كرة اخرى في تجارة لخديجة فيجد ما كان يجده في السياحة الاولى ويرجع الى وطنه فيرف اليه ويشتاق صورته حتى تلاقت في صــدره الجائش انهار دمشق وظلالهــا ، الى جانب جبال الوطن العارية .

انه غير بعيد من سكنه و منزله وما تستطيع هذه الاميال القليلة التي تفصل بينه وبين مهده ان تمنعه المضي في طوافه حتى يأتي منازل اهله ، ويترسم ديار صحبه وما بقريش قوة تغالبه وتناهضه , فلقدكان يتيما فرعاه الله ونماه وكــان مروعا ، فامنه وحباه وكــان فقيراً فايسره واغناه وكــان مهاجراً فاحتضنه واواه ولما جاز في طوافه ارض ذي الحليفة ابصره اناس كـانوا يردون الماء من حائر رقيق

فهمس هامس فهم هذا هو محمد ؛ هذا هو يتيم عبد المطلب .

واخذته انظارهم ؛ وهو دائب في تفــكيره وسبحه فاستهواهم على لواذه بالصمت بريق في عينيه وبريق في جبينه ؛ وجعل هؤلاء الذين رأوه طفلا ويافعاً وشابا ، والذين عرفوه راعيا ثم عرفوه بعد ذلك خاتم الانبياء يفاضلون بين ماضيه الذاهب . وحاضره الخالب . حتى خرجوا من هذه المفاضلة مشدوهين حائرين ، وحتى انطلقوا سادرين هامسين فقد اذهلهم وروعهم ان في عيني هذا النبي السري ذلك الفتون الذي رأوه في عيني اليتيم الصبي ، ولا يزال وجهه يفيض جمالا ورقة ، وقد كان في الطفولة الذاهبة يفيض جمالا ورقة ، ولا تزال يداه الناعمتان البضتان ناعمتين بضتين ؛ ولا يبرح صوته يحسر عن اللحن البارع والجرس الماتع .

على ان كثيرين من هؤلاء لم يصدقوا انهم يرون في صورة النبي المجيد صورة الصبي الوليد فلقد كان اليتيم الذي عرفوه في طفولته يضرب في الارض ؛ في غير حاشية ولا موكب وكان يقضي لياليه في البادية الغطشاء تحت رقيع السماء حتى اذا عاد الى منزله استبدل اطاره على ضياء الكواكب لا على هذه الشموع التي تضيء منازل العظماء والكبراء ، على حين لهذا النبي الذي اخرجه قومه من وطنه مروعا جافلا يقذفه الناس بالحجارة حتى تسيل دماؤه على لباسه موكب رائع فخم يمشي على حافتيه السلاح والصلاح .

وقد كاد هؤلاء الذين رأوا زخرف موكبه ينكرونه ويجحدونه لولا هــذه الحماسة التي طغت على نفوس اصحابه ، في هذا الصباح الندي الناعم ، ولولا امعانهم في الهتاف باسمه ، ولولا انهم ارادوا الناس على ان يفتحوا الطريق امام النبي يتيم عبد المطلب وربيب ابي طالب

وقد صاحت امرأة من قريش كانت تعرف اباه :

— حقا ان عينيك عيناه ؛ وانك كأبيك صورة واحساساً ونغمة صوت ! ...

ثم جثأت عليه وراحت تهمس ، لعلك قد اصبت ملك كسرى وقيصر !

ولكنها النبوة ايتها المرأة ، ولكنه رسول الله .

لقد كان في طفولته رفيقاً شفيقاً فما منعه كبره ان يكون ذلك الرفيق الشفيق ، فلماخرق سمعه صوت المرأة رق وابتسم ، ثم نظر الى الناس وقد تجاثوا على الركب ، ولصقوا بالارض ، وراحت عيونهم تسترق وميض هذه الحراب التي لوح بها فرسانه ورجاله وفي هؤلاء جميعا ابطال فدك وخيبر ووادي القرى فعطف عليهم وتضاحك حتى لقد اوشك ان يقول لهم : ما انا من ظننتم ولست ذلك الرجل الذي يساوق قيصر في ترفه وبذخه اويساير كسرى في كبره وعنفوانه وانما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل خبزها جافاً.

وتأنس هذه الجموع التي تتابعت على الحائر الى ضحكته فتصدف عن طريقه ايثاراً واكباراً . ثم يمضي في طوافه حتى اذا ابتدرته اطراف مكة استوقفه منزل منفرد على ربوة عالية واخذته طريق تدفع اليه ، واستثارت شجونه نخلة منعزلة تهدلت اغصانها على جوانب الطريق فعرف من هذه الشجرة القديمة بيت ابيه وكان مثواه الوادع في طفولته فاغبر يوم من ايام هذه الطفولة الناعمة الهانئة الا علق به أثر من مرح نفسه والا حمل معه شيئاً كثيراً من ضحكه وضحك اطفال الحي الذين شاركوه في مناعم الحداثه ، ومزجوا اصواتهم بصوته ، ورنوا اليه وهو يطير طائراً من شرفة المنزل فيمضي الطير في طيرانه حتى يجنح وحتى يستقر على سرحة الدار بجوار الحـــائر .

وتميد نفسه فما يستطيع اجتواء هذه الاماكن ، ثم تروح عيناه الساجيتان في كل ناحية كانما هما تبحثان عن شيء يحبه ويأنس اليه حتى اذا رفت في عينيه ظلال نخلة بجوار ذلك الحائر ارتد دميعا واذكرته النخلة عزاءه في ظلها والناس في ذلك العهد يمرون به في بكورهم والشمس تظله وطيور السماء تغنيه .

ويحوم الطير حوله ويصفق فيلين لحومانه وتصفيقه ثم يساوره الجزع لانه امضى بعض فصول حياته بعيدا عن هذه المراتع الهانئة .

لقد ازمع بعد لياذه بيثرب واطمئنانه الى عيشته بجوار الذين نصروه الا يرجع الى الارض الاولى ولـكن هذه الارض التي كره ان يفيء اليها في ايامه المواضي كانت تفتح له ذراعيها من بعيد فينظر الى هاتين الذراعين المفتوحتين فيرى عليهما خطوط الطفولة والوانها ، ثم يعود الى تأملاته حتى اذا خرج منها ارتد الى نفسه فاذا هي تنظر في امد واحد الى مـكة دار طفولته والى مـكة دار نبوته وليس يستطيع وقد فتح امامه كتاب الطفولة وكتاب النبوة الا ان يقرأ فيهما والا ان يشعر بشعور واحد ، حيال البيت الذي وسع مهده ، وحيال الغار الذي استمع لصوته ثم حيال الكعبة التي لذت خفق قدميه .

قد تـكون ذكريات حياته في يثرب احفل بالدعة من ذكريات حياته في مكة ، ولـكن هذه الحياة التي انتصرت على الالم والنفي والخوف والتي حاكت الزهرة في لونها العجيب ما كان عليها عطر الازاهر ، فلقد تـكثر رغبات الحياة في المنفى وتستفيض احلامها ولـكن الامل لن يخالطها الا اذا روتها عيون تجري في بطحاء الوطن ! ولقد اعطت مدينة يثرب محمداً اجمل ازاهرها ، ولـكن مكة احتفظت بالاريج ، فينبغي للنبي الذي تعرف الى الوان هذه الازاهر ، ان يتعرف الى عطورها

وما كان يهمه ان يجد في مكة سماءها المصحية ، ولا شمسها الدافئة وليس يحفزه اليها هذا الشعر المهذب الذي علقه الشعراء على ابواب الـكعبة ، وانما كان يهمه ان يجد فيها اسرته وقومه فلقد كان يحب قريشا حتى على امعانها في ايذائه واسرافها في ارهاقه ، وكان يحفزه اليها ان بغار حراء اثراً من صوت السماء وان من احب امانيه ان يخترق هذا الصوت قلب قريش فيحمل هذا القلب في غده المقبل الى دمشق والى الحيرة ، فيراه قيصر ويراه كسرى .

ولما تولى عن ارض ذي الحليفه ؛ واوشكت مكة ان تطالعه تتابعت خيالاتها في عينيه وراحت هذه الاماكن التي بين الـكعبة وبيت ابراهيم ودار الندوة والغار تترقرق في نفسه فامعن في سيره حتى عرس حيال بيت عبد المطلب ورأى الحائر الذي

شربت منه ابل شيخ قريش يوم وطيء مكة صاحب الفيل وذلك يوم ماتزال ذكرا عالقة بنفسه وحسه وما ينسى محمد يوما ولد فيه ، وهزم الله بذكراه اصحاب الفيل وعصم بيته وحرمه من رجس الاجنبي

وكانت ابل قريش قد وردت الماء وجعلت نسوة من مكة يملأن جرارهن وقد هممن بالرجوع الى الحي الذي خرجن منه ، فلما طـــلع عليهن ورأينه ينظر الى بيت عبد المطلب في لهفة وحب نظرن اليه فعرفنه ، فصحن هذا هو محمد هذا هو الامين لم تمنعه النبوة ان يذكر مآلف طفولته فاستحث اليها خطاه ! . .

وبصرت به عجوز بالية تمشي على الارض مشية الثاقل فحدقت فيه وراحت تصيح ويحكن الا تعرفن اي رجل هذا . لقد بدأ حياته راعيا في البادية تحت لذع الهاجرة وجاء يتمم حياته نبيا ورسولا ! وتجهش المرأة باكية حتى تحاذيه وترى الى وجهه والى عينيه فلا تلبث ان تقول للواتي اجتمعن على الحائر : ياليتني كنت مرضعته اذن لظفرت منه بالبركة ولدعا لي احر دعاء

جلس النبي على مقعد حجري بجوار الحائر وقد كان لا يفارقه في طفولته وكان الناس في ذلك العهد البعيد يمرون به فيرونه قد سبح سبحا شديدا ويرون على وجهه شيئا كثيرا من السحب فلا يسأله احد عن سبحه ويمضي الجميع وعينا اليتيم تنظران الى عالم لا تعرفه قريش ولا ترى اليه ولما اطمأن الى قعدته نازعته نفسه الى الماضي فتعرف الدار وسرح طرفه في الحياط والجدر واستعرض المصاطب والشرفات والابل والناس فلقي في هذه الاشياء جميعا ايامه الفائتة ، وما يقصد من طوافه بهذه الاماكن الا ان يعرف اشياء قديمة تدله على طفولته

هنا يجتمع الماضي فما عساه ان يكون هذا الماضي الذي اخذ يرف في تصوراته وخواطره ، انه ما كان ليعدو هذا النخيل وهذا الحائر وهذه المصاطب التي تطل على الكعبة وعلى دار الندوة ، ثم هذه الطريق التي تدفع الى غار حراء !

ويفتح رئتيه كانما قد لذه ان يتنشق اعراف حداثته وقد سكنت بواسق النخيل

ورفرفت على مسيل الماء ، وترقرقت على المصاطب وحامت على الشرفات والحياط ثم تطير أمامه كل هذه الذكر البارعة وتطفر من ورق النخيل كأنها طيور استجاشها الصائد فيأنس اليها ويعلق بها وبهمه الا تفلت من عينيه ومن جوارحه

هنا كانت قعدته في عشيات الصيف الرخية وهنا باح للسماء بما اشتملت عليه نفسه عند منقلبه من غار حراء ، ثم يضطرب ويميد اذ شعفه حب الارض الاولى ويشعر بالاشيـــاء المنسية كانما هي قـــد زرفت اليه وترامت على قدميه فيحيها حباجا وتهزه الى ماضيه وتقربه من حاضره فيجفو المقعد الحجري ويسرع الى رفاقه ويسألهم ان يستأنفوا طوافهم حتى يبلغوا دار الندوة

وتحدثت قريش بينها ان محمداً واصحابه في عسر وجهد وحاجة (١) فاصطفوا عند دار الندوة لينظروا اليه والى اصحابه معه فلم يثنه عن غايته هذا الذي تقولوه وزعموه بل ظل ماضيا في طوافه حتى اوشك ان يدخل المسجد وحتى اضطبع بردائه واخرج عضده اليمنى ثم رفع صوته لتسمعه قريش جميعا : رحم الله امرأ اراهم اليوم من نفسه قوة ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول اصحابه معه حتى اذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى الى الحجر الاسود وطاف ثلاثا وطاف اصحابه معه ورأت قريش وقد سمعت نداءه ان النبوة لاتعرف عسراً ولا جهداً فحادت عن طريقه وعاذت بالجبال فذلك احب اليها من ان ترى اليه رافها راغداً .

في صباح اليوم التالي ، فزع محمد رسول الله الى المقابر . فعرس في هـــذه الدنيا الدارسة الزائلة وركدت الشمس فوق رأسه ، كأنها لاتريد براحه ، ثم رأرأ بعينيه الى قبور الذين قاتلوا معه في بدر . وقتـــلوا في احد فاسمعهم تحيته ، وما تفوت تحيته سكان هذه الدمن البلاقع ؛ فلقد كان هؤلاء الشهداء الذين غمرتهم رموسهم احياء عند ربهم فلذوا جرسه واستعذبوا بيانه ولمسوا في حلاوة صوته ، حلاوة انتصاراته في خيبر وفدك وتيماء . ولقد وقف رسول الله مثل وقفته هذه

---

(١) الطبري

بمقابر قريش غداة ملحمة بدر ؛ فتحدث الى الذين احتوتهم الارض من اعدائه وناداهم جميعا باسمائهم فقيل له او يسمع الموتى يارسول الله فاجاب بلى ، وفي هذا اليوم العظيم بعد عفاء السنين والايام ، يقف رسول الله على قبور الاحبة ليقول لهم ان هذه الدنيا التي ندت عنه واجتوته ماعادت تضيق بنبوته ذرعا فقد استرسلت الى هديه وقرآنه وفاحت امام كتائبه وستفيح كثيرا حتى تصير ارثه وارث اصحابه

اراد رسول الله من زيارته المقـــابر ، ان يقول للاحياء ان جذور وطنهم ما كانت ابدا في دنياهم التي تسبح في بريق الشمس ، وانما جذور هذا الوطن في هذه القبور الروامس وذلك لأن هؤلاء الموتى قد كتبوا قصة حياة الوطن وخلدوا ملاحمه ومظاهره ، فرب حجرة نائية في هذا العدم الموحش كانت اندى بيانا من قصر عامر بالاضواء ، ورب عشبة من هذه الاعشاب الحقيرة التي يخصبها مطر السماء على مضاجع الموتى كانت قصة كاملة لجهاد الوطن في سبيل حريته

في هذا الوادي المخيف ، وادي الموت تجد النفوس الكريمة والأهواء الفاضلة معاذها البريء الوادع بعد طواف شجي ناصب فكيف قلب الانسان عينيه في هذه الدمنة الساكنة ، الفى عند حجارتها الكابية بريق حياة لايظفر بمثله في حياة الناس وذلك لان هؤلاء الذين ماتوا لم يتركوا دنياهم بغير ضياء . وان في قبر حمزة ابن عبد المطلب من الضيــــاء ساليس في قصور قريش الغارقة في سدفة العبودية والوثنية

لما فرغ الرسول من زيارته ، آوى الى منزل عبد المطلب فاستراح فيه ليله ، وفي صباح اليوم الثالث وقر في ذهنه ان يدعو قريشا الى وليمة ، فلعله يتحدث الى سراة قومه عن هذه الحياة الجافة التي يمضونها في الصحراء . او لعله يقص عليهم ذكرى مصائب جزيرة العرب فتفتح عيونهم على المآسي الجاهمة ويرون ان هذه الوثنية خالية من العطر وان في رسالته عطراً يرقق نفوسهم ويلطفها وما يريد رسول الله من احاديثه ان يفتح في قريتهم فتحا يطمع فيه وانما يريد ان يقول لهم

ان حياتهم في ظل هذه الوثنية ليست الا اجراماً وذلا ، وعند الاجرام والذل تنتهي الرجولة والمروءة

كيف كانت جزيرة العرب قبل مبعث محمد

حسب القرشي النافر من دعوة اليتيم ان يرقى اعلى ذرى مكة فتبين له الجبال والأودية والصحارى والطرق الواعرة فاذا تأمل في خطوطها والوانها شخصت اليه من بعيد اشباح مازالت تقطر دما ورنت اليه عيون نابية في محاجرها واخذته عند حدور الوادي رءوس فصلتها عن اجسادها سيوف لم يستلها اصحابهـــا في سبيل الحرية وانما قد سلت هذه السيوف زلفى للاهواء ومسايرة للنزعات فغمس الابن يده في دم ابيه ، ووطيء الأخ جثة اخيه ،حتى حفلت الأرض والجبـــال والاودية والصحارى بالرؤى المفزعة وحتى رجفت اصوات القتلى والصرعى في الحزون والنجود ، حدث هذا كله في جزيرة العرب عند دار الندوة في مكة وفي سهول نجد وفي صنعاء عندجدة البحر ، على حين قدبني الرومان والفرس صروح الدولة العامرة في دمشق والحيرة !

وقد اراد اليتيم في ازماعه دعوة قريش الى مائدته ان يقول لها ان في رسالتـــه ما يكفل ايناع الحب والموادعة في الاسرة العربية فتمضي عـــلى ضوء هذه الرسالة الى سهول الشام وسهول العراق ، ويرث هذا الشعب قصور الاكاسرة والقياصرة فـــلا تلاحقه هذه الرؤى المفزعة التي تطيف بنفسه في ارض العرب القديمة ولكن قريشا قد اصمت اذنيها عن سماع هذه الدعوة الكريمة لأمر يريده زعماؤها وصناديدها ولا يريده الله فلقد اتى الرسول وهو في دار جده عبدالمطلب قرشي اسمه حويطب بن العزى في نفر من قومه وكانت قريش قد وكلته باخراجه من مكة فقالوا له انه قد انقضى اجلك فاخرج عنا ، فقـــال لهم ماعليكم لو تركتموني فاعرست بين اظهركم فصنعنا لكم طعاما فحضرتموه فقالوا له لاحاجة لنا

في طعامك فاخرج عنا (١)

وكان محمد اليتيم اوفى الناس عهداً وابرهم بوطن ولد على صخوره فسكن ولم يغضب ولما خرج من مكة وبلغ بعض الطريق الى يثرب زحم موكبه رجال فروة بن عمرو الجذامي امير سيناء ومعان وعامل قيصر على فلسطين الثالثة ومعهم هدايا فروة اليه يخبروه باسلامه ففرح ، وانساه هذا الفرح الذي طغـا على نفسه حزناً علق بها ساعة اريد على الخروج من وطنه ، ودعا لفروة ولمن معـه أحر دعاء

وما زال ماضياً في سفره حتى طلعت عليه يثرب فجاس خلالها وهي دار امنه ودعته ونزل في بيت النابغة الذبياني الشاعر على اخواله بني عدي بن النجار وكان معاذه وملاذه في طفولته

وفي ذات مساء توافى الى زيارته بعض العائدين من الشام ، فقصوا عليه قصة مصرع الرسول الذي بعث به الى ملك الشـام وقتله شرحبيل بن عمرو الغساني ، فتشاجى ورق ، واكـبر ان يقتل الحـارث بن عمير الاسدي ، وقد بعثه ليقول كلمته في الصحارى وفي المدن ليسمعها الاعراب ويعيها الملوك . ثم امضى يتيم عبدالمطلب شهوراً في يـثرب وفي ذات يوم استراح الى الوفاء بنذره ، فدعا اولـئك الذين اوذوا في سبيله وقاسوا كثيرا زلفى لرسالته وهـاجروا الى الحبشة ، لاينسون في الوطن الجديد الذي ارتحلوا اليه وطنهم القديم ، ثم عادوا الى يثرب ؛ ليرتشفوا من رحيقه السلسل فقص عليهم قصة رسوله ، واراداهم على المضي الى الشـام واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وهو احب الناس اليه ، وقال ان اصيب زيد بن حارثة ، فجعفر بن ابي طالب على الناس ، فان اصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ، فتجهز جيش من الفتية ، ثم تهيأوا وهم ثلاثة آلاف رجل ، وحضر الرسول خروجهم عند ثنية الوداع ثم مضوا حتى نزلوا معان من ارض

(١) الطبري

الشـــام وكان منصرفهم من المدينة في شهر جمادي الاولى ـ في اليوم الاول من شهر ايلول سنة تسع وعشرين وستمائة فبلغ النـــاس ان هراقليوس قد نزل في ارض فلسطين في ثلاثمائة الف من الرومان وانضمت اليه المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي في مائة الف عليهم رجل من بلي يقال له مالك بن رافلة فلما بلغ ذلك رجال زيد اقاموا على معان ليلتين ينظرون في امرهم وقالوا نـــكتب لرسول الله ونخبره بعدد العدو فاما ان يمدنا برجال واما ان يأمرنا بامره فنمضي له فشجع الناس عبد الله بن رواحـــة وقال ياقوم والله ان الذي تكرهون للذي خرجتم تطالبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ،مانقاتلهم الا بهذا الدين الذي اكرمنا الله به فانطلقوا فانها هي احدى الحسنيين اما ظهور واما شهادة فقال الناس قد والله صدق بن رواحة ، فمضى الناس وبلغ فروة بن عمرو الجذامي نزولهم في اماكن قريبة من سلع فوافاهم اليها بجموعه وقال لهم انه لن يؤوب الى جباله حتى ينصرهم على قيصر ، وحتى يطمئن الى امر رسالة اليتيم في الشام

كان لنزول الرسول في مكة وطوافه بالكعبة حيال مساكن ابائه وانتصاراته في فدك وخيبر ابـــلغ الاثر في جزيرة العرب ، فقد رأى النـــاس من امر هذا اليتيم شيئاً عجبا ، رأوه مضطهدا ومروعا ورأوه عند خروجه لاول مرة من مكة هائما على وجهه لا يدري اين يستقر ، ثم اذا هو يطل عليهم من جديد ويدخل الى مكة في حاشـــية من اولئك الذين تذوقوا جـــنى النصر في ارض اليهودية وفي معاقلهـــا الحصينة ، ثم رأوا الى دياناته المروعة الجـــافلة تهدأ وتسكن بجوار الدمى والتماثيل التي مرنت قريش على عبادتها فادركوا اي رجل هذا الذي جعل من يتمه عالما يفيء اليه العرب جميعا ، فجاء ثلاثة من كبارهم الى المدينة فاسلموا احدهم عثمان بن طلحة من بني عبد الدار بن قصي ، وخالد بن الوليد المخزومي احد الذين ارادوا منعه من دخول مكة في عام الحديبية ثم عمرو بن العاص بن وائل

السهمي ، فكان اسلام هؤلاء الثلاثة موضع فخره وعنوان قوته ، ومثار عزيمته · فازمع مضيا في مقاتلة الرومان ، وبعث عمرو بن العاص الى ارض بلي وعذره يستنفر الناس الى الشام ، وذلك ان ام العاص بن وائل كانت امرأة شامية من بلي ، وقد اراد رسول الله بذلك ان يجتذب اهل الشام ، فتوجه عمرو الى موضع يقال له السلاسل من ارض قضاعة ومعه اهل الشرف من المهاجرين والانصار ثم لم يلبث انبعث الى رسول الله يستمده ، فبعث اليه ابا عبيده ابن الجراح في المهاجرين الاولين فيهم ابو بكر وعمر وقال لابي عبيدة حين وجهه لاتختلفا . فخرج ابو عبيدة حتى اذا قدم عليه قال له عمرو بن العاص انما جئت مدداً لي . فقال له ابو عبيدة يا عمرو ان رسول الله قد قال لاتختلفا وانت ان عصيتني اطعتك ، قال فانا امير عليك وانما انت مدد لي ، قال فدونك ، فصلى عمرو بالناس (١)

وهكذا اثاب الله هذا اليتيم ففتح امامه طريق الشام ، فمضى رجاله في هذه الطريق ليقولوا لهراقليوس ولكسرى وقد استعبدا الناس ان بصحارى العرب من جذور الحرية ماليس في دنيا الرومان ، ودنيا الفرس .

(١) الطبري

الفصل الخامس والعشرون

الجبل الملهم

من الاماكن والمواضع ما يبعث النفس السادرة الغاشية علـى ان تستفيق وتحس وتدرك وتعي الاشياء العظيمة التي ترى اليها ، وذلك لأن الله قد رقق هذه الاماكن وندى هذه المواضع ، وافاض عليها نعمه السوابغ واراق على جلامدها عطوره وطيوبه واختارها من الازل مثوى النوازع الهائجة والمشاعر الثائرة ، وارادها مواضع روعة ومراتع خشية ، فاذا قدر لك ايها القاريء ان تعلو شرفا من الارض وفتحت عينيك على المشاهد البارعة رأيت الى الغور الهادي، المطمئن وقد جثم على اطرافه ونواحيه الاردن جميعا من حرمون الباسم ابدا الى البحر الميت الجاهم ابدا ، فاذا سرحت طرفك في هذه القبب الفضية الجاثمة علـى ربا حرمون الفيت نفسك حيال بحر متلاطم من الروائع الفواتن

يبدو وادي الاردن عند اوائله شاحبا كدرا ، ثم يشقه شسع من المخاضر ، ثم تتكاثف ادواحه وتمتد ظلاله وتتشابك افياؤه حتى يشبه الروضة اللفـاء ، ففي هذه الدمنة الربا يترسل ماء الاردن راغيا طاغيا ، فلا تصافحه العين كله وبيين البحر الميت في روعته التامة ، وجماله الاتم ، فيهيج منظره النفس ويبعث احساسهـا الراكـد كانما هو قد عمر بالسحر ، ثم لايستطيع الانسان ان يدرك سر هذا الاحساس الغامر الذي تولاه على حين هذه الارض المتيهة التي استقر عليها البحر الراعب لاتنبت الحب ولا تعرف الحب ،

افكان هذا السحر في زرقة مائه ، ام في تورد هذه البواذخ التي تلقي ظلالهـا الحمراء الى حضيضه الذاهل ، كلا ماكان هذا الاحسـاس الذي يتولى المرء عند طوافه بساحله مقتبسا من زرقة مائه ، ولا من تورد هذه القلل التي تصاقبه ، ولا من طنين الرياح السافيات في صحرائه وغبرائه وانما يحس الطائف بهذه المواضع

الموحشة انه يمر بأرض تلاقت عليها نبوة نبي ، الى جانب رسالة رسول .

من هذه الاماكن الساحرة الفاتنة وادي العربة حيث تتزاحم المشاهد البارعة وحيث تنشر ذكاء سلطانها الواسع في مروج خضر ، لاتدرك نفس من اين مأتاها ، ولا الى اين مستقرها ، وحيث تتراءى جبال البتراء متلفعة بالسحب الوطفاء . وحيث جبل حور يستريح الى قلله وقننه كأنما هو قد اراد ان يطفر من مواضعه لينشر اشباحه واطيافه على مدينة سلع النائمة على سفوحه .

تفيح الآفاق في هذه المواضع وتبسق . حتى تشبه بحراً لاساحل له ، ويهب الهواء ناعشاً طربا ، ويثقب الطير الفضاء مغنياً ، ثم تتسع هذه الجروف وتفيض فلا تقع العين على رواء فيها ، فما من جديد يفتن ولا من انيق يعجب ولكن انى تلفت وكيف نظرت ذات اليمين وذات الشمال اخذتك صخور جبل الشراة ثم هي تختفي ثم تبين ثم تختفي ثم لاتعود تراها نزلة اخرى

لن تبهرك هذه الأودية ولن تفتنك هذه الغيران وهذه الاصلاد وانما قد يستهويك ويفتنك جبل حور فهو لايبرح على تقادم عهده صلة الانسان الجد باخيه الانسان القديم فاذا اتيت حضيضه ونزلت شعــافه وربوده وتجسست حجارته الحمر الفيته قد بسط رواقيه في سماء رمادية على ارتفاع اربعة الاف قدم فاذا علوت قمته الفرعاء رأيت نفسك عند قبر هارون النبي، وادركت لماذا أستبدل الاواخر اســم حور باسم هارون . فاذا انحدرت من هذه الاطواد الحمراء استقبلتك السفوح الخضر في مدينة البتراء واشتملت عليك اودية تتسع مرة وتضيق اخرى . حتى اذا صاقبت الطرف الشمالي من وادي الموت طلعت عليك الرواميس المنقورة ، والتوابيت المهجورة ، في فلوج من الصخر ، تتطاول وتمتد الى مسافات بعيدة فلا تستطيع وقد نزلت هذه الاخاديد الا ان تترفق في سيرك ، والا ان تفتح عينيك وتحسر عن نور قلبك خشية هذا الظلام الذي يملأ الوادي ، فاذا بحثت عن نور السماء وجدته يتسرب من العلاء خفيفا ضعيفا ثم الفيته يراق

على الصخور والمغاور ورأيت الى الماء وقد رعرع وانساب على اكتاف الاسوار واخذت سيوله تتدافع وتتساقط حتى لتوشك ان تبل ثوبك ، ثم لايفوتك وقد طفت بهذه المواضع انك في مهلكة من المهالك .

قد تطمس معالم هذه المدينة المنقورة على الصخر ، وقد يزلزل الله حصونها وآطامها ويدك جبالها فتنهار على اوديتها وغيرانها ، وقد ينضب هذا الماء الثائر الهادر وتندثر هذه العزلات فلا يشتاقها الناس , وقد تسف الرياح وتملأ الينابيع رمالا ، فماذا يبقى بعد هذا كله ؛ تبقى عطور الماضي ولا تزال هذه العطور تحرك الحياة الراكدة . فاذا اطال المرء طوافه بهذه الاماكن ، ووقف عند ثنية من الثنايا او سكن الى تأملاته وتصوراته في حرجة من الاحراج استوقفه الماضي الغاشي واراده على المضي في سبحه وتأملاته وسكوته واصغائه ، ذلك لان الله يسكن هذه الاماكن .وما اكثر هذه االربوع التي يسكنها الله في ارضك العجيبة يا بلاد الشام ، ومااروع جبالك واوديتك وجناتك ، انها لتدل الانسان على وحي السماء وتقص عليه حديث هذه الارض ، من وادي العربة الى اطراف معان حتى اذا تفهم هذا الحد يثار تدنيا رسولا وتلقى الوحي في ذرى سيناء او عاد شاعرا فلا يفوته ان يقبس الحياة من الجنان الزهراء .

الف كريستيا الشاعر ان يرقى هذه الهضاب الشم ، فما ينفرط يوم من ايام سلع الا زخرت نفسه برواء جديد فاذا احس هذا الرواء لم يحفل ان يمر في الصباح بمضاجع الموتى في رواميس سلع ، ولم يفرق من الطواف بمعابد اللات والعزى وذي شرى ، فاذا عسعس الليل آض الى بيع النصرانية فاوغل فيها ، ثم ينقلب الى مثواه وفي نفسه الشيء الكثير من عطور الوثنية وعطور النصرانية ، وقد كان شاعرا وكان مصورا فوجد في الجاهلية الجهلاء وفي ديانة السماء مايخصب المعيته وينديء عبقريته

كان فصل الخريف احب فصول العام الى نفس الشاعر السري ، ففي هذا الفصل تلبس الافق جونة تماثل هذه الجونة التي تغشى نفسه وحسه ، وتتكاثر الالوان على حواشي الجبال فتهيم خواطره وتأملاته في زرقة صافية او في حمرة زاهية ، اوفي صفرة كابية . ومازال ماضيا في شأنه حتى توافى خريف سنة تسع وعشرين وستمائة فعاف مغناه عند حدور سلع ؛ واشتملت عليه روابي جبل حور فوقف على القنة التي وقف عليها موسى النبي وسرح طرفه في الفضاء البعيد فرعشت في نظراته خيالة سيناء وجلامدها الرفيعة ووراء سيناء شطآن البحر الاحمر ، وخليج ايله وجزيرته الوادعة ، ثم نظر الى مواضع بجواره فتراءى له وادي العربة وقد فاحت جروفه وغيرانه واخاديده ، وانكشفت خطوطه وصدوعه فلما انحى ناحية الغرب رفت على شواعره المشاهد البارعة تكاد تتلاقى عند ربا حرمون فتاقت عيناه بالدمع وامالته السحابة الراعدة في اخياف الجبل وشعافه الى تذكر حياته فوجد في اختلافه الى هذه الاماكن البارعة متعة النفس وصبابتها في الدعة والسكينة كأن هذه الساعات التي امضاها على جبل حور قد اماتت جروح قلبه

ليس لكريستيا وطن يسكن اليه ، ويلوذ به ، ولكن الشعر يجد وطنه حيث تجد النبوة وطنها ، وان للشعراء حتى الذين امعنوا في الاغتراب لسلوة اذا مرت بهم ارض تحسر عن غابر زاهر ، الم يمر امرؤ القيس بن حجر عند رجعاه من القسطنطينية بارض الروم فشاقته من انقرة طاولها الدوارس ، فذكر وطنه الاصيل ؛ وارتسمت ظلال هذا الوطن على نفسه فقال في ذلك ارق شعره ، وما زالت عواطف الناس تشتاق من تقدمها من الاوائل ؛ وتصبو الى الماضي لتسبح في روائه وتحاسينه .

كانت سافو ترافقه في طوافه . فلا يمنعه حج سافو معه ان يصطحب الرفاق الذين يحبهم فما خرج مرة من منزله عند ملعب سلع الروماني الا خرج معه شعراؤه سفوكليس وارستوفان وهوميروس ، فاسمعـــــع اشعارهم روابي جبل حور رجاة

ان ينقلها الصدى الى روابي سيناء او الى روابي حرمون ، وعلى هذه الصورة لا يفوت هذه الجبال التي استمعت لصوت النبي ؛ ان تستمع لصوت الشاعر .

فاذا نظر الى الاصلاد الجراء تحت بريق الاشعة وخطف الظلال ساوره الجزع فتوجع لحظوظ شعرائه لأنهم ولدوا في جبال الاولمب ، وماتوا ولم تخالط نفوسهم اعراف هذه الاماكن المقدسة .

وكان كريستيا قد طوى لياليه الماضية وهو دائب في تصوير فروة بن عمرو على صورة المسيح بن مريم مساوقة لفنه الشاحب وزلفى لوحي نفسه الجاهم و ع ان سافو قد ثنته عن اكمال هذه الصورة التي لم تسكن اليها فقد مضى لما شاء ولم يمنعه تهافته على التصوير ان يفيء الى الاماكن التي اولع بها وشغف بالنظر اليها لانها وطن ذكائه ومبثق عبقريته والمعيته فكان اذا نزل في حضيض الجبل او صعد في شعفته راح الى قيثارته فاستجاش اوتارها وقرأعلى الجبال اغاني هوميروس فتسمعها القلل الرفيعة والحدور الزاهية ويصل صوته على اجنحه الهواء الى وادى العربة فتشم هذه الارض التي استمعت لاناشيد شعراء الجاهلية العربية عبق شعراء اليونان فاذا مل هوميروس ومل اناشيده طاف بنفسه حزن هادم فسأل سافو ان تغنيه اشعار سفوكوليس في مأساة اوديب الملك وذلك لأنه كان يجد في حياة اوديب التعس اخت حياته ، الم يخرج اوديب من طيبة ليعيش في كولون عيشة الرجل السروب الجفول ، وهو نفسه الم يخرج من وطنه ليعيش على هذه القمم البواذخ عيشة الرجل الذي لا وطن له

وقد كان يشوقه على كثرة منازعه ان يموت موتة موسى النبي على قنة جبل حور ولماذا لا يحب لنفسه هذه الموتة الشاعرة ، وهو الشاعر الملهم وكيف لا يستهويه موت النبي وفي الشعر بعض النبوة

وقد انمى منازعه وقوى اوهامه انه قرأ في التوراة وصفـــا بارعا لموت النبي المرسل وانه رأي في هذا الوصف بعض صور من نفسه فلقد طاف موسي بجبل

حور مثل طوفته وجاس حضيضه وسفوحه وصعد روابيه واطواده ونظر الى سيناء والى صحراء التيه والى حرمون فلما ترقرقت هذه الصور المقدسة في نفسه شعر النبي المدنف بالنهاية فقعد على الارض وسأل الله ان يحسر له عن الاردن قبل ان يرفعه اليه فما منعه الله صبابته فاراه الاردن واريحا وبيت المقدس ثم اخذه اليه في رفق ودعة وكذلك هوشأنه ، انه ما زال ينظر الى سيناء من جبل حور وما زال الاردن يبين له عند شمال وادي العربة ولا تبرح ثلوج حرمون تطالعه من بعيد كأنما هي تريده على ان ينظر اليها في صبحه ومسائه

وقد اشجى سافو الرقيقة الشفيقة ان بنفسه هذه المنازع الطاغية فارادت ان تثنيه عنها فبسر وجهه وقال لها اكثر من مرة : لقد بغى جرحي ياسافو فما اجد عاصما من فساده الا في الموت ، وحينما كانت تقص عليه شيئاً عن بطولة فروة بن عمرو وتصف خروجه من سلع الى قتال الرومان مع رجال جاءوا من جزيرة العرب كان يحني رأسه في حزن والم ثم يشجيه ويضنيه الا يستطيع مضيا الى المعركة ولا يقدر على اللحاق برفيقه مارسيليوس ؛ فقد كان من احب امانيه وانضر احلامه ان يقاتل وينافح ، ثم ان يقول للناس الذين توهموه شاعرا . وحسبوه نحـــاتا ، انكم لتنظرون الى سراب فما انا ذلك الذي حسبتموه شاعرا ونحاتا ، وانما انا امير من امراء الرومان ، وقد كان ابي سيد هذه الدنيا فقتله قاتلوه ولكنه استبقى لي ارثه وودائعه . واستخلفني على هذه الارض فجاء هراقليوس وسلبني ارث ابي !

لقد هم اكثر من مرة ان يكشف امره للناس فما استطاع ان يفعل . فقد كان مريضا وكان مدنفا وكان خلقه خلق الشاعر الحائر لاخلق البطل الثائر ، وكان فروة بن عمرو قد اراده على اللحاق به فابى وآثر البقاء في سلع بجوار سافو اخته بل بجوار كتبه واوراقه ،

وما كان ادمانه على الطواف بالجبال ليمله ، فان الشعلة التي حرقت نفسه كانت تمد خيوطها من سيناء الى جبل حور فلا يستطيع لها دفعا ، ثم تطاير قبس منها الى

سريره فاحرق احلامه الباكرة ، وقوض صروح امانيه ، وامات في نفسه قصور بزنطية وشطآنها ، وخنق صوت مطامحه ولما بحث عن هذا الصوت الذي جهر به لتسمعه دنيا الرومان وجده قد سكن الى مستقر جديد عند ذرى جبل حور ،

قالت له سافو في ذات يوم ، الا ترى الى هؤلاء الذين جاءوا من بلاد العرب ، انهم ثلاثة آلاف شاب لست تجد فيهم شيخا فانيا ، بعث بهم رجل اسمه محمد رسول الله ، فنزلوا بسلع ونصبوا خيامهم في اطراف الوادي ، وجعلوا يغنون اغاني وطنهم ، فهلا نظرت اليهم يا اخي وسارقتهم في الغناء ، ومجدت وطنك في اغانيك ، وكان قصارى همها ان تهزه احاديث البطولة فيتبسل ويضيء شممه ، ويخرج الى الحومة ليقول للناس انه فتى ابيه مروءة وخلقا ، فما هزته احاديثها عن الذادة الكماة فطفقت تحدثه عن زعيمهم الفتى ، واسمه زيد بن حارثة .

« لقد فاضلت بين هذا العربي ، وبين فروة ، ورحت اسأل نفسي ، اي هذين امثل من صاحبه ، يا للروعة ! يا للفتون ، ان في شيم زيد ما ليس في شيم هؤلاء الذين كتب عنهم هوميروس في الياذته ، فلقد نهد من صحراء وطنه في يوم شديد الهاجرة فطوى الرمال والجبال ليثخن في عدوه حتى اوفى على سلع ، ونصب سرادقه في السهل ، وحسر عن صوته ليسمعه قيصر في بيت المقدس ، فهو من هذه الناحية افضل من فروة ، وافضل المحاربين جميعا ، وذلك لان فروة يقاتل عدوه في ارض كانت لابائه على حين هذا البطل الكمي لا يأنف ان يقاتل في ارض بعيدة عن ارض وطنه ، وليس بين قيصر وزيد ، هذا الذي بينك وبين قيصر ، وكل ماهنالك ان عاملا لهراقليوس قتل رجلا كان بعث به يتيم في مكة الى البلقاء فخف زيد ليثأرن بدمه اما انت فقد سلبك هراقليوس ملك ابيك وردك الى دنياك منسيا حتى من اصدقاء ابيك اولئك الذين هتفوا لك في ليلة ميلادك .

لقد اعرض عنها فما يرققه حديثها عن زيد ، ولا يهزه وصفها البارع فقد كان بصره وسمعه وجسده ، عند جبل حور ، كأن هنالك صوتا يناديه من

اعماق الجروف والاودية ثم يسيل هذا الصوت على الربا الشم ويقول له هلم ايها الشاعر فاسمعني صوت قيثارتك فاني قد استمعت الى صوت نبي وطوت ارضي رفات نبي ولكني ما سمعت صوت الشاعر ولا هزني غناؤه

وقد هدر صوت الجبل في روحه كما يهدر ماء الينبوع في السهل فصاح وعيناه تنظران الى القنن الرفيعة سنتلاقى عند اعشابك المعطرة وساسمعك الصوت الذى لم تسمعه

وكان الحزن قد برح به تبريحا اليما فعادت به سافو الى مثواه وجلست بجواره ، على مقعد في طنف يطل على مدينة الموت ، واخذت تنظر من خلال هذا الفجر الذي يضيء قلبها وحسها الى هذا الليل الذي يغشى قلبه وحسه فما فاتها انه في حاجة الى الغناء . وهو سبيله الى الشعور بالعزاء ، فتركته وفزعت الى حجرتها ؛ وانحنت على معزف صغير كان في قصر ابيها ، فحملته امها الى المنفى ،

وكانت شجون كريستيا قد هيجت احساسها العنيف ، فامرت يديها الراعشتين على الاوتار ، فاضطربت واضطرب فيها صوتها الشجي ، وانبعث النغم حلوا سائغا الى سمع كريستيا الذي كان ينظر من طنف الدار الى قبور سلع فاصغى اليها بجوارحه ولكنه لم يمل من ان ينظر الى الوادي الغائر تحت الطنف ولو قدر له ان يتلفت الى الزاوية التي انتبذتها سافو لرأى الى الصورة الحافزة ، ولمادت نفسه اكثر مما تميد ، فلقد كانت سافو بيضاء كالثلج وكانت تتنهد في الم وحزن وكانت خيالة الموت تزحم صدرها فلا تستطيع لها دفعا

ولم يزل الشاعر ينظر من مكانه الى المشاهد التي تحيط به في غير ملل ولا سأم ، كأنما كان قصارى همه ان ينقل نظراته من الهضاب الشم الى حضيض الوادي ، حتى اذا ابتلت نفسه وسكرت من زرقة السماء وخضرة الشجر تطلع في ورع وروع الى الحدور الزاهية ، وقد جللتها السحب بازهار بيضاء فبدت كأنها الكواعب في ليلة عرس وتضوع منها اريج شديد اختلطت اعرافه باعراف الجوز واللوز .

وكان المساقد لنشرظله ، فرف سحره في سلع وتسربت لحون سافو من صدرها الى الوادي ، فطافت بنواحيه حتى نزلت بقبور الذادة النيــام وحتى ابتعث صفاؤها الشـاعر الملهم على فراق مــكانه فهبط الى الوادي لايصحبه في طوافه سفوكوليس ولا هوميروس ، ولا اريستوفان ، وانما قد صحبه خياله المضطرب ، وحسه المتوثب ، وشعوره الذي لايستريح ولا يسكن ، وهذا الالهام الذي انفجر في نفسه ليلة خيل اليه ان بجبل حور صوتا يناديه .

وكان يمشي في ارض محصبة ، فلا يغمه ان يقعقع الحصى تحت قدميه ، ولا يشجيه ان تتوهمه سافو في مكانه على مصطبة الدار ولا يستوقفه عن جريه ودفقه غير هذه القبور التي ملأت التــلال والظلال ، فكان اذا مر بصخر من صخور سلع لم يجد معدى، عن قراءة نقوشه وكتاباته ، ثم يجوس خلال الصخر ويرى الى نفسه فاذا هي قد سدرت فيحجرات ومخادع ودهاليز كان القدماء من سكان سلع يقضون فيها نذورهم للات والعزى ثم لذي شرى فاذا حسرت عنه هذه السراديب ابتدره ضيــاء القمر عند مواطىء قدميه ، واخذته لحون ســافو وقد اوشكت ان تموت على شفتيها ، فما يبالي ان يموت النغم البارع في صدر الشقيقة الحـادبة ، بل يستمر في جريه ودفقه في رواق سـلع ، ثم يتسع الاخدود امـامه ، ويستفيض وتغمره الاشعة اذ تزلق على الصخور الندية الرطبة ، وهو الى ذلك لايشعر بتبدل المشـاهد ، ولا يحس اختلاف الامكنة ، ولا يسمع شيئاً من هذه الاصوات الهادرة التي تملأ الفضاء ، ومازال كذلك شأنه حتى قرسه البرد ففطن الى نفسه فاذا هو في المكان الواعر ، واذا السيل الذي يشق سلع يرتمي على الاصلاد في شدة وعنف واذا هو قد ختم مطافه عند قنطرة من الحجر الصلد تربط بعض اطراف الهاوية ببعض وقد كان زعيما بالشاعر المثال وقد اقبلت اعناق السيل الجائش تحت القنطرة ان يتمهل في مشيته وان يفكر في الرجوع الى مثواه ، فليس

بعد هذه القنطرة التي اقلته غير النور المطلق ، وغير هـــذا البهاء الذي يراق على التلال الحمراء .

وبغتة عصف بنفسه الرقيقة صوت الجبل فبرق عينيه وفتح قلبه ووقف على حافة السيل متأملا في ذرى جبل حور حتى استثخن منه الاعياء فارتد الى مثواه فاذا سافو قد خرجت من حجرتها الى المصطبة واخـــذت تنظر الى الوادي كأنها تبحث عنه بين رواميسه المنحوتة ؛ وغيرانه المحفورة .

لم تسأله سافو عن مورده بل آثرت ان يجلس بجانبها على المقعد الحجري في هذا المكان الذي وسعها ووسعه في العشيات الماضية ، فاستخذى واطاع وجلس بجوارها ينظر بعينيه السادرتين الى اضواء الشفق وقد انبثقت من الوادي لترتمي على الربا والذرى وتخترق المروج تحت سماء خضراء عن كثب من ازهار بيضاء اطبقت براعمها بعد ان اضجرها لذع الشمس في نهار قائظ فبدت منحنية على القبور والرموس !

لم تشأ سافو في هذه المرة ان تدنيه من ذلك العالم المضطرب الذي يثير هواجسه واحلامه ، عالم المعارك والملاحم ، بل احبت ان تنقله الى عالم جديد فيه من الرفق والرقة ما هو في حاجة اليه ، فقرأت عليه فصولا من حياة امه واذكرته بر هذه الام الثاوية عند الصخور الندية في بلاد الجليل فرق شعوره وضحك وجهه ثم قرأت عليه حياة المسيح فاصغى لفصول هذه الحياة الماجدة ، فآوى اليها وعلقت بروحه خيالة من بلاد الرعاة والبحيرات والجبال والاعشاب المعطرة والسحب الوردية والمروج الضـــاحكة

وما زالت على امعانها في القراءة حتى وجد كريستيا ثقلة في جسده ووهنا في عظامه فترعس وترعد ونهض من مكانه لا يكاد يخطو خطوة الى حجرته حتى يوشك ان ينهدم فتلقته سافو في ذراعيها ومشت به الى مثواه مترفقة حادبة ناشجة شاجنة فلما صاقبت باب الحجرة وهم ان يدخلها كان الليل قد غمر سلع فجعل ينظر

الى الافق البعيد فتراءت له شجرة فرعاء فوق هضبة رمادية كابية ، كان يفزع اليها في الامسية الفارطة لينظر منها الى جبل حور ، فاستوقفته عند هذه الهضبة حاشية مضيئة من الكواكب ، فرأى على نورها الخالب روائس الجبل المقدس ففتح ذراعيه وانثنى صائحا

ستكون لي رجعة اليك ايها الجبل الشاعر !

ولما احتوته حجرته كان الحزن قد برح به تبريحـــا اليما . فاخذ يدي سافو فقبلها في حنو ورأفة ، واحس رعشتها على شفتيه فقال لها : لقد طال سهدك ياأخية فما اجدرك بنوم هنيء ، فلم تسمع سـافو كلمـاته الاخيرة ، لانهـا كانت تصلي في خفوت وهمس .

الفصل السادس والعشرون

فرسان سيد قريش

تتالت على هذه الحادثات ايام وايام ، ثم تسامع الناس في سلع بزحف قيصر مع مستعربة البوادي الى المدينة الخالدة . يريد هراقليوس من هذه الزحف الذي هيأ له الجيوش والجحافل ان يدرك غطاريف سلع ان دنياهم اضيق من ان تسع دنيا سيد الناس في بر وبحر

وتحدث رجال كان بعث بهم فروة بن عمرو الى اريحا والاردن عن هذه الكتائب الزاحفة ومعها الحديد والنار والقسوة والبغض فقالوا ان قيصر قد عرس بحاشيته واحراسه في اريحا ونزل بديرها السامق ، ولكنه استعمل على الكتائب التي بعث بها الى سلع مالك بن رافلة واصحبه بمالك الكندي راهب سيناء اما الحارث الغساني فقد تعاورته حمى شديدة يوم خروجه من بيت المقدس فما جرؤ على اللحاق بجيشه العرم فذهب به رجال من غسان الى بصرى ليقضي نحبه في قصور ابائه آل جفنه ملوك الشام وما كانت هذه النذر التي استفاضت في افق سلع لتخيف سيدها البطل ، او تثنيه عن منازعه ومطامعه ، بعد ان الهب شعوره . واذكى حميته هؤلاء الشبان الذين نهدوا اليه من وطن صغير اسمه يثرب ، حاملين الى الابطال الذين يقاتلون تحت لوائه بركة اليتيم الذي فتح الله عينيه على ملك كسرى وقيصر في غار حراء .

ولقد خرج جيش من الغساسنة من بصرى الى معان ، وعليه شرحبيل بن عمرو الغساني قاتل عمير الاسدي رسول رسول الله الى ملك غسان ، ورابط جيش من متنصرة بلي وبهراء وايلياء في وادي العربة عند سفوح جبل حور الذي يطل على مدينة النبط ، وخرج جيش من الرومان والعرب في محاذاة البحر الميت

الى سلع عليهم مالك بن رافلة ، تظل هذه الجيوش اعلام الروم بني الاصفر ، هذه هي جيوش هراقليوس ، وهذه هي كتائبه واعلامـــه ، لاتخلو كتيبة من قسيس كان يقضي نذوره في صومعة ؛ ولا من زعيم الف ان يقاتل في الميادين الفيحاء ، بينما الذين جمعهم فروة بن عمرو لايزيدون على ثلاثة آلاف محارب ، من لخم وجذام ، يضاف الى هؤلاء الفرسان المساعير هذا الجيش الصغير الذي استعمل عليه محمد نبي الله ورسوله زيد بن حارثة .

وقد انمى في حماسة هؤلاء الذين فيأتهم راية فروة بن عمرو ان شابا عربيا اسمه عمرو بن العاص وامه شامية من بلي زحف بقوة صغيرة من شيوخ المهاجرين فيهم ابو بكر وعمر وعثمان الى اراضي الرومان ليسمع هراقليوس الذي استفاضت لحون انتصاراته ومكاسبه في كل افق شيئا عن الامة الناشئة التي انبثقت من روع اليتيم .

وكان شيوخ العرب في تيماء وتبوك ودومة الجندل قد زهدوا في موالاة فروة بن عمرو زلفى لقيصر وفرقا من كتائبه فبعث فروة اليهم برجال حرسه فاخضعوهم وجاءوا بهم الى سلع فعرضوا على الجماهير في الملعب الروماني ، وعرضت اسلابهم واسلحتهم ومكاسبهم فشتمهم الناس ولعنوهم لانهم آثروا الوفاء المنيصرية الرومانية على الوفاء لهذه النبوة العربية .

ولم يكن فروة بالرجل الذي يجهل مايريده قيصر من ايثار مالك بن رافلة في قيادة جيوشه وكتائبه على الحارث الغساني ، فلقد كان الحارث رجل لين ومداراة وكان مالك بن رافلة الذي يسميه الناس « ذئب الصحراء » لايعرف اللين والمداراة ؛ وهذا ما ابتعث فروة على ان يتوقع طول الغزوة وامتدادها الى شهور ، فاجمع رأيا على اعداد سلع لنضال واسع المدى ؛ لاتخـالطه الرحمة والرقة ، وملاء المدينة التي مرنت على هذا النوع من النضال من عصر الاسكندر المقدوني الى عصر بومبيوس الروماني بالاقوات والاسلحة واختار لحمايتها شيوخ لخم وجذام ، وللمرة الاولى في تاريخ سلع الطويل العريض فتح الناس عيونهم على راية رسول الله المعروفة براية

العقاب وهي ترف على الحصون والاسوار ، ولم يروتهم ان يمتد ميدان القتال من خليج ايلة الى سفوح جبل حرمون حيث اغار انصار فروة بن عمرو على مسالح الرومان والغساسنة وحيث الكثيرات من النساء اللواتي احببن فروة واولعن بيتيم قريش كن يبتعثن الرجال على الخروج الى الحومة

ولقد كان حصاد ذلك اليوم الذي رفت فيه راية العقاب على حصون سلع لاول مرة من عمرها الطويل ان قطع الناس صلاتهم بحياة ابائهم فاطرحوا اللات والعزى ونـكروا الرومان وفتحوا صدورهم لآيات النبي فعلمهم اياها زيد بن حارثه وجعفر بن ابي طالب وعبد الله بن ابي رواحه وغيرهم ممن صحبوا زيدا الى ارض الشام للثأر بدم رسول رسول الله

وفي ذات صباح اضاءت نيران الرومان بجوار اريحاوالاردن والبحر الميت فرآها الذين ركبوا غوارب الجبال في مدينة الموت فعلموا ان العدو يريد من اذكاء النار ان يحسر عن كبره فما فرقوا ولا فت في اعضادهم ايغال العدو في الزهو وذلك لأن الجذاميين واللخميين من رجال فروة وفيهم الفرســان وحملة الاقواس والرماح كانوا يأملون ان يصدوا العدو عن مواضعه فيرد الى بلاده اشنع ردة

في ذلك اليوم العجيب تهافت مارسيليوس صاحب كريستيا ورفيقه على حفر الخنادق حول ســلع ومعـه نخبـة من رفاقـه ، فانتشر هؤلاء الذادة الكماة ، عند كل ربوة ، وفوق كل هضبة ، وعلا فريق منهم غوارب الصهاريج ، ونزل فريق الى الوادي فتولوا حماية اطرافه ومساربه ، وعرس بعضهم حيال الرواميس المنقورة ، وربض بعضهم بجوار قصر فروة

وفي غضون ذلك كان فروة وزيد بن حارثة وجعفر بن ابي طالب وعبد الله بن ابي رواحة جاوسا في خيمة سيد سلع يتحدثون عن اليوم الاكبر الذي ينبغي فيه لثلاثة آلاف فتى من فتيان جزيرة العرب ان يقاتلوا لاول مرة عالما ضخما من الرومان والمستعربة في ارض لا يزال يظلها شبح قيصر ، وفي هذا الجيش قواد قال فيهم النابغة

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
اذا مامشوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب

وقداوشك زيدومن معه ان يكتبوا الى رسول الله كرة اخرى ويسألوه اذا كان ينبغي لهم ان يقاتلوا مثل هذا العدد الضخم ، فابى عليهم عبد الله بن ابي رواحة ان يجنحوا الى مثل هذا الامر ، فاستحيا رفاقه من شجاعته ورجولته ، وقاسموه رأيه وازمعوا مضيا في القتال حتى تطأهم الخيل التي وطئت جيوش كسرى ، فذلك افضل من الرجوع الى يثرب رجعة لايستسيغها هذا الوطن الذي نذر ان يتسع ويستفيض حتى ترقفه وتنديه هذه الانهار التي تسقي سهول العراق وغوطة دمشق ، ثم تبايع الجميع على الخروج الى لقاء الرومان قبل وصولهم الى سلع وفي المساء خرج من سلع ثلاثة الاف رجل فنزلوا بجوار معان وانطلق فريق منهم الى زيزاء ومعهم رجال من لخم وجذام وبقي فروة في سلع بجواره احراسه وكتائبه وقد وقر في ذهنه ان يلحق بجيش زيد بن حارثة من الغد عساه ان يدفع عن رجال زيد ذلك الخميس العرمرم الذي استعمل عليه هراقليوس مالك بن رافلة

وكانت سافو ساعة دخل فروة الى القصر قد آوت الى حجرتها وعندها كريستيا المدنف المريض فقال لها بعلها الغطريف : جئت لوداعك ياسافو قبل خروجي الى الملحمة مع هؤلاء الذين توافوا من جزيرة العرب الى سلع فان رسول الله قد اسمعني صوته من يثرب فاخترق الصوت المقدس هذا الجبل الذي ترين فنظرت اليه اسوانة ملتاعة وانشت قائلة : اتخرج ؟ قال نعم وفي ميسور هؤلاء الذين اشتملت عليهم الحصون ان يحموك فاذا قدر الله واستطال العدو على سلع ودك حصونها دكا فان على ذرى جبل حور طريقا ينحدر الى الوادي ، فاذا جزت الوادي مع مارسيليوس وكريستيا استفاضت امامك الطرق ، فاما الى البحر واما الى الصحراء ! فصاحت اهذا هو وداعك قال.وماذا تنتظرين مني انا الرجل الذي نذر ليثأرن بدم ابيك الطليل يا سافو ، ثم بدماء اولئك الذين مزقت

صدورهم خناجر الرومان لصوص العالم ثم حاول ان يجفوها فلحقت به عند وصيد الباب وقالت له

ـ اهذا كل ما املاه عليك حبك الشديد العنيف

فرق لها واستدمع وانثنى اليهـــا يريد ان يطوقها بذراعيه كأنه ادرك قسوة هذا الوداع ونضوبه من الاحساس الرقيق الناعم ، وليس يليق به ان يخرج الى الموت من غير ان يسمعها لمة رقيقة تغسل احزان نفسها وتبعثها على الشعور بالعزاء وانه ليجذبها الى صدره اذ صافحت عيناه كريستيا السادر الهائم وقدانتبذ في الحجرة مكانا قصيا واخذ ينظر الى صورة تمثل المسيح مصلوبا فحدق الى الصورة فاذا الذي على الصليب فروة بن عمرو الجذامي ، لا المسيح بن مريم الناصري ، فغمه ذلك وتلفت الى كريستيا صائحـــا : ماذا صنعت ، واي صورة هذه ؟ فقال كريستيا بلغة يخالطها اليأس : صفحا ياسيدي فلقد اردت ان اساوق في ! انه فن شاحب ،

فاطرق فروة تفاديا من ان تزحمه الصورة ، ولكن هذا الغم الذى ساوره لم يلبث ان رجع به الى الماضي فذكر نزوله ذات عشية بدير مالك الكندي راهب سيناء ، في تلك العشية الفارطة جعل فروة يتحدث الى مالك عن ازماعه مغاضبة قيصر ومنافرته ، لان هراقليوس قد ازرى بكرامة سلع ، واهوى بتمثال الحارث النبطي عن قواعده ، فسأله الراهب ان يتنكب اغضاب قيصر لان دنيا الرومان اوسع من دنيا العرب وفيما كان الراهب الكندي دائباً في نصحه كانت عينا فروة بن عمرو تنظران الى حائط في الدير عـــليه صورة تمثل المسيح مصلوبا فرعش وانكمش وعلت وجهه سحب الهم فلما نهض على قدميه عثرت قدمه بمائدة صغيرة عليها شموع وصور فسقطت على حضيض الدير وتحطمت الشموع والصور فتطير من هذا الحادث وخرج من الدير ليلحق برجاله .

بلى لقد مرت بخاطره هذه الذكر المطوية وهو يتحدث الى سافو عن خروجه

الى المعمعة وينظر الى فن كريستيا الشاحب فرعش كرة اخرى وتطير حتى كاد تطيره يحمله على الرجوع عن قتال قيصر ، لولا ان مر بخلده ذلك الصوت المقدس الذي سمعه من يثرب ، وذلكم هو صوت اليتيم الذي باركه وبارك رجاله فاستحيا من خواطره وتلفت الى سافو قائلا

— لا تجزعي فاني سالحق بقومي ، ثم افيء اليك ؛ اي سافو ؛ احلفي لي وو ثقي انك لاتبرحين مغناك حتى انقلب اليك

وكانت عيناه تنظران في عينيها ولكنه لم يكن يرى الى بريق هاتين العينين السحورين ، بل كان ينظر الى خيال زيد بن حارثة ، الى ذلك الفتى الذي رد الى سلع رجولتها الماضية ، واشعل في اديمها تلك النار التي احرقت في القديم جيوش الاسكندر المقدوني وجيوش بومبيوس الروماني

قالت سافو لفروة انك لتطيل النظر الى عيني وما كنت تفعل ذلك من قبل فهـــلا قلت لي ماذا رأيت ؟ فلم يجب بل ظل ينظر الى عينيها حتى خيل اليه ان صورة زيد بن حارثة توشك ان تطل من صفائها الخالب ، ثم انكفأ يهز يدها في شدة وعنف فذعرت ونظرت الى عينيه فاذا هما في مثل حمرة الدم المراق فقالت له انك لتخيفني في وداعك وقد طالما رجوت ان تحسن الوداع وتخرج الى المعركة وفي نفسي اثر من لحونك وعلى جبيني صورة لحبك ، وفي نفسي لون من هـــذه الالوان التي تخطف على منازعك وميولك فلم اجد شيئاً من كل هذا ، الا قل لي ايها الجندي الذي استهواه كبر وطنه ، اكثر مما تستهويه دموع المرأة الوفية اين اجد قبلاتك واغانيك

ولم يكن يطيق نظراً الى هذه الزهرة التي اذبلها افق سلع ، فنكس راسه كأنما قد تصعده هذا الدمع الذي يضيء عينيها السحورين ، وكأنما هذا الحديث الذي تساقط من فمها الى سمعه وقلبه قد اماله الى الشعور بالحزن ، ثم لم يجد بدا من ان يتحدث اليها بلغة الحب الهامسة فطأطأ لها نفسه فذلت واستخذت وضمها كرة

اخرى الى ذراعيــه المشبوبتين فسمعت وهي لاصقة به صليل جوفه فريعت وحاولت ان تتكلم فقال لها

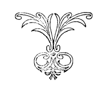
انك ستسألين عني بعد ايــام اولئك الذين ستقدر لهم رجعة قريبة الى سلع ، وسيقول لك هؤلاء انني قضيت نحبي في معركة ماجدة ، ودفنت في مكان مهجور تحت غسق الليل ، بلا مهرجان ، وبلا قبر ! . . وقد تسألين هؤلاء عن آخر كلماتي ، فلا يستطيع واحد منهم ان يردد ماقلت ، ولكن في طوقي ياســافو ان اسمعك ماعسى ان اقوله يوم يتخطفني الموت ، لقد عشت وفيا لوطني ولسافو ! . . . ومت وفيا لوطني ولسافو ، هذه هي كلماتي ولست ازيد عليها شيئا ،

لقد اصباه الهوى فتدفق في بثه ، وتدفقت سافو في الاستماع اليه ، ولما نظر الى القمر ترسل في احاديثه وقال مخاطبا امير الليالي ، انك لتنير وجه سافو كما تنير وجهي ، فينظر احدنا على نورك الغامر الى وجه صاحبه ، فيطالعه الالم المضني والسهد وخيالالليالي الطوال التي امضاها الحب في مدينة المقابر ، ثم نعود وقد آمنا معا بخلود الذكريات القديمة ، ووثقنا بقدرة هذه الذكريات على الجمع بين روحينا في دنيا لاتعرف اذى الناس ، طالما صبرت نفسي على الالم ولكني كنت اجد عزاء هذه النفس في الاعتزال اليك حينما تطلع لايناس هذه الارض الموحشة ، وكنت آتيك في امسية كل يوم فابثك آمالي وانا عائد من منزل سافو فما يملك هذيــاني ولا يضجرك بثي ، وكنت اذا صبأ النجم ، اتبع ظلك بين السحب حتى اذا تطالت تطــامن جأشي اليك ورجوتك ان تسمع لي ، ثم اتحدث اليك عن المجد وعن الملاحم وعن النصر فما تطاق لهذه الاحاديث ، لانك خلقت لتكون شهيداً على جنون الحب في لياليه المروعات ، وما يلذك جنون المجد ولا اضطراب امانيه الحمراء انك لتضيء في هذه الليلة ، وستضيء الى الابدوسينظر الناس اليك فيرون في كل ومضة من ومضاتك ينبوع جمال لاينضب ، بينما جسم مساهرك هذا الذي يتحدث اليك في ظل هذه العشية الرخية ، سيستريح في حفرة منسية متروكة فراراً من

طمحات الدهر ، فاذا ظلعت المقابر باهلها ونشر الموت طيفه الشاحب في دنيا الاموات ، وظمئت سافو الى تعرف حفرتي ، ففي وسعك يا امير الغسق ان تريق اشعتك على حجارة قبري فتعرفه سافو فتجلس بجواره ثم تغنيه لحون قلبها العميد .

لقد ظل ّنه الحي فاخذ ينظر الى وجه سافو النائم على صــدره وقد اضاءت الاشعة قسماته فتهـــافت على تقبيله كأنما هو قد اراد ان يطفي ْ هذا السعير الذي تطرفه ، وسافو في غرق عجيب .

ولما تضجع السحاب ولألأ القمر وبدا وادي سلع الصادع وتراءى الطلع على حدوره ضاحكا باسما ودع فروة بن عمرو ســـافو للمرة الاخيرة وانفلت يعدو متطوحا متساقطا حتى غيبته اضواج الوادي وحتى تلقاه في محافيه ومكاسره رجال من صحبه كانوا ينتظرون ان ينقلب اليهم ليلحق في صباح اليوم التالي بالجيش الذي خرج الى قتال تيودور واركاديوس بجوار معان !



الفصل السابع والعشرون

الماضي

تتالت ايام على لحاق فروة ورجاله بجيش زيد بن حارثة عند اطراف معان ، ولكن الرومان لم يشرعوا في الزحف الى سلع ، نزولا على ارادة قيصر ، الذي ابى ان يبدأ القتال قبل ان يبث مالك الكندي النصح للفيلارك سيد جذام وزعيمها الغطريف ، وقبل ان يؤوب الراهب الى كتائب مالك بن رافلة النازلة بشواطئ البحر الميت غير بعيد من الكرك ،

وفي ذات صباح وطئ مالك الكندي ومعه عشرون من المستعربة ، ارض معان ، فتلقاه فروة في سرادقه وعنده زيد بن حارثة و جعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحه ، وفي الصباح نفسه دخل مارسيليوس على سافو في القصر ، فقال لها ان فروة اراده على البقاء في سلع لحمايتها ، فليس يخفوها حتى تتداعى هذه الجبال الشم على الاودية ، فنظرت اليه بعينين نديتين وشكرته على مروءته وشممه ثم نظرت الى جوانب الحجرة ، فتابع مارسيليوس نظراتها حتى الفاها قد استقرت على صورة كان كريستيا قد شرع في تصويرها ولما يتممها بعد ، فحدق مارسيليوس اليها فاذا هي صورة فروة على الصليب ، فذعر وروعه ان بهـا معنى لايحبه ولا يأنس اليه ، وهم ان يطأها بقدميه ، فلا يراها الزعيم الذي خرج الى الملحمة ، ليعود منها منتصرا ، ثم قلب عينيه في نواحي الحجرة ، فلما لم يبصر خيال كريستيا سأل سافو عنه فاخذت بذراعه ، حتى حاذت الشرفة التي تطل على الجبال وقالت له انظر فنظر فاذا فتى على جبل حور الحمراء قد امعنت في الصعود حتى لتوشك ان تصافح زرقة السماء ، وانثنت سافو قائلة انه لايزال على الربوة السامقة ينظر الى ثلوج حرمون ، والى عقيق سيناء !. وقد آلى الامعاد الى سلع قبل ان يظله غسق

الليل، وقبل ان يتملى من مفاتن وادي العرب وروائع صحراء التيه ! . . .

فصاح مارسيليوس بالتعاستك اذ تمضين حياتك بجوار هذا الفتى الذي لايحس الملك وشجوك ؛ فبكت وقالت له ، اسمع يامارسيليوس، مازالت الرؤى المفزعة تبين لكريستيا على الحجر الصلد فيتبعها ويتقصى آثارها ، ومنذ ايام كان كريستيا نائماً في هذه الحجرة فما فارقت سريره لحظة مخافة ان تضجره العزلة فيخرج الى الوادي ويتحدث الى اصحاب هذه الرواميس التي ترى ، وكنت اصلي واسأل الله في صلاتي ان يظل كريستيا غافيا ؛ ثم اغمضت عيني ونمت على مقعد بجوار السرير حتى استفقت على صيحة عنيفة فنظرت فاذا كريستيا قد طفر من فراشه ؛ كأنما هو قد افلت من حلم . فروعني هذا الذي رأيت فملت له مابك وكيف انت ؟ فقال لي انها هنا ما يفارقني طيفها ، ولا تملني احاديثها ، فقلت من قال بنيامينا ، كانت هنا في هذه الحجرة تغني اناشيدها وتنثر على قدمي ازاهيرها ، وتحدثني عن ليالي البحيرة ! فتوقظ احاديثها ماركد من حياتي ، اين هي ياسافو ؟ وكيف لم تسألها البقاء . فقلت له انك تحلم ، ويشجيني كثيرا ان يطالعك الحب في الحلم ، ولا يطالعك المجد هذا الذي ولد معك في الشالسيه عند شـــاطئ البحر ، عن كثب من اياصوفيا وقصر مجلس الشيوخ ، وكنيسة الرسل ، واحببت ان اتحدث اليه عن المجد وعن ابيه وعن قصة ميلاده ، تلك القصة التي كانت امي لاتمل ان تعيدها على سمعه في المنفى ، فلعل ميلاده يبعثه على الحياء ، ولكن كريستيا ماكان يتصحب من شيء ، فسخر من الماضي وهزأ بالمجد ، وازرى بقصة الميلاد ؛ وجعل يذرع ارض الحجرة جيئة وذهابا ثم راح قابضا على يدي ، وقال لي هلمي فاتبعيني الى الوادي فصانعته وخرجت معه الى وادي سلع . فاستقبلتنا القبور الدوارس ، والغيران المهجورة ، والجروف الهائرة والصدوع المائلة ، حتى سرنا جميع يومنا وليلتنا . فلما جننا الليل وذهب شطره تلفت فاذا نحن بجوار الدير عند مدخل السيق على مسافة غير يسيرة من قصر فرعون الى شماله الغربي ؛ وفي تلك الاثناء تضرج البرق واضاء لمعانه شرفات

الدير واطنافه فروعي شمرخه وارتفاعه ، فقلت لكريستيا ، اما من رجعة الى القصر، فان هذه الاماكن لاتحمل الى النفس مأنسا فقال لي هلمي فنصعد الى الدير، فان بقلبي صبوة اليه ، فما عصيت له امرا ، ومشينا معا في صبب وما زالت الارض تهبط بنا وترتفع حتى احتوانا الدير وحتى تطامن جأش كريستيا ، فقال لي وعيناه تنظران الى ذلك الصرح الصاعد ، هنا ياسافو مناخي ومظلي ومبيتي ومحلي ، فنظرت فاذا الدير يطل على جبل حور ووادي العربة ، فقلت له ويلك الا ترجع ، فهز كتفه ساخرا وقال لي « من جبل حور سانظر الى الاردن حيث بنيامينا تعيش على ضفافه الكاسية .

صحرته شمس النهار لكثرة مايطوف بهذه الدمن فبدا لي على ضوء الكواكب مسفوعا شـــاحبا ، فناشدته الله ان يرجع فقال لي لولا اني اكره ان يتحدث مارسيليوس عن عاري ، لرميت بنفسي من هذه القنن الرفيعة الى وادي العربة ، فان الموت احب الي مما ارى بنفسي .

ولما رايته يوشك ان يصعد في الجبل السامق قلت له انا ابدؤك ، فقال ذلك مالا احبه فان فعلت رميت بك وبنفسي الى الجروف فكرهت ان ارافقه ، وهممت بالرجوع فناداني بصوت خفيف ضعيف الانين « اصفحي عني ، ولم يزد على ذلك شيئا فعدت الى القصر وقضيت ليلي في عزلة جاهدة تمنيت معها الموت هذا الذي لايتمناه النـاس .

انه لايزال يامارسيليوس عند روابي جبل حور ، وقد اخذه شبيه بالجنون فنحل ورق واصفر لونه ، فما يلذ طعاما ولا يسيغ شرابا ، فلو ذهبت اليه فوعظته قال مارسيليوس ، اني منطلق اليه ياسافو ، فلا يزعجك امره ، وجعل يهدهد آلامها ويتحدث عن بعلها البطل حتى انستها احاديثه عن شيم فروة وسلائقه جنون اخيها فجعلت تبتسم فانه لكذلك يصف لها حماسة الجند ساعة اطل فروة عليهم من بعيد اذا كريستيا يفيء من طوفته بجبل حور وقد تطرفه الهم وظماته الحمى ووقف على

وصيد الباب كأنه الطيف ، فلما رأته سافو لم تستطع ان تخفي ما بنفسها من الشجون فوثبت اليه وعانقته وقالت له في لهفة وحب : كيف انت فقال كا لا احب ! فاجلسته على السرير وقالت له انظر ! هذا هو مارسيليوس الا ترى اليه ، انه بقية ذلك العالم الذي كنا نحبه فنظر كريستيا الى مارسيليوس نظرة ماتت فيها بروق الحياة ثم احنى رأسه على صدره ؛ فدلف اليه ذلك الصديق الحادب ، واخذ رأسه بيديه وقال له كريستيا . كريستيا قل لي ايما احب اليك موت يبتدرك في الحومة بين الابطـــال المساعير فيرفع قدرك وينبه ذكرك او مـــوت يبتدرك في السجن بين الكلاب والخنازير ، فلئن ظفر هراقليوس ليرمينك في قعر الهاوية في برج تيودوس وهذا أيسر ما يثيب به قيصر مقاتليه ومنافحيه ولكن كريستيا لم يجب فقالت سافو افلا ترى اليه كل شيء عدوه، هبوب الريح، يقتله ولمعان البرق يؤرقه، ورســـوم الديار تحرقه، والعذل يؤلمه، والتذكر يغمه والبعد والقرب يهيجه، والليل يضـــاعف بلاءه والرقاد يهرب منه، وذلك هو شأن هذا المحب الذي ضيع الماضي الرائع زلني لحاضر لا روعة فيه؛ ناشدتك امك يا كريستيا ان تطرح هذا الهوى فان السنونو لا يغزل الربيع ، والنهـــارات لاتضيء على الزمن ، وحب المرأة شمس تغرب ، والكوثر العذب ان اكثرت من ورده يملأ نفسك ذعافا ،

فصاح كريستيا صيحة النمر ،

الحب ، هذا الفاتن الساحر ، لقد رأيته هائما في حضيض الجبل ، تحف به ظلالة من الطير ، قلبي ، وفي وخواطري ، واشعاري ، انه وحـــده ذلك القادر على كل شيء ، في ميسوره ان يغسل هـذا الظلام الذي يغشى النفوس ، وفي ميسوره ان يغزل الربيع ، ويضيء النهارات والليالي ، فلابد عنده يتمثل في ثانية ، وقبلة واحدة تولد في ثانية تساوي مجد ايا صوفيا وقصر الشالسيه ، كنت على الربوة العالية ، في جبل حور ، انظر من مكاني السحيق ، الى النجوم الضواجع ، وتحت قدمي مضاجع الغيث ومساقطه ، وامامي وادي العربه وسيناء وبادية التيـــه والاردن ، وانني

لكذلك ابحث عن الرؤى الماتعة اذا صوت بنيامينا يرتمي على حواشي الافق كلحون اوريفوس فما ان سمعته ووعيته حتى امتلأ خيالي بجنةذات اعناب وازهرت نفسي فما يخالطها جدب ولا محل فقال مارسيليوس ولكن الحب ياكريستيا عطاش جاهد فاجاب الشاعر وهو كذلك ولكني اوثر هذا العطش الذي بنفسي على دفق الماء في الينابيع ...

— والماضي ! هذا الماضي الذى رفت صوره على انتصارات ابيك موريس في فارس وافريقية واوربه انسيته. اليس له في قلبك مكانيستقر عنده بجانب هذا الحب الذي تصباك

— اتقول الماضي يا مارسيليوس ! اتدري ماهو ؟ انه الجيفة سال على حواشيها الصديد والقيح فحسرت عن ريح كريه ثم جاء اهلها الذين شعفهم الكذب واضلتهم زخارفه وبروقه فاراقوا عليها الطيوب وغطوها بالارجوان فما منعت الطيوب ريحها القاتلة ولم يحجب الارجوان جراحاتها الماثلة ناشدتك الحب والصداقة يا اخا طفولتي ان تدع حبي يزهر في زرقة السماء بجانب الكواكب حيث ترا اى لي طيف بنيامينا المضيء ، نعم ناشدتك الصداقة والطفولة ان تبقي على حبي هذا الذي لما يبلغ العشرين بعد ، فليس في ميسوري ان اتناساه ، وانه لينبغي للمرء ان يكون نسراً حتى يطرد الحمامة ، وانه لمخيف ورائع ان يبني الله وكرا لصغار الطير ، فتهرع اليها مطمئنة راجية ثم يرمي بها الى مخالب القشاعم

وخنقته عبراته فرمى بنفسه على السرير ، وضجع ضجعة اليمة كأنه لم ينم منذ ليال ،

قال مارسيليوس لسافو ، لن اتركك في هذه العزلة الجاهدة بين خيالات كريستيا واشباحه ، فبكت وقالت له : وفروة ياسيدي ؟ اتدري متى يعود الى سلع ! اني لاخاف الا يثبت امام عدوه القوي : قال لاتخافي ، فما ينال هراقليوس من البطل المقارع فقالت كيف تركته ؟

— في دعة وخفض عيش ،

— ايذكرني ؟

— دائماً فانت شعره في معاركه وملاحمه

— وهراقليوس ! ماذا يصنع قاتل الالوف ؟

— يرابط بجيشه عند سفوح اريحا

— اتعلم شيئاً عن هذا الجيش ، ماعدده ، ومن هم قواده ؟

— خرج قيصر من بيت المقدس في مائة الف عليهم تيزدور ، وذلك الوحش ارتاديوس ، ولحق به مالك بن رافلة في مائة الف من المستعربة ، وانضم الى هؤلاء مائتا الف من عاملة وبهراء ولخم وجذام وبلي وغسان !

— انه لجيش ضخم لا يستطيع فروة ولا هؤلاء الذين توافوا اليه من صحارى العرب ان يمنعوه من النصر ! اني لفي فرق وهم كما ترى يا مارسيليوس

— ثقي بالله وبزوجك يا سافو !

— ولكن الكثرة تغلب الشجاعة !

— ان النصر من عند الله ياسيدتي وليس بد من الموت ، الى اللقاء ، ولا اقول وداعا

— اتعود ؟

— نعم يا سافو في مساء الغد

— لعلك تنقل الي خبراً عن فروة ، خبراطيبا ياأخا آلامي . خبرا يضيء مغاور سلع ويكسف هذه الشموس المحترقة تحت قباب قصر الشالسيه

— سافعل

ولما توارى شبح ما رسيليوس انكفأت سافو الى سرير اخيها فنظرت الى ظله الشاحب واستمعت الى صليل جوفه فاستحيت من ذلته وضراعته وطغا عليها الحياء حتى راحت تقفل باب الحجرة فلا يدخلهـــا احد هؤلاء الجنود الذين لم يستكبروا على فقر وطنهم وجدبه ان يقاتلوا سيد الدنيا . ثم برح بها الالم واليأس فالقت بنفسها على السرير لا لتصلي من اجل اخيها ولا لتدعو على قيصر بل لتبكي شهرة ابيها موريس قيصر الرومان

الفصل الثامن والعشرون

مثل عمرو بن هند

قال فروة بن عمرو الجذامي لمالك الكندي وقد ضمهما سرادق كبير في طريق امتدت فيه الخيام والمضارب بين معان وسلع :

ما كان ينبغي لك ان تحمل نفسك ما لا تطيق حتى تبلغ هذه النواحي وتسمعني كلاما كنت اسمعتنيه في ديرك عند سفوح فاران فاني ما زلت اذكر ليلة احتوتنا بيعتك القصية ، كيف خرج صوتك المحطم على شفتيك الراعشتين ، وكيف اردتني على الذهاب الى بيت المقدس لاضع جبيني على قدمي قيصر ، وقد قلت لك ان فجرا جديدا قد ضوأ الصحاري ، فاولى بالناس ان يستنيروا بشعلته فذلك امثل من ذهابهم الى بزنطية للبحث عن اضواء الفجر

فطأطأ مالك رأسه في غم وقهر وانثنى قائلا

نعم لقد نصحتك ، وصدقتك النصح ، وما يزال اشفاقي على شبابك يبتعثني على نصحك ، فان طويت بغضك ، وانمت ثاراتك ، ورضيت ان تظل على وفائك القديم لزعيم النصرانية ، امتد سلطانك الى بيت المقدس ، وفزت على شهرتك القديمة بشهرة جديدة ، فلقد قال لي هراقليوس انه ضنين بدمك وانه يؤثر ان يناديك الناس بلقبك الجديد ، فروة البطريق ، فذلك امثل وارفع من ان ينادوك بلقبك القديم فروة الفيلارك ، ثم لايمنعك قيصر وقد ابليت احسن بلاء في عدو النصرانية ان تكون ملك ملوك الشام جميعا ، مافي ذلك حرج ولا اثم ، فلقد طوى الردى ملك غسان الحارث بن ابي شمر ، وليس في غسان من يضطلع بعبء الملك من بعده الا جبلة بن الايهم ، انه لفتى لم تهذب المعارك نفسه كما هذبت نفسك ولم يصقل الانتصار طبعه كما صقل طبعك ، ثم هو في حاجة الى ان يجمع عليه

الناس في حين يجمع عليك الناس من سيناء الى حرمون ؛ وان لك من حسك الرفيع ومن قرابتك لكندة ولخم وجذام ، وفي انتماء امك الى اسرة حجر آ كل المرار ؛ في هذا كله ايها الجذامي المستكبر ما يبتعث الناس على الوفاء لك ، قل لي افيرضيك هذا الذي ارتضاه قيصر ؟

برقت عينا فروة حتى خيل الى الراهب الكندي انه ينظر الى سعير متأجج ؛ وحتى ادرك عجزه عن استمالة هذا الفتى الذي احرقته حماسة الصحارى ، ولكنه لم يقنط من إلانته فلقد كان يحبه لشجاعته وشممه ، وكان يرى في تهافته على نصحه فرضا من فروض هذا الحب ، غير ان فروة لم يكن ينظر اليه بعيني الفيلارك سيد سلع وامير معان وسيناء ، بل كان ينظر اليه بعيني زيد بن حارثة ، وفي هاتين العينين قبس من نور ذلك اليتيم الذي اطلعته صحارى العرب ، فقال له نسيت ياأخاكندة انه لاينبغي للظالم ان يوزع الحظوظ على المظلومين وعلى البائسين ، والهاك حبك لقيصر وهو الذي استعبد الارض عن تاريخ قومك حتى نسيت ان جيلا من العرب بني ابيك لم تلن نفوسهم لظلم ذويهم ، وما احب ان اضرب لك الامثال ولكني اردك الى زمن عمرو بن هند طاغية العرب وملك العراق وقاهر غسان ، فانه اسرف في بغيه وجاوز الحدود في ظلمه فهابته بكر بن وائل وخافته العرب جميعا ؛ وام هذا الملك الجبار هند عمة امرىء القيس بن حجر ، قال عمرو لندمائه في ذات يوم هل تعلمون احداً من العرب تأنف امه من خدمة امي ، فقالوا نعم ليلى ام عمرو بن كلثوم قال ولم قالوا لان اباها مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل اعز العرب وبعلها كلثوم بن مالك افرس العرب وابنها عمرو الشاعر سيد قومه ، فارسل عمرو بن هند الى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله ان يزير امه امه فاقبل عمرو من الجزيرة الى الحيرة في جماعة من قومه واقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب وامر عمرو برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات وارسل الى وجوه اهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ودخلت ليلى

وهند في قبة من جانب الرواق ، وكانت هند عمة امريء القيس بن حجر الشاعر وكانت ليـــلى بنت مهلهل بنت اخي فاطمة بنت ربيعة التي هي ام امريء القيس وبينهما هذا النسب ؛ فلم تفت عمرو بن هند هذه القرابة فاحب وهو الرجل العاتي الذي خافته العرب ان يخلع على المأدبة التي دعا اليهـــا شيئاً من كبره وعنفوانه وجبروته فسأل امه ان تجعل ام عمرو بن كلثوم في منزلة لاتليق بشرف ابنها الشاعر الفـارس فقالت لام عمرو ناوليني ياليلى الطبق فقالت لبلى لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها فاعادت عليها والحت فصاحت علبهاواذلاه يا لتغلب ، فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ونظر اليه عمرو بن هند فعرف الشر في وجهه ورأى عمرو بن كلثوم ان تغلب والعرب قد برح بهم ظلم الطاغية فوثب الى سيف لعمرو بن هـــند معلق بالرواق فضرب به رأســـه ونادى في بني تغلب فانتهبوا مافي الرواق وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم (١)

اذا ماالملك سام الناس خسفا ابينا ان نقر الخسف فينا

فانت ترى من ذلك يا اخا كنـــده ان العرب لم ترض بظلم ذوي القربى ، فكيف تريدها على ان تلين لظلم هراقليوس ، وليس قيصر من تغلب ولا من بكر بن وائل ولا من كندة !

ولما بلغ فروة هذه الناحية ن حديثه قال له مالك

ـــ اهذا كل مالديك ؟ قال نعم ولست ازيد على ماقلت شيئاً ، فان كانت لديك ثمة امنيةفاحسر عنها او فانطلق في سبيلك فيرافقك مع هؤلاء الذين صحبوك الى هذا الوادي شبابمن قومي على رأسهم حنظلة قائد حرسي ، ولكني اوثر ان تبق بيننا فلا تذهب الى قيصر وتحارب قومك وبني ابيك

---

١ ـــ الاغاني ج ٩ ص ١٧٦وكان لعمرو بن كلثوم اخ يقال له فروة بن كلثوم فقتل المنذر بن النعمان واخاه واباه عني الاخطل الشاعر بقوله لجرير الشاعر

ابني كليب ان عمي اللذا قتلا الملوك وفككا الاغلالا

ــ فدمعت عينا الراهب الكندي واردف قائلا بصوت عاصف

ــ لن اذهب الى قيصر لاحارب قومي في صفوف الرومان ، فـذلك طريق لا يرتضى السير فيه كنـــدي من بني حجر آكل المرار ولكني ساعتزل الناس في صومعتي واحبس نفسي على الصلاة والدعاء

ــ اتدعو علينا ام لنا يا اخا كندة !

ــ بل ادعو لكم ! وداعا يا اشرف من عرفت !

ــ وداعا ياسيدي وداعا

ومشى فروة الى خارج السرادق ومعه احراسه فودع مالكا وعيناه تسحان بالدمع فما فات الراهب بكاؤه فقال له وهو يمتطي فرسه ومن حوله اولئك الذين صحبوه من رجال مالك بن رافلة وحنظلة زعيم الحرس امثلك يبكي يا سيدي ، فصاح فروة ، لا والله ما ابكاني جزع على الحياة ؛ فما للحياة عند رجل مثلي اثرها عند الجبناء الانذال ، وانما ابكاني الا يزال في العرب رجال من طراز مالك بن رافلة يؤثرون نار العبودية على نور الحرية ! فما تهزهم اريحية عمرو بن كلثوم الى المجد . وداعا ياسيدي وداعا . ثم اعتنقا وافترقا

آب فروة الى سرادقه فتلقاه زيد بن حارثة بين ذراعيه فقال له الجذامي :

ــ غدا المعركة وليكن شعارنا جميعا هذا اليتيم الذي ولد في صخور مكة ! ونشيدنا ذلك النشيد الذي غنته بـــكر بن وائل عشية انتصارها في ذي قار على جيوش كـــسرى ! . . .

وبعد قليل امتلأ الوادي بصهيل الخيول ، ونشيد الفرسان ، وصليل الابواق ، حدث هذا كلـــه ومالك الكندي يجتـــار الطرق المؤدية الى معسكر مالك بن رافلة بجوار البحر الميت .

الفصل التاسع والعشرون

معركة مؤته

بلغ جيش زيد بن حارثة في زحفه الشديد بعد خروجه من معان ارض البلقاء فنزل في الشوبك بجوار الصحراء ، ولحق به بعض المستعربة ثم استأنف الزحف فما ينزل في مدينة او يستقر في دسكرة الا خير اهلها بين خطتين ؛ اما اللحاق به والقتال معه ؛ او اللحاق بالرومان والقتال معهم فمن آثر الثانية على الاولى لم يفلت من القتل او الاسر وقد ظل الجيش دائبا في زحفه بضعــة ايام حتى وسعته اراضي مآب وانتهى الى زيد ان مالك بن رافلة قد خرج الى لقائه ومعه غســان وعلى هؤلاء اركاديوس وتيودور وبونيفاس وسرجيوس من قواد قيصر وعماله في الاردن وغزة وبيت المقدس يضاف الى هؤلاء جميعا بنو بهراء ومواطن هذه القبيلة بين دومة الجندل والفرات وقضاعة ومواطنها الى شمال وادي القرى على تخوم الشام ؛ ثم بلي وبنو لخم ومساكن هؤلاء بجوار مساكن بني جذام مما يلي البتراء وبعض بكر بن وائل وهي قبيلة تمت بصلة ورحم الى جذام اخي لخم فخشي زيد ان تدهمه هذه الكثرة فتحصن بقرية مؤته بجوار الكرك الى اقصى الشرق الجنوبي من البحر الميت غير بعيد من مآب وقد بدأ الرومان زحفهم على اثر منصرف مالك الكنـ ي من معان وتوغل جيش زيد في زحفه ولم يخرج فروة مع جيش زيد الى لقاء الرومان بل لبث في معان غير بعيد من سلع ليحمي الطرق والمنافذ ويمنع رجال المسالح الرومانية من بلوغ سـلع وكانت اراضيه التي نذر حمايتها تخترق قلب الحجاز فتتصل بجنوب هجر ويتاخمهـا من الشرق صحراء العرب وبادية الشام والعراق . اما الصحارى الشرقية الممتدة من معان الى الجوف الى الفرات فكانت على خلائها تخضع لفروة بن عمرو ؛ وتكاد الاراضي الممتدة من شرق مآب

الى ماوراء درب الحج القديم تكون عامرة بالحصون والاطلال والمسالح فقد كانت ميدانا للحروب الطاحنة التي تتالت في عصور مستطيلة بين مناذرة العراق وغساسنة الشام وتفيح هذه الاراضي الى الشمال حتى تتصل بالامارات الصغيرة التي انشأها الرومان وبعضها خاضع لفروة بن عمرو

ويمتد شسع من الارض بحيث يشتمل على حدود البحر الميت الشرقية حتى ينحدر الى اليرموك شمالا وتتصل الحدود الغربية بالبحر الميت في زاويته الجنوبية حتى تبلغ البحر الاحمر عند وادي العربة وخليج ايلة ولجذام مساكن ومسالح في هذه الاماكن وقديما نزل ملوك النبط والغساسنة بوادي العربة فامتدوا منه الى خليج ايلة ثم الى باديه سيناء .

كان قصارى هم زيد بن حارثة ان يثار بدم الحـــارث بن عمير من قاتليه ويوغل في زحفه في اراضي المستعربة فيتحدث اليهم عن سيرة اليتيم وعن رسالته ويقول لهم ان من الخير لانفسكم ان تنصروا رجلا منكم ، رجلا ليس في فصول حياته هذا العنت الذي في فصول حياة الرومان .

وقد كان في زحفه وايغاله شفيقا رفيقا فما وسعته هذه الارض التي نهد اليها ثائرا ومنتقما الا اخذته رحمة باهلها وادركته رقة لهم فارضى بذلك منازعه واوفى بعهد النبي الذي قال له ولجيشه يوم خرج الى وداعهم عند ثنية الوداع ، اوصيكم بتقوى الله وبمن معكم خيراً ، اغزوا باسم الله وقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام . وستجدون رجالا في صوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء (١) وقد مر زيد باناس يزرعون في حقولهم وطاف بالاديرة والبيع والمناسك . ورأى الى رجالها المعتزلين وتسمع صلواتهم وعرضت له الطلول والقصور على الربا الشم واظلته بواسق الشجر ، مر بهذا كله من غير ان يسلي النفس الظافرة بارهاق واعنات ،

---

(١) السيرة النبوية

وكان رفاقه من طرازه فما حدثتهم نفوسهم بريبة ، ولا انطوت قلوبهم على بغض . فاستأنس الناس بهم ، وجاءوا كبارا وصغارا الى زيد ، وبلغوه وفاءهم وحبهم ، وعرضوا عليه طاعتهم وذلك امر ما كان لهؤلاء الذين تعاورتهم النصرانية في غضون ستة قرون ان يعملوه لولا هذا الخلق العالي الذي حرص عليه زيد واصحاب زيد ،

ولكن هذه الشيم البارعة لم ترقق قلوب الرومان ولم تثر حمية الذين يقاتلون في صفوفهم من المستعربة ، فلقد هزأ مالك بن رافلة بصحاب زيد وهم قلة بجانب كثرته ، وازرى قواد الرومان بهذا الجيش الصغير ، لان قواده الشباب لم يفتحوا بعد فتحا رائعا ولو في ناحية واحدة من نواحي هذا العالم الذي افتتحه الرومان وطبعوه بطابعهم فلما نزل الرومان بحصون الكرك ولاذوا بآطامها ، خرجت طلائعهم ومعها النار والحديد الى مسافة قريبة من مؤته ، فاسمعوا اصواتهم زيداً واصحابه وطلبوا اليهم ان يلقوا باسلحتهم فذلك افضل من ان يستمروا في حربهم واجدى لهم فرفض زيد هذا الذي ارادوه ، وآلى الا رجوع الى الصحراء قبل ان تسيل اغاني جنده على حواشي هذا الافق الذي لم يسمع بعد اغاني جزيرة العرب ، وقد كان هياج تيودور الطاغية عظيما فاستاق خميسه العرمرم الى مؤته فنزل بجوارها ، وشرع في محاصرتها ، فلم يكترث اصحاب زيد لهذا الحصار الذي اعد له الرومان وسائل النصر ، وذلك لان هذه الفئة القليلة التي خرجت من يثرب وحضر رسول الله خروجها عند ثنية الوداع لم تنس بعد دعاء يتيم قريش لها ولاميرها الشاب .

في ذلك اليوم عقد رسول الله لزيد بن حارثة وقال ، ان قتل زيد فاميركم جعفر وكان زيد اصغر الرفاق سنا ، فتلفت جعفر بن ابي طالب وقال لسيد قريش بابي انت وامي يارسول الله ماكنت ارهب ان تستعمل زيداً علي ، فهز يدي جعفر وقال له امض فانك لاتعلم اي ذلك خير ، ثم رفع صوته وقال فان قتل جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس فان قتل فليرتضي هؤلاء برجل منهم

فيجعلوه عليهـــم .

وقد وجد الناس ذلك الخير الذي امله رسول الله في زعيمهم فاجتمعوا عنده وسألوه أن يسمح لهم بالخروج الى لقاء العدو ، وقال له عبد الله بن رواحه ، ناشدتك الله يا زيد الاتمنعني من الخروج الى لقاء الطاغية مالك بن رافلة ، فاني لزعيم بقتله فاذن له فلما خرج عبد الله الى لقاء مالك ومعـــه بعض رجاله رأوا مالاقبل لاحد به من العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب (١) وكان ابو هريرة صـــاحب رسول الله في رجال عبد الله فبرق بصره فقال له فتى قرشي يقال له ثابت بن افرم يا ابا هريرة كأنك ترى جموعا كثيرة ؟ فهل خفت فقال ابو هريرة نعم ، فصاح الفتى القرشي انك لم تشهد معنا بدراً ، اننا لم ننتصر بالكثرة (٢) فنم حديث هذا الفتى عن ثقة الجيش القليل بالنصر ، ففي معركة بدر كانت قريش كثيرة بالغة وكان اصحـــاب محمد قلة يسيرة ، فغلبت هذه القلة اليسيرة تلك الكثرة البالغة ، وفرح الذين آمنوا بنصر قريب

قتل من الرومان عند آكام مؤته عدد كبير فيهم بعض المستعربة ، وقتل من اصحاب زيد مثل هذا العدد ، ثم سدل الليل ستره ورجع الرومـان الى البحر الميت فعاذوا باطرافه ، ورجع اصحاب زيد الى مؤته ومعهم قتلاهم وفي اليوم التالي كر الرومان كرة جديدة على مؤته وحاولوا ان يشقوا طريقا اليها فأخذتهم حراب الفتيان من كل ناحية ، فتراجعوا الى الكرك ولحق بهم اصحاب زيد حتى ملئوا النجود والحزون ، واحتوتهم الارض على رحبهـا ولحق بهم بعض المستعربة ممن يقاتلون في صفوف الرومان ، ولكن مالك بن رافلة ظل مستبقيا كبره وعنفوانه فلم يضعف عن المـــقارعة ، فسأل رجاله ان يرقوا ذرى الجبـــال ففعلوا واعتصموا بالاديرة والحصون التي عليها ، وشرعوا يرمون رجال زيد بالنـــار والسهام ، وهؤلاء لايحفلون ان يتساقط عليهم هذا المطر المدرار من اعالي الجبال

---

(١) و (٢) السيرة النبوية

ولا يـــالون ان يتسلقوا الروابي والقمم بحمية لم يشهد مثلهـــا اولئك الذين حضروا معارك الجاهلية ، حتى اذا انهالت نبال العدو على رجال زيد ، ثبت هؤلاء في مواقفهم واستمروا في صعودهم ، لانذلهم نيران العدو عن ترديد اللحن الذي وضعه لهم شـــاعر هذه الملحمة عبد الله بن رواحه . وما زال كذلك شأنهم حتى امتلأت ذرى الجبل بهم ، فاذا هم عليها كاسراب من الطير ، ثم اخذتهم النبـــال والسهام من كل ناحية ، وخرجت النـــار التي اذكاها مالك بن رافلة من شرفات الحصون والاطـــام والقصور ، فسرت الى صفوفهـــم فخرقت الوجوه والصـــدور وسقط كثير من ابطال زيد على الحضيض فاستقبلتهم الارض بين ذراعيها ، وزيد بن حارثة هذا الفتى الذي تبناه الرسول ورباه لايبالي ان يسقط رجاله ولا يأبى ان يصعد على جثثهم الى الحصون التي آوى العـــدو اليهـــا ، وكانت ابواق الرومان والمستعربة تعصف في كل ناحية ، كأنما اراد هؤلاء الذين ازجاهم قيصر الى المعركة ان يقولوا لرفاقهم الذين يرابطون على شواطيء البحر الميت انهم في حاجة الى مدد ومـــا زالت اصوات الابواق تعصف حتى شهد الرومان الذين على البحر الميت خيالات النار الحمراء . وتلك هي علامـــة الاستغاثة ، فقوضوا خيـــامهم ومضاربهم وساروا في محاذاة البحر الميت الى الكرك وعليهم هراقليوس العربيد .

لم يفت زيد بن حارثة معنى صليل البوق واذكاء النار على رؤائس الجبال فاقلع برجاله الى مؤته وتحصن بهـــا ليلتين لم يحدث خلالها حادث وفي ذات ليلة احاط هراقليوس ومالك بن رافلة واركاديوس وتيودور بالقرية ومعهم جيوش بيت المقدس واريحا وغزة والبلقاء فنذر زيد ليموتن ومن معه حتى يقضي الله امره . ورأى ان لامعدى له عن الخروج الى لقاء العدو او يموت واصحابه جوعا واسرا ، ثم تعبأ هؤلاء الرجال المساميح فجعلوا على ميمنتهم رجلا من بني عذره يقال له قرطبة بن قتادة وعلى ميسرتهـــم رجلا من الانصار يقال له عبادة بن مالك فلما كان صباح اليوم

التالي خرج زيد الى الميدان ونادى مالك بن رافلة طاغية العرب ، فنزل مالك اليه فساجله زيد وهراقليوس ينظر تحت اللواء الى شجاعته فيهجه ان يستطيل على عدوه . ثم يسقط مالك جريحا ويسرع اصحابه اليه ويذهبون به الى خيمته ، ثم يسأل زيد اصحاب قيصر ان ينازلوه ، فيروح هراقليوس متشاجيا ويأبى هذا الذي اراده زيد ويتهـــافت على تيودور ويهمس في اذنه همسا ضعيفا ويقول ، لمثل هذا اليوم قد اعددتك يا تيودور فما يخلق بالرجل الذي قاتل في ارض كـــسرى ان يرجع امام هؤلاء البدو الاعاريب .

ويخرج تيودور من خيمته وبه ثورة وجنة ، وعلى صدره صليب من الذهب وفي يده نصل غشاه بدرة لامعة كانت تضيء على فرق كـــسرى ومن حوله احراسه ورجال حربه ، اركاديوس وبونيفاس وسرجيوس ، ثم لايلبث ان يطل بجواده الابيض على الميدان فيراه الرومـان والمستعربة فيغني هؤلاء جميعـــا اناشيدهم ليسمعها من في البادية فلا تلتوي ظنونهم بقيصر فيغنيهم زيد ورجاله تلك الانشودة التي ولدت في غار حراء عشية تلق محمد سيد قريش وحي السماء فتستفيض الانشودة حتى تضمحل اناشيد الرومان وزيد بن حارثة يتفيأ راية محمد رسول الله . لايعرض عنها ولا يلقي بها الى احد .

ويتلاقى الفارسان ، فارس الرومان تيودور ، وفارس العربية زيد في الميدان الواسع بجوار مؤته ، وقيصر يرى الى كرهما وفرهما ، فيميده رعبا ان يلبس رمح زيد صدر تيودور ، ويلتفت الى صاحبه ويقول له ، حذار ان يخترق صدرك رمح هذا الفتى . فلئن فعل ضيعت اجمل انتصاراتك . ثم يصفق ويضحك اذ يرى تيودور رابط الجأش في مقارعة خصمه وما زال كذلك شأنه يعبس ويضحك حتى سقط تيودور جريحا ، وسقط جواده قتيلا فلوح قيصر بيده الى الرومـان مناديا اركاديوس ، ثم يشرع الرومان سيوفهم ورماحهم ، وزيد يناضل ويساجل حتى شاط رضى الله عنه في رماح القوم ، فاخذ الراية جعفر بن ابي طالب فقـاتل

بها حتى اذا الحمه القتال ، اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها كي لا يغتنمها العدو ولا يطمع في الهزيمة ، ولم يكن احد قبله من اصحاب يتيم قريش عقر فرسا في قتال، فاخذ الراية في يده اليمنى وناطح العدو فقطعت يمينه فاخذ الراية بشماله فقطعت شماله فاحتضنها بعضديه ، حتى قتل (١) وصاح هراقليوس وهو يرى الى مصرعه ياللقتيل المنتصر ، وقد مات رضي الله عنه وبه بضعة وتسعون طعنة برمح او ضربة بسيف او رمية بسهم واخترقت صدره حراب اركاديوس وبونيفاس وتيوفيل ، وهكذا ختم هذا البطل حياته في ارض الشام ، وقد بدأ هذه الحياة منفيا ومهاجراً في ارض الحبشة ، واطبق عينيه وهو يتمثل نور صاحب الغار فوثق دمه الطليل عروبة هذه الارض الشامية وشرف تاريخها واخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة الانصاري فتقدم بها وهو على فرسه يقول .

يانفس الا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد اعطيت ان تفعلي فعلهما هديت

وهكذا ذكر صاحبيه الشهيدين ، وكان طاويا فاتاه ابن عم له بعظم من لحم فقال له شد بهذا صلبك فانك قد لقيت في ايامك هذه ما لقيت ، فاخذه من يده وانتهس منه نهسة ونظر الى رفاقه فاذا هم مثله قد نهدوا الى المعركة جياعا فاستحيا ان يأكل واخذ سيفه فقاتل حتى قتل ، (٢)

لم يطفىء قتل الزعماء الثلاثة جذوة هذه الحماسة الطاغية على جيش مؤته ، فعقدرجالهالثابت بن اقدم العجلاني ، فاخذ الراية وقاتل بحمية وبأس حتى لانت صفوف العدو له ، وحتى اقبل المساء ، فاستراح الجيشان عند آكام مؤته وفي صباح اليوم التالي اشتبك القتال بشدة وعنف ، وقدر الذين صدمتهم سيوف الرومان ورماحهم على الثبات فخيل الى قيصر ان مناوئيه قد تلقوا مددا فامر اصحابه بالرجوع . الى البحر الميت ففعلوا . ولم يتعقبهم الاحياء من جيش زيد ،

(١)(٢) الطبري

وفي المساء دفن زيد وجعفر وعبد الله في حفرة واحدة عند حدود مؤته

توافت نذر هذه المأساة بعد ايام الى سلع فآلى سيدها الغطريف ان يمضي في المقارعة حتى يثأر بدم القتلى والصرعى، ثم بلغه ان قيصر قد زحف الى سلع بخيله ورجله، وان كتائبه لاتنزل بلدا، الا وطئت زروعه وحرقت شجره، وخربت منازله وقوضت عمرانه، فحفر حول خيامه ومضاربه خندقا عظيما، وحاط هذا الخندق بالاشواك والحجارة، وامر رجاله في سلع ان يركبوا غوارب التلال حتى اذا اخذهم العدو امطروه وابلا من النشاب وقذفوه بالحجارة، وسددوا الى صدور رجاله الرماح والسيوف، وكان عظيم الثقة بنفسه فلم تضعف حميته هذه الردة المؤلمة التي لقيها ابطال مؤته، بل لقد اذكت هذه الردة شجاعته وصقلت مروته، فشهد بنفسه كيف رفع مارسيليوس الحياط حول الخندق وتناول بيده معولا فضرب به الارض وقال لمارسيليوس « احفر هنا خندقا جديدا ياصاحبي فاذا استطال العدو على الحفرة الاولى وحاول ان يتقدم، ابتدرته الحفرة الثانية، وفجر رجالنا الذين على الربا والذرى ماء الصهاريج الى الحفرة حتى ترد الى مستنقع فلا يجرؤ العدو على الزحف.

وكان الملعب الروماني في سلع يسع خمسة الاف رجل فبث رجاله على درجاته وسلالمه، واختبأ بعض رجاله واحراسه في كهوف المدينة وغيرانها استعداداً للقاء العدو الضخم، ولم يبق في مدينة المقابر ربوة اوثنية او مغارة الا تولى حمايتها فارس كمي.

وكان زحف الرومان الى سلع صعبا. اذ كان ينبغي لهراقليوس ان يقاتل في ارض لم يألف الذين تقدموه من قياصرة الرومان والاغريق ان ينتصروا فيها. واذ لامعدى للفرسان الذين يحبوه الى فارس عن القتال في الجبال والاودية ووراء هذه الجبال والاودية صحراوات ومفازات ووراء الصحراوات والمفازات جبال جزيرة العرب، وما يستطيع هراقليوس على شديد عطشه الى الدم ان يفرط في جنوده ويلقي

بهم الى دنيا من الرمال والرياح وكان يعلم انه لن يجد في سلع غير الرجال لان العرب لا يتركون نساءهم وشيوخهم واسلابهم في المدينة ، ومع هـــذا كله مضى هراقليوس لماشاه ودأب في سـيره حتى سلخ في عشرة ايام مسافة كان في ميسوره ان يسلخها في ثلاثة ايام .

وقد مرت كتائب قيصر بقرى كثيرة وطلعت عليه جبال واودية فلم ير في غضون هذا الزحف رجلا واحدا من رجال فروة بن عمرو ثم استقرت به النوى في مكان بجوار معـــان فضرب خيامه في السهول ووضع جيشا كبيراً على حماية الطرق واذن لمالك بن رافلة في مهاجمة سـلع فخرج اليها بكتائبه حتى اوفى على السيق فحام حوله .

الفصل الثلاثون

على ابواب الصخرة

ضوأت الشمس جبال سلع واوديتها ، فما تفوت اشعتها الخاطفة الطرق والمسارب والملعب الروماني وقصر فرعون وقوس النصر ولكن مغاور سلع وكهوفها ظلت تسبح في الاسداف الراعبة وظل الرجال الذين فزعوا اليها لاينظرون الى غير هذا النور الذي يضيء عيونهم فيرون على ضوئه الى الطرق والمنافذ فاذا همست الريح في الوادي طفر هؤلاء من اماكنهم ووقفوا على ابواب الغيران ليروا القادم ويتبينوا صورته ، فاذا علموا ان العدو لم يطرق ابواب سلع بعد انقلبوا الى المغاور وحرصوا على الصمت خشية ان يفضحهم الهمس ، ومـا زال كذلك شأنهم حتى شرع مالك بن رافلة في الزحف وحتى احاط رجاله بمدخل الوادي وجروا النار على جنباته واطرافه ، وصعد بعضهم على غوارب الصخور ليروا الى المدينة فارسل الهم الجذاميون الذين على الحياط سيلا دافقا من النشاب فرجعوا فعنفهم مالك بن رافلة على رجعتهم وسألهم الا يعودوا قبل ان يلين لهم السبق فاستأنفوا الصعود الى غوارب الصخور ووطأ فريق اكتافه لفريق وتسلق جميع هؤلاء اصلاد الوادي الحمراء حتى انكشفت امامهم الطرق فحاولوا ان ينحدروا اليها ويفتحوها امام جيش ابن رافلة فما قضوا وطراً فلقد تلقاهم الجذاميون الذين تسلقوا الجانب الاخر من الاصلاد بقوة وصبر ورشقوا صدورهم بالنشاب فسقطوا الى حضيض الوادي وتلقتهم ارضه مضرجين بدم

لم يحدث هذا الاخفاق الذي تعاور المستعربة يأسا في نفس مالك بن رافلة ، ولاثناه عن منازعه ان يقتل فريق من الذين ارادهم على ركوب الصخر الواعر ، فسأل طائفة اخرى من رجاله ان يستأنفوا فعلة الذين تقدموهم فتهافتوا على السبق

وركبوا غاربه وهم يعلمون انه الطريق الموصلة الى سلع ، وقد كان ينبغي لهم ان يطلعوا على الوادي ليتسمعوا اصواتهم اولئك الذين ينزلون بحدوره وسفوحه فيتراجع هؤلاء ويلحق المستعربة بهم وتفتح لهم ابواب السيق ولم يكن في ميسور المستعربة ان يغشوا المدينة من طرف اخر لان السيق لايبرح مدخل المدينة من ناحية الشرق ويرتفع عنـــده جانبا الوادي عموديا كسورين عظيمين وطوله لايزيد على ميلين وعرضه لا يعدو ثلاثين قدما ولا يستطيع الجيش المحارب ان يوغل فيه الا اذا تدافع رجاله على اجتيازه اثنين اثنين فاذا بلغ الجيش وطره وجاز الوادي استقبلته سيول الماء تنحدر من المغاور والكهوف والفجاج وانفرج الوادي امامه وامتد الى مسافة ستة آلاف قدم تقوم عليها صـــروح المدينة ومعابدها وقصورها ثم يعود الوادي فيجري في مضيق واعر آخر يعرف بالسيق الغربي ولا يزال يضيق ويلتوي حتى ينتهي في وادي العربة بجوار خليج ايله

امضى رجال مالك بن رافله ليلتهم بجوار السيق ولكن الجذاميين لم يجعـــلوا لهم سبيلا الى مدينتهم فرجعوا الى زعيمهم وتحدثوا اليه عن خيبة آمالهم فلم يجد الملك معدى عن اللحاق بسرادق قيصر فامر سيد الدنيا جيوشه وكتائبه بالزحف الى سلع من جميع النواحي وكان ينبغي لهراقليوس ان يسلخ سبعة ايام في اعداد كتائبه لمهاجمة حصون سلع من السيق الشرقي ومن السيق الغربي ، من البر ومن وادي العربـــة حيث تتصل الكتائب الرومانية بشاطئ ايله الذي تحميه سفن الرومان في البحر الاحمر فلما كان اليوم الثامن شرع الرومان والمستعربة في مضايقة سلع نزولا على ارادة هراقليوس فثبت لهم الجذاميون من انصـــار فروة بن عمرو واجتمعت المدينة كلها على المنافحة والمقارعة وشعارها في الملحمة التي خرجت اليها بنسائها وشيوخها وشبانها ذلك الشعار الذي مات علـــيه في مؤته زيد بن حارثة وجعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحه ومن مات معهم من اصحاب يتيم قريش وقد حدث ان اراد قيصر سبعين رجلا من الرومان والمستعربة على ركوب

الاسوار ، فتبارى هؤلاء في تحقيق نذره ولكنهم لم يرجعوا الى رفاقهم فاحفظ قيصر ان يموت هؤلاء بحراب الجذاميين ورماحهم فسأل اركاديوس ان يذهب باشجع رجاله لتحقيق ما عجز الصرعى عن تحقيقه فلما تساق هؤلاء الروابي وبصر بهم مارسيليوس عن بعد ثارت ثورته وطغت جنته ، وعرف اركاديوس من تحت القناع فخف اليه بقوة من لخم وجذام ، فرشق هؤلاء اتباع اركاديوس بالنبال والنشاب ، فما حفل الرومان والمستعربة بهذا المطر الهامر يتساقط على رءوسهم من كل ناحية ، بل ظلوا دائبين في الزحف حتى غادروا وراءهم تلال سلع ونزلوا الوادي ومارسيليوس وصحبه يتظاهرون بالرجعة ثم لم يلبث اركاديوس ان اطل على الطريق الذي يدفع الى المدينه فانحى ناحيته وقد طغا طغيان النمر ولوح بسيفه من بعيد في وجه مارسيليوس صائحا : عرفتك ياخائن ! عرفتك ياخائن ! وفي تلك الاثناء نزل اصحاب اركاديوس باماكن قريبة من سيول المـاء فالحقهم رجال فروة من خلال الصدوع والمغاور وخرجوا اليهم بالسيوف والرماح ثم استحر القتل بين الفريقين ، ووصل مارسيليوس وجماعته الى الحومة ، فما ان صافحت عيناه عيني اركاديوس حتى طفر اليه وقبض على عنقه صائحا لو رأيتني يا كريستيا كيف قتلته ، وما زال يشد على عنقه حتى خرجت عينـاه فهوى الى الارض فاطل مارسيليوس على جثته واستل خنجره واهوى بها الى صدره فزفر زفرة واحدة واغمض عينيه فما يفتحهما بعد هذا اليوم ثم احتز رأسه ورفعه على رمح ولوح به في وجوه اصحابه فطغت حماستهم فتهافتوا على اتباع اركاديوس تقتيلا وتذبيحا ؛ وفي غضون هذه الملحمة كان الرومان يلقون السلالم من رؤوس الجبال لينزل رجالهم عليها الى الوادي فما ترى العيون على السلاليم غير رءوس يلمع عليها حديد الخوذ وغير صدور تبرق على حواشيها الصلبان ثم تصدعت ثقوب الجبال فخرج منها رجال هراقليوس وعليهم مالك بن رافلة وتيودور

عسعس الليل في سلع والتي باطيافه القاتمة الى الشعاب والاودية والجروف

والغيران ، وابطأ القمر في اطلاله، وسدرت النجوم في السحب الباردة ، وغابت القبور والقصور في الظـلال القاتمة . وعسر على العـدو ان يتعرف عدوه ، فنزع الفريقان الى المشاعل . فذكت عـلى الشعاف والقلل وفي سفوح الاودية ، وهدرت الاصوات ؛ تهدار مياه الينابيع ، وانفلت الغناء من صدور الرومان والمستعربة فاستمع له جنود فروه واحراسه فغنوا اغانيهم ، وفروة الى هذا كله يشجع فتيانه ويذكرهم بالدم الذي اراقـه هراقليوس في صعيد مؤته فيغضب فتيانه ويحدوهم الغضب المقدس الى المنافحة والمقارعة فلا ينتصف الليل حتى تتنفس سلع الصعداء ويخرج منها آخر جندي روماني

لم يستطع الرومان ولا المستعربة الذين نزلوا بوادي العربة ان يصعدوا روابي جبل حور لينحدروا منها الى سلع فاضطروا بعد عشرين يوما امضوها في الصعود والهبوط الى اللحاق بكتائب قيصر عند معان ليشتركوا جميعا في حصار سلع . وقد وقر في ذهن هراقليوس ان لامعدى له عن بناء سطح طويل في محاذاة اسوار المدينة ليقـاتل جنوده عدوهم القوي في ارض ذات نسق واحد ، فسأل الذين معه ان يشرعوا في البناء فاطاعوا ، وآب هو الى اريحا مع حاشيته يرقب عن بعد نتائج المعركة الكبرى .

الفصل الحادي والثلاثون

صوت الجبل

بعد اسبوع دخلت سافو على كريستيا في مثوى عزلته بدير سلع وهي تصيح هلم فاحدثك عن انتصارات فروة ، هـــذا البطل العبقري الذي طرد جيوش قيصر بالنبأ . كنت على الشرفة ليلة وطيء الطاغية مالك بن رافلة ارض سلع ومعه احراسه وكماته ، وكنت ارعش من فرط الرعب ، وابحث عن مكان اواري فيه هذا الخوف الذي علق بنفسي ، وما تستطيع نفس ان تتجلد والخطب كما علمت غير يسير ، وانني لفي ذهلة انظر الى رجال العدو وهم يقتحمون الوادي اذا رجال من صحب فروة ومعهم مارسيليوس البطل يخرجون من المغاور والكهوف ، واذا رفاق لهم ينحدرون من الربا والقلل ، ثم يسير هؤلاء جميعا الى لقاء العدو والارض توشك ان تمور تحت اقدامهم ؛ واناشيدهم تسيل على حواشي الافق ، ثم يشتبك العـــدوان في ملحمة فيها من العنف والقوة والبطولة والشرف والرونق والكبر ما انت بحاجة الى وصفه في شعرك الرقيق الشريف ، وكان يخيل الي وانا انظر الى بريق الخوذ على رءوس الرومان والمستعربة واستمع الى صليل سيوفهم وهدير صدورهم انهم مدركون صبابتهم من النصر ، ولكن هذه الشيم التي ماتفارق صحب فروة كانت زعيمة باطفاء هذه الحماسة التي طغت على مشاعرهم فلما اوشك مالك بن رافلة ان يعبر الاخدود الذي حفره مارسيليوس عند مدخل الوادي انهال عليه كماة سلع بالحجارة والنبال وفجروا الماء في الاخدود الغائر حتى استحال الى مستنقع وحتى جرفت سيوله جثث الرومان ' في هـــذه الملحمة قتل عدوك اركاديوس يا كريستيا ' وهذا هو رأسه يبين للناس على راية تنظر الى الوادي ! فاذا تجنبت عزلتك وأتيت الوادي عند الينبوع الدافق الهادر رأيت الى الجثث وقد زحمت

الارض وغطت العشب والنبات فاذا نظرت الى الراية لم يفتك ان ترى الى عيني عدوك الغائرتين السادرتين ! ان سلع لترقص وتغني ، فلقد اقلع عنها ذلك العدو المغير ، ورجع قيصر الى اريحا رجعة لاتشرف هـذا النصر الذي اقتطف جنيه في مدائن كسرى !... ارفع رأسك واستمع الي فما يليق بك ان تمنع نفسك سحر هـذا اليوم ،

ولكن كريستيا كان مريضا مدنفا فلم تستفزه احاديث سافو عن انتصار سلع ، ولم يوقظ احساسه هذا النبأ الذي حملته اليه عن مصرع اركاديوس ، وكان ساعة دخلت سافو الى حجرته يقرأ قصـة اوديب في كولون لمؤلفها الشاعر سفوكليس فونفت اخته عندرأسه واخذت تعبث بغدائره المرسلة وتقول له في دعة ورقة :

— لو استبدلت اغاني سفوكليس باغاني هوميروس في الياذته لازهر حلمك في نفسك ، انه لشجي ان تطالعك الصور الكامدة في حياة اوديب التعس بينما شموس الانتصار تحرق الوادي من اعلى روابيه وذرواته الى ادنى سفوحه وشعابه . فنظر اليها بعينيه الغائمتين وقال لها : ولكنه في ! فصاحت في الم وثورة ولكنه فن الموت وليس يروق سلع في يومها الخالب ان تنظر اليه ! ثم مثلت له الملحمة بلغة عذبة وبيان رائق فهز كتفيه وسألها قائلا :

— امات اركاديوس ؟

— نعم مات عدوك وعدو وطنك

— وهراقليوس ؟

— جن جنونه ! وضيع مظافره !

— وفروة ؟

— في الحصن ، لم يخلع درعه بعد فلقد نذر ليثأرن برفاقه اولئك الذين ماتوا كراما وآلى ليعودن بك الى قصر الشالسيه عند شواطيء القسطنطينية

— ومارسيليوس ؟

ــ يكاد لايفارق الجيش المنتصر

ــ وددت لو ان الله اعارني جناحي طائر ، اذن لطرت الى فروة وصارحته بودي . ولكني مريض ، وما تستطيع قدمي ان تنقلني الى المكان البعيد النائي ، ثم التى بنفسه على سريره ووارى عينيه بقصة اوديب في كولون ، واردف هامسا دعيني ياأخيه ، فما اجدني ذلك الرجل الجدير ببهاء هذا اليوم ، قلت لكن عزلتك هذه تضنيك وتذبلك

ــ ناشدتك الله ان تدعيني وشأني ، فان من احب الاشياء الى نفسي ان اظل في عزلتي هذه فلا اسمع هذا الضجيج الذي يملأ روابي سلع

لقد كان رجال فروة ينتظرون معادها عند منحدر الدير ، فودعت كريستيا على ان تفيء اليه مع مارسيليوس ، ولم ينهض كريستيا لوداعها ، بل آثر ان يستريح في فراشه وظل يستمع خطواتها حتى استوثق من ابتعادها ، ثم لم يلبث ان جفا سريره ، واقبل الى النافذة المطلة على جبل حور ففتحها ، وسرح طرفه في الجلامد الحمراء ، واصغى اصغاء شديدا الى ماحوله . فخيل له ان الجبل يناديه ، فرعش ولحق بالطرف الآخر من الدير ، حيث تطل شرفات هذا الصرح العجيب على طريق سلع ، واخذ ينادي سافو ويطلب اليها ان ترجع اليه . لان صوت الجبل قد اخافه وملأ وحدته بالرؤى المفزعة ، فما سمعت سافو نداءه . واني لها ان تستمع لندائه وقد وارتها عن الدير رواميس سلع وقبورها ، فآب الى حجرته ، وسكن الى فراشه ولكنه لم ينم طول ليلته ،

وفي صباح اليوم التالى افاق من ضجعته مبكرا ، فنزل بسطح الدير ووقف ينظر منه الى جبل حور ، وبيده لاتفارق قصة اوديب في كولون ، بل لقد كانت نظراته لاتمل ان تنظر الى رعان الجبل ولا الى شعافه ، فاذا امتدت تأملاته واستطالت اوهامه ، لم يجد معدى عن الرجوع الى قراءة اوديب فاذا امعن في القراءة طفرت من صحائف الكتاب الى نفسه نزوات مرة ونزعات مضنية فيها الكثير من احزان

اوديب ' فاذا خانه الصبر ولم يستطع ان يدفع عنه هذه النزوات الجائشة ، فكر في الموت ، وفتح فمه وانثنى هامسا

يا للبؤس ، يا للتعاسة ! انني لا اعرف شيئا من امر حاضري ، وليست تعرض لي صورة من مستقبل احبه واطمئن اليه ، وما تطالعني في هذا المكان الموحش امنية من اماني ، فهل كتب لي ، وانا في هذه العزلة القاسية الجافية التي امضي فيها ايا ي الا تخالط نفسي امانيها العذاب ،

نعم انا وحدي، وانا جدير بهذا الاعتزال ، وبسكنى هذه الظلمات والاسداف التي تغرق لاموات ، وليت شعري ماذا عساني ان اصنع بالاحياء ، وشمسهم لاتشبه شمسي ' واحلامهم لاتماثل احلامي ' وليس بيني وبينهم الا انهم احياء والا انني ميت ' والا انهم يفضلون العرف الطيب ' والمجد والحب ' والا انني اوثر هذا الرغام ' وهذا الرفات الطحين

لاعيشن في هذا المنسك عيشة الجاهلين الذين لم يخرجوا عن الفطرة الاولى فان في هذه الفطرة التي لاعقل لها كل اماني النفس في الدعة والسكون على حين هذا الفكر الطافح ، المضيء المحزن ' يفيض الماً وتعاسة ، ولابحثن عن اللذة في هذا المكان المهجور فانها لتحسر عن اشياء لاتنتهي ، وفي هذه الاشياء التي لاتنتهي كل اماني في الشعر والموسيقى والسموات الفيح ' والمجد والنزع ، وليس يجمل بي ان اصانع العقل واسايره فانه يأبي على الجسد المترع بالرغبات ان يرد موارد اللذة . . .

وهكذا جمال كريستيا يصم اذنيه ويغلق قلبه ' فلا يسمع صليل السلاح في سلع ' ولا يستضيء بنور الشهرة وهي ابنة الظفر ' فقد كان من احب امانيه ان يعيش مغمورا منسيا ، لان العالم الذي يمور بالمجد لم يعرفه بعد ولم ير الى صورته' ولان حسه الثائر هو الذي يكتب قصة حياته ، ولان العقل المفكر لم يشأ ان يكتب فصلا من فصول هذه الحياة '

وكان الحر شديدا عند سفوح الوادي ، وقد زها الزهر وبسق في فروع طويلة،

وحامت العصافير والفراشات على النباتات والاعشاب ، فما تستقر ولا تهدأ ، ولما ترامت الطيور الصغيرة عند مواطىء قدميه وحامت الفراشات حول عنقه لم يجرؤ ان يمد يدا اليها فرق لها ورأى في اضطرابها لونا من هذا الاضطراب الذي يغشى روحه ، وما كان يفكر في الموت قبل هذا اليوم ، ولكن اليأس الذي زحمه منذ ليال ، لم يلبث ان خرج اليه من هذه القبور الناظرة اليه ، ففكر للمرة الاولى في الموت ، ورانت هذه الفكرة عليه حتى ملكت مذاهبه ولبست شعوره ، فنظر من سطح الدير الى الهوات الغائرة تحت قدميه ، فتراءت له الجلامد والصخور حاسرة عن اشداقها واسدافها ، فازمع ان يرمي بنفسه من هذا الشاهق الذي عليه فيتلقاه الحجر الصلد ويتحطم رأسه وينجو من خيال هذا المجد الذي يلاحقه ولا يستطيع ان يتعرف اليه او يستمع لندائه ،

ولكن الموت ما كان هينا يسيرا فتسيغه نفس هذا الفتى الذي ادرك ربيعه العشرين على ضفاف الاردن الكاسية ، وجنى جنى الحب في الارض التي حباها الله كل اشعار السماء ، ولماذا يلقي بنفسه الى الحجر الصلد في الوادي وهذا الربيع العشرون ما يزال يضحك ويقهقه ، وهب كريستيا جرؤ على الانتحار واهوى باحلامه الى ليل الموت الصارد ، فاي شعر غير شعره يصف نجوم السماء ، وهذه السحب الضاحكة على حواشي الافق ، وهذا النسيم البليل الذي يضطرب في حدور الوادي ، وهذه المروج التي ازهر فيها النارنج والليمون والتفاح

لقد نظر الى الهوة التي تحت قدميه ، ففتحت له شدقيها ، فروعه ان ينزل الموت بهذين الشدقين ، فولى عنها وسحب خطواته الى حجرته وهو يصيح ، لا لا لست اطيق هذا الموت وما اسيغ ليله الدجوجي

وخيل اليه ان جبل حور يناديه ، فسكنت احلامه وفتح صدره لصوت الجبل واوغل في نواحيه وفي خفة البرق راح رانيا الى الجبل واشعة المساء تطفو على مصاده وربيوه وصدوعه وحضيضه فوثق حبه لهذه الاشياء ان بصدره قلقا وان بجانحتيه

فزعا وانه الى جانب هذا القلق وذلك الفزع لم يعد يأنس للنام بسلع فلو تسلق الجبل ودلف بين جروفه ومسايله ونزل في غيرانه وكهوله والواذه وسفحه لرأى بعد طوافه الجاهد وادي العربة الجميل ولتبدلت في عينيه هذه المشاهد التي كره ان ينظر اليها في الدير وفي الملعب الروماني وفي قصر فروة بن عمرو

في ذات صباح جلس كريستيا في فراشه وهو اشد ما يكون نزوعا الى الصوت الهادر فلما اطل برأسه من الشرفة رعرع ضوء الشمس في عينيه فاحس قوة ونشاطا وابهجه ان يخرق سمعه في الصباح الباكر صوت البلبل في حديقة الدير فصبا اليها لاليستظل باشجارها الندية ولا ليستريح لغناء البلابل على الادواح الرخية ولا ليفتش عن السحر واللذة تحت سرحة الدير الفنواء فما كان هذا ليهمه ويعنيه وانما كان يهمه ويعنيه ان يجد في حديقة الدير تلك الطريق التي كان ينزل بها كلما نازعته ميول النفس الشاعرة الى الطواف بجبل حور ، وكلما اشتاق الى وادي العربة

فلما اهتدى الى تلك الطريق رمى بدثاره الى ناحية ووثب من الدير بملابس النوم ثم اقبل الى المرآة ونظر فيهـــا الى صورته فاذا وجهه قد رق وذبل ، واذا عيناه تلوحان مبتلتين غائمتين فما اخافه التبدل ولا روعه التحول ، بل جاء يبحث في ودائعه عن ذكرياته الماضية ، فعثر على شعور بنيامينا وعلى دمية تمثل صورتها وكان هو صانعها ، فوضع الدمية على فمه وادنى الشعور من شفتيه واغمض عينيه كأن ريحا طيبا قد انفلت من صورة الحبيبة الغالية ، وانه لحادث عجيب ان يظفر من هذه الصورة كل ما يحتاج اليه من سحر ولذاذة وهوى وشباب ومرح وعافية وطلاقة فاكثر من شم ذلك العرف الطيب وحرص على ان يستبقي اثره في نفسه فلا ينملس منهـــا وآلى ان يمضي الى جبل حور غير حافل بهذا الضجيج الذي وسع افاق سلع ولا مكترث لمصاير الذين تعاورهم المـــوت زلفى للوطن وارضاء لمطامعه واهوائه

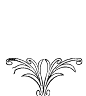
ولم يكد يبتعد قليلا عن مثواه حتى ارتد به الخاطر الى سافو فخشي ان تنقلب

الى الدير فلا تراه ، فتمضي في البحث عنه عند مغاير سلع او في اخياف جبل حور الرهيبة وفي اجوافه الغائرة . فاذا فعلت ذلك لم يأمن عليها ان تضل الطريق وليس يريدها ضالة ولا شاردة ، وهي التي آثرت ان تلبث بجواره على الخروج مع زوجها الى الملحمة ، فرجع الى وكره تحت بريق المساء فلما وطئ ارض حديقة الدير الصغيرة زحمته اعراف الياسمين والزنبق والورد فترسل في مشيته ووقف ينظر الى الازهار المنحنية ، من خلال بروق العشية الحمراء فاذكره فوحان الزهر ذلك الصيف الذي تصرم عند شواطئ طبريا كأنما هذا الصيف الذي انقضى ولم يبق منه غير الذكر قدحاء يغنيه ارق اشعاره واعذب قصائده ففتح صدره ليرى الى خيالة الصيف في فتونه واشراقه فاذا وهمه يريه الصورة البارعة التي احبها ، صورة بنيامينا !

لم تمر بخواطره هذه الصورة منذ زمن ، فلقد محتها في نفسه وفي حسه هذه الرؤى الجاهمة التي غشيت لياليه في سلع وكثيرا ماصبا الى ان يراها ، فوارتها عن بصره قبور وارماس ، واحاديث عن الشهرة والمجد والفتوح في سوح الوغى ، فلما تمثلت له في الرياحين ارتد بحسه القائر الى قصر بنيامينا القائم على شواطئ بحيرة طبريا فراح يهيم في غرفه ومقاصيره بين عمده المرمرية وتحت سقوفه الملونة حتى استقرت به هذه السياحة الخادعة الى حجرة بنيامينا فجاس خلالها فاذا الحبيبة قد تعرت من لباسها الا من غلالة رقيقة تستر جسمها اللدن وقد همت بنوم واخذت وصيفتها تريق على سريرها الذهبي عطور النارنج فاستهواه جمالها فجعل يزهدها السرير ، فما يليق بها ان تغفو والحب يفتح لها ذراعيه ويسألها ان تمضي الليلة في سكر ولذاذة وحب .

ولكن خيال بنيامينا ظل نائيا ، فقلب عينيه في حجرته ورأى الى جلامد سلع من خلال الشرفة وقد حجبها الليل الغاسق ، وسرى في الافق هواء حار فادرك خطله فاستحيا من احلامه وتصوراته ومضى يكافح هذا القلق الذي

مازال يصاحبـــه منذ صدف عن مغنـــاه عند شواطيٌ طـــبريا ، وكان الكفاح عظيما وجليلا ،ولكنه كفاح الرجل البائس الذي لاينتهي بصاحبه الى الشعور بالرجـــاء ثم تعـــاوره الطوى الشديد العنيف فقفل الى حجرته ليأكل فلمـــا استجمع قواه وانقلب الى سريره رقـــد رقـــدة لم يخالطها حلم .



الفصل الثانى والثلاثون

المعركة

تتالت على الشاعر المثال بضع ليال لم يأنس فيهن الى زيارة سافو ولا الى احاديث مارسيلوس فروعه جفاء الصديقين النجيبين وانمىشجونهان ينقطعاحراس فروة عن الطواف بالدير ، وقد كانوا يطوفون به في كل امسية ويحملون اليه على اضواء المشاعل صبابته من الطعام والشراب وفي ذات ليلة افاق كريستيامن فراشه على صوت المطر وقسد انسكب وانبعق على شرفة الدير فنهض من سريره واطل منها على الافق فاذا السحاب قد غلظ وركب بعضه بعضا ، واذا المطر قد كثف واطبق ، ثم برقت السماء ورعدت وتتالى رعدها حتى اماله الهزيم عن مستقره فارتد قليلا عن الشرفة ولم يكن قبل ليلته هذه قد شهد الشتاء في سلع ، وهو شتاء مخوف راعب؛ لاينقطع فيه الصليل والهزيم . ولا ينفك سحابه يتدلى حتى يدنو من الارض

وفي تلك الليلة التي ارتجس فيها الرعد وانبجس المطر ، مشى كريستيا الى سريره ، فلما اوشك ان يقربه ويحاذيه أطفأت الصرصر العاتية مصابيح الدير فلبث في مكانه لايتقدم ولا يتأخر ، وبرق عينيه ليرى طريقه الى سريره ، وما زال كذلك حتى خطف البرق فانار نواحي الغرفة فرأى سريره فألقى بجسده الثاقل عليه وتزمل بغطائه مخافة ان يقرسه برد الليلة الفاحمة

اطفلت الشمس في صباح اليوم التالي وصحت السماء وضحكت الازاهر وحام الطير وغنى في خميلة الدير ، فاستفاق كريستيا على ترديده وتسجيعه والبس ابتسامه ووطن العزم على الرجوع الى سلع فلعله يرى الى سافو والى مارسيلوس ، فلا يجفوهما ابدا . فذلك امثل من هذه العزلة التي ارادهالنفسه فيالمنسك النائيوافضل من ان تطالعه قنن جبل حور واجدي من الاصغاء الى صوت هذا الجبل الذي

وسع حضنه قبر هارون النبي وكان لاندحة له عن الانحدار من المرتفع الشاهق الى الحضيض الاوهد ، فيسير في رواق مستطيل ازهر على جوانبه العناع والغار فلما اوشكت الارض الواطئة ان تطالعه مشى الى ناحية الشرق حيث ذكاء تريق انوارها على عرار الوادي ونسرينه وحيث الهواء يهب ناعشا طريا وحيث افاء عليه هذا اللألؤ الدافق نعم الشباب ، ورغد العافية . فكان من حقه وقد ضحكت له الطبيعة بعد بكاء ، ان يجحد ذكريات الليلة الظلماء وينسى ذلك القلق الذي اقض مضجعه ، وكان طبيعيا ان ينسيه صحو هذا اليوم تلك البروق والرعود وذلك المطر الجهام وذلك الخوف الشديد العنيف الذي جثم على صـــدره في فراشه بجوار الطنف المطل على ذوائب جبل حور

واخذ يتدفق في سيره ، فما يخلف وراءه صعيداً مورقا ، حتى يستقبله صعيد مورق ؛ وحتى تطفر الطيور من جذوع الاشجار الى قدميه ؛ وحتى تدغدغ الشمس جبينه الشاحب فيترسل في مشيته وينظر في دعة ورقة الى حومان الطيور فاذا طال وقوفه اخذته عن يمينه وعن شماله اصوات بعيدة تشبه الانين الخفي ، فتميد نفسه ويسأل عن باعث هذا الانين الخفي فلا يدرك شيئا مما امله ، فيمضي في سيره فاذا ضاق به رواق سلع وطلعت عليه ابراج قصر فرعون تدفق الانين الخفي الى سمعه والى قلبه فيأبى ان يدأب في سيره ويهم برجعى الى الدير ، ولولا هذا الصحو الذي يريق بهاءه وعطوره على الوادي ، ولولا هذه البروق التي تتوامض على الاصلاد والجلامد لولا اطمئنان الطير الى الغنـــاء لكان ينبغي له ان يتوهم ذلك الصوت الشجي الحافز صدى قسطلة الماء في اودية سلع ، او ترجيـع الرياح في القلل الحمر ، ثم طغا الانين واستفاض وتتالت على حواشيه اصوات مفزعة رهيبة ، وتتابع في الافق صليل يشبه الهزيم ، ورأى كريستيا خيـــال اللهب وقد انفرط من الوادي حتى تكاثف وحتى شابه السحاب ، فصـاح الشـــاعر انها المعركة ! انها الحرب ! ...

بلى انها المعركة ، وانها الحرب ، وانه قيصر سيد الدنيا يهبط بخميسه العرمرم صخور سلع العارية ليقاتل فروة بن عمرو الجذامي امير سيناء وفلسطين الثالثة !

لقد استقبلته اجراس سلع بصليل راعب . فمشى الى ناحية الصليل فلما بلغ بعض الطريق وقف عند غدير تصب فيه عين وحوله شجر كثير ، وانه ليتردد فلا يدري أيستمر في سيره ، او يعود الى الدير اذ رفع اليه من بعيد خيال امرأة فصاح صيحة رهيبة

— سافو

فصاح به الخيال — كريستيا ! حذار ان تخطو خطوة ، فاذا فعلت فاحت الارض تحت قدميك ولم يتخللها شجر او خمر ، والفيت نفسك ابها التعس في بهماء غطشاء يقتتل فيها الناس ، وسلاحهم النار والحديد ومن ورائهم دنيا الرومان ! ثم طلع الخيال عليه فاذا سافو في ثوبها الممزق فدلف اليها مسفوعا باكيا واحتواها بين ذراعيه فنامت على صدره وهي تهمس في حزن ويأس

انك لسعيد الطالع اذ منعك الله ان ترى الى مآسي الحرب ، وكوارث القتال واذ جنبك ان تفتح عينيك على مارسيليوس وقد اوشك ان يطل دم هراقليوس ، بالبطولة ، بالشمم ، بالتكبر ! دهم قيصر حصون سلع والناس يظنون انه لا يعود اليهـا بعد مصرع اركاديوس ، وفروة نائم في القصر في غير حرس ولا حاشية ، فتلقاه مارسيليوس وشيوخ لخم وجذام ، وارادوا منعه من الزحف . فمضى لشأنه لا يرده عنه ان يشتد الناس في الدفاع عن ارضهم ، ثم فجر رجاله النار فحرقت المنازل والدارات وفتحت ابواب الحصون ، حدث هذا كله وانت في الدير لا يهزك ان يموت مارسيليوس وان يجرح فروة . . .

ثم سكتت واغمضت عينيها على صدر كريستيا فصاح التعس

— امات مارسيليوس ؟

— نعم وكان يقاتل ويفرق الجموع مخافة ان تصل الى القصر وخشية ان يقتل

روة .

في هذه المعركة التي اثارها مارسيليوس سقط رجال جذام حتى طفحت بهم الارض .ومازال مارسيليوس يفرق الجمع حتى لاح له خيال هراقليوس فرماه بنبلة فحاد عنها فمزقت صدر بونيفاس قائد حرسه ، ورأى قيصر ان يلقي بحظه الى المعركة فخاضها بنفسه ورمى مارسيليوس بقوس فازاحه عن مستقره فسقط البطل تحت اقدام الجند .

— وفروة ؟ فروة ، اين هو ؟

— لايزال يقاتل ويناضح عند الملعب الروماني . . . .

— بالحظي العاثر اذخسرت مارسيليوس ذلك الصديق الاريحي الذي لم يجنبني صورته الرحيمة منذ تقاصرت في عيني صور الاصدقاء اولئك الذين اسكرهم مجد هراقليوس فلحقوا به وتناسوا امري . مارسيليوس يا اخا شبابي ؛ كان ينبغي لي ان اخرج معك الى الحومة فالبث بجوارك وارد عنك ليل الموت الصارد ، وامشي بك الى الظفر وثيق . فما فعلت وآثرت البقاء في دير سلع لا لانعم بسلم اشتاقه نفسي ، بل لاحارب تذكارات الماضي ! . .

وجعل يبكي فنادته سافو « انه لايليق بك ان تبكي وقد امتلأت الحزون والنجود بجثث الابطال ؛ اي كريستيا اذا كان شعرك لم يقبس الجمال بعد ففي ميسورك ان تمضي الى سلع وتنزل بجوار الوادي فلا يفوتك ان تنظر الى اولئك الصرعى النيام ولا يعجزك امر عن اقتباس ذلك الجمال الذي يحتاج اليه شعرك فانك لتراه قد جثم على الغبار الذي ذبل على وجوه الموتى ! . . .

اسمع ! ناشدتك الله ان تسمع ، افتح اذنيك ؛ واحسر عن صدرك ، فلا يعسر عليك ان تسمع هتاف اولئك الذين يموتون تحت الرايات .فانهم لايبالون ان يفتحوا صدورهم امام نبال العدو ،ولا يخافون نيرانه الآ كلة ، ثم تستقبلهم الارض وهم يهتفون باسم ذلك اليتيم الذي ولد في صحـــراء العرب امض الى الدير

واعتزل المجد ودع ناسه يغمضون عيونهم على طيفه المضرج ، فانك لاتستطيع ان تنافح وما زلت ذلك الطفل الذي يأنس الى صوت طفولته وينفر من اصوات المجد والعنفوان والنصر ! .. الى الدير ياكريستيا فانه معاذك وملاذك وعالم احلامك وهواجسك ، ثم هو في عينيك اوسع من بزنطية ، واجمل من كل هذه القصور الضاحكة على شطآنها ، وانضر من جناتها وخمائلها ، الى الدير ياصاحبي فانه الموضع الذي ينتهي عنده سفرك الناصب وطوافك الجاهد !

اخذت اشباح النار التي حرقها الرومان تطفو على الجبال والاودية فرآها كريستيا وسمع صليلها فذعر واخذته ذهلة اليمة فقبض بيده على ساعد سافو وقال لها :

— اترجعين الى سلع ؟ فتشاجت وقالت له

— اما الليلة فلا . . .

— اذن فستلحقين بي

— نعم فلقد لقيت فروة في الطريق فسألته ان يبقيني عن كثب منه فابى وقال لي الحقي باخيك عند دير سلع فقلت له وانت فقال لي ان ابرح سلع حتى يرجع قيصر الى اريحا ! ثم احتواني بين ذراعيه وقال لي ان الرومان الذين كانوا عند وادي العربة قدرجعوا الى شواطيء البحر الميت فاما وقد اقفر الوادي فقد صار في ميسورك ان تلحقي ببلاد العرب معرجال سابعث بهم الليلة الى الدير . . .

فودعته رقبلته واقسم لك يا كريستيا ان خيال الموت كان يطل من عينيه ، وما اظنه كان صادقا في احاديثه لانه لا يستطيع ان يترك الشيوخ والنساء في يدي هراقليوس !

وكان الرعب والذهول ، والالم ، والانكسار ، واليأس ، والمرض ، كان هذا كله قد عقل لسانه فجعل ينظر الى افق سلع الوردي بعينين جاحظتين ، فلقتين

وقلب خافق ،وشعور هائج حتى اذا طغا الحريق على حواشي الافق واستفاض صليله ،وزخر الوادي بهتاف الصرعى والقتلى انقلب الى الدير لايبالي ان يمشي على الحجر الصلد ، ولا يشعر بالدم السائل من قدميه ، ولا يفطن الى وجود سافو ، التي لم يمنعها الالم واليأس من اصطحابه الى ذلك الطلل العافي . . .



الفصل الثالث والثلاثون

صوت الجبل

قال كريستيا لسافو وقد اطرح الدبر في الليلة الجوناء ، وهبط وادي العربة تاركا وراءه قنن جبل حور ناشدتك الله يا اخيه ان تسمعيني شيئاً من حوار اوديب ، حينما اشتملت عليه جبال وطنه . فانه ليروق لي وقد شابهت هجرتي هجرته وماثلت شجوني شجونه ؛ وحاكت ليالي لياليه ان استمع لجرسه الشجي في هذا الوادي المصحر ... انك لتذكرين خروج هذا الملك في ذات ليلة الى جبال كولون ومعه ابنته انتيغون ، فلما اظلته السحب وارزمت السماء وقعقعت تهافت على ابنته في رفق وحب وسألها ان تذكر له اسم الارض التي وطئها وقال لها انه يحب ان يدفن آلامه ومتاعبه وذكرياته في المنفى فطفقت انتيغون تتحدث اليه عن وطنه الجديد فرق وسكن ولطفت احاديثها حزنه ، نعم حدثيني ياسافو عن اوديب وعن انتيغون ، فانما انا ذلك التعس اوديب ، وانت انتيغون رفيقته في ارض المنفى ، ولكن سافو كانت تفكر في فروة بن عمرو وفي المعركة التي نهد اليها برجال حصدت نصفهم الحرب وما يستطيع الذين نجوا من غضب قيصر ان يستبقوا الحياة الى ليال فلقد تتعاورهم الرماح والنبال والسيوف من كل ناحية ويمنعهم هذا الجيش الكثيف الرابض عند منافذ الاودية ومسارب الطرق من الافـلات ، فتضيق بهم سلع ويضنيهم الحصار والطوى والبرد وانقطاع المدد

لقد كانت تفكر في هذا كله ساعة ارادها الشاعر المثال على قراءة قصة اوديب الملك ، فلما لم تسمعه صوتها تغنى بشعر سفوكليس وحسب نفسه وهو يطـأ الجبل انه ذلك التعس اوديب فقال بصوت شجي يشبه الرثاء :

اوديب

انتيغون يا ابنة ذلك الاعمى الشيخ ، ناشدتك الله الا ما حسرت لي عن هـــذا البلد الذي بلغنا نواحيه ، واي شعب هذا الذي نزلنا منازله ، ومن هم جيرتنا في البلد النازح ؟ في هذا اليوم يستجدي اوديب الهائم السادر الناس فيعطيه هؤلاء عطاء حقيرا ، بلى لقد طلبت قليلا واعطيت يسيرا ، وفي هذا غناء لي وكفاء. فقد علمتني الآلام والاهوال والمحن وتعاقب السنين ونفسي الصابرة ، علمني هذا كله الاستسلام والرضا فهلمي يابنية ، هلمي الي فلئن لمحت مقعدا في مكان رجس او في غاب مقدس قفي بي عنده وانزلي بي في اديمه ، ثم لا يضيرني ولا يضيرك ان نمضي الى الناس فنسألهم الطريق وفي اي موضع منه نحن ؟ فاننا غرباء عن الديار ومن حقنا ان نسأل الغادي والرائح.

ولكن سافو لم تفعل ما فعلته انتيغون ولم تدله على المكان الذي نزل فيه فانثنى هامسا بمثل ماهمست به انتيغون في اذني ابيها البائس:

انتيغون

اوديب ! ايها الوالد التعس ، يامن اضواه الالم ، واذبله الداء ليخيل الي ان سور مدينة قد ارتسم في الافق امام عيوننا ، وهذه الارض التي نتزل فيها لايزال عليها عبق من قداسة ونفاسة ، يدلك على ذلك هذا الغار المتشابك وهـذه الادواح الظليلة ، وهذه الينابيع الرقراقة ، ثم هذه البلابل التي تغني في الغاب الوارف. اطو يا ابتاه قدميك فلعلك تستطيع الجلوس على هذا الصخر الواعر فلقد طال شرودك وامتدت المسافات بك ، وانت ذلك الشيخ الذي لايستطيع امعانا في صعود وفي هبوط

اوديب

بلى ، بلى دعيني اجلس ، واسهري على الاعمى العاثر الجد (١)

(١) اوديب في كولون الفصل الاول المشهد الاول

وراح كريستيا جالسا على الصخر وقلبه يميد وجبينه يتندى عرقا وعيناه ترعشان في كل ناحية من نواحي هذا الافق المديد الفسيح ، وجلست سافو بجواره وفي نفسها اثر من جراح نفسه ، ثم لم تلبث ان رقت لهرقةالية ، واخذت يده وقالت له : اتدري اين مسكنك ، قال لا والله قالت في وادي العربة هذا الذي يفصل البحر الميت عن خليج ايله ؟

وكان قد امضى بعض ليله على روابي جبل حور فلما نزل فرع الوادي لم يشعر بالمسافات الطويلة التي خلفهـــا وراءه ولم يفطن الى ثوبه الذى مزقته الصخور والادغال المتشابكة ولم ينتبه الى الاعياء الذي تعاور سافو وكذلك ما كان يهمه ان يحتويه المكان الفارغ ، فلقد جلس على الصخر في سكينة ودعة ، وجعل يقلب عينيه في الجبال التي تحيط بالسهل من الشرق الى الغرب وقد خلعت على الوادي ظـلا شاحبا فبدا عميقا غائرا كأنه هوة من هوات الجحيم !

وكان من احب امانيه ان يتعرف الى طريق البحر الميت والاردن ليلحق بحسنائه بنيامينا ويقضي ما تبقى من ايامه في الارض التي نبت عنها الشهرة واطرحها المجد فما ردد نظراته في جنوب الوادي حتى يكرهه ويمله وحتى يعاف ان يحدق اليه وذلك لان في جنوب وادي العربة طريقا يدفع الى خليج ايلة ، الى ذلك البحر الذي لا تفارقه سفن هراقليوس وفلكه ثم يحلق وهمه في طريق الشمال فتتمثل له الارض منحدرة هابطة الى البحر الميت والى الاردن فيرق ويتشاجى ويذكر بنيامينا النازلة على شواطيء النهر المقدس ثم يتلفت الى سافو ليسألها ان ترافقه فيرى اليها نائمة حالمة فيمنعه حبه لها وبره بها ان يبتعثها على استفاقة تخرجها من احلام الحادثة ثم يعود فيستعرض وادي العربة من مكانه على الصخر فاذا امتدت نظراته من الشمال الى الشرق استبحر المكان امامه وعرض له اخدود راعب يتساقط الماء على جوانبه من قلل جبل الشراة فيزعجه ويؤلمه ان ينبطح السيل في مفاجر الوادي ومرافضه فيضع يده على رأس سافو النائمة الحالمة فتستفيق وتنهض

وتدير لحاظها في تلك الارجاء الفيحاء ثم لا تلبث ان تدرك مأساة حياتها ويزيدها غما ويأسا ان يلبس هذه المأساة هذا الحزن الذي يغشي جروف العربه وفلوجه ومسايله ومنحـــدراته ، ولما ارادها كريستيا على اصطحابه في طريق البحر الميت لم تجد التعسة معدى عن مجاراته ومسايرته فوقفت على الصخر ونظرت الى الجنوب فاذا الطريق قد فرقت فروقا عظيما حتى لتوشك ان تنتهي عند خليج ايلة فاخافها أن تمتد الطريق وتفيح ثم نظرت كرة اخرى الى الشمال فاذا الوادي يهبط الى خيف لين رقيق ثم هو يزلق الى الغور !

وقد كان عسيرا على الاخوين وقد برح بهما الســـير في الاخاديد والاغوار والهوات والاودية ان يستأنفا الرحلة في الارض البراح ، ومع هذا كله ما كانت سافو تستطيع ان ترده عن منازعه فلما جاز الاخوان بعض الطريق واوشك وادي العربة ان يتقلص ويغيب ترقرقت خيالة سلع في عيني سافو فذكرت زوجهـــا الغطريف وابتعثها التذكار على الوفاء له فقالت لاخيها :

— انه ليجمل بك ان تدأب في سيرك حتى يطلع عليك الاردن اما انا فلقد نذرت رجوعا الى سلع حيث الحق بزوجي الذي لم يترك سلاحه بعد !

وكانت لهجتها صريحة وصادقة ، فلم يستطع كريستيا وهو الذي يعرف حبها لزوجها ان يعصي لها امرا ، فلحق بها الى وادي العربه وكان لا ندحة لهما معا عن الرجوع الى جبل حور ، ثم ينحدران الى الدير ويلحقان بسلع !

وبعد طواف عنيف في الارض الغطشاء ، فرع الشقيقان في جبل حور فنزلا بضلعه الشرقي وقدر لهما وهما على المرتفع الشاهق المطل على الطريق ، ان يريا الى وادي العربة الجميل والى صحراء التيه فوقف كريستيا خاشعا امام هذا المنظر الرائع حتى لقد جنب شعوره ان يحلق في عالم اخر . وكيف يستطيع احساسه الثائر ان يحلق في عالم اخر ، وهذه الارض المقدسة من سيناء ترعش في نظراته وتطفو على جوارحه وتلهب ذكاءه وتذكره بماضي هذه البطحاء التي استمعت الى صوت الله

وهو يتحدث الى نبي !

خيل الى كريستيا وقد وطيء كرة اخرى حضيض الجبل الملهم ان الدنياطويت له واجتمعت عنده فكيف تلفت تمثلت له قلل جبل الشراة الرفيعة يغمرها موج دافق من رواء المساء وبهاء السماء وانى استقر اخذته المشاهد الموحشة وعليها من الروعة والجلال والتذكارات ما ليس يحده الشعر المهذب في خيال رواته وقائليه ؛ بل لم يكن يستطيع وقد عرضت له سيناء وصحراء التيهوقيعان وادي العربةوجروفه ان ينزع من صدره صورة هذه الدنيا العابقة بعطر النبوة والوحي

ولما اوشك ان يرقى القنة التي عليها قبر هارون ارخى الشفق عليه ظلاله الساجية فاستراح بجوار القبر المقدس ، ووقفتسافو حياله ، فما فاتها وقد لصقت به ان تسمع صليل جوفه ، وان ترى الى عينيه وقد غابتا في عقيق سيناء !

في تلك الاثناء حفا البرق في الصحارى ، وامتدت شعله وخيوطه على حواشي جبل سيناء حتى ضوأت قالله وقننه ، وكشفت ريوده ومصاده وشعافه ، وحسرت عن جروفه وفلوجه وغيرانه ، ثم اضاء البرق ولمع ثم اضاء ولمع وتلت ذلك اصوات تشبه الهزيم ، وترقرقت الوان الشفق الحمراء في كل ناحية حتى اصبح الافق وردة كالدهان ، فخيل الى الشاعر ان هذه الاطواد التي تجاوره وتصاقبه لا تريده على فراقها . وانما هي تريدهعلى ان يستشرق بهذا القبس الشاعل الذيتراءى لموسى النبي في البادية الغلفاء فلصق بمكانه وقال لسافو انه يكره الرجوع الى سلع وان من احب المنى الى نفسه ان يموت وعيناه تنظران الىاضواء هذا القبس الذي ترمي به قلل سيناء الرفيعة الى الصحارى والبوادي

وما زال البرق يضيء ويلمع على روابي سيناء ، وما زالت الاصوات الخفية تتغاير في الافق على مدى بعيد ، وما زالت الوان الشفق الحمراء تتفجر هابطة صاعدة وريح النعناع تفغم الخياشيم حتى احس كريستيا قداسة هذهالارض فخلع نعليه وركع بجوار قبر هارون النبي مصلياوداعيا منتحبا ،وباكيا !

لقد قال لها ان الجبل يناديني يا سافو ، وكل جارحة من جوارحي تقول لي لا يجمل بك ايها الشاعر ان تغمض عينيك على السحب الصاردة في سلع ! ثم رفع صوته وانثنى قائلا : ان الله قريب مني ، واني لا راه في هذا النور الذي يطفو على سيناء وفي هذا الفتون الذي يراق على بادية التيه ، بل اني لاسمع صوته في قسطلة الماء عند سفوح جبل حور ! . لم يعد في هذه الحياة التي اخذتني خطوبها وكوارثها ما اخافه ، وما احرص عليه ، فالمجد الذي جنبني طيفه في ميدان سلع حيث يقتتل الناس اما زلفى لقيصر واما زلفى لفروة بن عمرو قد تمثل لي عند هذه القنن الرفيعة بالوانه وانواره وطيوبه ونغماته ، وروحه الساكن الوادع وشبحه المضيء وجرسه العذب ، انه ليخلع على جسمي الذي قرسه برد العشية دفء نفسه لاموت محترقا في سناه ، فذلك امثل من موت يزحمني ظله الصارد عند رواميس سلع ! وان تحتويني هذه الارض المقدسة فذلك افضل من ان تحتويني الارض التي لا تعرف القداسة !

ونبئنا كانت تصده عن ميوله ومطامعه فلقد احب ان يموت على جبل حور كما مات موسى النبي وكما مات هارون النبي ثم هو الى ذلك شاعر يحب فنه وما يليق بالشاعر ان يموت في الارض التي لا تتصدع فيها السحب والبروق ولا يزهر على حواشيها الآس والنعناع والورد

وانهما ليتحاوران ويتساجلان في غير جدوى ولا طائل اذ حملت اعراف الليلة الساجية ترجيع الابواق في وادي سلع فرجفا معا وقالت سافو : انها ابواق فروة يا كريستيا ، وانه المنتصر على هراقليوس ، ناشدتك الله ان تمضي معي او تبقي وحدك على هذه القنن

ورأى التعس وقد اذكره صوت البوق حاضره ان يلحق بها ولكنه لم يكد يبرح مكانه حتى حفت البروق وتوامضت على مدى واسع فبانت له كرة اخرى جبال سيناء وصحراء التيه فالاعته الاضواء الغامرة واحرقت احلامه فوقر في ذهنه ان يبقى في جبل حور طول ليله فلا يفارقه ولا يجفوه ولا يمل الطواف بشعافـــه

ورعانه ولا يسأم الهبوط الى حضيضه وسفحه نعم انه مريض وانه مدنف وانه ذلك المنفي الذي يقبس اغانيه من نفس عامرة بالالم زاخرة بالشجن ولكنه على مرضه ونفيه كان يلذ اعراف هذه الاماكن المقدسة ويرى فيها العافيه التي يشتاقها ويحب ان يغني اغانيه في هذه الاصلاد بصوت الشاعر الملهم لتسمعها روابي سيناء كما سمعت صوت النبي الملهم وكان يشعر بقرب النهاية فنازعه شعوره الى المكوث في هذه الارض حتى يأخذ الله وديعته فيرقد رقاده الابدي في شعفة تطل على الاردن وعلى حرمون وعلى بيت المقدس !

لقد باح لها بخواطره وقال لها ان في سلع مكانا للبطولة الرائعة وليست تعرف فيه ذلك البطل المقارع فمن حقه ان يجد مكانه على الربى الشم حيث تترقرق اضواء السماء وحيث ذكاء الشاعر يبحث عن السنى والسناء ! فلما سمعت قوله لم تأنف ان تطرحه في الجبل فتولت عنه وتدفقت في سيرها تحت ضياء الكواكب وما زالت تمعن في الهبوط حتى استقبلت السفح وورارتها عن عيني كريستيا فجاج وشعاب

وقلب عينيه في هذه الارجاء الفيحاء فاذا هو وحده على الشعفة السامقة يحيط به عالم تطفو على حواشيه اشباح وارواح وتجري في سمائه كواكب متقاربة متباعدة وتنوح على اطرافه وجنباته ريح ذات هدير وصليل ، وتخرج من جروفه وغيرانه اصوات كأنها عزيف الجن ، يضاف الى هذه المشاهد الراعبة قبس يخطف على سيناء في اقصى الافق !

لقد روعته العزلة فمايد وتمايل ، وخيل اليه ان بهذه النجوم الدانية من القلال والقنن عيونا تنظر اليه ففغر فمه وبرق عينيه ، ثم تساقطت الشهب في الابعاد النائية كأنها الحريق الشاعل ، فغشيته ذهلة البهمة ، وخيل اليه ان السماء قد القت اليه بنارها ودخانها فجفا مكانه على القبر وطفق ينادي سافو لك الله يا اخية اين انت ؟

وهام على وجهه فما ينحدر من رابية حتى يغيب في اخدود ضيق ، فاذا حسر الأخدود عنه امسى في غار مظلم ، فاذا اوغل في ظلمة الغار تساقط الماء على ثوبه

من صدوع في الصخر النابي فتندي وقرسه البرد ، ثم يخرج من الغار فاذا هو بعد طوفه جاهدة عند سفح الجبل واذا سافو لا تزال على السفح كأنها كانت تتوقع ان تضجره العزلة وتخيفه الوحدة فيأنس الى اللحاق بها

ورأت سافو اليه تحت ضياء الصبية فادته بصرتها الرقيق الناعم اني اخاف عليك برد الجبال فهلم فاتبعني الى سلع فلعلك تجد عندها ذلك القبس الذي يضرم شعورك !

وكان الانحدار الى البتراء سائغاً ولذيذاً فاحتواهما معاً طريق قديم نقر في الجلامد فاوغلا فيه واظلتهما حجارته الناعمة الملساء وتراءت لهما في اليمين وفي الشمال اسوار حمراء بلون العقيق ، ولكنها اسوار عظيمة لم تتحيفها غلظة ولم تتخللها قرون وشعف فجازا الطريق الى الوادي وطالعت عليهما غيران ضيقة ولكنها قصيرة ؛ ثم اذا هما يخرجان الى طريق يدفع الى دغل تكاثفت على حضيضه النباتات فسلخا في اجتيازه ساعتين ثم طلعت عليهما قبور سلع الاولى

ولم تكن سلع قد اطلت عليهما بعد ، فلقد وراءهما حوائط من الحجر الصلد فارتدا الى ناحية الشمال وفزعا الى الجانب المظلم من صخور لا تضيئها انوار المساء ورأيا الى القبور المحفورة وقد تراكب بعضها فوق بعض وفتحت اشداقها وحسرت عن ثقوبها فاخذتها اشعة خفيفة تزلق اليها من الجبال ، وسحرهما اطلال هذا المشهد بعد تلك السياحة الكامدة فاحسا الحياة وطفقا يتأملان معاً في هذه المدافن المعلقة بين السماء والغبراء ، وسرهما ان يتعرفا الديار والرسوم والاطلال ولذهما ان خيالة سلع عادت تطوف بصدريهما الراعشين

في اعماق هذا الجرف الذي تحميه من كل نواحيه اطواد واصلاد تنام مدينة سلع عن كثب من اطلالها وقصورها وخرائبها وينبوعها الثر !

جلس كريستيا على عمود رخامي كان جاثماً على الارض فجلست سافو حياله وطفقا معاً ينظران في ذهلة الى هذه الروائع الفواتن يحفهما صمت ويغشاها

سكون ويخترق اذانهما هدير الماء ودفقه على الاصنام المتداعية والعمد المنهارة في ظل ظليل من اشجار الغار الواشجة

لم يجرؤ كريستيا على الهمس فلقد امالته الصور البارعة الى غرق وانسته ذلك الالم الذي تحيفه خـــلال طوافه بقنن جبل حور ونزوله الى حـدور وادي العربه ، بل لقد الهته قسطلة الماء في الصعيد المهجور عن اولئك الناس الذين نفروا الى قتال قيصر تحت لواء فروة بن عمرو فما عادت صورهم تمر بصدره وكذلك كان شأن سافو فلقد غرقت مثل غرقه وسبحت مثل سبحه ، وانستها هذه الظلال الندية الرخية تلك الثورة التي عصفت بنفسها الرقيقة في ذلك الوادي الذي تتلاقى عند قيعانه وكثبانه طرق ايلة والبحر الراعب فاي فتنة هذه التي هدهدت التياع المتاعين وحملت الى النفوس الضارعة بعض العزاء الذي تحبه وتأنس اليه

هذه الرائعة ما كانت تعدو ماضي سلع في هذه الدمن التي يغنيها الماء الدافق الهادر غناءه الشجي من ابعد عصور التاريخ لا تستطيع النفوس الكامدة ان تستبقي حزنها الى الابد ، اذ لا معدى لها عن استمراء الوحدة والاصغاء الى حديث حياة منقرضة واذ هي محمولة على الشرود في جلال الموت وفي صفاء السماء

عند منحدر الرابية طريق يدفع الى سلع فاذا اوغل فيه سائح الفى نفسه امام الملعب الروماني بجوار قصر فروة بن عمرو فيلارك معان وامير سيناء وفلسطين الثالثة

الفصل الرابع والثلاثون

على الصليب

تساءل كريستيا عن ابواق سلع وفيم هي لا تصل وقد كان صليلها يتفجر على حواشي الافق فتلتي به ريح المساء الى جبل حور فتعيه رعانه ورباعه وينحدر صداه الى وادي العربة حلوا رقيقا فتأنس اليه هذه الطرق الهاوية الى شواطيء البحر الميت ويسمعه هؤلاء الاعراب الذين لم تملهم السياحات ولم تضجرهم الاسفار في ليالي الصيف القائظة

ولما اتعبه السؤال قال لسافو ما ادري اذا كان القوم نياما فاشارت بيدها الى الملعب ثم الى القصر واردفت ، بلى انهم نيام ! وارتد بها الخاطر في خفة البرق المومض الى ذلك اليوم الذي سمعت فيه سلع صوت هراقليوس وهو يستنفر الرجال ويلقي بهم الى الحومة وكانت النار التي اذكاها تيودور تولول في افق سلع ولولة المهزوم في ليلة غابشة ماطرة والناس في بيوتهم ينظرون الى الحريق من شرفات النوافذ ورجال فروة يردون العدو عن القصر وعن الحصن وعن الغيران التي نزل بها الشيوخ والنساء

بلى لقد ذكرت هذا كله ، وتمثلت هذا كله ، واستعرضت فصول المأساة التي شهدتها في الوادي يوم كان الرومان ومعهم المستعربة وعليهم هراقليوس وتيودور يزحمون الصفوف ، ويقاتلون الالوف ؛ وفروة والذين معه يمنعونهم الزحف من وراء الخنادق حتى اذا اجتاح العدو الصفوف وحاول ان يمتد بزحفه قامت في طريقه الى القصر تلال من اجساد الذين ابوا الا ان يغنوا اغانيهم في يتيم قريش قبل ان يواريهم ليل الموت في اسدافه الراعبة

وكان من حقها وقد استقبلها سلع صامتة غاشية ان تشك في هذا النوم القاتل وانمى هذا الشك الذي تعاورها ان يسكت الرومان والا ترتفع اصواتهم، قد كانوا يغنون سلع تلك الاغاني التي اسمعوها كسرى في مدائنه فوعتها فارس ورددتها شواطيء دجلة والفرات

ولما ران الشك على نفسها رفعت عينيها الى السماء راجية شاكية ولم تجرؤ على الهمس مخافة ان يسمع كريستيا همسها فيساوره شبيه بالجنون ويرجع الى قنن جبل حور ليرمي بنفسه الى جروف وادي العربة

امن الممكن ان يضعف هؤلاء الذين سلبوا كسرى وقاره وجلاله وقهروا جحافله وكتائبه ؛ واذلوا ملكه الطويل العريض عن مقارعة سلع وما بسلع شيء من مجد فارس ، وليس لفروة هذا الملك الضخم الذي لكسرى

انها ما كانت تصدق ان تتغلب الصخرة النابية على دنيا القياصرة ، فليس من شك ان الرومان قد خرجوا من سلع بعد ظفر رائع ليسمعوا اصدى اناشيدهم واصوات طبولهم هذا الشرق الذي يخافهم ويجفل من اشباحهم

وجعل كريستيا ينظر الى حزنها المرمض والى شحوب جبينها بعينين قلقتين وشعور حزين من غير ان يسألها عن هذا الاضطراب الذي يتنازعها وقد يكون صمت سلع مصدر بلابله وشجونه ومنبع مخاوفه ومتاعبه فانه كان يرجو ان يرى الوادي زاخرا بالذين نهدوا للدفاع عن محارمه فاذا هو يزخر بالصور الكامدة وهكذا تلاقت شكوك سافو وشكوكه في صعيد واحد فجعلا ينظران الى الملعب تحت بريق السماء ويتأملان عن بعد في شرفاته ومقاصيره وسلاليمه وسافو بين حين واخر تسترق همسه لعلها تتعرف الى فكره وحسه فلما احست كآبته ورأت شحوبه ادركت شجوه فعطفت عليه ولشد ما توثق الاشجان بين قلبها وقلبه ! فقالت له :

— لقد توهمتهم نياما ، وما هم بالنيام !

ومنعه الرعب ان يسألها عن امور سلع ؛ ففضل ان يسكت مخافة ان

تزحم الحقيقة صدره بصور لا تروق ومع هذا كله لم يجد الشقيقان بدا من الشخوص الى ناحية الملعب في الطرف الشمالي من الصخرة فتدفقا في السير حتى اذا اظلهما قوس النصر بجوار قنطرة الحارث ملك النبط على مسافة ثلاثين قدما من الملعب اخذتهما شباح واطياف جاثمة على سلالمه فهتفا معا هتافا شجيا وصاحت سافو ياللرعب ياللهول ، وجمد كريستيا في مكانه كأنه خيال ميت القت به المقابر في هذا المساء البادر

فاي مشهد حافز روع هذين النجيين ، وما بال سافو تنظر الى السلالم ثم لا تستقر نظراتها في ناحية ، واي نازلة نزلت بكريستيا فعقلت لسانه وخنقت صوته واذرت دمع عينيه وفجرت تعسه

اراق القمر انواره على نواحي الملعب فحسرت عن مقاصيره وردهاته وسوحه وغيرانه وكشفت سلالمه ودرجاته فاذا على هذه الاماكن جميعا جيف غارقة في الوحل والدم واذا على هذه الجيف دروع من الذهب والنحاس يخطف عليهـــا وميض الليلة فتضيء وتلمع واذا على السلالم رءوس دحرجتها السيوف وثقبتها الرماح فادركت سافو انها رءوس الرومان اطارتهـــا الملاحم العابسة عن جيف اصحابها وفرشت بها هذه السلالم الرخامية

وقد كان ينبغي لسافو ان تجتاز المسافة القصيرة بين قنطرة الملك الحارث وبين الملعب ثم تصعد السلالم ففعلت ولحق بها كريستيا ولحق بهما الرعب الذي طاف بنفسيهما ساعة تراءت لهما تحت ضياء القمر هذه الجيف التي عليها الدروع المذهبة وجعل كريستيا يتفحص الموتى لعله يتعرف الى جثة اركاديوس والى جثث القواد الذين جاءوا مع هراقليوس الى طبريا وبيت المقدس يريد بذلك ان يشمت بهؤلاء القتلى الذين تنكروا لابيه زانى لهراقليوس الغاصب فما بلغ سؤله فلقد منعته الدماء المطلولة والسحن المشوهة ، والصدور الممزقة ان يوغل في تأملاته فعضض يديه من القهر واجرى على فمه اسم اركاديوس ثم طفر الى القصر وقدماه الراجفتان

الواجفتان تعثران برؤوس الصرعى فتهوي هذه عن مستقرها الى حضيض الوادي فتتلقاها اعماقه وتتحطم على صخوره فلا يبالي ان يخرق سمعه صوت تكسرها على الحجر الصلد ، ثم يواصل سيره ويتابع طوافه حتى يبلغ القصر ومعه سافو العانية المسفوعة

ولما عرس حيال القصر وجد عند ابوابه ومساربه طوائف اخرى من الجثث فحدق فيها فاذا عليها ملابس الحرس الذين خرجوا الى قتال قيصر ، ففعمه المشهد واشجاه ان يموت هؤلاء الذين كانوا الى الاسبوع الماضي يمرون به وهو في عزلته فيضاحكونه ويلاعبونه

وقد كان يعرف كثيرين من هؤلاء فاكب على جثثهم في رأفة وحب ، وسافو تنظر الى هذه الصورة ولا تستطيع همسا ثم زحمه الحزن فجاس خلال القصر فاذا هو لا يبدي ولا يعيد واذا ناسه قد جفوه واطرحوه واذا الانوار التي كانت تضيء عزلاته ومقاصيره وتخطف على عمده واقواسه وحناياه قد اطفأتها الصرصر العاتية فزلزل جنانه هذا المشهد الحافز ، فتلفت الى سافو فروعه شخوصها الى الطلل العافي وارمض نفسه ان توغل في غرفه واروقته ثم تعود اليه وهي تصيح وتولول :

— وددت لو انتشق عرفه ، وارى الى خيالته وانظر الى جراحه فلا امنعه هذا الحب الذي تميد به نفسي واشه احزان ليالي ، واقص عليه قصة سهدي وتيهي في جبل حور فما بلغت هذا الذي رجوته وعرض لي القصر على امتداد فضائه كأنه هذه القبور الجاثمة على صخور سلع ! ثم رفعت صوتها وانحت ناحية المدينة الغارقة في الظلمة الفاحمة وانثنت صائحة :

— فروة ! فروة اين انت لماذا لا اراليك ، ناشدتك الله ان تسمعني صوتك وتريني صورتك فلقد يردني هذا الصوت الى حياة ما تعرفت الى جناها منذ احتواني هذا الفضاء الافيح عند وادي العربة !

وكان نداؤها شجيا مؤثرا ، ولكن سلع التي كانت تستفيق في كل ليـــلة على اناشيدها واغانيها لم تستمع لندائها في الليلة المدجاة ، فتدفقت في سيرها تدفق الآتي المنهمر ، وكريستيا يسألها في رقة وحب الا تمعن في الركض ، فلا يرقق احساسها صوته الشجي ولا يمنعها بكاؤه عن الهتاف باسم الرجل الذي حبس عليها وجده ومجده وما زالت تركض وتأبى ان تتمهل في سيرها ، وكريستيا يتبعها كظلها حتى عرض لها صرح الاكربول غربي الوادي كأنه الهرم فوقفت حيـــاله وطفقت تنظر الى مصاطبه وشرفاته وقلبها العميد يضطرب ويميد

وفي تلك الاثناء اضاءت الكواكب قبور سلع فرأت سافو الى الصرح الجاثم على الصخر ووضحت امامها الطرق والمسالك ونظرت الى الرياحين وقد بسقت وتطاولت تحت ندى الليل فانحنت عليها في رفق وهوادة وقطفت زهرتين حمراوين ثم قطفت نسريتين ، ثم قطفت اورادا بيضاء والفت من هذا الزهر العابق حزمة عقدتها بخيوط من شعرها المرسل وقالت لكريستيا ان فروة المنتصر جدير بهذه الرياحين ثم زهر وجهها زهورة رائعة ورد الى روحها ذلك الكبر الذي قبسته من حياة ابيها وحياة زوجها ، فانحت ناحية الاكربول وهي مطمئنة الى انها ستجد ذلك الحبيب الذي تبحث عنه ، فلمـــا صعدت التلال واوشكت ان تنزل ذلك الصرح الضخم تلفتت الى ناحيـــة الشرق فاذا هي تطل على قصر فرعون واذا المشهد كله سحر في عينيها ، وفتنة في قلبها واذا الكبر الذي احستـه ينمي ويفيض واذا سلع الصغيرة المهجورة اجمل من بزنطيه واجل من مدن العالم جميعا !

واخذت عمد الاكربول الاربعة تبين لها تحت ضوء السماء فبهرها خطف الاشعة على الرخام المائل وتفاوح الزهر الذي اتت به من حدور الوادي فاسكرها شذاه وابتعث قواها فذكت العافية في جسمها الرقيق وتحركت الحياة فيه بعد ركود ثم لم تلبث وقد ثاب اليها مرحها ان وضعت يدها على صدرها رجاة ان تحبس نزواته فلقد خيل اليها ان فروة قد طفر اليها من خلال عمد الاكربول بملابس القتـال

وانه يناديها من بعيد لتلحق به وتسمع خطبه في المكان الذي خطب فيه قياصرة الرومان وملوك النبط وغزاة العرب فما يليق بها وقد مثل لها في ثياب الحرب ان تحمل اليه اهواءها المضطربة وسلافتها الجافلة واحلامها المروعات المضنيات

وامالتها اضواء الليلة وحلاوة الاشياء التي تراءت لها في الاكربول ، وهدير الماء وانسيابه بين الصخور الحمراء ، واخضلال الروابي . امالها هذا كله الى الشعور باللذة فخيل اليها كرة اخرى انها تقبض بيديها على فصول العام فما يسلبها احد مغابط الربيع ومفارحه ولا يصدها صاد عن اجتناء الزهر في ليالي الصيف العاطرة وليس في سلع ، ولا في اي ناحية من نواحي هذه الدنيا من يمنعها ملذات الحب الشهية في نهارات الخريف اوفي ليالي الشتاء

وجعلت تتحدث الى فروة والى الحب معا ، اين انت ايها المنتصر ولماذا لا يهزك صوت كنت تجد في لحونه ما هو اندى من سجع الطير وتغريده وانت انت ايها الحب الذي وارته عن عيني غيوم سلع ، ناشدتك الليالي المتلفعات بالسحب ان تخرج الى لقائي فاني جئت اليك بجميع شموسك فسدرت كاللؤلؤ على جبين يزينه الصفاء وينضره الرجاء الكبير لعلك ايها الحب لم ترالى صورتي بعد او لعل حزني المرمض لم ينبهك الى المرأة التي ابكاها الجوى بين ذراعي صيفك ، لقد جزت الجبال وطويت الاودية واحتوتني نجود وحزون وتتالت علي نهارات وعشيات لاصل اليك واضع تحت قدميك ايها الحب حياة تريق عطورك واغانيك

ثم رفعت ذراعيها الى العمد الرخامية وانثنت صائحة :

ارني خيالك ، فاني نذرت الا ادبر عن هذا المكان بلا عطر وآليت ان استقر بجوارك لاتمتع باهواء عشياتك وافتح قلبي لاشعتك

ولكن الحب الذي فتحت له ذراعيها المشبوبتين ، لم يطل عليها من المكان النائي ولم يسمعها همسه وترجيعه ولم يلق اليها بعطوره وطيوبه فتعاورها اليأس وتندى جبينها بعرق صيب فلصقت بجوار الاكربول وعيناها تنظران الى الوادى الغائر . وجثم

كريستيا تحت قدميها لا يملك وعيا ولا حسا فلقد تطرفه الهم، وثقب الشيب فرقه على طراوة شبابه وحداثة عمره ورد اليه دنفه الماضي حتى ليخيل الى رائيه ان الموت موافيه قبل ادبار ليله وفيما كانت سافو تنظر الى الوادي اذا شبح ابيض يتمثل لها عند قوس النصر فما شكت وقد رأته على ضوء القمر انه جندي من جنود فروة، فتركت مكانها على الجدار ووقفت على مصطبة ذلك الصرح الضخم ولوحت بيدها الى الطيف الابيض لعله يرى اليها فيجفو موضعه ويأتي الى ناحيتها وينطلق بها الى فروة بن عمرو، فيتلقاها في ذراعيه، ويسمعها صوته وينسيهـــا الصوت الذي تحبه هذه الليلة التي القت الى عينها والى قلبها بسيل من الجيف!

« فيم سكوتك ايها البطل ولمــاذا وقفتك ؟ واي باعث يبتعثك على ان تنظر الى الظلمة بعينين ذاهلتين ،أفرابك امر هذا الماء الهادر على الصخر فظننته صوت عدو فاستمعت له وذهلت عما حولك من الصور ام انت لاتزال تنتظر ان يقتحم هراقليوس سلع فاعتليت الهضبة الفرعاء لتراقب الطرق :

هلم الي فما يخلق بك وقد ازمعت دفاعا عن عرين الاسد ان تصم اذنيك عن الاصغاء الى لحام اللبوة؛تعال . تعال، اترك مكانك ودلني على العرين فاني ضللت طريقي اليه

وتدفقت التعسة في سيرهـا من غير ان تفطن الى وعورة الطريق، واحب امانيها ان تصل الى الطيف الابيض عند قوس النصر فتهزه وتسأله ان يمضي بها الى خيام فروة ، ذلك بانها كانت تؤمن بخروج فروة من سلع مع فلول جيشه وليس بالامر الغريب ان يجفو فروة محارسه ويلحق بالصحارى فلقد كان القدماء من غطاريف سلع يفعلون فعلته مبالغة في الحذر واغراقـا في الحيطة

وكان لزاماعليها قبل وصولها الى قوس النصر ان تمر بارض ذات شعب، ثم تدأب في سيرها في محاذاة السيل الجائش فلما جازت هذه المسافة عرضت لهـا في اقصى الوادي قبور القدماء من غزاة الاغريق والرومان؛ وقد احتشدت جميعا في الجانب

الشرقي من الجلامد ، فدلتها هذه الرموس على الطريق فأوغلت فيه وذلك الخيال الابيض لا يزال يطل عليها من بعيد !

يالبؤسها ! لقد كانت تطأ الحجر الصلد ، فلا تبالي ان يسيل الدم من قدميها ولا تكترث لبرد الليلة ، وما يهمها ان يغيب القمر وان يطل ، ولا يردها عن منازعها هذه الريح الجفول التي تولول في كل ناحية من نواحي سلع بل لقد انساها هذا الامل الذي يرف على نفسها مرض كريستيا ودفنه . فلم تسأله ان يصحبها في هذه السياحة المضنية بل تركته بجوار الاكربول ، ولو تلفتت الى الاماكن التي خلفتها لرأت الشاعر التعس هاويا على جلامد سلع كأنه الموت ألقت به السماء الى البطحاء !

وما زالت الارض تطوى لها ، حتى عرست حيال الصهاريج بجوار قوس النصر فجعلت ظهرها الى حائط مرتفع ، وسرحت نظراتها في الافق فلا تستقر في ناحية حتى تهيم في ناحية اخرى ، ثم يجيش الماء ويندفق على الصخور فيعمها دفقه وتهظله وتود لو انه يركد لعلها تسترق همس الطيف ثم تجفو الصهاريج وتأتي الى قوس النصر فتنزل عنده فاذا اظلتها قنطرته سرحت نظراتها كرة اخرى في الفضاء وترقرق في عينيها خيـــال الشبح الابيض فتشعر بانه لايزال متجافيـــا معرضا فتلحق به وتتوغل في جنوبي الوادي وترى الى عمود من المرمر الاحمر قد صعد به بناته الى تسع اذرع فتهدأ شجونها وبلابلها اذ ترى الى ذلك الخيال الابيض وقد ربض تحت العمود كأنه السحابة البيضاء تهدلت على الارض

ولم تجرؤ التعسة على الهمس فجعلت تنظر ذات اليمـــين وذات اليسار ، فاذا قبور سلع جاثمة في كل ناحية واذا كريستيا الذي تركته في الاكربول قد ركب غارب راموس اغريقي واخذ ينظر اليها في ذهلة وخوف واذا الماء المنحدر يملأ حواشي الليلة بالصليل والهدير !

وخيل اليها وقد رأت الى ذلك العمود المرمري ، والى الشبح انها تنظر الى

تمثال قديم فدلفت الى ناحيته تحت بريق القمر وطربت الى ذلك الذي توهمته تمثالا فالقت اليه بيديها كأنها تريد ان تهزه وتحركه فيشعر بهذا الندى الذي على بدهـــا فيلتفت الى ناحيتها ويتعرف صورتها، لونها ولكان الرعب الشديد العنيف لا يزال طاغيا على نفسها فخاطبت الطيف بصوت ضعيف ٠ خفي الانين ، ارني وجهك فاني لغرثى الى لقائك وفي القلب صبوة الى احاديثك ، قل لي ، الست من رجال فروة ، فاني ارى عليك هذا اللباس الذي على رجاله ، سيدي لماذا لا تهزك شجوني ولا يميدك دمعي ولماذا انت معرض عني ولا ترى الى هذا الليل الذي بقلبي ، الست رجلا وعهدي بالرجل يرق ويلين اذا تباكت النساء ، الست من رجال الزعيم وليس فيهم من يتنكب طـــاعته او يحجم عن الوفاء له ،

اسمع ولا تصم اذنيك ، وقل لي اين هو فروة ، وما بال سلع خلاء منه ومـا لخيامه لا تطل على الربا الشم ولا تبين عند منحنى الوادي ، وفيم ابواقه لا تصل وقد كان الافق يمور بالصليل ، لقد غاديته مع صدح الديك فاحمسني ان يمضي في المنافحة والمجالدة فسألته الا يعود حتى ينتصر وحتى يطل رأس هراقليوس على شرفة القصر فضحك ولطف حديثي منازعه فتهافت علي يقبله وانطلقت الى القصر وفي النفس ضحكة الربيع المونق وروعة الصيف الجيل فلما غرضت الى لقائه تسدرت بظل العشية الرخية ، واقبلت ابحث عنه عند الرابية فلم اره فارمضني بعده فلحقت به عند ملتوى الوادي فاذا هو في حماسته عند الحضيض الاوهد ذلك الزعيم الذي تحدثت اليه على الذروة العالية ، واذا هو في امسيته اكثر ثقة بالنصر مما كان في اصبوحته ؛ فاين هو ؟ لعل الامير قد اغزى بالجيش فتابع زحفه الى اريحا لاحقا بقيصر الناكص المدبر !

ليخيفني صمتك وهو اخو الموت ، فهل كنت حلمي الراعب ، لا يمل اصطحابي ولا يأنف ان يتمثل لي بجوار قوس النصر كما تمثل لي عند قنن جبل حور ام انت ميت القت به رواميس سلع فتمثل لي في الليل الغاسق كأنه عمود الصبح من فرط بياض،

وسالت غروبها من رقة وخشية فنذرت ان تزحم الطيف ولو جشمها الامر ما لا تطيق وافاض على نفسها من الصور مالا تحب وشعرها الى ذلك منسدر على منكبيها كافواف الوشي فبدت كأنها الحياة في مواطن الموت وانها كذلك اذ طار البرق في كفاف السحاب فضوأ قوس النصر وحسر عن قنطرته واعمدته فوضحت الطريق وترامت لعينيها تلك الساقية الهادرة وذلك العمود الاحمر الذي جعل الطيف ظهره اليه وكانت الازهار التي جمعتها لاتزال في يدها فرمت بها الى الطيف وراحت تنظر اليه في تؤدة ورفق ثم لم تلبث ان ارتدت الى الوراء وقد لوى اليأس والرعب قلبها الرقيق الشفيق وابتدرت الليلة المدجان بصيحة عائلة ردت الى كريستيا عقله ووعيه فاقبل الى ناحيتها فاذا هما ينظران معا الى صليب من الخشب قد لصق العمود واذا عليه فروة بن عمرو امير سيناء ومعان وفيلارك فلسطين !

لقد قالت لكريستيا ساعة القت بصيحتها الجافلة الى سمع الليل هلم ايها المصور التعس فانظر الى فنك الشاحب !

وجعل كريستيا ينظر الى الصليب في ذهلة والم ورعب ثم اخذ يتمتم :

— بلى هو ذا في الشاحب وهذه هي الصورة التي صورتها في غيران سلع ولما اتممها فاتمها هراقليوس ! ..

واعتكرت غياطل الليل ومزنت السماء وتلاحق مطرها وقرس البرد الافق واستفاض ماء السيل كأن الروع قد لبس الطبيعة فملأ نفسها بالصرير والزفير وتتابع الالم والرعب على صدر سافو فنكصت عن الصليب وارتدت الى الاودية وعيناها تنظران الى المصلوب فما تنزل في واد حتى يمد في واد اخر وكريستيا يصيح هذا هو فني ! فيا له فنا قبس شحوبه من ليالي حياتي وقبور سلع الى هذا كله تزحم عينيه عند كل رابية وفي كل منحدر وتلحق به كأن على كل قبر منها صورة لذلك المصلوب الشهيد ! كأن صوت تساقط المطر وقسطلة الماء في المسيل وزئير الريح العاتية على الصخور كأن هذه الاصوات كلها اصوات هؤلاء النيام من قدماء سلع

بلى هذا هو فنك الشاحب ايها الشاعر وهذا هو حصادك من خيالك العبقري تمنيته صورة ورجوته ذكرى ورضيته حلما فاتسق لك في الليل الجاهم على خشبة الصليب !

الفصل الخامس والثلاثون

غناء الاموات

لما اوشك الخيال ان يغيب وراء الصخور وقفت سافو على قبر واخذت تهذي
، لم تمله المعركة فلبث قائماً على جواده ينظر الى محارمه ومناسكه مخافة ان ينزل بها
العدو المجتاح ثم رفعت صوتها وخاطبت فروة ويخيل الي ان بنفسك حنينا الى الدعة
فغض من لجام فرسك وطأمنه وارجع الى منزلك وغن اغانيك في الحب !

ولكن صوتها الشجي لم يتسرب الى سمعه فلبث الفارس الغطريف قائماً على
فرسه حيال قوس النصر ،فاستخذت لتعاستها واستأنفت سيرها حتى اخذتها اصوات
شجية فتلفتت فاذا على يمينها فلج من الصخر فنظرت اليه على بريق الكواكب ورأت
على اديمه جرحى لخم وجذام فهمت ان تفر وتنأى عن المكان الراعب فعثرت قدمها
بحجر وسقطت على الارض بجوار هؤلاء الذين يتضاغون من الم الجراح ولم يكن
في ميسور كريستيا الذي اضواه السهد والمرض واليأس ان يبسط اليها يداً فجعل
ينظر بعينين غاشيتين الى الجرحى ويتسمع لاناتهم ويستعرض في وهمه تفاصيل
معركة لم يشهد مآسيها وخيال فروة يطفو على حسه وشعوره وتلك الصورة التي
تصورها تتراءى له في كل ثنية وعند كل هضبة وانه لكذلك اذا هؤلاء الجرحى
الذين امتلأ بهم فلج سلع يصيحون في الم : الماء الماء ! واذا سافو التي تلقتها الارض
بين ذراعيها تهتز وتتمايل ثم تقف على قدميها وتنظر الى الجرحى فيشجيها ان يعطش
جنود كانوا الى الامس يذبون عن وكرها ويدافعون عن امنهـــا ويريقون الدم
الذكي ارضاء لبعلها الغطريف

وتلفتت التعسة الى الفلج فاذا السيل ينحدر من صدوعه وشقوقه فاقبلت اليه

وملأت كفيها بالماء وانثنت الى الجريح الاول فبللت شفتيه ففتح عينيه حتى اذا رف خيالها في نظراته هدأ وسكن وانطلق الى دنيا لا تشبه هذه الدنيا التي تمور بالحياة والاضواء

وتعود سافو الى المسيل فتغرف من مائه وتأتي الى ناحية اخرى جثم عندها جريح جديد فتصب الماء في جوفه وتنحني عليه وترى الى جراحه وتتأمل في وجهه وفي جبينه وتناديه بصوتها الرقيق العذب لعلها تستثير الحياة في نفسه ولعله يتحدث اليها عن زوجها وعن المعركة فلا تهزه كلماتها العذاب بل يموت وعيناه تنظران اليها وقد حدث ان اراقت سافو الماء على فم جريح فتحركت الحياة في جسده الراكد ونظر اليها نظرة مستطيلة فعرفها وعرفته فصاح : مولاتي فصاحت : رباه اهذا انت؟ وكان هذا الجريح حنظلة قائد حرس فروة فعرفته سافو من نظراته ومن خصلة من الشعر الابيض كانت تضيء ابدا في فرقه ، وكانت تبجل فيه الرجل الماتع والفارس النبيل والصديق الطيب فزرفت الى ناحيته وفي القلب الخافق الملتاع شعور المرأة التي لقيت من وجدها برحا بارحا ، وشعور الزوجة التي لم يقدر لها ان تنيم زوجها المحتضر على صدر يزخر بصورته وصوته وحركته ثم راحت جاثية حياله واخذت يده في رفق وحب وورع وقالت له :

امن الممكن ياسيدي ان تموت سلع ويموت فروة ويبقى شبح الظالم في دنيا الناس، ولما ذكرت سلع وذكرت فروة اخضل الحزن في نفسها واورق فجعلت تنشج ويدها تدغدغ جبين حنظلة الجريح

لقد قالت له ارأيت اليه وهو على الصليب ! قل لي ناشدتك الله كيف تلقى الفارس السري هذا الموت الذي لا يستحقه وكيف جرؤ قيصر على ترويعه وتعذيبه ولماذا لم ينهض من رجال فروة رجـــل واحد فيقتل قيصر وبيده ؟ وفيم هذه الجبال الشم لم تتزلزل وعلى م لايزال النبات يضحك في الوادي واي فتنة تبعث القمر في هذه الليلة على ان يضيء . . . .

وبدا لها وجه حنظله قاسيا شاحبا فندته بالماء فتحرك الجريح وفتح عينيه كرة اخرى ورأى الى سافو والى الغيوم التي تلبس وجهها الخالب ثم رأى الى كريستيا الذي جلس على العشب مصليا داعيا فذكرته سافو واذكره كريستيا ليالي سلع فقال للمرأة العانية بصوت خفيض

« لقد قتل فروة من رجال الرومان كثيرا ، وابأسهم كثيرا ، وردهم عن سلع كثيرا ، ولكن قيصر ما كان ليستخذي ، فكلما باد جيش من جيوشه قذف الى الحومة بجيش جديد وشرع في القتال بحمية وبأس وعطش الى النصر ، كأنه لم يقاتل في الايام المواضي ، وكأنه لم يتعب ولم يمل ، وكنت اراه يتفيأ الرايات فما يغممه ان يسقط قواده بجواره ولا يهمه ان يغلو نشيد سلع على نشيده ، بل لقد كان يزجي الصفوف الى المعركة فتمضي الى البحث عن الموت ، لا يثنيها عن مقاصدها جثم الموت عند سرة الوادي ، أم كان جاثما على القلل الرفيعه

ثالت أيام وأيام على المعركة ، وسلع لا تستطيع ان تقبر هذا الجيش الضخم في رواسيها ولا تقوى على ردة الى مصادره حتى هدها طول الحصار ، وحتى فرغ زادها ، وقل سلاحها ، وتضبت حماستها وخفت ذلك النشيد الذي كانت تغنيـــه فما ينسل من صدر عشعش الجوع في نواحيه

وفي غداة فارسة الحس الجذاميون الذين كانوا يقاتلون حول الملعب الروماني عجزا عن المناصبة فجاءوا الى فروة فطلعوا عليه بوجوههم فاذا هي قد تغضنت وذبلت وارته ايديهم فاذا هي خلاء من كل سلاح وقالوا له ليس في سلع سلاح نحمله . ولا طعام نأكله فقد تحطمت سيوفنا وتكسرت نصالنا ودك العدو حياطنا واسوارنا ، وقوض خيامنا ، واستولى على خيولنا وابلنا ، وقتل شيوخنا وشباننا وعرس في الاودية والجبال وفجر نيرانه على الروابي والتلال فماذا تريدنا ان نصنع وقد دافعنا دفاعا لم تعرفه سلع في تاريخها الماضي نعم ماذا تريدنا ان نصنع ؛ انسلم وفي التسليم غضاضة لسلع أم نمضي فنحارب حتى نموت فتطوينا رواميس الوطن

ونكتب في الدفاع عن حرية هذه الارض تاريخـا جديدا نضيفه الى تاريخهـــا المــاضي

لقد اشجى الزعيم الغطريف حديثهم عن الجوع وعن الخوف وعن اليأس فجعل يعدهم واحدا بعد واحد فاذا هم لا يزيدون على مائة فتزلبنفسه ذلك الشعور الحزين الذي نزل بنفوسهم ولـكنـه ما كان يستطيع ان يأذن لهم في التسليم فانه كان يعلم ثوابهم عند قيصر فيما لو خرجوا اليه في غير سلاح وان اقلما يثيبهم قيصر به هو ان يلقي بهم الى دهاليز السجون او يرمي بهم الى النار ! .. فخيرلهم ان يموتوا كراما تحت عيون سلع من ان يموتوا كما يموت اللصوص !

وكان جميلا ورائعا فاثرت كلماته في نفوسهم وحينما قال لهم ان رجاله قد قتلوا جميعا وانه يعيش اليوم في القصر مع حنظلة وعشرين من بني ابيه ادركتهم رقة له فصاحوا صيحة رجل واحد : انا معك ولن نفارقك حتى يموت اخر رجل منا ، فاقبل عليهم يصافحهم جميعا ويعانقهم جميعا وتلفت الي فاخذني في ذراعيه وقال لي ان شعوره يدله على ان الموت يوشك ان يرحمه ولـكنه لا يبالي ان يموت زلني لرسالة يتيم ولد في بطحاء مكة وفي سبيل حرية قومه ، فانه مطمئن الى قدرة الوطن على الثـأر بدمه ودم اولئك الذين طوتهم اودية سلع وحزون مؤتة ، ولـكنه شديد الخوف على مصير امرأته وهو لا يعلم من امرها اكثر من انها فزعت الى دير سلع بجوار جبل حور ، ومعها اخوها ولما ذكر الموت وذكر سافر انحى ناحية الافق حيث تراءت له في السحب الجونا، قمم جبل حور وانثنى قائلا بصوت شبيه بالهمس :

ايهـــا النسر يامن يسمونه القبر ، انك لتحطم الزجاج البلور وتدمر الاصلاد والحجارة فلا تذر بناء قائما ، لا الحب ولا المرأة ، انك لتخلق العالم ثم تحسده وتغار منه ثم تميته وتجعل من اجسادنا خزف اقداحك المترعة

صفحا يا الهي ، كدت اكفر بنعمك السوابغ فلقد نكرتك انت الذي وافيت موسى عند فم سيناء واسمعته كلمك . واخصبت نفس عيسى في ايلياء وحبوته رسالتك

وظللت محمدا في حراء وارقت عليه نورك ، اصفح عني واستبق لي هذه الزهرة فاني غرستها في جنة قلبي وسقيتها دمعي واحب ان يفعم روحي عرفها الطيب ، استمع الي انت يادعاء الملاح في الخضم الثائر ، وصلاة النبي في المهد الغائر ، واغرودة اشاعر في الليل البادر . . .

وهكذا ذكر فروة سافو ، بلى لقد ذكرك ودعا لك وسأل الله ان يستبقي عطرك ولما اغسى الليل ونامت سلع على القتلى والجرحى والقبور لم ينم فروة ولا رفاقه بل لبثوا جميعـــا يرصدون الطرق حتى سمعوا قعقعة السلاح ورأوا على اضواء الكواكب جيوش قيصر وقد سارت في فرع الوادي في طريق يدفع الى الملعب الروماني فتأهب فروة للدقارعة وخرج برجاله من القصر فنصحت له ان يدبر عن سلع وقلت له ان طريق الدير خلاء من الجند ، في ميسوره ان يرقى جبـــل حور ويلحق بالصحراء عند سفوح وادي العربة وهكذا ينجو بنفسه وبسافو فابى واذكرني نبوة رواها له شيوخ من جذام حضروا مولده وقصاراهـــا انه يموت موتة الملوك الغطاريف على صخور سلع ولكنه اوصاني بسافو وما زلت ذاكرا حديثه عنها فلقد قال لي انك تستطيع لحاقا بالمثنى بن حارثة في صحارى العراق فخذ سافو معك اليه واسهر عليها وانتقم لي من قاتلي ! ... ولم يزد على ذلك حرفا بل خرج الى لقاء العدو الضخم ومعه البقية الباقية من فتيان سلع وكنت عن كثب منه حينما شرع الرومان في الزحف الى الملعب . فرأيته شديد البر بذكرى هذا النبي الذي اطلعته صحراء العرب وكان اسمه انشودته الرقيقة في الليلة العابسة

وكان المشهد رهيبا وشجيا حينما اختلطت الصفوف بالصفوف ، وقاتل المائة في سبيل زعيمهم بحماسة الاوائل من شيوخ لخم وجذام ، وانها لمعجزة ان يقاتل هؤلاء بســلاح العدو ، وان يردوا سيوله العـــارمة عن سلالم الملعب الروماني وفروة في اعلى الملعب يغنيهم اناشيد المنتصرين في يثرب ويذكر اسم النبي اليتيم وكنت لا ازال بجواره امنــع عنه عادية هذا الجيش الضخم واسأله

ان يشق الطريق الى الدير قبل ان يصعد الرومان على جثث رفاقهم الى صومعة وقبل ان يستطيل عليه جيش استطال في ماضيات ايامه على كسرى ملك الملوك فلا ان يفر وآثر ان يموت بين اصحابه وفي تلك الفينة خرق رجال قيصر السلالم واحاطوا بالبقية الباقية من احراس سلع ورشقوا صدور رجالها بحرابهم ونبالهم فسقط الابطال المغاوير على السلالم ورماني قائد روماني بحربة فسقطت على الارض بجانب القتلى والجرحى ولكني عذت بحماستي ورباطة جأشي فلم انبس ولم اتحرك مخافة ان يفطن العدو الى امري فتأخذني سيوفه ونصاله

وقد اخافني كثيرا صوت قيصر الهادر وصياحه بالذين يقاتلون معه حذار ان يهلك فروة فاني لاارید ان يموت موتة البطل السكمي فاحمست صيحاته هؤلاء الذين حملوا الى العالم قسوة الرومان وبغضهم فتدفقوا كالآتي الى ناحية فروة فجعل يردهم ويثخن فيهم . وقيصر لا يطيق ان يثخن البطل الفرد في كماته وحماته واقسم لك اني رأيت هراقليوس يطفر من مكانه في سفح الملعب الى اعاليه فلا يغمه ان يطأ الجثث ولا يخيفه ان تتساقط في سمعه انات الذين آذتهم الجراح وما زال متدفقا ومندفعا حتى شهده احراسه وجنوده فتباروا في مقارعة فروة . واحاطوا به من كل ناحية فلم يجد التعس وقد قتل كثيرين منهم معدى عن القاء سلاحه فشد رجال قيصر وثاقه وجاءوا به الى سيدهم فنظر اليه طويلا وسأل قواده ان يذهبوا به الى قوس النصر الى ذلك المكان الذي ظل طوال العصور رمزا لا يغال القياصرة في تنكيد شعوب هذه الدنيا وترويعها واذن لفريق من جيشه في تحريق سلع ففعلوا وذكت النار في كل ناحية فما ينجو من الحريق طلل مهجور ولا منزل معمور وابواق هراقليوس تصرخ في الفضاء المعتكر صريخا تنبو عنه الاذن ويمله القلب

لم تمنعني جراحي بعد جلاء هراقليوس عن الملعب من اللحاق بقوس النصر ، فسرت في طريق ملتوية تحامى قيصر ان يمضي فيها ، ودمي يسيل على لباسي وعلى قدمي ، وفجاج سلع تطوى لي حتى احتوتني الصخور الحمراء بجوار معبد

ابزيس فاذا قوس النصر يبين لي واذا الرومـــان وقيصر معهم يحيطون بفروة ،
فوقفت انظر من بعيد الى هــــذا المشهد بقلب يميد وعين تسح واني لكذلك
اذا صوت هراقـــليوس يصل صليل الجرس واذاهو يهين البطل الذي شـــرفت
شجاعته، ومروءته صخور الوطن وجباله وصحراواته ، فيقابل فروة هذه الاهـانة
بشممه وكبره ويرد على هراقليوس بهتافه لمحمد يتيم قريش ، ويأبى الا ان يموت
كما مات اولئك الذين ارتهم حزون مؤتة ونجودها وقد ترقرق اسم اليتيم في سماء
سلع كأنه الانشودة البارعة فحملها النسيم الى رمال جزيرة العرب ليسمعها اولئك
الذين تبايعوا على الموت او تظفر ايديهم باسلاب الرومان والفرس معا

واني لا قسم لك ان فروة حينما صعد على الصليب تحت قوس النصـــر كان
ينظر الى يثرب والى سلع ليرى في امد واحد الى النبوة المنتصرة والى سلع
المنكسرة ، ثم رأيته يبتسم ويضحك كأن ذلك الانتصار الرائع الذي ادركته نبوة
اليتيم قد لطف في نفسه مرارة الانكسار وكأنه كان ينظر الى الدنيا جميعا فيرى
اليها وقد تفيأت اعلام محمد فليس في نواحيهـــا اثر لروماني ولا لفارسي

واستقبل آلام الصلب ومناكده في صبر البطل العبقري فلم يســـأل قاتليه
الصفح ولا الرحمة ، بل لقد اغمض عينيه على الصورة البارعة، صورة ذلك اليتيم
الذي اختاره الله لتهذيب هذه الدنيا التي افسدها الرومان والفرس ! وهكذا ختم
فروة حياته وبدأ الله حياة هذا الشعب الضخم الذي ضاقت به صحارى العرب فتطلع
من قرية صغيرة الى العراق والشام !

ولما جلا الرومان عن سلع ، خرجت من عزلتي وراء الصخر ؛ واتيت المصلوب
على صليبه فرفع لي طيفه كأنه سحابة من النور فجثته ونظرت اليه فاذا عينـــاه
تضيئان واذا هما تنظران الى الدير والى قمم جبل حور ! .. وعند هذا الصليب
المضرج بالدم اقسمت انا حنظلة الجـــذامي لاثأرن بدم القتيل وانفذن وصاته!
وعدت الى سلع لاجمع اسلاب فروة واذهب بها الى العراق فنزف جرحي ،

وبرح بي ألم شديد فرميت بنفسي في هذا الجرف الذي امتلأ بجثث القتلى والجرحى وانتظرت ان يوافيني الموت فالحق بسيدي ومولاي فخر جذام وشرف العرب وأمير شهداء الحرية في الشام ! . .

مرت بي ليلتان في هذا المكان النائي ، ليلتان ما انا بقادر على وصف آلامهما واحلامهما. فلقد تعاورني فيهما الضنى واليأس والظمأ والجوع وشعـور عنيف بالخيبة ولـكن الله لم يشأ ان يضيع بطولة سلع وتاريخ نضالها المجيد فدرأ عني غاشية الموت وبعث بك الي لاذهب معك في الغد الى فارس العرب جميعا المثنى بن حارثة الشيباني فانه الرجل الذي انتصر على كسـرى وسيليه الى النصر اسم محمد يتيم قريش ! فهل تذهبين معي اليه فصاحت سافو : نعم نعم ! ثم انحنت على الجريح واخذته بين ذراعيها ، فنهض نهوض النسر وجعل ينظر الى سماء سلع ثم الى اوديتها الكأباء حتى اذا تملى من مدينة المقابر تلفت الى سافو وقال لها :

— ينبغي لك ان تتجلدي ياسيدتي فليس يدنيك من امانيك غير ليائك بالصبر

فتذكرت سافو في لحظات قلائل حياة ابيها موريس ثم ذكرت حياة زوجها وموته ، فثارت كبرياؤها واحست انها لاتزال ابنة ذلك الذي كان قيصر الرومان وانها الى ذلك زوج فروة امير سيناء وفلسطين الثالثة ورأت ان ارثها من ابيها ومن زوجها يريدها على الثأر بدمائهما المطلولة ، فلقدمات ابوها قتـلا واغتصب هراقليوس ملكه الطويل العريض ومات زوجها مصلوبا ووطيء هراقليوس ارضه واباد خضراءه وصحراءه وليس يحمل بها وهراقليوس ينعم بملك ابيهـا ، ويزدهي بقتل زوجها ان تغفل عن الثأر وتصم اذنها عن نداء الدم وارتهم الارض من الاحبة والرفاق وبين هؤلاء الاحبة والرفاق اب كان في ميسوره لو لم يقتل ان يملأ حياتها دعة وسكونا ولم برح بها الحزن واليأس فماتت وهي تناشدكريستيا ان يستبقي عنفوانا تسلل اليه من ابيه وزوج جمع الى شبابه النضر حمية هذا الشعب الذي ولد جديدا في صحارى العرب !

ولما مشت الى يمين حنظلة وانحت به ناحية الطريق المؤدية الى الصحراء لم تجد كريستيا على يسارها فذعرت وصاحت صيحة اليمه كريستيا . كريستيا اين انت ؟

ثم تراجعت الى الوراء ، وتراجع حنظلة معها فاذا هما يريان الى كريستيا في طريق الدير وقد ركب غوارب الصخور وبدا لرائيه كأنه الشبح ! فجمعت يديها الى صدرها وطفقت تصلي في همس وضراعة ثم نادت كريستيا نداء مؤثراً فلم يجب فاغمى عليها بين ذراعي حنظلة .



الفصل السادس والثلاثون

آدم وحواء

صل الجرس في بيعة اريحا الدانية ، فهز صليله الماتع نفس بنيامينا وامالها الى الدعاء، والصلاة في ذلك الجوسق الخشبي الذي فرغ ابوها من بنائه قبل ايام على شاطىء الاردن عند مصبه ، ثم اتكأت على حافة الدرابزين في طنف الجوسق الصغير وجعلت تنظر الى ابيها وهو مكب على جمع الازهـار ، والعصافير تغني على الادواح في مرح وغبطة .ثم تطفر هذه الطيور من خلال الورق وتجتمع عند قدمي بنيامينـا فتنظر هذه الى اجنحتها الصغيرة وقد رفت عليها الالوان الحمراء والخضراء ، فتمنع فمها من الهمس ، وتلبث ساكنة صامتة ، مخافة ان تبدر منها حركة تجفل منهـا هذه الاطيار فتتفرق وتطير ، وتتفرق معها ذكريات بنيامينا الماضية وتطير حتى لايعود في مرجوها ان تجمعها ، وقد كانت الاشياء والصور والازهار والمياه في هذا اليوم المصحي الرائق مصدر امنها ، ومنبع سعـادتها ، فغنت وارتفع غناؤها الى حواشي الافق وراح يختلط بغناء الطير ، وابوها يتهافت على الشجر فيشذبه وينسقه ثم ينديه بالماء ؛ ولا يمنعه عمله في الحقل أن يصغي الى غناء ابنته ثم الى غناء الطير ،ولا يصرفه انخذاؤه عن الزهر عن البكاء.

لقد مات الماضي في صدر بنيامينا ، فما تذكر منه احزان ابيها ،ولا احزان قلبها ولا احزان الذين احبتهم ، وذلك هو شأنها منذ تلقتها هـذه الارض في ذراعيها ومنذ اضمحلت في نفسها ذكريات بيت المقدس ، ومنذ صدفت عن الناس وصمت اذنيها عن الاصغاء لاحاديثهم عن مناكر القيصرية ، حتى ليجوز القول انهــا ملت كريستيا الشـــاعر ، واجتوته . فما يمر طيفه بخواطرها ، ومنشأ هذا العزاء

الذي تحسه ايمانها بالله ، وارتياحها الى عدله ، واطمئنانها الى انه يثيب الماحلين والمتاعبن ، وسكونها الى نصيبها من ثوابه . وقد جعل ايمانها بالله يوحي اليها ان في ميسور المرء ان يعيش هانئا في وحدة شاملة ، وان العالم لايموت دنقا اذا لم تحرقه نارالحب وهذه المراعي الخضراء لاتستحيل الى قفر اذا لم ترقها وتنديها اشعار كريستيا .

لم يطل وقوفها على الطنف فندت عنه ودلفت الى الغاب ، واخترقت في طريقها اليه اجمة صغيرة من الزهر والعشب تلق الى واد ظليل وقف نفتالي على حافته وجعل يجمع الازهار ، ويزيح الجذوع البالية فلما رأته في لباس اهل القرى ضحكت واقبلت عليه وعيناها تنظران الى اعماق الوادي فبصر بها فحياها فقالت له :

ــ كأنك تجمع هذه الازهار لتزين بها فرق عروس ، فضحك وقال لها نعم واني ليلذني ان تضحك هذه الازهار على جبينك وما احب ان تضحك على جبين اخر

ثم يجفو نفتالي مكانه على حافة الوادي ، ويأتي الى ناحيتها فيتلاقيان ويتعانقان ويتحدثان عن الحاضر ولا يذكران شيئا من الماضي ، ولكنهما يتحدثان في رقــة وحب عن ذلك الفارس النبيغ الذي وهب لهما هذه الدنيا المخضوضرة ، وهـذا النهر السلسل . وهذه السماء المصحية وهذه الغابة التي خلعا عليها اسم عمرو بن معدي كرب . وذلكم هو اسم الفارس الذي منعهما من ظلم قيصر

ثم يعودان معا الى الجوسق فتحنو بهما ارضه ويظلهما سقفه ويتحدث نفتـالي اليها عن التعب الذي تطرقه يوم تهافت على بناء الجوسق فتضع رأسها على كتفه وتقول له في حب وبر ودعة :

ــ ان ايمانك بالله يا ابي صقل نفسك وحسك ، وابتعثك على امراع هذه الدنيا القاحلة بالماء والزهر قال نعم ولكن لاينبغي لك ان تنسي ذلك الاسم العذب الذي ردده الفارس العربي بجوار صخرة يعقوب في ايلياء ، لقد كنت حياله حينما قص على رجاله معجزات اليتيم الذي ولد في مكة واقسم ان اسم اليتيم كان يمـلأ

نفسي بالعرف الطيب وبالامل فلما وعيته وحفظته وجئت هذه الارض الغطشاء عدت الى نفسي فاذا ذلك الاسم يمر بنواحيها فرددته تخرج على شفتي كما يخرج النغم انه ليمر بهذه الدمن ويطفو عليها فتخضل وتضحك :

ــ أهذه الدنيا كلها لنا يا ابي

ــ نعم يا بنية وفي ميسورك ان تسرحي الطرف انى شئت ، بل في مرجوك ان تذهبي الى حيث تريدين فيظلك الظل الساجي ويسكر نفسك شذا الزهر ويهز شعورك تسجيع الماء ولكن حذار ان تتجاوزي الغاب فلئن فعلت طلعت عليك الصحارى واخذتك قيعان وادي العربة وجروفه وليس في هذه القيعان وتلك الجروف مايروق !

ــ اتخاف علي اللصوص يا ابي

ــ لا يابنيه ، ولكني اخاف عليك هــــذه الارواح الجائمة عند صخوره وحجارته ، فلقد نبئت ان الاموات صاروا يطوفون بنجود الوادي وحزونه ، وانهم يرقصون في صروده وفجواته ، ويطلون على مسالكه ومعابره ؛ ويملئون هضباته بالهزيم والصرير ؛ وماحسبك تزهدين في دنيـــاك هذه وتطرحين حشك والسرحة الغبياء والظـــل واشعة الشمس والماء النمير الملحقي بوادي العربة الراعب !

وجعل يقص عليها نبأ تلك الحرب التي ذكى هراقليوس نارها في صعيد مؤتة قبل اسابيع ، ويصف في بلاغة ونباهة شجــاعة الذين ردوا بصدورهم خيول الرومان ، ثم احتضنتهم الارض وهم يهتفون لوطن نشأ جديداً ، واقصى امانيه من ايغاله في عرض هذه التهاويل ان يثنيها عن التفكير في الخروج الى الطرق التي تدفع الى سلع وهو يعلم ان بسلع ذلك الشـــاعر الذي علقت به ؛ نعم لقد تغاضت بنيامينا عن ذكراه فلم يسمعهـــا نفتالي تتحدث عنه . لا في كثير ولا في يسير ، ولكن هذا الاب الشفيق الرقيق كان يخاف ان يستفيق الماضي في صدرها على حين

غرة ، وكان يخشى ان يضطرم احساسها فتستفيق عواطفها ومشاعرها ، ثم تخرج الى البراري والى الطرق لتسأل الغادي والرائح عن كريستيا !

لقد قال لها ان جثث القتلى تملأ شواطيء البحر الميت ؛ وان الطريق الى وادي العربة يزدحم بالاموات ، فجعلت تنظر اليه في رقة وحزن ، ولكنهـا لم تسأله مزيداً ، لانها كانت تعلم ما يريد ولانها كانت تعرف ولعه بها وحرصه على البقاء بجوارها ولانها صارت تحب ان تمضي ما تبقى من عمرها عن كثب منه ، فلا تفارقه حتى يغمض عينيه بيدها او تغمض عينها بيده ، وذلك امثل من ان تتبع هذه العواصف التي تاتي بكريستيا وبامانيه في كل مطرح ! وافضل من ان تختم حياتها في القفر السحيق تحت صرير الشمال العاتية .

قال نفتالي لابنته الا تدرين يا بنية انني تعلمت من رجال القوافل صلاة الناس في يثرب ؟ فقالت له اليست هي صلاة ذلك اليتيم الذي ولد في مكة ياابي ؟ قال نعم وسترين الي مصليا وداعيا ؛ ثم ركض في خفة البرق الى شاطيء النهر فتوضأ وانقلب الى بنيامينا وصلى كما يصلي الناس في جزيرة العرب ورفع صوته بالدعاء ولم ينس فارس العراق في دعائه وما يستطيع نفتالي ان ينسى عمرا وقد وهب له عمرو الحياة وهذه الدنيا التي تمور بالماء والظلال .

ولما فرغ من صـلاته دلف الى ابنته في رفق وهوادة وقال لها ينبغي ان تودعي نفتالي الى الابد فرعشت ونظرت اليه وقالت له - وكيف ؟ اتفارقني انت يا ابي ، فضحك وقال لها كلا لست مفارقك يا بنية ولـكني آليت اطراح هذا الاسم الكريه الذي حمله الي ابي وامي ، فحملني العار والذل والالم والنفي في وسعك ان تناديني باسمي الجديد ، وهو اسم قبسته من رجال القوافل

— مااسمك الجديد ياابي ؟

— علقمة يا بنية ! لماذا اكفهر وجهك ؟ فهل لم يعجبك هـذا الاسم الدال على الالم ؟

— ولكن اسم نفتالي يدل على الفرح ياابي ، ثم هو يفيض رقة وعذوبة ، انه كالموسيقى البارعة تطوف الحانها بالنفس فتميدها من سكر ولذاذة !

— نعم ، ولكن الحياة لاتقبس زهوها وامراعها من موسيقى السعداء ، وانما هي تقبس زهوها من موسيقى التعساء ! واني لاجد في هذا الاسم الذي اصطنعته جديداً نغما افاض على حياتي شجوه وحزنه ، فاولى لك ان تناديني به ! .

وراح يضمها الى صدره ، فنظرت اليه فاذا هو قد تشاجى ورق ، واذا بنيامينا تسأله في ضراعة وبث ان يختار لها اسماً جديداً ، لانها كرهت اسما اراده لها وهي طفلة في المهد ، فدعاها جويرية فلذت هذا الاسم ورأت فيه بداية حياة جديدة املت الا يتخللها الم وحزن ، ثم صارحها بعزمه على الخروج الى اريحا رجاة ان يبيع الملح الذي جمعه من شواطيء البحر الميت ، وناشدها الله ان تلبث في هذا المغنى الظليل فلا تفارقه حتى يفيء اليها عند غروب الشمس

ولما انحى ناحية اريحا ووارته مقاصير الطرق عن منفاه الاريض ارتدت جويرية الى ذلك الطنف الخشبي الغارق في الرياحين ، فوقفت على الطنف وجعلت تنظر الى الاردن والى الحور الباسق على ضفافه ، كأنها كانت تجد عزاء في هذه المشاهد البارعة ، وكأن غناء الطيور وحومانها على غوارب الشجر ، وفرارها بعد حقبة قصيرة الى الشاطيء المورق ، ورقصها على الماء كأن هذا كله كان يهزها الى تذكر حياتها الماضية في خمائل طبريا فاحست وهي بعيدة عن افق بيت صيدا وتلال مجدله انها صارت تستطيع ان تخلو الى الماضي وترى الى صورته وتتحدث اليه على الرغم من زهدها في هذا الماضي الذي كانت تدفع صورته عن عينيها قبل اسابيع !

وكان ابوها قد ابتعد عن شواطيء الاردن ؛ فخيل اليها ان في ميسورها ان تمضي الى الغابه المجاورة فتتخللها وتطوف باشجارهـــا وتقف عن كثب من ازهارها ، وتنشق عبير هذه الازهار وترجع الى مغناها قبل اطلال المساء ولا

تقص على ابيها نبا طوافها بالغابة خشية ان تثير بلابله وشجونه . ولما خرجت الى الغابة واوغلت فيها ووطئت النعناع والعرار والنرجس زحمتها اعراف القرنفل ففتحت رئتيها وتنشقت الهواء رطبا جنيا ومثلها وهي تنظر الى الوان القرنفل انها في الجنة التي وعد الله بها المتقين . فاستراحت الى الايغال فيها ونسيت نصح ابيها الشفيق الحادب وراحت تغني كأنما قد اشجاها صدح الطائر وتغريده فاحبت ان تساوقه في مرحه . وكلمـــا جازت خميلة من هذه الخمائل الريا عرضت لها خميلة اخرى ، واظلتها بواسق الصفصاف والحور وغناها الاردن عن يمينها ويسارهـا وضحك لها وخفق . وللمرة الاولى خالجها شعور بالندم ، فادركت انها فرطت في الاصغاء الى ابيها الدميع ، فقد كان ينبغي لها الا تطارح نصحه فلا تجفو هذه الجنان الخضر ولا تجنب عينيها هذه الالوان التي يريقها الصباح والمساء على الاشجار والاثمار والازهار !

وجعلت تزيح الاغصان وقد تدلت على رأسها في فروع طويلة وهي تهمس « لماذا جنبني ابي هذه الارض الزهراء ، فهل خشي ان تأ كل حـــواء من شجرة التفـــاح ، فيحصد العالم من عصيـــان حـــواء الجديدة ، حصـــاده من حـــواء القديمـــة !

واخذت تطفر الى الشجر الباسق تعريه من ثمره وورقه ، وتضع الثمر في فمها لاهية عابثة ، واغاني الطير تملأ الارض الفضاء ، وعطر الخزامى والنعناع يطفو في نواحي السماء وما زال كذلك شأنها تتنقل من سحر الى سحر حتى خيل اليهـا انها تشبه حواء ، ولـــكن آدم لم يكن معها ليقاسمها هذا الثمر الشهي ويبادلهـا سحر هذا اليوم البهي وبغتة زحمها شبح آدم فنظرت اليه فاذا هو ماثل في العشب النـامي المونق ، وفي زرقة السماء ! وكان آدم الذي تصورته في الغابة كريستيا الشاعر ، فتمهلت في سيرها وراحت رانية الى اقصى الغاب رجاة ان يبين لهـا خيال آدم فتسرع اليه وتتلقاه في ذراعيها وتقول له « هلم الى هذه الجنان فانها احب

الى الحب من جنان بزنطية .

ولم تستطع وقد توهمت اطلال كريستيا عليها من خلال الورق والازهار ، ان تجحد الماضي فوثقت ببعثه ورأته ضاحكا في الظل ، وفي العشب ، وفي الشاطيء ، فلحقت به وهي تصيح كريستيا ! كريستيا اين انت ؟ ولماذا لا تسمع جويريه اغانيك العذاب ؟ ولما خرج اسم جويرية على فمها اكفهر جبينها وشعرت بانها قد اساءت الى ذكريات حياتها في سكونها الى هذا الاسم الذي لا يرتبط بحادثات ايامها فنفرت منه ، واطرحته في الغابة واردفت هامسة ، لا لا ، لا تصدق ما زعم الزاعم ، فاني ما نكرت ماضي ، ولا اطرحت اسم بنيامينا ، انه الاسم الذي تسلل الى اذني طفلة في المهد ، وانه الاسم الذي سيتسلل الى اذني يوم اغيب في اللحد ، وانه الاسم الذي ندى اشعارك بالظلال والافياء

وطفقت تمعن في الركض حتى طوت الغاب وحتى نأت عنها حدور الاردن وشطآنه الوارفة وطلعت عليها الارض البراح عند الكثيب الذي يفصل بين الاردن ووادي العربة .

وجعلت تهمس لماذا لا يأتي كريستيا الى هذه الاماكن ؟ ولماذا لا يقضي بعض لياليه عند مصب الاردن فيترعها بالذكريات ، وقد اترع هذه الليالي عند منبع الاردن بالذكريات ، هنا الطبيعة تعيش وحدها فلا تخالط الانسان الذي يخيفها ظله ويروعها طيفه ، ويشتد بها الخيال حتى ينسيها محل الطريق ، وترى في وهمها كريستيا دالفا اليها من جروف الوادي ، فلا يكاد يوغل في الطريق حتى تزهر الارض العارية تحت قدميه وحتى ينبثق العطر من نفسه ولهاثه

ويتساقط المساء في رفق ودعة ويغشى الغاب والمسارب البعيدة وشواطيء ذلك البحر اللعين فيخيل اليها انها تسمع موسيقى بعيدة ، ولكنها موسيقى هادئة وشجية ، ثم يخيل اليها ان القمر قد ضوأ الجروف والشجر والينابيع وان السماء امتلأت بالفرح والنعيم ، كأن هنالك زائراً تتاهب الطبيعة للقياه وكأن الطبيعة قد نذرت ان تحمل اليه ازهارها ورياحينها ، ذلك الزائر هو كريستيا الذي تحبه

ولا تزال تلك الموسيقى التي تخيلتها تصب لحونها البارعة في كل جارحة من جوارحها وازهار الطبيعة ورياحينها تهتز وتمايل وتريق عرفها الطيب، والاوراد تنفتح ويخرج منها طيف كريستيا معطرا حتى يرققها الوهم ويشجيها الحلم فتنظر كرة اخرى الى طريق العربة وتبسط ذراعيها الى ذلك المغترب النازح الذي تنتظر رجعاه

وعلى هذه الصورة امضت بنيامينا في هذه البقعة الموحشة بعض النهار وبعض المساء في التأمل والغرق فما تدري مدى احلامها، وما تحصي الساعات التي طوتها ولا تعلم كيف كانت تفكر وتتأمل، ولم تفطن الى الفرح الذي ساورها ولا الى الدموع التي كانت تطفر من عينيها، وكل ماوعته خواطرها انها كانت تقوم وتقعد، ثم لاتأنس الى القيام والقعود، فتطوف عينيها في البعيد والقريب في الاشياء التي تراها وفي الاشياء التي لاتراها، وهي الى ذلك لاتبالي ان تغور الشمس، وان يندي جبينها ندى المساء كأن هذا اليوم الذي امضته عند جروف العربة احفل ايام حياتها بالذكر الهائمة!

ولكن هذه الموسيقى التي سربت الى روحها لم تلبث طويلا، فلقد اماتها في نفسها محل هذا الارض وجدبها فادركت انها كانت تحلم وانه لاينبغي ان تطيل مكثها في الدمن العافية!

فنفرت منها وجعلت تفكر في الرجوع الى ذلك المغنى الظليل الذي عمره ابوها ولكنها لم تجرؤ على الرجوع، وخيل اليها ان صوتا يناديها من اعماق الجروف، فاستخذت لجرسه وزرفت الى ناحية الكثيب فلما صعدت فيه القت نظرا حائرا على الاماكن والاشياء التي تحيط بها فاذا امامها فضاء مديد، واذا تلك الارض الغائرة تتراءى لها من جبل حرمون العظيم الى البحر الميت، واذا الاردن يشق المخاض راغياً طاغيا واذا ذلك الصوت الذي استمعت الى جرسه في خواطرها القلقة يهدر في نفسها فصدفت عن هذه المشاهد وانحت ناحية وادي العربة، كأن

ذلك الصوت الذي تلقاه وهمها قد القت به حزون وادي العربة ونجوده الى سمعها وحسها فلما عرضت لهـــا الطرق المؤدية الى الوادي الراعب ادركت ما اراده ابوها من حملها على البقاء في الجوسق ، فما كان ينبغي لفتاة مثلها ان تلقي بحظوظها الى اودية وجروف يعافها الناس ولا يطمئن اليها غير كواســر الطير وضواري الوحوش وانها لكذلك اذ رفع لها خيال من بعيد فتعاورها ذعر هادم ، واحست وهنا في نفسها ورجفانا في جسدها ، بل لقد احست بنيامينا ان قدميها لاتستقران على الكثيب ، فاي خيال هذا الذي القت به جروف الوادي ، ولماذا هو يمعن في الركض الى ناحية الكثيب ، وفيم هو يصيح صيحة الحيوان الجريح ؟ أكان ذلك الصوت الذي سرب الى وهمهـــا وخيل اليها انه يناديها صدى تلك الصيحة الجافـــلة !

لقد روعها اطلال هذا الخيـال ، فتغايرت المشاهدوالاشياء في سمعها وبصرها وحسها ، وما عاد يشوقها ان تبين لها ثلوج حرمون ، ولا شواطيء البحر الميت ولا ظلال الاردن ، واضمحلت في صدرهـــا تلك الذكريات العذبة التي مرت بخواطرها في هذا الصباح الذى استمعت فيه الى غناء الطير في الجوسق وفي الغاب واستيقنت ان الله غير راض عنها لانها عصت اباها ؛ ولانها اكلت من ثمر الغابة ولانها استجاشت ماضيها النائم فرد اليها مضرجاً بالوحل والدم !

ولما ازمعت ان تجفو مكانها وتلحق بالاردن ، زحمها ذلك الخيال على السفح وروعها صوته الهادر ، فاغمضت عينيها خشية ان ترى الى وجهه الباسر ؛ ورفعت يديها الراعشتين الى صوبه كأنها تحاول ان تثنيه عن الصدور اليها وفمهـــا يقذف الكلام غامضا مبهما ،

وما زال كذلك شأنها حتى رأت الخيال دالفا اليها فادركت انها صائرة الى موت حقيق : وشعرت بقرب النهاية البشعة التي تنتهي اليها حظوظهـــا ومصـــايرها .

لقد قالت له وهو يسرع الخطى اليها ، ويلك اي قاتل انت ؟ فلم يسمع نداءها ولم يفطن الى ذعرها بل ظل دائبا في زحفه اليها حتى اوشك ان يصاقبها ، فنظرت اليه فاذا اللباس الذي عليه قد نصل وتمزق واذا الدم يغسل جبينه ووجهه واذا عيناه في حمرة الدم الطليل واذا اليأس الهـــادم يطل من هاتين العينين السادرتين الغاشيتين ، واذا هو يلهث لهاثا مضنيا كأنما هو قد جاز الفراسخ ، وسلخ الاميال ليصل الى هذا الكثيب ، رأت هذا كله وروعها هذا الذي رأت فسقطت على الارض وراحت غاشية ، فانحنى الطيف عليها واسمعها صليل نفسه واخذ يتحدث اليها بصوت لا عنف فيه ولا غلظة ، سافو ! سافو !

نعم لقد اخذ الطيف يناديها باسم سافو ، فلا تعي صوته ولا تشم ريحه ، ولا تسمع لهاثه فلقد غيبها الروع في دنيا من الرؤى الجاهمة فدأب ذلك الخيال الذي رمت به حزون وادي العربة في مخاطبتها « كأنك نكرت صورتي يااخية ؟ حتى اخافك حزني ويأسي ! ثم اخذ يدها في رفق فاذا هي باردة كالصقيع فتفجر حزنه وخيل اليه ان الحياة قد همدت في صدر هذه المرأة التي خلع عليها اسم سافو ! فوثب كالمجنون واطل بقامته المديدة على الارض الفضاء التي عند الكثيب فاذا هو يرى وادي العربة قد فغر فمه وحسر عن صدوعه وفلوجه واذا خيال ذلك المصلوب الذي تراءى له عند قوس النصر في سلع لايزال يلاحقه ويطارده فرفع يديه الى الفضـــاء كأنه يريد ان يجنب عينه النظر الى المصلوب الشهيد ؛ ثم سقط على الارض بجوار بنيامينا وهو يصيح ! انه فني انه فني !

انقلب نفتالي الى منفاه وهو اشد مايكون فرحا ، وكيف لايفرح نفتالي وقد اطلت عليه سرحة الدار ، واستمع لخرير الماء ورأى بعينيه حومان الفراشة على ذوائب الشجر ، بل كيف لايفرح نفتالي ، وقد رد جديدا في الناس ، واثابه الله على آلامه بهذه الدنيا المقدسة التي عاش فيها النبيون والرسل ،

ولما خفق الباب ونادى بنيامينا لم يجبه غير الصدى فرعش واقبل الى ناحية

الطنف لعله يرى ابنته في ذلك المكان الذي تركها عنده ساعة خرج الى اريحا ، فاذا الطنف كأنه القفرة العارية فرفع صوته نزلة اخرى عسى بنيامينا ان تسمعه فضاع صوته في الفضاء فغمه ان يضيع ؛ ثم تسلق الجدار ووثب الى الشرفة وسرب الى حجرة بنيامينا فاذا سريرها الخشبي لايميده ولا يهزه تقلب جسد الساحرة الحالمة فحزن وابتأس ودار في خلده ان ابنته قد تبرمت بالعزلة وانها تركت الدار الى شواطيء البحر الميت فلحق بها وازجاه حظه العاثر الى الوقوف على ذلك الساحل الذي لم ير في ماضيه الطويل العريض الى زوارق الصيادين ولا الى سفن الملاحين فردد طرفه في فضائه الساكن فاذا الملح عند شاطئه يضيء ويبرق كما يضيء الثلج ويبرق ، فلما امتدت نظراته الى مائه الراكد اخذته سمومه وسوائله وروعه ان بهذه السموم والسوائل صورة الموت الوشيك ؛ وكان يعلم ان الاسماك لاتعيش في هذه البحر وكان يعلم ان الطيور لاتجرؤ على التحليق في سمائه فاعرض عن شواطئه مخافة ان تقذف لججه بصور الهالكين من اهل سادوم وعموره !

وذكر وهو مدبر عن الساحل الراعب ولع بنيامينا بالغابة الفيحاء التي تجاور الاردن ؛ وكيف نهاها عن الايغال فيها مخافة ان تضيع ، وخشية ان تطويها اغوار وادي العربة عند طرف الغابة مما يلي تخوم البتراء، نعم لقد ذكر ولع بنيامينا بالشجر الوارف وذكر حنينها الى ماضيها هذا الماضي الذي هجر خلواته ومقاصيره عند شاطيء طبريا ليعيش في مناسك سلع فوق القلل والقمم !

ولما احتواه الغاب واظله شجره لم يدع ناحية من نواحيه الا قذف اليها بصوته فسرب هذا الصوت الى الفضاء البعيد وفي رناته المؤلمة اسم بنيامينا ! ثم اذا هو بعد طوفة جاهدة عند طرف الغابة بجوار ذلك الكثيب الراعب ! فلم يستطع ان يجنب نفسه الذعر ، فلقد رأى الى ابنته في تلك القفرة الكدراء ، تنظر الى رقيع السماء ثم تنظر الى الارض ، ثم هي تتحفز للفرار ، كأن هذه الاشياء الت

كانت تنظر اليها قد القت الى عينيها وسمعها بالاشباح والصور ، فناداهامن بعيد

— بنيامينا ، بنيامينا

فتساقط صوته في صدرها فعرفته فتلفتت اليه وانثنت صائحة

— ابي ! ابي !

وكانت قد نهضت من عثرتها قبل لحظات واكبت على الجسد الهامد فعرفت صاحبه وقرأت في شحوب جبينه ، وفي ذبول وجهه قصة حياتها وكتاب آلامها فشجيت وغامت عيناها ، وراحت تصب صوتها في اذني كريستيا ؛ لعل لحون هذا الصوت تهزه الى الحياة فيراها ويأنس اليها في المكان النائي فانها لكذلك اذا صوت ابيها يعصف بقلبها واحساسها واذا هي تناديه ، ثم لاتطيل مكثها حيال الجسد الذي وقفت عنده ، وتسرع الى ابيها فيتلقاها في ذراعيه فتنام على صدره وتقول له

— لو ابصرته لنكرته عيناك يا ابي ! فصاح نفتالي

— من هو ؟ فقالت ! كنت على رأس الكثيب انظر الى الشمس الغائرة وارقب مقاصير الطرق فاذا هذا الذي احدثك عنه يطفر الى ناحيتي من بعيد . كأنما قد حسرت عنه هذه الاودية الكأباء فلما صار مصاقبي نظرت اليه ورأيت ثوبه الممزق وشعره المنسدر وعينيه الزائغتين وسمعت صوته الهادر . فروعني تعسه ويأسه وغمني ان بعينيه اثراً من سهد . وان على وجهه فرق الرجل السروب وكنت احسبني وقد اشتملت على هذه الدمن كأني حواء قذف الله بها من جديد الى الارض البراح ، فوددت لو يطالع آدم علي ، فاحدثه ويحدثني ونملأ هذه القفرة النابية بعرف الحياة فترق وتحس فاذا آدم الذي انشق خياله من حروف العربة لايشبه الرجل الذي تصورته !

— من هذا الذي روعك اطلاله !

انك لتعرفه ! وقد رأيته في عشية من عشيات الصيف

ــ ما اسمه ؟ واين عرفته ؟ ومتى طالعني خياله ؟

ــ لقد اسمعك موسيقاه فتصباك صوته

اتحلمين يا بنية ؟

ــ لا والله ، ماانا حالمة ، وانما رأيت ما رأيته انت يوم وارتك الظلال الخضر في شاطئ طبريا

تذكر يا ابي تذكر ، عد الى ماضيك وفتش في جوانبه عن ايامــك ولياليك ، فلقد تعش بين ودائــك الغالية ، على الذكر البارعة ، وتأنس الى ذلك العهد الذي وقفت فيه حيال المقعد الحجري وراء بواسق الشجر ، في احدى هاته العشيات اخذ المغني البارع يغني اطيب لحونه ، وجعل يقص على الزهر الندي والسماء المصحية والشاطئ الوارف قصة حبه ، فيعي الشجر قصة هذا الحب الطفل وتهتز اوراقه كأنما قد هز الورق وامـــاله عرف نفسي ونفسه . اعرفته يا ابي !

ــ من هو ؟

ــ لقد كان بين ذراعي في تـــلك العشية ، فأخذنا نتكلم عن الحب وعن الطبيعة ، وكان ذلك المنفي الذي رمت به ضفاف البحر الميت يدلف الى صوبه وقد ازمع ان يشد بيديه المحمومتين على عنقه فيميت في صدره ذلك النغم الساحر ! فلما لألأ القمر واستفاض نوره ورأى المنفي صورة ذلك الفتى روعه ان يفكر في قتله فانفلت لا يلوي على احد ، ووارته الغابة الفيحاء ! اعرفته يا ابي

فصاح نفتالي . بلى لقد عرفته . اليس هو كريستيا ! فاين هذا الفتى الذي روعني فتونه ، فاومضت بنيامينا بيدها الى الجسد الهامد . وقالت لابيها

ــ انظر وقل لي ماذا رأيت ؟

فاكب نفتالي على جسد كريستيا فاخافه ركوده وجموده . فقـــال انه مائت ، فقـــالت لا ، انه لم يمت . ولكن هذه الطرق التي خلفها وراءه ، قد القت اليه بالصور والاشباح . فجثم الرعب على صدره واطل من عينيه ! ناشدتك الله ياابي

ان تحمله الى الجوسق فلقد يهدهد الظل الماء وشجوه فيستفيق ويرد الي شعوره وحسه !

لم يشأ نفتالي ان يصدف عن توسلات بنيامينا ، فحمل كريستيا على كتفه ومضى به الى مثواه عند شاطئ الاردن ، وبنيامينا تبكي احر بكاء . ولما القى جسد كريستيا الى السرير جلس بجواره وجعل يريق الماء على وجهه فاهتز وعشت الحياة في جسده وفتح عينيه ، وخيل الى بنيامينا انه سيتكلم ، ولكن كريستيا لم يتكلم ، ولم يسمعها صوته ، بل اخذ ينظر الى صورة للمسيح معلقة على الجدار ، ثم اغرق في الضحك ، وكذلك اغرق في البكاء ، ثم جعل يردد ماقالته سافو عند الصليب الذي عليه فروة . فصاح نفتالي

— انه لمجنون !

فرسمت التعسة علامة الصليب على صدرها وطأطأت رأسها واخذت تصلي بجوار السرير .

تم الجزء الثاني

مصادر الجزء الثاني من عمر بن الخطاب

الكتب العربية

طبقات ابن سعد

السيرة النبوية لابن هشام

الطبري

ابن الاثير

الاغاني

تاريخ الدولة الغسانية في الشام — للمؤلف تحت الطبع

الكتب الاجنبية

نصارى العرب في الشام والعراق حوالي القرن السابع	لفرانسو ناوو
التاريخ العام	لرامبو ولافيس
فتح العرب لمصر	لجورج بتلر
فتح العرب للشام	لدي جوج
تاريخ العرب	لكوسين دي برسفال
تاريخ العرب	لسديو
العرب في سورية قبل الاسلام	لرينه ديسو
بزنطية	لشارل ديل
بطرا والانباط	لكامرر
امراء غسان	لنولدكى
تاريخ العرب	لكليمان هيار
تاريخ فارس القديمة	لكليمان هيار